موسوعة
عباس محمود العقاد
الإسلامية



حقائق الإسلام

وأباطيل خصومه

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم أنور السادات

سكرتير عام المؤتمر الاسلامي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد .

أما بعد ، فقد طال التصدى للأديان ، بقصد النيل منها ، وبغير قصد، واستمرأ الكثيرون التخفف من أحكامها ، بدعوى يدعونها وبغير دعوى. وهان على بعض الهيئات أن تشكك فيما فرغ منه العلم . وحار بين هؤلاء وهؤلاء كثيرون ، حتى أصبح أمر الدين شكا وتظنينا . وهذه ظاهرة من شأنها أن تشغل بال المؤتمر الاسلامى ، وتبلغ من عنايته واهتمامه مبلغا بعيـــدا .

حدث هذا بدعوى حرية الفكر ، وحرية البحث . وما درى هؤلاء جميعا أن حرية الفكر والنظر تتطلب غزارة معرفة ، واتساع أفق ، وعمق بحث ، وسلامة منطق ، ونصوع حجة ، وايمان قلب ، وانصاف رأى ، واستقامة مذهب ، وتنزها عن الهوى .

ولما كان محل اتفاق أن الأستاذ عباس محمود العقاد موفور النصيب من هذا كله ، كان طبيعيا أن يتجه التفكير اليه ، وكان طبيعيا أن يرتاح هو

الى هذا الاتجاه ، لما أخذ نفسه به من مؤازرة الحق وتأييده ، ومقاومة الباطل وتفنيده .

وهاهو ذا كتابه « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » يخرجه المؤتمر الاسلامى لكل معنى بالثقافة ، راغب فى تمييز الحق من الباطل ، راج أن يقف على أصول الاسلام ومبادئه ، ليحقق به المؤتمر غرضا من أغراضه ، هو نشر الثقافة الدينية خالصة مما يشوبها من شبهات ، ويعلق بها من ريب.

هذا ، والنية أن يترجم الكتاب الى اللغة الانجليزية ، واللغات الأسيوية ، ليعم نفعه ، وليكون له الأثر المرجو .

والله سبحانه هو المستعان ، وهو ولينا ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل ›› .

تحريرا فى ٢٥ مارس سنة ١٩٥٧ .

أنور السادات

السكرتير العام للمؤتمر الاسلامى

فاتحة

بسم الله ، وعلى هدى من الايمان بالله .

وبعد فهذا كتاب عن فضائل الاسلام وأباطيل خصومه يتقاضانا التمهيد له أن نقدم بين يديه بكلمة موجزة عن فضل الدين كله أو فضل العقيدة الدينية فى أساسها .

اذ لا محل للكلام على فضل دين من الأديان ما لم يكن أمر الدين كله حقيقة مقررة أو ضرورة واضحة ، ولا معنى كذلك لأن نقصر الخطاب على المؤمنين المصدقين ولا نشمل به المتشككين والمترددين ، بل المنكرين والمعطلين . لأن المتشكك والمعطل أولى بتوجيه هذا الخطاب من المؤمن المصدق ، ولا فضل لدين على دين ما لم يكن للدين كله فضل مطلوب تتفاوت فيه العقائد كما يتفاوت فيه من يعتقدون ومن لايعتقدون .

هل للدين حقيقة قائمة ؟

هل للدين ضرورة لازمة ؟

سؤالان متشابهان ، بل سؤال واحد فى صورتين مختلفتين ، ولسنا نزعم أن الصفحات القليلة التى نقدم بها هذا الكتاب كافية للاجابة عن هذا السؤال الذى يجاب عنه كل يوم بما يتسع بعد الجواب الواحد لألف جواب . ولكننا نزعم أن هذه الكلمة الموجزة كافية لموضعها المقدور من هذا الكتاب . لأنها تكفى لهذا الموضع اذا تركت شكوك المترددين والمنكرين مضعوفة الأثر منقوضة الأساس ، وتكفى لموضعها اذا تركت

من يشك ويتردد وقد أحس الوهن فى بواعث شكه وأسباب تردده ، وبحث عن جانب الحقيقة فيها فلم يجده ، أو بحث عنها فوجدها فى الجانب الآخر أقرب الى العقل والبداهة وأجدر بالاتجاه فى وجهتها الى نهاية المطاف .

ونحن فى بداءة الطريق نحب أن نصحب القارىء على بصيرة من الباب الذى نستفتح به طريق البحوث فى هذا الكتاب ، بل نستفتح به الطريق فى كل بحث تشعبت حوله المسالك واضطربت عنده الآراء . وبابنا هذا قبل كل طريق من تلك الطرق أن نسأل : اذا كان هذا الأمر غير حسن فما هو الحسن ؟ ثم هذا الذى نستحسنه كيف يكون ؟ وأى الأمرين اذن هو الأقرب الى العقل أو الأيسر فى التصور ؟ فأن كان ما نستحسنه هو الأقرب الى عقولنا والأيسر عندنا فى الامكان فقد حق لنا أن نفضله وننكر ما عداه ، وان عرفنا بعد المقابلة بينهما أن الذى ننكره أقرب الى العقل والامكان من الذى نستحسنه — فقد وجبت علينا مراجعة التفكير ووجب فى رأينا ، قبل رأى غيرنا ، أن نصطنع الاناة ونتردد فى الجزم والتفضيل .

* * *

ونبدأ الآن من البداءة فى هذه الفاتحة فنقول أن أكبر الشبهات التى تعترض عقول المتشككين والمنكرين شبهتان : هما شبهة الشر فى العالم وشبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية . وخلاصة شبهة الشر أنهم لا يستطيعون التوفيق بين وجود الشر فى العالم وبين الايمان بآله قدير كامل فى جميع الصفات . وخلاصة شبهة الخرافة فى كثير من العقائد الدينية أنهم لا يستطيعون التوفيق بين العقائد وبين المحسوسات والمعقولات التى تتكشف عنها معارف البشر كلما تقدموا فى معارج الرقى والادراك .

شبهة الشر

أما شبهة الشر فهى من أقدم الشبهات التى واجهت عقل الأنسان منذ عرف التفرقة بين الخير والشر وعرف أنهما صفتان لا يتصف بهما كائن واحد . وربما كان تفريق الانسان الهمجى بين شعائر السحر وبين شعائر العبادة مقدمة الحلول الكثيرة التى عالج الانسان البدائى أن يحل بها هده المشكلة العصية . ثم ترقى الانسان فى معارج الحضارة والادراك فاهتدى الى حل آخر أوفى من هذا الحل الساذج وأقرب الى المعقول ، وذاك حيث آمن بالآهين أثنين وسمى أحدهما بآله النور وسمى الآخر بآله الظلام وجعل النور عنوانا لجميع الخيرات والظلام عنوانا لجميع الشرور .

الا أن هذا الحل على ارتقائه ووفائه بالقياس الى الحلول البدائية فى عقائد القبائل الهمجية لن يرضى عقول المؤمنين بالتوحيد ولن يحل لهم مشكلة الشر فى الوجود ، ولن يزال فى عرفهم حتى اليوم ضربا من الكفر يشبه جحود الجاحدين وتعطيل المعطلين .

ولعلنا لم نطلع على حل لهذه المشكلة العصية أوفى من الحل الذى نطلق عليه اسم حل الوهم ، ومن الحل الذى نطلق عليه إسم حل التكافل بين أجزاء الوجود .

وخلاصة حل الوهم أن القائلين به يعتقدون أن الشر وهم لا نصيب له من الحقيقة وأنه عرض زائل يتبعه الخير الدائم . ومن الواضح أن هذا الحل لا يفض الاشكال ولا يغنى عن التماس الحلول الأخرى التى تريح

ضمير المعتقد به فضلا عن المعترضين عليه . اذ لا نزاع فى تفضيل اللذة الموهومة على الألم الموهوم ... ولا يزال الاعتراض على الألم لغير ضرورة قائما فى العقول ما دام فى الامكان أن تحل لذاتنا الموهومة محل آلامنا الموهومة .

وخلاصة الحل الذى نطلق عليه اسم حل التكافل بين أجزاء الوجود أن المعتقدين به يرون أن الشر لايناقض الخير فى جوهره ولكنه جزء متمم له أو شرط لازم لتحقيقه . فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها . وقد يطرد هذا القول فى لذاتنا المحسوسة : يضطرد فى فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية . اذ نحن لانعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع ، ولا نستمتع بالرى ما لم نشعر قبله بلهفة الظمأ ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح .

وهذا الحل — حل التكافل بين أجزاء الوجود — أوفى وأقرب الى الاقناع من جميع الحلول التى عولجت بها هذه المشكلة على أيدى الحكماء أو على أيدى فقهاء الأديان ، ولكنها لاتغنى الحائر المتردد عن سؤال لابد له من جواب وهو : لماذا كان هذا التكافل لزاما فى طبيعة الوجود ؟ ولماذا يتوقف الشعور باللذة على الشعور بالألم أو يتوقف تقدير قيمة الفضيلة على وجود النقيصة وضرورة الاشمئزاز منها ؟ .. أليس الله بقادر على كل شىء ؟ أليس من الأشياء التى يقدر عليها أن يتساوى لديه خلق اللذة وخلق الألم ؟ أليس خلق اللذة أولى برحمة الآله الرحيم من خلق الألم كيف كان وكيف كان موقعه من التكافل بينه وبين اللذات ؟

* * *

وعندنا أن المشكلة كلها بعد جميع ما عرضناه من حلولها انما هى مشكلة الشعور الانسانى وليست فى صميمها بالمشكلة العقلية ولا بالمشكلة الكونية .

وهنا نعود الى الباب الذى نستفتح به مسالك هـذه المشكلات ونسأل أنفسنا : اذا كان الاله الذى توجد النقائص والآلام فى خلقه الها لايبلغ مرتبة الكمال المطلق فكيف يكون الاله الذى يبلغ هذه المرتبة فى تصورنا وما ترتضيه عقولنا ؟

أيكون الها قديرا ثم لا يخلق عالما من العوالم على حالة من الحالات؟ أيكون الها قديرا يخلق عالما يماثله فى جميع صفات الكمال .

هذا وذاك فرضان مستحيلان أو بعيدان عن المعقول ، كل منهما أصعب فهما وأعسر تصورا من عالمنا الذى ننكر فيه النقائص والآلام .

فأما الاله القـدير الذى لا يخلق شـيئا فهو نقيضـة من نقائض اللفظ لا تستقيم فى التعبير بله استقامتها فى التفكير ، فلا معنى للقدرة ما لم يكن معناها الاقتدار على عمل من الأعمال .

وأما الكمال المطلق الذى يخلق كمالا مطلقا مثله فهو نقيضة أخرى من نقائض اللفظ لا تستقيم كذلك فى التعبير بله استقامتها فى التفكير . فان الكمال المطلق صفة منفردة لا تقبل الحدود ولا أول لها ولا آخر . وليس فيها محل لما هو كامل وما هو أكمل منه . ومن البديهى أن يكون الخالق أكمل من المخلوق وألا يكون كلاهما متساويين فى جميع الصفات. وألا يخلو المخلوق من نقص يتنزه عنه الخالق . فأتفاقهما فى الكمال المطلق مستحيل يمتنع على التصور ولا يحل تصوره مشكلة من المشكلات . وأى نقص فى العالم المخلوق فهو حقيق أن يتسع لهذا الشر الذى نشكوه

وأن يقترن بالألم الذى يفرضه الحرمان على المحرومين ، وبخاصة اذا نظرنا الى الأجزاء المتفرقة التى لابد أن يكون كل جزء منها قاصرا عن جميع الأجزاء ، وأن يكون كل شيء منها مخالفا لما عداه من الأشياء .

فوجود الشر فى العالم لا يناقض صفة الكمال الالهى ولا صفة القدرة الالهية . بل هو ولا ريب أقرب الى التصور من تلك الفروض التى يتخيلها المنكرون والمترددون ولا يذهبون معها خطوة فى طريق الفهم وراء الخيال المبهم العقيم .

وقد يختلف مدلول القدرة الالهية ومدلول النعمة الالهيـــة بعض الاختلاف فى هذا الاعتبار . فمدلول القدرة الالهية يستلزم — كما تقدم — خلق هذا العالم الموجود ، ولكن مدلول النعمة الالهية يسمح لبعض المتشائمين أن يحسبوا أن ترك المخلوقات فى ساحة العدم أرحم بها من اخراجها الى ساحة الوجود ، ما دام الألم فيه قضاء محتوما على جميع المخلوقات . ومهما يكن من شيوع التشاؤم بين طائفة من المفكرين فليس تفسير النعمة الالهية بترك المخلوقات فى ساحة العدم تفسيرا أقرب الى المعقول من تفسير هذه النعمة الالهية بأنعام الله على مخلوقاته بنصيب من الوجود يبلغون به مبلغهم من الكمال المستطاع لكل مخلوق .

وليس الشر اذن مشكلة كونية ولا مشكلة عقلية اذا أردنا بالمشكلة أنها شيء متناقض عصى على الفهم والادراك ، ولكنه فى حقيقته مشكلة الهوى الانسانى الذى يرفض الألم ويتمنى أن يكون شعوره بالسرور غالبا على طبائع الأمور .

واذا كانت فى هذا الوجود حكمته التى تطابق كل حالة من حالاته

فلا بد من حكمة فيه تطابق طبيعة ذلك الشعور ، ولا نعلم من حكمة تطابق طبيعة ذلك الشعور غير الدين ...

* * *

ان الشعور الانسانى فى هذه المشكلة الجلى يتطلب الدين . فهل ثمة مانع يمنعه من قبل العقل أو من قبل المعرفة التى يكسبها من تقدمه فى العلم والحضارة ؟ هنا يستطرد بنا الكلام على مشكلة الشر الى الكلام على مشكلة الدين أو مشكلة التدين فى جملته . وخلاصتها كما قدمنا عند المترددين والمعطلين أن الأديان قد اختلطت قديما بكثير من الخرافات وأن العقل يتعسر عليه أحيانا أن يوفق بين عقائد الدين وحقائق المعرفة العلميـــة .

شبهة الخرافة

وهنا نعود مرة أخرى الى سؤالنا الذى افتتحنا به هذه الكلمة فنسأل المترددين والمعطلين : اذا كان التدين على هذه الحالة التى وجد بها غير حسن فى تقديركم فكيف يكون الحسن ؟ وكيف تتصورونه ممكنا على نحو أقرب الى العقل وأيسر فى الامكان ؟ .

وكأننا بهم يقترحون دينا لا يركن اليه الا النخبة المختارة من كبار العقول الذين لا تتسرب الخرافة الى مداركهم فى عصر من العصور ، كائنا ما كان موقع ذلك العقل من درجات التقدم والحضارة .

هذا ، أو يقترحون دينا يتساوى فيه كبار العقول وصغارهم تساويا آليا لا عمل فيه لاجتهاد الروح وتربية الضمير واستفادة المستفيد من كفاح الحوادث وتجارب الحياة .

هذا ، أو يقترحون دينا يتبدل فى كل فترة تبدلا آليا كلما تبدلت معارف الأمم فى مختلف الأزمنة أو مختلف البلدان .

ومهما نسترسل فى تصور المقترحات التى تخطر للمترددين والمعطلين فلا نخال أننا منتهون الى مقترح يرونه ويراه غيرهم أقرب الى التصور وأيسر من الدين فى تاريخه المعهود . فان اطوار التدين كما نشأت من أقدم عصورها الى اليوم لا تزال أقرب الى المعقول من كل مقترح ذكروه أو ذكرناه على ألسنتهم بين هذه الفروض .

فالنخبة المختارة من كبار العقول لاتحتاج الى تعاليم الدين كما تحتاج اليه طوائف البشر من الجهلاء أو صغار العقول . وقد يتنزه أبناء النخبة المختارة عن الخرافة فى آونة محدودة ولكنهم لن يتنزهوا عنها فى كل آونة مع التسليم بتطور العلم وتطور الادراك الذى يستفيد من جملة العلوم .

أما أن يتساوى الناس تساويا آليا فى كشف حقائق الكون من أول عهد البشر بالتدين الى آخر عهدهم المقدور لهم من الحياة الأرضية — فانما هو نكسة بهم الى حالة لا فرق بينها وبين أحوال الجماد أو أحوال الآلات التى لا عمل فيها لاجتهاد الروح ولا لتربية الضمير .

وأما أن تتبدل العقائد فى كل لحظة تتغير فيها مدركات العلوم ومدركات المعرفة على العموم فتلك حالة نحاول أن نتصورها فى أطوار الجماعات فلا نرى أنها قابلة للتصور فى جماعة واحدة تعيش من أسلاف الى أخلاف مئات السنين ، أو ألوف السنين ، اللهم الا اذا تصورنا عقول هذه الجماعة وضمائرهم فى صورة الصفحات التى تنقلب صفحة بعد صفحة حين تعرض على قرائها وهم يريدون تقليبها أو لا يريدون .

كل هذه الصور يقترحها من يشاء ولا يكلف نفسه أن يتمادى مع صورة منها فى التخيل أو يعالج تطبيقها فى الواقع اذا استطاع ... وما هو بمستطيع .

ونكاد نقول عن نشأة التدين بين جماعات البشر كما نشأ فى عالم الواقع أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان ، لولا أننا نرى أن الزمان المتطاول قد يمكن فيه اليوم ما لم يكن ممكنا بالأمس وقد يمكن فيه غدا ما ليس بممكن فى يومنا هذا ، ولا فى الأيام التى سلفت . وقد يمكن فيه عند قوم فى العصر الواحد ما يتعذر على آخرين فى العصر نفسه ... الا أننا ندين بقول القائلين : « أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان » اذا نظرنا الى تطور الدين نظرة تحيط بأطواره كلها فى جميع الأزمنة وبين جميع الأقـوام .

وينبغى أن نذكر أن التعبير الرمزى والعقيدة الأيمانية لازمتان من لوازم الشعور الدينى لا تنفصلان عنه ولا يتأتى لنا أن نفهم ظواهره وخوافيه ما لم نكن على استعداد لتفسيرهذا التعبير وقبول ذلك الايمان .

ولسنا نقبل التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية ترخصا مع الدين وحده برخصة لا نلتمسها مع سائر المدركات الحسية أو النفسية ، لأننا نعلم أن التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية لازمتان من لوازم تكوين الانسان فى مدركات حسه ومدركات نفسه على اختلاف الأساليب ومعارض الادراك .

فأى ادراك للانسان أصدق عنده من ادراك العيان ؟ وما هى حقيقة هذا الادراك ان لم يكن فى صميمه تعبيرا رمزيا نضع له من الأسماء ما ليس بينه وبين الواقع مطابقة غير مطابقة الرمز للحقيقة التى ترمز اليها ؟ فنحن نسمى الألوان بأسمائها ثم نرجع الى حقائقها فلا نعلم لها حقيقة فى

الواقع الا أنها ذبذبات كما يقال في أمواج الأثير ، ولا نعلم للأثير من حقيقة في الواقع غير أنه كما يقال فرض نقول به لأننا لا نريد أن نقول بفرض العدم أو بفرض الفضاء والخلاء .

ومن أمثلة العقيدة الايمانية التى نلمسها فى كل حى أو نلمسها فى كل مولود . ان الآباء والأمهات يحبون ذريتهم ولا يقبلون بديلا منها ، ولو كان البديل خيرا من تلك الذرية وأجمل منظرا وأفضل مخبرا وأدعى الى الغبطة والرجاء . ولا بقاء لأنواع الأحياء اذا قامت الأبوة على عاطفة غير هذه العقيدة الايمانية التى يرتبط بها قوام الحياة . ولا يختلف اثنان فى وصف هذا الحنان الأبوى بالمغالاة اذا أردنا أن نجرد الحياة من صواب العاطفة أو صواب العقيدة ولا ندين فيها بغير صواب العقول .

فاذا وجب علينا أن نقبل التعبير الرمزى والعقيدة الايمانية فى مدركات الدين فنحن لا نترخص مع الدين وحده بهذه الرخصة الشائعة عندنا نحن بنى الانسان فى جميع مدركاتنا ، بل نحن نسوى بين رخصة الدين ورخصة الحس ورخصة العقل فى هذه اللغة الحيوية التى ينطق بها كل حى مع اختلاف الظروف والعبارات .

على أننا لا نبتغى بدعا من العقل اذا ميزنا الدين برخصة لا تساويها رخصة قط فيما تدركه الحواس أو تدركه العقول . لأن مدركات الدين تشمل أصول الوجود وأسرار الخليقة وتتطلع الى بواطن الغيب كما تتطلع الى ما وراء حدود هذا العالم المحدود ، كلما ارتفعت بها أشواقها الى سماء الكمال المطلق : كمال الخالق المبدع لجميع هذه المخلوقات .

فاذا قبلنا من عقولنا وحواسنا أن تقنع بالتعبير الرمزى والعقيدة الايمانية فى ادراك خليقة محدودة من هذه الخلائق التى لا أعداد لها فانه

لمن الشطط أن نسوم العقل ادراكا للحقيقة المطلقة يخلو من الرموز ويتجرد من عنصر الايمان .

* * *

ولنكن واقعيين مع الواقعيين فى كلامنا عن مشكلة الدين . فاننا كنا الى الآن فى هذه الفاتحة عقليين ، نحتكم الى البرهان فى محاسبة الدين ومراجعة الشبهات التى تواجه المترددين والمعطلين ويواجهون بها عقائد الأديان على الأجمال .

فماذا لو أضفنا الى حجة العقل حجة الواقع من تجارب التاريخ وتجارب الحاضر فى شئون الجماعات الانسانية وشئون كل فرد من بنى الانسان على حدة بينه وبين جماعته أو بينه وبين نفسه ؟

ان تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شىء تستطيع الجماعة أن تلغيه ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه فى علاقته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس اليه . ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الانسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل المؤثرة فى حركات الأمم فانما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من اصالة الشعور وبواطن السريرة .

هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العرف ولا قوة الأخلاق ولا قوة الشرائع والقوانين ، اذ كانت هذه القوة انما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه على تعدد الأوطان والأقوام . أما الدين فمرجعه الى العلاقة

بين المرء وبين الوجود بأسره . وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، الى غير نهاية بين آزال لا تحصى فى القدم وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى وغاياتها القصوى وان لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور .

ومن أدلة الواقع على أصالة الدين ، أنك تلمس هذه الاصالة عند المقابلة بين الجماعة المتدينة والجماعة التى لا دين لها أو لا تعتصم من الدين بركن ركين . وكذلك تلمس هـذه الاصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة وفرد معطل الضمير مضطرب الشعور يمضي فى الحياة بغير محور يلوذ به وبغير رجاء يسمو اليه . فهذا الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أصولها ، وقل أن ترى أنسانا معطل الضمير على شيء من القوة والعظمة الا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم اذا حلت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة .

* * *

وبعد ، فنحن نختم هذه الفاتحة كما بدأناها بالتنبيه الى غرضنا من هذه المناقشة الوجيزة لشبهات المترددين والمعطلين على التدين فى أساسه، فنقول فى ختامها كما قلنا فى مستهلها اننا لا نحسب أن مناقشة من المناقشات فى هذا الموضوع الجلل تحسم الخلاف وتختم المطاف . ولكننا نطمع بحق فى الأبانة عن مواطن الضعف من تلك الشبهات ونعلم أنها أضعف من أن تقتلع أصول العقيدة الدينية من الطبيعة الانسانية ، وأنها تتهافت تباعا كلما استحضر الباحث فى خلده شرائط الدين المعقولة التى تلازمه حتما فى رأى المؤمن بدين من الأديان وفى رأى المنكر لجميع الأديان على السواء .

فمن شرائط الدين اللازمة أن تدين به جماعة يمتد أجلها وراء آجال الأفراد وتتعاقب فيها الأجيال حقبة بعد حقبة الى أمد بعيد . فلا يؤخذ على الدين اذن أنه يناسب هذه الأجيال حيث تأخرت كما يناسبها حيث تقدمت على مر الزمان مع تطور العلم والحضارة .

ومن شرائط الدين اللازمة أن تدين به الأمة فى العصر الواحد على تفاوت أبنائها فى المعرفة والسجية والرأى والمشرب . فلا يؤخذ على الدين اذن أن يدخل فيه حساب العالم والجاهل وحساب الرفيع والوضيع وحساب الطيب والخبيث وحساب الذكى النابغ والغبى الخامل .

ومن شرائط الدين اللازمة أن يريح الضمير فيما يجهله الانسان — ولابد أن يجهل — من شئون الغيب وأسرار الكون . لأنها الشئون والأسرار التى لا يحيط بها عقله المحدود ولا تبديها له ظواهر الزمان والمكان . فلا يؤخذ على الدين اذن أن يتولى تقريب هذه الأسرار الأبدية بأسلوب المجاز والتشبيه أو بأسلوب الرمز الذى تدركه العقول البشرية على مقدار حظها من الفطنة والنفاذ الى بواطن الأمور وخفايا الشعور .

ومتى توفرت النفس على تسليم هذه الشرائط اللازمة لكل دين من الأديان فقد وجب على العارفين أن يضطلعوا بالتوفيق بينها وبين مطالب الجماعة ومطالب الزمن ومطالب السريرة فى أعماقها ، حيث تتصل بعالم الغيب وعالم الشهادة صلاتها التى لا تنقطع لمحة عين .

* * *

وظاهر من سياق الكلام عن الدين فى هذه الفاتحة أننا نعنى به التدين على اطلاقه ونريد أن ندل على أصالته فى حياة الفرد وحياة الأمة ، ومتى عرفنا للتدين أصالته فى كلتا الحياتين منذ ألوف السنين — فليس ما يمنع

أن يكون بين الديانات التى آمن بها البشر قديما وحديثا ديانة أفضل من ديانة وعقيدة أقرب من عقيدة الى الكمال .

وانما تفضل الديانة سواها بمقدار شمولها لمطالب الروح وارتقاء عقائدها وشعائرها فى آفاق العقل والضمير ، وكذلك كانت الديانة الاسلامية — كما آمنا بها — ملة لا تفضلها ملة فى شمول حقائقها وخلوص عباداتها وشعائرها من شوائب الملل الغابرة .

وذلك هو موضوع هذا الكتاب فيما يعرضه من حقائق الإسلام وفيما يعرض له من أباطيل المفترين عليه .

ان بعض العقائد ليصيب النفس بما يشبه داء الفصام . لأنه يقسم الشخصية الانسانية على نفسها ويمزق الضمير الحائر بين نوازع الجسد ونوازع الروح وبين سلطان الأرض وسلطان السماء وبين فرائض السعى وفرائض العبادة . وشمول العقيدة الاسلامية هو الذى يعصم ضمير المسلم من هذا الفصام الروحانى وهو الذى يعلمه أن يرفع رأسه حين تدول دولته امام المسيطرين عليه ، وهو الذى يحفظ كيان الأمم الاسلامية أمام الضربات التى تلاحقت عليها من غارات الفاتحين أو غارات الحروب الصليبية أو غارات الاستعمار والتبشير .

وشمول العقيدة الاسلامية هو الذى حقق للاسلام مالم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة الى الايمان به عن طواعية واختيار ، كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين .

ولقد عزى انتشار الاسلام فى صدر الدعوة المحمدية الى قوة السيف ، وما كان للاسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء ، بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت . وان عدد

المسلمين اليوم بين أبناء الهند والصين وأندونيسية والقارة الأفريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع ، وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة — فضلا عن مئات الملايين — من دين الى دين .

ولقد عزى انتشار الاسلام بين السود من أبناء القارة الأفريقية الى سماح الاسلام بتعدد الزوجات ، وما كان تعدد الزوجات بالأمر الميسور لكل من يشتهيه من أولئك السود المقبلين على الدين الاسلامى بغير مجهود . ولكنهم يجدون الخمرة ميسرة لهم حيث أرادوها وقد حرمها الاسلام أشد التحريم ... فلم ينصرف عنه السود لأنه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل أنها كانت شائعة بينهم شيوع الطعام والغذاء .

* * *

انما هو شمول العقيدة الاسلامية دون غيره هو العامل القوى الذى يجمع اليه النفوس ويحفظ لها قوة الايمان ، ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة ، كلما تفتحت أبوابها أمام المدعوين اليها بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين .

* * *

قلنا فى باب العقيدة الشاملة من كتابنا عن الاسلام فى القرن العشرين:

« ويبدر الى الذهن أن الشمول الذى امتازت به العقيدة الاسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولابد لاظهارها من بحث عويص فى قواعد الدين واسرار الكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هى مما يراه الناظر الوثنى او الناظر البدوى لأول وهلة قبل أن يطلع على حقائق الديانة ويتعمق فى الاطلاع .

ومن المحقق ان ادراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتاتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة فى وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات وبخاصة فى شعائرها ومراسمها التى يتلاقى عليها المؤمنون فى بيئاتهم الاجتماعية .

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الاسلامية من مراقبة أحوال المسلم فى معيشته وعبادته ، ويكفى أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيكل والصنم والأيقونة والوثن ليعلم أنه وحدة كاملة فى دينه ويعلم من ثم كل مايرغبه فى ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكرا للكاهن ووقفا على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم مدى الحياة .

لقد ظهر الاسلام فى ابان دولة الكهانة والمراسم وواجه أناسا من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحالة الوثنية فى تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن فى كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة ، ولاح للناس فى القرن السابع للميلاد خاصة أن (المتدين) قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه : فالدين كله فى المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعا قطع متفرقة لا تستقل يوما بقوام الحياة الروحية ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب الى المعبد لتتزود منه شيئا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة .

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والأيقونة ، سواء فى العبادة الوثنية أو فى عبادة أهل الكتاب الى مابعد القرن السابع بأجيال متطاولة .

فلما ظهر المسلم فى تلك الآونة ظهر الشمول فى عقيدته من نظرة واحدة ، ظهر أنه وحدة كاملة فى أمر دينه يصلى حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من الكهان ، وهو مع الله فى كل مكان ،

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليغتنم من أحد بركة أو نعمة يضفيها عليه ولكنه يذهب اليه كما يذهب الألوف من اخوانه . ويشتركون جميعا فى شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة الى الكهانة والكهان . وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للكعبة خداما لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم ان شاء فلا سبيل لأحد منهم عليه .

فاذا توسع قليلا فى العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وان هذه الرسالة ليست من مناسك الدين وأنها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه .

واذا توسع قليلا فى مكان ذلك الرسول من الدين قرأ فى القرآن الكريم :

« قُلْ إنما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحَى إليَّ ... » (سورة الكهف)

وقرأ فيه : «فإنْ أعرضُوا فما أرسلناكَ عليهم حَفيظاً ، إنْ عليكَ إلاَّ البَلاغُ»
(سورة الشورى)

وقرأ فيه : « قُلْ أطيعُوا الله وأطيعُوا الرسولَ فإنْ تَولّوْا فإنما عليهِ ما حُمِّل وعليكُم ما حُمِّلْتُمْ ، وأن تُطيعُوه تَهتَدوا ، وما على الرسولِ إلا البلاغُ المُبينُ » .
(سورة النور)

وقرأ فيه : « وما أنتَ عليهِمْ بِجَبّارٍ » . (سورة ق)

وقرأ فيه : « لستَ عليهمْ بمسيْطِرٍ » . (سورة الغاشية)

وقرأ فيه : « وما أرسلناكَ إلا كافةً للناسِ بَشيراً ونَذيراً » (سورة سبأ)

وقرأ فيه آيات لا تخرج فى وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات .

* * *

مر بنا أن فساد رجال الدين كان من إسباب انصراف اتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجا فى عقيدة المسلمين .

مثل هذا لا يحصل فى أمة اسلامية فسد فيها رجال دينها ... فما من مسلم ينهب الى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك اليك فانني لا أومن به ، لانني لا أومن بك ، ولا أرى فى سيرتك مصدقا لأوامرك ونواهيك أو أوامره ونواهيه .

كلا . ما من رجل دين يبدو للمسلم انه صاحب الدين وأنه حين يؤمن بالله يؤمن به لانه آله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبين الله أو يعطيه من نعمته قواما لروحه .

« . . . والَّذينَ تدعُونَ من دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ . إنْ تَدْعُوهم لا يسمعوا دُعاءَكُم ولو سَمِعُوا ما استَجابُوا لَكُم وَيومَ القيامةِ يكفرُونَ بِشِرْكِكُم ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبيرٍ . يا أيُّها الناسُ أنتمُ الفُقَراءُ إلى اللهِ واللهُ هوَ الغَنِيُّ الحَميدُ»
(سورة فاطر)

نعم كلهم فقراء الى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم الا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فان لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الأرض وتحت السماء .

أن عقيدة المسلم شيء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره ، ومن كان أماما له فى مسجده فلن ترتفع به الامامه مقاما فوق مقام النبى صاحب الرسالة : النبى الذى يبشر وينذر ، ولا يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين .

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاســلام شـانه الذى لا يعرف لأحد حقـا فيه اعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو مكانا يأوى اليه ولا يكون الاسلام فى غيره .

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيـا والآخرة ، أو بين الجســد والروح ، ولا يعانى هذا الفصام الذى يشق على النفس احتماله ويحفزها فى الواقع الى طلب العقيدة ولا يكون هو فى ذاته عقيــدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام .

« وابْتغِ فيما آتاكَ اللهُ الدارَ الآخرةَ ولا تنسَ نصيبَكَ من الدنيا »
(سورة القصص)

وتوكّلْ على اللهِ وكفَى باللهِ وكيلاً . ما جعلَ اللهُ لرجلٍ من قلبيْن فى جوفِهِ »
(سورة الأحزاب)

فاذا كانت العقيدة التى تباعد المسافة بين الروح والجســد تعفينـا من العمل حين يشق علينــا العمل ـ فالعقيدة التي توحـد الانسان وتجعله كلا مستقلا بدنيــاه وآخرته شفاء له من ذلك الفصام الذى لا تستريح اليه السريرة الا حين يضطر الى الهرب من عمل الانسان الكامل فىحياته ، وحافز له الى الخلاص من القهر كلما غلب على أمره ووقع فى قبضـــة سلطان غير سلطان ربه ودينه .

ومن هنا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين ما لله وما لقيصر لأن الأمر فى الاســلام كله لله « بل لله الأمر جميعـــا » .. « ولله المشرق والمغرب » « رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون » .

وانما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التى لا يقبلها المتدينوهو قادر علىتطويع قيصر بأمرالله ... وهذا التطويع هو الذىأوجبته العقيدة الشـــاملة وكان له الفضل فى صمود الأمم الاســــلامية لسطوة الاستعمار وايمانها الراسخ بأنها دولة دائلة وحالة لا بد لها من تحويل .

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنها فى الزواج لصاحبها وتنأى عنه

بروحها وسريرتها ، وأبت على الانسان جملة أن يستريح الى « الفصام الوجدانى » ويحسبه حلا لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام ·

ان هذا الشأن العظيم — شأن العقيدة الشاملة التى تجعل المسلم « وحدة كاملة » — لا يتجلى واضحا قويا كما يتجلى من عمل الفرد فى نشر العقيدة الاسلامية · فقد أسلم عشرات الملايين فى الصحارى الأفريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة منفرد فى خلوته لا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد التى انتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليونا بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الابيض والاحمر ، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين ، أو هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر جاوة وصحارى أفريقية وشواطئها ، الا القليل الذى لا يزيد فى بداءته على عشرات الالوف ·

* * *

وينبغى أن نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق الروح · فأن الاعتراف بحقوق للجسد لا يستلزم انكار الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم التصوف فى اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريات » فى اللغات الغربية Mysticism

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن فى قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ما كانت له حياة ناطقة وما لم تكن له حياة « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » · وأشار الى هذه الأشياء ، بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب اليهم من حبل الوريد وأنه نور السموات والأرض وأنه « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » ·

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل ما يستباح فى عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد فى أهل دين من الأديان طرق للتصوف تبلغ ما بلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا فى العقائد الصوفية · فان انكار الجسد فى البرهمية أو البوذية يخرجها من عداد العقائد الشاملة التى يتقبلها الانسان بجملته غير منقطع عن جسده أو عن دنياه ·

وحسب المرء أن يرضي مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرأ فيه الضمير من داء الفصام .

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان ، وفى حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير الى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التى يتحقق بها الايمان :

« قل إنما أعظكم بواحدة أنْ تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » (سورة سبأ)

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » (سورة البقرة)

وما كان الشمول فى العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد واوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا وضميرا بغير بخس ولا افراط فى ملكة من هذه الملكات .

وفى مشكلة المشكلات التى تعرض للمتــدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية ، فمن عقائد دينه « ان أجل الله اذا جاء لا يؤخــر » ... « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا فى كتاب » ... « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله » . « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

ومن عقائد دينه أيضا

إنَّ اللهَ لا يغيرُ ما بقومٍ حتَّى يُغيِّروا ما بأنفسهم » . (سورة الرعد)

وما كان ربُّكَ ليهلكَ القرَى بظلْمٍ وأهلُها مُصلِحُون » . (سورة هود)

وَمَا أصابَكم من مُصيبةٍ فبما كسَبَتْ أيديكم » . (سورة الشورى)

وليس فى الاسلام أن الخطيئة موروثة فى الانسان قبل ولادته ، ولا أنه يحتاج فى التوبة عنها الى كفارة من غيره . وقد قيل ان الايمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على نقيض ذلك انه كان حافزهم فى صــدر الاسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الأمر أن المسلم الذى يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لانه مامور بان يعمل فى آيات الـكتاب واحاديث الرسول « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ... بل حقيقة الامر أن خلاصه كله موقوف عليه ، وأن ايمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة ان الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير .

وأصدق ما يقال في عقيدة القضاء والقدر أنها قوة للقوى وعذر للضعيف وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهابه ولا يقدر عليه ، وذلك ديدن الانسان في كل باعث وفي كل تعلة كما أوضحنا في الفارق بين أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري وهما يقولان بقول واحد في عبث الجهد وعبث الحياة .

فابو الطيب يقول عن مراد النفوس .

ومراد النفوس أهون من أن ‏ ‏ نتعادى فيــــه وأن نتفـانى

ثم يتخذ من ذلك باعثا للجهاد والكفاح فيقول :

غير أن الفتى يلاقي المنـــايا ‏ ‏ كالحـات ولا يلاقي الهوانا

والمعري يقول ان التعب عبث لأنه لا يؤدي بعده الى راحة في الحياة . ولكنه يعجب من اجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد .

تعب كلهــا الحياة فما أع ‏ ‏ جب الا من راغب في ازدياد

وعلى هذا المثال يقال تارة ان عقيدة القضاء والقدر نفعت المسلمين فيقال تارة أخرى انها ضرتهم وأوكلتهم الى التواكل والجمود ، وصواب القول انهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

وتوصف العقيدة الاسلامية بالشمول لأنها تشمل الأمم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير .

فليس الاســـلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقـــة واحدة ، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضــــعفاء المسخرين دون السادة المسلطين ، ولكنه رسالة تشمل بني الانســــــان من كل جنس وملة وقبيل :

« وما أرسلناكَ إلا كافةً للناسِ بَشيراً ونَذيرا » .. ‏ ‏ (سورة سبأ)

« قُلْ يا أيُّها الناسُ إني رسولُ اللهِ إليكم جَميعًا الذي لهُ ملكُ السمواتِ والأرضِ » .. ‏ ‏ (سورة الأعراف)

« قُولوا آمنا باللهِ وما أُنزلَ إلينا وَما أنزِلَ إلى إبراهيمَ واسماعيلَ واسحٰقَ ويَعقُوبَ والأسباطِ وما أُوتيَ موسَى وعيسَى وما أُوتيَ النبيونَ من ربِّهم لا نُفرِّقُ بين أحدٍ منهمْ ونحنُ لهُ مُسلمون » .. ‏ ‏ (سورة البقرة)

« إن الذينَ آمنوا والذينَ هادوا والنصارى والصابئين مَنْ آمن بالله واليومِ الآخرِ وعمِلَ صالِحًا فلَهُمْ أجرُهم عنـــدَ ربِّهم ولا خَوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزَنُونَ » . . (سورة البقرة)

فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الامم لانهـــا من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح :

« يا أيها الناسُ إنا خلقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُمْ شعوبًا وقبائِلَ لِتعارفوا إن أكرمكُم عندَ اللهِ أتقاكُم إن اللهَ عليمٌ خَبيرٌ » (سورة الحجرات)

وفى أحاديث النبى عليه الســـلام أنه « لا فضل لعربى على عجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى » .

وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة أو منزلة يؤثرها على منزلة ، فالنـــاس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفـــاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالأخلاق .

« يرفع اللهُ الذينَ آمنوا منكُم والذينَ أُوتوا العلمَ دَرَجاتٍ » . .
(سورة المجادلة)

* * *

« لا يَستوى القاعدُونَ من المُؤمنينَ غيرُ أولى الضَّررِ والمُجاهِدون فى سبيلِ اللهِ بأموالِهمْ وأنفسِهمْ » . (سورة النساء)

« واللهُ فضَّل بعضَكُمْ على بعضٍ فِى الرزقِ » . (سورة النحل)

* * *

« هَلْ يستوى الَّذينَ يَعلَمونَ والذينَ لا يَعلَمونَ » . (سورة الزمر)

* * *

واذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لان الضعف نعمة أو فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف أنه أهل لمعرفة الله اذا جاهد وصبر وأنف أن يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، والا فانه لمن المجرمين .

* * *

« يقولُ الذينَ استُضعِفوا للذينَ استكبَروا لولا أنتُم لكُنّا مؤمِنين قالَ الذينَ استكبَروا للذينَ استُضعِفوا أنحنُ صددْناكُم عنِ الهدى بعد إذ جاءكُمْ بلْ كُنتم مُجرِمين » . (سورة سبأ)

* * *

« ونُريدُ أن نَمُنَّ على الذينَ استُضعِفوا فى الأرضِ ونجعَلَهُمْ أئمَّةً ونجعَلَهُمُ الوارثِينَ ونُمكِّنَ لهُمْ فى الأرضِ ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُمَا مِنهُم ما كانُوا يحذَرون » . (سورة القصص)

وما من ضعيف هو ضعيف اذا صبر على البلاء ، فاذا عرف الصبر عليه فانه لاقوى من العصبة الأشداء .

« الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكُم وعَلِمَ أنَّ فيكُمْ ضَعفًا فإن يكنْ منكم مائةٌ صابرةٌ يَغلِبوا مائتَيْنِ وإن يكنْ منكُمْ ألفٌ يَغلِبوا ألفَيْنِ بإذنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرينَ » . (سورة الأنفال)

فما كان الاله الذى يدين به المسلم آله ضعفاء أو آله اقوياء ، ولكنه آله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه أنه يكون مع الله والله مع الصابرين .

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون أقوياء الأرض ثم صمدوا لغلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون باس القوة مغلوبين مدافعين .

وهذه العقيدة الشاملة هى التى أفردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الاديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هذه الأديان لم يسجل لنا قط تحولا اجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضى والاقتناع ، اذ كان المتحولون الى المسيحية أو الى اليهودية قبلها فى أول نشأتها أمما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شىء ، ولم يحدث قط فى أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابى غير الاسلام ،

وانما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وفارس ، وهي - فارس - أمة عريقة في الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول اليه أناس من أهل الاندلس وصقلية كما تحول اليه أناس من أهل التوبة الذين غبروا على المسيحية أكثر من مائتي سنة ورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذي يجمع النفس والضمير ويعم بني الانسان على تعدد الأقوام والأوطان ، ويحقق المقصد الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع .

وإبراز هذه المزية - مزية العقيدة الاسلامية التي أعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود - هو الذي نستعين به على النظر في مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذي لم يسلبه الضعف قوة الصمود للاقوياء الى أن يحين الحين ويتبدل بين حالتي الغالب والمغلوب حالته التي يرجوها لغده المأمول ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين في مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الانسانية في جملتها وللعالم الانساني في جملته ، ليكونن المصير في الغد المأمول أكرم ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول . »

* * *

في هذه العجالة عن شمول العقيدة الاسلامية ألمامة كافية لمقصدنا في هذا الكتاب الذي نود أن نستقصي فيه كل ما يستقصى عن حقائق الدين في حيز هذه الصفحات .

أما المزايا التي امتازت بها عقائد الاسلام وأحكامه فنحن مفردون لها ما يلي من فصول الكتاب الأربعة ، وهي مبدوءة بفصل عن العقائد ويليه فصل عن الحقوق وفصل عن المعاملات وفصل عن الأخلاق والآداب.

ووجهتنا التي نتجه اليها في هذه البحوث : « أولا » أن الاسلام يوحي الى المسلم عقيدة في الذات الالهية وعقيدة في الهداية النبوية وعقيدة في الانسان لا تعلوها عقيدة في الديانات ولا في الحكمة النظرية أو الحكمة العملية .

و « ثانيا » أن أحكام الاسلام لاتعوق المسلم عن غاية تفتحها أمامه أشواط العلم والحضارة .

و « ثالثا » أن فى الاسلام زادا للأمم الانسانية فى طريق المستقبل الطويل يواتيها بما فيه غنى لها حيث نضبت الأزواد من وطاب العقائد الروحية أو تكاد .

وباسم الله نتجه فى وجهتنا ، وعلى هدى من الايمان بالله ،، .

الفصل الأول

العقائد

(١)

١
العقيدة الإلهية

العقيدة فى الاله رأس العقائد الدينية بجملتها وتفصيلها . من عرف عقيدة قوم فى الهم فقد عرف نصيب دينهم من رفعة الفهم والوجدان ومن صحة المقاييس التى يقاس بها الخير والشر وتقدر بها الحسنات والسيئات . فلا يهبط دين وعقيدته فى الاله عالية ، ولا يعلو دين وعقيدته فى الاله هابطة ليست مما يناسب صفات الموجود الأول الذى تتبعه جميع الموجودات .

ولقد كان النظر فى صفات الله مجال التنافس بين أكبر العقول من أصحاب الفلسفة الفكرية وأصحاب الحكمة الدينية ، وقد كانت مهمة الفلاسفة أيسر من مهمة حكماء الأديان ، لأن الفيلسوف النظرى ينطلق فى تفكيره وتقديره غير مقيد بفرائض العبادة وحدود المعاملات التى يتقيد بها الحكيم الدينى ويتقيد بها من يأتمون به من أتباعه فى الحياة العامة والمعيشة الخاصة . فظهر بين الفلاسفة النظريين من سما بالتنزيه الالهى صعدا الى أوج لا يلحق به الخيال فضلا عن الفكر والاحساس .

وجاء الاسلام من جوف الصحراء العربية بأسمى عقيدة فى الاله الواحد الأحد ، صححت فكرة الفلسفة النظرية كما صححت فكرة العقائد الدينية ، فكان تصحيحه لكل من هاتين الفكرتين — فى جانب النقص منها — أعظم المعجزات التى أثبتت له فى حكم العقل المنصف والبديهة الصادقة أنه وحى من عند الله .

يقال على الأجماع أن صفات الاله قد ارتفعت الى ذروتها العليا من التنزيه والتجريد فى مذهب « أرسطو » الفيلسوف اليونانى الكبير .

والذين يرون هـذا الرأى لا ينسون مذهب « افلوطين » أمام الفلسفة الأفلاطونية الحديثة وشيخ الفلسفة الصوفية بين الغربيين الى العصر الأخير . غير أنهم لا يذكرونه فىمعرض الكلام علىالتنزيه فىوصف الله لأن مذهبه أقرب الى الغيبوبة الصوفية منه الى التفكير الجلىوالمنطق المعقول ، وطريقته فى التنزيه أن يمعن فى الزيادة على كل صفة يوصف بها الله فلا يزال يتخطاها ثم يتخطاها كلما استطاع الزيادة اللفظية حتى تنقطع الصلة بينها وبين جميع المدلولات المفهومة أو المظنونة . ويرجح الأكثرون أن « أفلاطون » نفسه لم يكن يتصور ما يصوره من تلك الصفات ، وانما كانت غايته القصوى أن يذهب بالتصور الى منقطع العجز والأعياء.

فمن ذلك أنه ينكر صفة الوحدانية ليقول بصفة الأحدية ويقول أن الواحد غير الأحد لأن الواحد قد يدخل فى عداد الاثنين والثلاثة والعشرة، ولا يكون الأحد الا مفردا بغير تكرار .

ومن ذلك أنه ينكر صفة الوجود ليقول ان الله لا يوصف بأنه موجود تنزيها له عن الصـفة التى يقابلها العدم وتشـترك فيها الموجـودات أو الموجدات .

لهذا يضربون المثل بأرسـطو فى تنزيه الاله ولا يضربون المثـل بافلوطين لأن مذهبه ينقطع فى صومعة من غيبوبة الذهول لا تمتزج بحياة فكرية ولا بحياة عملية .

ومذهب أرسطو فى الاله أنه كائن أزلى أبدىمطلق الكمال لا أول له ولا آخر ولا عمل له ولا ارادة . مذ كان العمل طلبا لشيء والله غنى عن

كل طلب ، وقد كانت الارادة اختيارا بين أمرين والله قد اجتمع عنده الأصلح الأفضل من كل كمال فلا حاجة به الى الاختيار بين صالح وغير صالح ولا بين فاضل ومفضول . وليس مما يناسب الاله فى رأى أرسطو أن يبتدىء العمل فى زمان لأنه أبدى سرمدى لا يطرأ عليه طارىء يدعوه الى العمل ولا يستجد عليه من جديد فى وجوده المطلق بلا أول ولا آخر ولا جديد ولا قديم . وكل ما يناسب كماله فهو السعادة بنعمة بقائه التى لا بغية وراءها ولا نعمة فوقها ولا دونها ، ولا تخرج من نطاقها عناية تعنيه.

فالاله الكامل المطلق الكمال لا يعنيه أن يخلق العالم أو يخلق مادته الأولى وهى «الهيولى» ... ولكن هذه «الهيولى» قابلية للوجود يخرجها من القوة الى الفعل شوقها الى الوجود الذى يفيض عليها من قبل الاله، فيدفعها هذا الشوق الى الوجود ثم يدفعها من النقص الى الكمال المستطاع فى حدودها ، فتتحرك وتعمل بما فيها من الشوق والقابلية ، ولا يقال عنها انها من خلقة الله الا أن تكون الخلقة على هذا الاعتبار .

* * *

كمال مطلق لايعمل ولا يريد :

أو كمال مطلق يوشك أن يكون هو والعدم المطلق على حد سواء ..

ولنذكر أنه أرسطو صاحب هذا المذهب قبل كل شىء .

ولنذكر أنه ذلك العقل الهائل الذى يهابه من يحس قدرته فلا يجترىء عليه بالنقد والتسفيه قبل أن يفرغ جهده فى التماس المعذرة له من جهل عصره وقصور الأفكار حوله لا من جهله هو أو قصور تفكيره . فأنه لم يعودنا فى تفكيره احتمالا قط لا ينقصاه الى قصارى مداه ولا يستوفى مقتضياته وموانعه جهد ما فى الطاقة الانسانية من استيفاء .

لنذكر أنه أرسطو لكي نذكر أن هذا العقل النادر لم يؤت من نقص في تصور الصفات العلوية الا لأنه عاش في زمان لم تتكشف فيه المعرفة عن خصائص هذه الكائنات الأرضية « السفلى » التى نحسها ونعيش بينها ، ولو أنه عرف ما هو لاصق بها من خصائصها وأعراضها لكان له رأى في الكمال العلوى غير ذلك الرأى الذى ارتآه بمحض الظن والقياس على غير مقيس .

لقد كان يفهم من كمال الكائنات العلوية — السماوية — أنها خالدة باقية لاتفنى لأنها من نور والنور بسيط لا يعرض له الفناء كما يعرض على التركيب .

ولو أن أرسطو عاش حتى علم أن المادة الأرضية — السفلى — كلها من نور ، وأن عناصر المادة كلها تؤول الى الذرات والكهارب ، وأن هذه الذرات والكهارب تنشق فتؤول الى شعاع — لما ساقه الظن والقياس الى ذلك الخطأ في التفرقة بين لوازم البقاء ولوازم الفناء ، أو بين خصائص البساطة وخصائص التركيب .

ولعل ادراكه لذلك الخطأ في فهم لوازم البساطة والكمال ، ولوازم البقاء والفناء كان خليقا أن يهديه الى فهم خطئه في تصور لوازم الكمال الالهى ، فلا يمتنع في عقله أن يجتمع الكمال الواحد من صفات عدة كالصفات الحسنى التى وصف بها الاله في الاسلام ، ومنها الرحمة والكرم والقدرة والفعل والارادة ، ولا يمتنع في عقله أن يكون لهذه الصفات لوازمها ومقتضياتها ، اذ لاتكون قدرة بغير مقدور عليه ، ولا يكون كرم بغير اعطاء ، ولا تكون مشيئة بغير اختيار بين أمرين ، واذا اختار الله أمرا فهو لايختاره لذاته سبحانه وتعالى بل يختاره لمخلوقاته

التى تجوز عليها حالات شتى لاتجوز فى حق الاله ، واذا خلق الله شيئا فى الزمان فلا ننظرن الى الأبدية الالهية بل ينبغى أن ننظر الى الشىء الموجود المخلوق فى زمانه ثم لا مانع عقلا من أن تتعلق به ارادة الله الأبدية على أن يكون حيث كان فى زمن من الأزمان .

لقد كان مفهوم البساطة الأبدية الباقية عند أرسطو غير مفهومها الذى لمسناه اليوم لمسا فى هذه الكائنات الأرضية — السفلية — فلا جرم يكون مفهوم الكمال المطلق عندنا غير مفهمومه الذى جعله أرسطو أشبه شىء بالعدم المطلق غير عامل ولا مريد ولا عالم بسوى النعمة والسعادة ... قانع بأنه منعم سعيد .

* * *

وعلى هذا يبقى لنا أن نسأل : هل استطاع أرسطو بتجريده الفلسفى أن يسمو بالكمال الأعلى فوق مرتبته التى يستلهمها المسلم من عقيدة دينه؟

نقول عن يقين : كلا . فأن الله فى الاسلام آله صمد لا أول له ولا آخر ، وله المثل الأعلى . فليس كمثله شىء ، وهو محيط بكل شىء .

ثم يبقى بعد ذلك أن نسأل : هل تغض العقيدة الدينية من الفكرة الفلسفية فى مذهب التنزيه ؟ .

والجواب كلا : بل الدين هنا فلسفة أصح من الفلسفة اذا قيست بالقياس الفلسفى الصحيح . لأن صفات الاله التى تعددت فى عقيدة الاسلام لاتعدو أن تكون نفيا للنقائص التى لاتجوز فى حق الاله . وليس تعدد النقائص مما يقضى بتعدد الكمال المطلق الذى ينفرد ولا يتعدد . فان الكمال المطلق واحد والنقائص كثيرة ينفيها جميعا ذلك الكمال الواحد . وما أيمان المسلم بأن الله عليم قدير فعال لما يريد كريم رحيم ،

الا أيمانا بأنه جل وعلا قد تنزه عن نقائص الجهل والعجز والجحد والغشم ، فهو كامل منزه عن جميع النقائص ، ومقتضى قدرته أن يعمل ويخلق ويريد لخلقه ما يشاء ومقتضى عمله وخلقه أن يتنزه عن تلك « العزلة السعيدة » التى توهمها أرسطو مخطئا فى التجريد والتنزيه . فهو سعيد بنعمة كماله سعيد بنعمة عطائه ، كفايته لذاته العلية لا تأبى له أن يفيض على الخلق كفايتهم من الوجود فى الزمان ، أى من ذلك الوجود المحدود الذى لايغض من وجود الله فى الأبد بلا أول ولا آخر ولا شريك ولا مثيل .

« ومن صفات الله فى الاسلام ما يعتبر ردا على فكرة الله فى الفلسفة الأرسطية كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل فى الأديان الكتابية وغير الكتابية .

فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا يعقل ما دونها ، ويتنزه عن الارادة لأن الارادة طلب" فى رأيه والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته ، ويجل عن علم الكليات والجزئيات لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة ولا قسوة .. لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعي اليه. ولكن الله فى الأسلام عالم الغيب والشهادة .

« ولا يَعْزُبُ عنه مِثقالُ ذرَّةٍ » (سورة يونس)

« وهُوَ بكلِّ خلقٍ عليمٌ » (سورة يس)

« وما كُنا عن الخَلْقِ غَافِلينَ » (سورة المؤمنون)

« وَسِعَ رَبُّنا كلَّ شيء عِلْما » (سورة الأعراف)

« ألاَ لهُ الخلْقُ والأمرُ » (سورة الأعراف)

« عليمٌ بذاتِ الصُّدور » . (سورة فاطر)

وهو كذلك مريد وفعال لما يريد .

«وقالت اليهودُ يدُ اللهِ مَغلولةٌ غُلّتْ أيْديهم ولُعِنُوا بما قالوا بَلْ يَداهُ مبسوطَتانِ » .   (سورة المائدة)

وفى هذه الآية رد على يهود العرب بمناسبة خاصة تتعلق بالزكاة والصدقات كما جاء فى أقوال بعض المفسرين ، ولكنها ترد على كل من يغلون ارادة الله على وجه من الوجوه ، ولا يبعد أن يكون فى يهود الجزيرة من يشير الى رواية من روايات الفلسفة الأرسطية لذلك المقال .

وقد أشار القرآن الكريم الى الخلاف بين الأديان المتعددة فجاء فيه من سورة الحج :

« إنّ الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والصابئينَ والنّصارى والمجوسَ والذين أشْرَكُوا إن اللهَ يَفْصِلُ بينَهم يومَ القيامةِ ، إن اللهَ على كلّ شيء شَهيدٌ »
(سورة الحج)

وأشار الى الدهريين فجاء فى سورة الأنعام ...

«وَقَالوا إنْ هِيَ إلا حياتُنَا الدُّنيا وَمَا نَحْنُ بِمَبعوثين» . (سورة الأنعام)

وجاء فيه من سورة الجاثية ..

« وقالوا مَا هِيَ إلا حياتُنا الدُّنيا نَموتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهلِكُنا إلا الدَّهْرُ . وما لهم بذلكَ مِن عِلمٍ إنْ هُمْ إلا يَظُنُّون » .   (سورة الجاثية)

فكانت فكرة الله فى الاسلام هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها . ولهذا بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الالهية ، وتضمنت تصحيحا للضمائر وتصحيحا للعقول فى تقرير ما ينبغى لكمال الله ، بقسطاس الايمان وقسطاس النظر والقياس .

ومن ثم كان فكر الانسان من وسائل الوصول الى معرفة الله فى الاسلام ، وان كانت الهداية كلها من الله :

ومجمل ما يقال عن عقيدة الذات الالهية التى جاء بها الاسلام أن الذات الالهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات « ... وقد جاء الاسلام بالقول الفصل فى مسألة البقاء والفناء . فالعقل لا يتصور للوجود الدائم والوجود الفانى صورة أقرب الى الفهم من صورتيهما فى العقيدة الاسلامية ، لأن العقل لا يتصور وجودين سرمديين ، كلاهما غير مخلوق ، أحدهما مجرد والآخر مادة ، وهذا وذاك ليس لهما ابتداء وليس لهما انتهاء .

ولكنه يتصور وجودا أبديا يخلق وجودا زمانيا ، أو يتصور وجودا يدوم ووجودا يبتدىء وينتهى فى الزمان .

وقديما قال أفلاطون — وأصاب فيما قال . ان الزمان محاكاة للأبد ... لأنه مخلوق والأبد غير مخلوق .

فبقاء المخلوقات بقاء فى الزمن ، وبقاء الخالق بقاء أبدى سرمدى لا يحده الماضى والحاضر والمستقبل ، لأنها كلها من حدود الحركة والانتقال فى تصور أبناء الفناء ، ولا تجوز فى حق الخالق السرمدى حركة ولا انتقال

فالله هو « الحيّ الذى لا يَمُوتُ » . . . (سورة الفرقان)

« وهُوَ الذى يحيي ويُميتُ » (سورة المؤمنون)

و « كُلُّ شيءٍ هَالكٌ إلّا وَجْهَهُ » . . . (١) (سورة القصص)

* * *

وأيا كان المرتقى الذى ارتفع اليه تنزيه الفكرة الالهية فى مذهب أرسطو كما شرحناه بعض الشرح أو مذهب أستاذه أفلاطون كما أومأنا

(١) من كتاب « الله » المؤلف .

اليه بعض الايماء — فهذا التنزيه الفلسفى قمة منبتة عن البيئة التى عاش فيها « الفيلسوفان » ويكاد هذا التنزيه الفلسفى أن يكون خيالا جامحا بالنسبة الى العقائد الالهية التى كانت فاشية بين الكهان والمتعبدين من أبناء اليونان .

فلا شك أن صورة « جوبيتر » رب الأرباب عندهم كانت أقرب الى صورة الشيطان منها الى صورة الأرباب المنزهين ولو لم يبلغ وصف التنزيه عندهم نصيبا ملحوظا من الكمال .

كان « جوبيتر » حقودا لدودا مشغولا بشهوات الطعام والغرام لا يبالى من شئون الأرباب والمخلوقات الا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادى فى طغيانه ، وكان يغضب على « أسقولاب » اله الطب لأنه يداوى المرضى فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض الى باطن الهاوية ، وكان يغضب على « بروميثيوس » اله المعرفة والصناعة لأنه يعلم الانسان أن يستخدم النار فى الصناعة وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب . وقد حكم عليه بالعقاب الدائم فلم يقنع بموته ولا باقصائه عن حظيرة الآلهة بل تفنن فى اختراع ألوان العذاب له فقيده الى جبل سحيق وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار حتى اذا جن الليل عادت سليمة فى بدنه لتعود الجوارح الى نهشها بعد مطلع الشمس ... ولا يزال هكذا دواليك فى العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء . ومما رواه الشاعر الفيلسوف «هزيود» عن علة غضب الاله على « بروميثيوس » أنه قسم له نصيبه من الطعام فى وليمة الأرباب فأكثر فيه من العظام وأقل فيه من اللحوم والشحوم ، فاعتقد « جوبيتر » أنه يتعالم عليه بمعرفته وفطنته لأنه اشتهر بين الالهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشتهر بها الاله الكبير . ولا يغيب عنا ونحن

نروي أخبار الاله الكبير منقولة عن « هزيود » ان هذا الشاعر الفيلسوف قد اجتهد قصارى اجتهاده فى تنزيه جوبيتر وتصويره للناس فى صورة من القداسة والعظمة تناسب صورة الاله المعبود بعد ارتقــاء العبادة شيئا ما فى ديانة اليونان الأقدمين .

ومما رواه الرواة المختلفون عن جوبيتر أنه كان يخادع زوجتــه « هيرة » ويرسل اله الغمام لمداراة الشمس فى مطلعها حذرا من هبوب زوجته الغيري عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش « الأوليب » .. وحدث مرة أنها فاجأته وهو يقبل ساقيه « جانيميد » راعى الضأن الجميل الذى لمحه يوما فى الخلاء فاختطفه وصعد به الى السماء ... فلم يتنصل « جوبيتر » من تهمة الشغف بساقيه ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه.

* * *

ومثل الأمم القديمة كمثل اليونان فى بعد الفارق بين صورة الاله فى حكمة الفلاسفة وبين صورته فى شعائر الكهان والمتعبدين .

فالهند القديمة كانت تطوى هياكلها ومعــابدها على طوائف من الأرباب منها ما يلحق بالحيوان وعناصر الطبيعة ومنها ما يلحق بالأوثان والأنصاب ، وكثير منها يتطلب من سدنته أن يتقربوا اليه بالبغاء المقدس وسفك الدماء .

وقد انتهت هذه الأرباب المتعددة الى الثالوث الأبدى الذى اشتمل على ثلاث من الصور الالهية هى الاله « براهما » فى صورة الخالق والاله « فشنو » فى صورة الحافظ والآله « سيفا » فى صورة الهادم ... فجعلوا الهدم والفساد من عمل الاله الأعلى الذى يتولاه حين يتشكل لعباده فى تلك الصورة .

وزادوا على ذلك أنهم جعلوا لكل اله قرينا يسمونه « الشاكتى » أو الزوجة أو الصاحبة ينسبون اليها من الشرور ما ينزهون عنه قرينها أو صاحبها .

فهذه الأرباب صور لاتتباعد المسافة بينهما وبين صور الشياطين والعفاريت والأرواح الخبيثة المعهودة فى أقدم الديانات . فاذا ارتفعنا فى معارج التنزيه والتجريد بلغنا منها ذروتها العلوى فى صورتين مختلفتين أحدهما صورة « الكارما » **Karma** والصورة الأخرى « النرفانا » **NIRVANA** وكلتاهما تحسب من قبيل المعانى الذهنية وقل أن توصف بوصف الذات الالهية . فالكارما هى القدر الغالب على جميع الموجودات ومنها الالهة وأفلاك السماء ، وهذا القدر هو فى الواقع حالة من الحالات العامة يمكن أن نعبر عنها بأنها هى « ما ينبغى » أو هى الوضع الحاصل على النحو الأمثل . فليس القدر المسمى بالكارما عندهم ذاتا الهية معروفة الصفات ، ولكنه مرادف لكلمة « الانبغاء » أو كلمة « الواجب » كما وجب فى الحوادث والموجودات .

والنرفانا حالة عامة كحالة الكارما . الا أنها الى العدم أقرب منها الى الوجود . لأنها الحالة التى تنتهى اليها جميع الأرواح حين تفرغ من عناء الوجود وتتجرد من شواغل الأجساد وشواغل الأرواح على السواء وتتساوى أرواح الآلهة وأرواح البشر فى حالة النرفانا هذه كلما سعدت بنعمة الخلود غير محسوس ولا مشهود .

* * *

ولسنا نريد فى هذه الصفات القليلة أن نتتبع صورة الالهية والربوبية كافة بين أمم الحضارات الأولى ، وأنما نجتزىء منها بالنماذج الدالة عليها فيما أرتقت اليه من التنزيه وفيما هبطت اليه من التجسيم أو التشبيه

أو التشويه ، ولهذا يغنينا عن الاسترسال في شرح عادات الأقدمين أن نضيف الى ما تقدم مثلا آخر يتمم أمثلة اليونان والهند ، وذلك هو مثل الديانة المصرية القديمة من أبعد عهود الفراعنة الى عهد الديانات الكتابية، وهى — أى الديانة المصرية القديمة — أرفع الديانات فيما نعلم ترقيا الى ذروة التوحيد والتنزيه ، وأن كانت فى عباداتها الشائعة تهبط أحيانا الى مهبط الديانات الغابرة من عبادة الطواطم والأنصاب ، وعبادة الأرواح الخبيثة والشياطين .

بلغت ديانة مصر القديمة ذروتها العليا من التوحيد والتنزيه فىديانة « آتون » التى بشر بها الفرعون المنسوب اليه « أخناتون » .

ويؤخذ من صلوات أخناتون المحفوظة بين أيدينا أنه كان يصلى الى خالق واحد يكاد يقترب فى صفاته من الاله الخالق الذى يصلى له العارفون من أتباع الديانات الكتابية ، لولا شائبة من العبادة الوثنية علقت به من عبادة الشمس فكانت هذه الشمس الدنيوية رمزا له ومرادفا لاسمه فى معظم الصلوات .

* * *

هذه الشواهد من التاريخ القديم شواهد تمثيل لا شواهد حصر وتفصيل ، وهى مغنية فى الدلالة على المدى الذى وصل اليه تنزيه الفكرة الالهية فى أمم التاريخ القديم جميعها ، لأنها تدل على ما وصلت اليه الفكرة الالهية المنزهة فى أرفع الحضارات الأولى وهى الحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة اليونانية .

وجملة الملاحظات على تنزيه الفكرة الالهية عند الأقدمين أنه كان تنزيها خاصا مقصورا على الفئة القليلة من المفكرين والمطلعين على صفوة الأسرار الدينية .

ثم يلاحظ عليه بعد ذلك أنه تنزيه لم يسلم فى كل آنة من ضعف يعيبه عقلا ويجعله غير صالح للأخذ به فى ديانات الجماعة على الخصوص .

ففى الديانة المصرية لم تسلم فكرة التوحيد من شائبة الوثنية ولم تزل عبادة الشمس ظاهرة الأثر فى عبادة آتون .

وديانة الهند لم تعلم الناس الايمان « بذات الهية » معروفة الصفات وليس فى معبوداتها أشرف من الكارما والنرفانا ، وهما بالمعانى الذهنية أشبه منهما بالكائنات الحية ، وأحداهما — وهى النرفانا — الى الفناء أقرب منها الى البقاء .

والتنزيه الفلسفى الذى أرتقت اليه حكمة اليونان فى مذهب أرسطو يكاد يلحق الكمال المطلق بالعدم المطلق ، ويخرج لنا صورة للاله لا تصلح للايمان بها ولا للاقتناع بها على هدى من الفهم الصحيح .

وكل أولئك لا يبلغ بالتنزيه الالهى مبلغه الذى جاءت به الديانة الاسلامية صالحا للايمان به فى العقيدة الدينية وصالحا للأخذ به فى مذاهب التفكير .

* * *

والديانة الاسلامية — كما هو معلوم — ثالثة الديانات المشهورة باسم الديانات الكتابية ، مكانها فى علم المقارنة بين الأديان مرتبط بمكان الديانتين الأخريين وهما الموسوية والمسيحية ، وتجرى المقارنة بين الاسلام وبينهما فعلا فى كتابات الغربيين فلا يتورع أكثرهم من حسبان الأسلام نسخة مشوهة أو محرفة من المسيحية أو الموسوية ...

والمسألة — بعد — مسألة نصوص محفوظة وشعائر ملحوظة ، لا تحتمل الجدل الطويل فى ميزان النقد والمقارنة وان احتملته فى مجال

الدعوة والخصومة العصبية ، ولا حاجة فى المقارنة بين هذه الديانات الى أكثر من ذكر العقيدة الالهية فى كل منها للعلم الصحيح بمكانها من التنزيه فى حكم الدين وحكم المعرفة النظرية .

* * *

ان المراجع التى تلقينا منها عقائد العبريين كما يدين بها أتباع الديانة الموسوية الى يومنا هذا مبسوطة بين أيدى جميع القادرين على مطالعتها فى لغاتها الأصيلة أو لغاتها المترجمة ، وأشهرها التوراة والتلمود .

فصورة الاله فى هذه المراجع من أوائلها الى أواخرها هى صورة « يهوا » اله شعب اسرائيل ، وهى صورة بعيدة عن الوحدانية يشترك معها الهة كثيرون تعبدها الأمم التى جاورت العبريين فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم ، ولكن « يهوا » يغار منها ولا يريد من شعب اسرائيل أن يلتفت اليها ، لأنه يريد أن يستأثر بشعب اسرائيل لنفسه بين سائر الشعوب وأن يستأثر شعب اسرائيل به لأنفسهم بين سائر الآلهة ، وكان اذا غضب منهم لالتفاتهم الى غيره قال لهم كما جاء فى سفر أشعيا الثانى « بمن تشبهوننى وتسووننى وتمثلوننى لنتشابه ؟ » ... وكان النبى أرميا يقول لهم بلسان الرب الههم : « ان آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها واياى تركوا وشريعتى لم يحفظوا ... » ثم يقول الرب : « ... وأعطيتهم قلبا ليعرفوا انى أنا الرب فيكونون لى شعبا وأنا أكون لهم الها » .

فلم يكن العبريون ينكرون وجود الآلهة الكثيرين غير الههم الذى يعبدونه تارة ويتركونه تارة أخرى . ولكنهم كانوا يحسبون الكفر به ضربا من خيانة الرعية لملكها واعترافهم بالطاعة لغيره من الملوك القائمين

بالملك فى أرض غير أرضه وبين رعية غير رعيته ، واذا تركوا « يهوا » حينا من الزمن ثم آثروا الرجعة الى عبادته فانما يرجعون اليه لاعتقادهم بالتجربة المزعومة أنه أقدر على النكاية بهم وأن الآلهة الأخرى عجزت عن حمايتهم من سخطه وانتقامه .

وقد وصفوه فى كتبهم المقدسة فقالوا عنه مرة أنه يحب ريح الشواء وقالوا عنه مرة أخرى أنه يتمشى فى ظلال الحديقة ليتبرد بهوائها وقالوا عنه غير هذا وذاك أنه يصارع عباده ويصارعونه وأنه يخاف من مركبات الجبال كما يخافها جنوده ، وغبروا ردحا من الدهر وهم يسوون بينه وبين عزازيل شيطان البرية فيتقربون اليه بذبيحة ويتقربون الى الشيطان بذبيحة مثلها .

ومن تتبع نعوت « يهوا » من أوائل أيام العبريين فى أوطان نشأتهم وأوطان هجرتهم الى أواخرها قبل عصر الميلاد المسيحى — لم يتبين من تلك النعوت أنهم وسعوا أفق العبادة لهذا الاله ولا أنهم وسعوا مجال الحظوة عندهم ، بل أنه ليتبين من نعوته السابقة واللاحقة أنهم كانوا يضيقون أفق عبادته ويحصرون مجال الحظوة عندهم جيلا بعد جيل ، فكان شعبه المختار فى مبدأ الأمر عاما شاملا لقوم ابراهيم ثم أصبح بعد بضعة قرون محصورا مقصورا على قوم يعقوب بن أسحق ثم أصبح بعد ذلك محصورا مقصورا على قوم موسى ثم على أبناء داود وعلى من يدينون لعرشه بالولاء ... ومن ذريته كان ينبغى أن يظهر المسيح المخلص لهم فى آخر الزمان .

* * *

وجمد العبريون على عقيدتهم الالهية فظل « يهوا » الهـا عبريا يستأثر به أبناء يعقوب بن أسحق ولا يرجو الخلاص بمعونة منه الا الذين

يدينون بالولاء لعرش داود وذريته من بعده ، فلم يتغير هذا الاعتقاد بين العبريين قبل عطر الميلاد المسيحى ولم يأت التغيير فيه من قبل أبنـاء اسرائيل المحافظين على عقيدتهم الأولى بل أتى هذا التغيير من قبل المصلحين المجددين فى الدين اليهودى وقام به من بينهم رسول مغضوب عليه فى شرعتهم متهم بالمروق من زمرتهم ، وهو عيسى بن مريم رضوان الله عليه.

وابتدأ عيسى بن مريم دعوته الأولى مختصا بها بنى اسرائيل دون سواهم من العالمين ، وذكرت لنـا الأناجيل تفصيل الحوار الذى دار بين السيد المسيح وبين المرأة الكنعانية التى توسلت اليه أن يخرج الشيطان من ابنتها فروى أنجيل مرقص فى الأصحاح السابع :

ان امرأة بابنتها روح نجس سمعت به فأتت وخرت عند قدميه وكانت المرأة أممية - اى من أبنـاء الأمم غير الاسرائيلية - وفى جنسـها فينيقية سورية . فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها ، وأما يسوع فقال لها دعى البنين أولا يشبعون . لانه ليس حسنا أن يأخذ خبز البنين ويطرح للكلاب فأجابت وقالت نعم يا سيد . والكلاب أيضا تحت المائدة تأكل فتات البنين . فقال لها : لاجل هذه الكلمه . اذهبى قد خرج الشيطان من ابنتك ... »

ورواية متى لهذه القصة تشبه رواية مرقص حيث جاء فى الاصحاح الخامس عشر من الأنجيل المنسوب اليه .

ان السيد المسيح « خرج من هناك وانصرف الى نواحى صور وصيداء ، واذا امرأة كنعانيـة خارجة من تلك التخوم صرخت اليـــه قائلة ارحمنى ياســيد يابن داود . ابنتى مجنونة جدا فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين اصرفها لانها تصيح وراءنا فأجاب وقال: لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة ، فأتت وسجدت له قائلة يا سيد أعنى فأجاب وقال ليس حسنا أن يؤخذ البنين ويطرح للكلاب ، فقالت نعم يا سيد والكلاب أيضا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها حينئذ أجاب يسوع وقال لها : يا امرأة ! عظيم ايمانك . ليكن لك كما تريدين . فشفيت ابنتها من تلك الساعة » .

ونحن نعلم من هذه القصة ومن جملة أخبار التلاميذ فى الأناجيل أن السيد المسيح قد ثابر على اختصاص بنى اسرائيل بدعوته ولم يتحول عنهم الى غيرهم الا بعد أصرارهم على رفضه ولجاجتهم فى انكار رسالته فوجد بعد اليأس منهم أنه فى حل من صرف الدعوة عنهم الى الأمم المقيمة بينهم ، وضرب المثل لذلك بصاحب الدار الذى أقام وليمة العرس فى داره وأرسل الدعوة الى ذويه وجيرانه فتعللوا بالمعاذير والشواغل ولم يستجيبوا لدعوته ، فأطلق غلمانه الى أعطاف الطريق يدعون من يصادفهم من الغرباء وعابرى السبيل ، على غير معرفة بهم ولا صلة بينه وبينهم ، حتى امتلأت بهم الدار ولم يبق على الموائد مكان لمن أختصهم بالدعوة فأعرضوا عنها .

ويلاحظ فى قصة المرأة الكنعانية أنها كانت تدعو المسيح بالسيد ابن داود ، وأن عقيدة العبريين لم تزل تعلق آمالهم بالخلاص على يد رسول من ذرية داود ومن سلالة يعقوب بن أسحق بن ابراهيم .

ومضى عصر المسيح وجاء بعده عصر بولس الرسول وعقيدة الخلاص الموقوف على سلالة ابراهيم الخليل باقية مسلمة بين العبريين الجامدين على تقاليدهم وبين المسيحيين المتحررين من تلك التقاليد ، وانما أضيف اليها تفسير جديد لهذه البنوة وهو أنها بنوة روحية لا تتوقف على بنوة الجسد ولا فارق فيها بين من يحيون سنة ابراهيم الخليل من العبريين أو من الأميين الذين يسميهم العبريون «بالجوييم» .. أى الأقوام الغرباء .

فالعقيدة الالهية كما دان بها العبريون وجمدوا عليها الى عصر الميلاد أنما هى عقيدة شعب مختار بين الشعوب فى اله مختار بين الآلهة ، وليس فى هذه العقيدة ايمان بالتوحيد ولا هى مما يتسع لديانة انسانية أو مما

يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للايمان بالاله الذى يدعو اليه الاسلام .

ثم تطورت هذه العقيدة الالهية بعد ظهور المسـيحية فانتقلت من الايمان بالاله لأبناء ابراهيم فى الجسد الى الاله لأبناء ابراهيم فى الروح، وانقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس الرسول واتصلت المسيحية بالأمم الأجنبية وفى مقدمتها الأمة المصرية فشاعت فيها على أثر ذلك عقيدة الهية جديدة فى مذهب العبريين وهى عقيدة الثالوث المجتمع من الآب والابن والروح القدس ، وفحواها أن المسيح المخلص هو ابن الله وأن الله أرسله فداء لأبناء آدم وحواء وكفارة عن الخطيئة التى وقعا فيها عندما أكلا من شجرة المعرفة فى الجنة بعد أن نهاهما عن الاقتراب منها .

وظهر الاسلام وفحوى العقيدة الالهيــة كما تطورت بها الديانة المسيحية أن الله الاله واحد من أقانيم ثلاثة هى الآب والأبن والروح القدس وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم ، وهو ذو طبيعة الهية واحدة فى مذهب فريق من المسيحيين وذو طبيعتين الهية وانسانية فىمذهب فريق آخر .

ومن البديهى أن الباحث الذى يريد تطبيق علم المقارنة بين الأديان على المسيحية والاسلام مطالب بالرجوع الى حالة الديانة المسيحية حيث ظهرت دعوة الاسلام فى الجزيرة العربية ، فلا يجوز لأحد من هؤلاء الباحثين أن يزعم أن الاسلام نسخة محرفة من المسيحية الا اذا اعتقد أن نبى الاسلام قد أخذ من المسيحية كما عرفها فى بيئته العربية وفيما اتصل به من البيئات الاخرى حول جزيرة العرب . ومهما يكن من تطور العقائد المسيحية فى سائر البيئات ومختلف العصور فالعقيدة المسيحية

التى يجوز لصاحب المقارنة بين الأديان أن يجعلها قدوة للاسلام انما هى عقيدة المسيحيين فى الجزيرة العربية وما حولها ، وقد وصف جورج سيل مترجم القرآن الى اللغة الانجليزية حالة المسيحيين فى الحجاز وفى سائر الأنحاء القريبة منه فقال ما ننقله من ترجمة مقدمته للقرآن :

« أنه من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجئوا الى بلاد العرب طلبا للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة ٠ وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاعة وأهل نجران والحيرة ٠٠٠ ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد أنه كان للنصارى أساقفة فى مواضع جمة لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان ٠٠ يدعى أحدهما أسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء ، وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة ٠ أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريكهم » ٠

الى أن يقول :

« أما الكنيسة الشرقية فانها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضى وانتقض حبلها بمماحكاة الأريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع ٠ على أن الذى ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية كانت بأن تدعى اختلافا فى التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافا فى المعتقد نفسه ، وبأن تدعى حجة يتغلب بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من ان تدعى سببا موجبا لالتئام مجامع عديدة يتردد اليها جماعة القساوسة والأساقفة ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته ويحيل القضايا الى هواه ٠ ثم ان نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفرا من قواد الجيش أو من أصحاب الخطب يكون له عليهم الولاء ويتقوى بهم ، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهارا ٠ أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وأرسكينوس فى المشاحنة على

منصة الاسقفية ـ أى أسقفية روما ـ ما أفضى الى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيها ·· وكان أكثر ما تنشأ المناقشات من القياصرة أنفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فانه اذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلاقية ··· هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب· أما فى بلاد هذه الأمة التى هى موضوع بحثنـــا فلم تكن خيرا من ذلك ··· فكان فى قصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الاخر وقيل أن أوربيجانوس هوالذى دس فيهم هذا المذهب ، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب حتى لا نقول نشـــأت فيهـا ؟! · فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بالوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمى أصحاب هذه البدع كليريين ··· وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء لجأوا اليها هربا من اضطهاد القياصرة ··

* * *

كانت عقائد الفرق المسيحية فى جزيرة العرب ، وفى العالم المترامى حول جزيرة العرب على هذا النحو الذى وصفه رجـل متعصب على الاسلام لا يتهم بمحاباته ولا يظن به أنه يتجانف على المسيحية وهو قادر على مداراتها . ومن الواضح البين أن عقائد الفرق المسيحية على ذلك النحو لم تكن مما يغرى بالاعجاب أو مما يدعو الى الاقتداء . ومن الواضح البين أن موقف الاسلام كان موقف المصحح المتمم ولم يكن موقف الناقل المستعير بغير فهم ولا دراية .

فقد جاء الاسلام بالدعوة الى اله منزه عن لوثة الشرك ، منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية الى الأديان الكتابية .

فالله الذى يؤمن به المسلمون اله واحد لم يكن له شركاء « وسبحانه عما يشركون » .

وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ولكنه هو « رب العالمين » خلق الناس جميعا ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى فلا فضل بينهم لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى .

« يا أيُّها الناسُ إنَّا خَلقناكُمْ من ذكرٍ وأنثى وجَعلناكُم شُعوباً وقَبائِلَ لتَعارَفوا إنّ أكرَمكم عندَ اللهِ أتقاكُم » (سورة الحجرات)

وهو واحد أحد « لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولمْ يَكُنْ لهُ كُفواً أحَد » .
(سورة الاخلاص)

لا يأخذ انسانا بذنب انسان ، ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت ولا يدين العالم كله بغير نذير .

« ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » (سورة فاطر)

* * *

« تلكَ أمةٌ قدْ خَلتْ لهَا ما كَسبتْ وَلكُم ما كَسَبْتُمْ ولا تُسْألونَ عمَّا كانُوا يعملون » (سورة البقرة)

* * *

« وما كُنَّا مُعذِّبين حتى نَبعَثَ رَسُولاً » (سورة الإسراء)

* * *

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه « باسم الله الرحمن الرحيم » « وما رَبُّكَ بظَلَّامٍ للعَبِيدِ » (سورة فصلت)

و « هو الأوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ » (سورة الحديد)

« وَسِعَ ربُّنا كلَّ شيءٍ عِلْماً »

« و هو بكلِّ خلقٍ عَليمٌ » (سورة يس)

* * *

وللباحث فى مقارنات الأديان أن يقول ما يشاء عن هذا الاله الواحد الأحد رب العالمين ورب المشرقين والمغربين ، الا ان يقول انه نسخة مستمدة من عقائد عرب الجاهلية أو عقائد الفرق الكتابية التى خالطت عقائد الجاهليين على النحو الذى وصفه جورج سيل فى مقدمته لترجمة القرآن الكريم ، فان العقيدة الالهية التى تستمد من تراث الجاهليين لن تكون لها صبغة أغلب من صبغة العصبية ولا مفخرة أظهر من مفاخر الأحساب ، ولن تخلو من لوثة الشرك ولا من عقابيل العبادات التى امتلأت بالخبائث وحلت فيها الرقى والتعاويذ محل الشعائر والصلوات.

ومعجزة المعجزات أن الاسلام لم يكن كذلك بل كان نقيض ذلك فى صراحة حاسمة جازمة لا تأذن بالهوادة ولا بالمساومة . فما من خلة كانت أبغض اليه من خلة العصبية الجاهلية والمفاخرة الجاهلية والتناجز الجاهلى على فوارق الأنساب والأحزاب .

فمن صميم بلاد العصبية خرج الدين الذى ينكر العصبية .

ومن جوف بلاد القبائل والعشائر خرج الدين الذى يدعو الى اله واحد « رب العالمين » ورب المشرق والمغرب ورب الأمم الانسانية جمعا . بغير فارق بينها غير فارق الصلاح والايمان .

على أن الباحثين الذين يصطنعون سمت العلم من علماء المقارنة بين الأديان فى المغرب يطلقون نعوتهم على الاسلام سماعا فيما يظهر من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التى لايبدو منها أنهم كلفوا عقولهم جدا وحقا أن تلم ألمامة واحدة بهذا الدين فى جملة أو تفصيل .

ففى كتاب من أحدث الكتب عن أديان بنى الانسان ألفه أستاذ للفلسفة فى جامعة كبيرة يقول المؤلف المتخصص لهذه الدراسات بعد

الاشارة الى السيف والعنف والاقتبـاس من النصرانية والصـابئية والمجوسـية :

« ان محمدا أسبغ على الله – ربه – ثوبا من الخلق العربى والشخصية العربية ٠٠ » (١)

ويقول المؤلف ان :

« الحقيقة » التى قررها هنا تتجلى للباحث كلما تقدم فى دراسة هـذا الدين العربى وهذه الشخصية الآلهية العربية »

بهذا النعت التقليدى ينعت المؤلف آله الاسلام بعد أن تقدم فى دراسته على حد قوله .. فماذا كان عساه قائلا لو أنه لم يسمع باسـم الاسلام الا على الاشاعة من بعيد ؟

لعله لم يكن بحاجة الى التقدم وراء البسملة فى سورة الفاتحة ليعلم أن المسلم يدين برب العالمين وأنه يصف ربه بالرحمة مرتين عند الابتداء بكل سورة من سور كتابه ... ولعله كان يحسن المقارنة جدا ، وحقا ، لو أنه قنع بهذه الصفة من صفات اله الاسلام وقارن بينها وبين دين الصفات التى يختارها غير المسلمين فلا يذكرون الله فى مفتتح دعواتهم بغير صفة القوة والجبروت Almighty ؟!

* * *

فالله رب العالمين ، ملك يوم الدين ، لم يكن نسخة محرفة من صورة الله فى عقيدة من العقائد الكتابية ، بل كان هو الأصـل الذى يثوب اليه من ينحرف عن العقيدة فى الاله كأكمل ما كانت عليه وكأكمل ما ينبغى أن يكون .

(١) Man's Religions by Professor John B. Noss. Franklin and Marshall College.

ومن ثم كانت هذه العقيدة الالهية فى الاسلام مصححة متممة لكل عقيدة سبقتها فى مذاهب الديانات أو مذاهب الفلسفة ومباحث الربوبية Theology

فهى عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة الهند فى الكارما والنرفانا ، لأنها عقيدة فى خواء أو فناء مسلوب الذات لا تجاوب بينه وبين أبناء الحيـــاة .

وهى عقيدة كاملة صححت وتممت عقيدة المعلم الأول بين فلاسفة الغرب الأقدمين ، لأنه كان على خطأ فى فهم التجريد والتنزيه ، ساقه هذا الخطأ الى القول بكمال مطلق كالعدم المطلق فى التجرد من العمل والتجرد من الارادة والتجرد من الروح .

ودين يصحح العقائد الالهية ويتممها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلاسفتها — تراه من أين أتى ومن أى رسول كان مبعثه ومدعاه ؟

من صحراء العرب .

ومن الرسول الأمى بين الرسل المبعوثين بالكتب والعبادات .

ان لم يكن هذا وحيا من الله فكيف يكون الوحى من الله ؟

ليكن كيف كان فى أخلاد المؤمنين بالوحى الالهى حيث كان ، فما يهتدى رجل « أمى » فى أكناف الصحراء الى ايمان بالله أكمل من كل ايمان تقدم الا أن يكون ذلك وحيا من الله ، وأنه لحجر على البصائر والعقول أن تنكر الوحى على هذه المعجزة العليا لأنه لا يصدق عليها فى صورة من صور الحدس أو الخيال .

العَقَائِدُ

(٢)

٢
النبوّة

نمت فى الاسلام فكرة النبوة كما نمت فيها الفكرة الإلهية . فبرئت هذه الرسالة السماوية من شوائبها الغليظة التى لصقت بها فى عقائد الأقدمين من أتباع الديانات الوثنية والديانات الكتابية ، وخلصت من بقايا السحر والكهانة كما خلصت من شعوذة الأيهام الخيالى وبدوات الجنون الذى كانوا يسمونه قديما بالجنون المقدس ، لاعتقادهم أن المصابين به يخلطون هذيانهم بوحى الأرواح العلوية التى تستولى عليهم، ونمت نبوة الاسلام نماءها الأوفى حين خلصت من دعوى الخوارق والمغيبات ، وهى آية النبوة الكبرى فى عرف الأقدمين .

ولم تكن براءة النبوة من هذه الشوائب عرضا مسوقا فى أطواء العقيدة بغير قصد ولا بينة ، بل كان وصف النبوة على هذه الصفة المطهرة فريضة مكتوبة على المسلم يعلمها من نصوص كتابه ويؤمن بها ايمانه برسالة نبيه .

فما النبوة بقول ساحر ولا يفلح الساحرون ، وما النبى بكاهن ولا مجنون ..

وَما يَأْتيهم من رسولٍ إلا كانُوا بِهِ يستهزئون . كذلكَ نسلُكُهُ فى قلوبِ المُجرمين ، لايؤمنُون بِهِ وقد خَلتْ سُنَّةُ الأوّلينَ ، ولو فتَحْنا عليهم باباً من السماء فظَلُّوا فيه يعرُجُون لقالوا إنّما سُكِّرتْ أبصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورون [1] .

---

(١) سورة الحجر.

فليست الخوارق مما يغنى النبى فى دعوة المكابر المفتون . انه ليزعمها اذن ضربا من السحر أو السكر ولو فتح له الأنبياء بابا من السماء .

ولقد جاءت الخوارق طائعة لنبى الاسلام فصدقها الناس وأبى لهم أن يصدقوها أو يفهموها على غير حقيقتها ، ولو أنه سكت عنها لحسبوها له معجزة من المعجزات لم يتحقق مثلها من قبل لأحد من المرسلين .

مات ابنه ابراهيم وانكسفت الشمس ساعة دفنه وتصايح المسلمون حول القبر : انها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد عليه السلام . وكسوف الشمس يومئذ خبر من أخبار الفلك الثوابت أيده حساب الفلكيين فى العهد الأخير ، فلو كان صلوات الله عليه رسولا من الرسل الذين يتصيدون الخوارق أو ينكرونها لأنهم لا يستطيعون أن يدعوها لما كلفته هذه الخارقة الا أن يسكت عنها فلا يدعيها ولا ينكرها ، ولكنه لم ينس فى ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه ، وبادرهم لساعتها مذكرا لهم بآيات الله « وان الشمس والقمر آيتان له لاتخسفان لموت أحد ولا لحياته .. »

وما نحسب أن النبوة تعظم بكرامة قط أكرم لها من التوكيد بعد التوكيد فى القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول ، غير مشروطة بما غبر فى الاوهام من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والأنباء بالمغيبات .

« ويَقُولونَ لولَا أُنزِلَ عليه آيةٌ من ربِّهِ فقُلْ إنما الغيبُ للهِ فانتظروا إنى معَكُم من المُنتظِرين » (سورة يونس)

* * *

« قُلْ لاَ أملكُ لنفسي نَفعاً ولا ضَرّا إلا ما شاءَ اللهُ ولو كُنتُ أعلمُ الغيبَ لاستكثرتُ من الخيرِ وما مسَّنيَ السوء إنْ أنا إلّا نذيرٌ وبَشيرٌ لقومٍ يؤْمنُون »
(سورة الأعراف)

* * *

« قُلْ لا أقولُ لكمْ عندِي خَزائِنُ اللهِ ولَا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ لكمْ اِنى مَلَكٌ اِنْ أتبعُ إلّا ما يوحَى اِلىّ قُلْ هَلْ يَستوِى الأعمَى والبصيرُ أفَلا تتَفكّرون »
(سورة الأنعام)

* * *

« وعنده مفاتِحُ الغيبِ لا يعْلمُها إلا هُو » (سورة الأنعام)

* * *

بهذه الفكرة الرشيدة عن النبوة يفرق الاسلام بين طريقين شاسعتين فى تاريخ الأديان : طريق موغلة فى القدم تنحدر الى مهد النبوات الوثنية حيث تشتبك العبادة بالسحر والكهانة ثم تتقدم فى خطوات وئيدة يتلقى فيها الخبل باليقظة وتختلط فيها الخرافة بالالهام الصادق والموعظة الحسنة .

وطريق تليها موغلة فى المستقبل يفتتحها صاحب النبوة الأخيرة فيعلن أنه يفند السحر والكهانة ويزرى بقداسة الجنون أو جنون القداسة ، ويروض بصيرة الانسان على قبول الهداية وأن لم تروضها له روعة الخوارق ودهشة الغيب المجهول . لأنه يروض البصيرة الانسانية على أن تنظر وتبصر ، ولا يستوى الأعمى والبصير .

ومن تأمل هذا الفارق بين الطريقين الشاسعتين فى تاريخ الأديان لا جرم يطيل التأمل فلا يرى عجبا أن تكون هذه النبوة خاتم النبوات . اذ كان الاصلاح بعدها منوطا بدعوات يستطيعها من لا يدعى خارقة تفوق

طاقة الانسان ، ولا يهول العقول بالكشف عن غيب من الغيوب لايدريه الانســان .

* * *

وأبعد شيء عن البحث الأمين أن تنعقد المقــارنة بين هذه النبــوة الاسلامية ونبوءات أخرى تقدمتها فيزعم الباحث أنها نسخة محرفة منها أو منقولة عنها ، فان الفارق بين نبوءة تقوم حجتها الكبرى على هداية العقل والضمير ونبوءات تقوم حجتها الكبرى على الغرائب والأعاجيب— لهو من الفوارق البينة التى لا يمترى فيها باحثان منصفان ، ودع عنك الفارق بين نبوءة تدعو الى رب العالمين ونبوءة تدعو الى رب سلالة أو رب قبيل . وربما اعترى الخطأ مقياسا من مقاييس البحث فتساوت لديه الزيادة والنقص وتعادل أمامه الراجح والمرجوح . فأما أن يرجح النقص على الزيادة فذلك هو الخطأ الذى لا ينجم الا من زيغ فى الطبع أو عناد يتعامى عمدا عن الشمس فى رائعة النهار .

والواقع أن النبوة الاسلامية جاءت مصححة متممة لكل ما تقدمها من فكرة عن النبوة كما كانت عقيدة الاسلام الالهية مصححة متممة لكل ما تقدمها من عقائد بنى الانسان فى الاله .

ومن عجيب الاستقصاء أن القرآن الكريم قد أحصى النبوءات الغابرة بأنواعها فلم يدع منها نوعا واحدا يعرفه اليوم أصحاب المقارنة بين الأديان ، ومن تلك الأنواع نبوءة السحر ونبوءة الرؤيا والأحلام ونبوءة الكهانة ونبوءة الجذب أو الجنون المقدس ونبوءة التنجيم وطوالع الأفلاك ، وكلها مما يدعيه المتنبئون ويدعون معه العلم بالغيب والقدرة على تسخير نواميس الطبيعة ، ولكنها على أتفاقها فى هذه الدعوة تختلف بمصادرها ونظرة الناس اليها أيما اختلاف .

فنبوءة السحر يغلب عليها أنها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء ، ونبوءة الكهانة يغلب عليها أنها موكلة بالأرباب لا تطيع الكاهن ولكنها تلبى دعواته وصلواته وتفتح لها مغالق المجهول فى يقظته أو منامه وترشده بالعلامات والأحلام ولا تلبى سائر الدعوات والصلوات . ولكنهما — نبوءة السحر ونبوءة الكهانة — تخالفان نبوة الجذب والجنون المقدس لأن الساحر والكاهن يدريان بما يطلبان ويريدان قصدا ما يطلبانه بالعزائم والصلوات ، ولكن المصاب بالجذب أو الجنون المقدس مغلوب على أمره ينطلق لسانه بالعبارات المبهمة وهو لايعنيها ولعله لايعيها ، ويكثر بين الأمم التى تشيع فيها نبوة الجذب أن يكون مع المجذوب مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه ولحن رموزه واشاراته ، وقد كانوا فى اليونان يسمون المجذوب « مانتى Manti ويسمون المفسر « بروفيت » Prophet ى المتكلم بالنيابة عن غيره ومن هذه الكلمة نقل الأوربيون كلمة النبوة بجميع معانيها ، وقلما يتفق الكهنة والمجذوبون الا أن يكون الكاهن متوليا للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ومضامين رموزه واشاراته . ويحدث فى أكثر الأحيان أن يختلفا ويتنازعا لأنهما مختلفان بوظيفتهما الاجتماعية مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة . فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها ، والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث فى أكثر الأحيان من آبائه وأجداده ، وتتوقف الكهانة على البيئة التى تنشأ فيها الهياكل والصوامع المقصودة فى الأرجاء القريبة والبعيدة ، ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة لأنه قد يعترى صاحبه فى البرية كما يعتريه فى الحاضر المقصود من أطراف البلاد .

والمقارنة بين النبوة الاسلامية وبين النبوءات التى شاعت فى تاريخ العبريين تغنينا عن تعميم المقارنة فى عامة الديانات التى سبقت ظهور الاسلام ، لأن العبريين قد آمنوا بهذه النبوات جميعا وبينهم ظهرت الديانة الموسوية التى كانت أولى الديانات الكتابية ومرجع المقارنة فى مسائل النبوة وشعائر العقيدة التى تدور عليها المقارنة بين عبادات أهل الكتاب .

وقد عرفت قبائل العبريين نبوءات السحر والكهانة والتنجيم كما عرفتها الشعوب البدائية وابتكرت منها ما ابتكرت على سنة الشعوب كافة ، واقتبست منها ما اقتبست بعد اتصالها بجيرانها فى المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة . ولكنها على خلاف الشائع بين المقلدين من كتاب الغربيين قد تعلمت النبوة الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين فى أرض مدين « .. فكانوا يسمون النبى بالرائى أو الناظر أو رجل الله ولم يطلقوا عليه اسم النبى الا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين فى التوراة ، وهم ملكى صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذى يسمونه « يثرون » معلم موسى الكليم ويرجح بعضهم أنه الخضر عليه السلام للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر فى مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما السلام فى تفسير القرآن الكريم .

ومن علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا الى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب الأستاذ هولشر Holscher والأستاذ شميدث Schmidt اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت فى اللغة العبرية بعد وفود القوم على

فلسطين . الا أن الأمر غني عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين ، من يفقه منهم اللغة العربية ومن لايفقه منها غير الأشباح والخيالات ، فان وفرة الكلمات التى لاتلتبس بمعنى النبوة فى اللغة العربية كالعرافة ، والكهانة ، والعيافة ، والزجر ، والرؤية ، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائى وللنبى ، وتاريخ النبوات العربية التى وردت فى التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبى بدلا من كلمة الرائى والناظر ، وتلمذة موسى لنبى « مدين » مذكورة فى التوراة قبل سائر النبـوات الاسرائيلية ، وموسى الكليم ولا ريب رائد النبوة الكبرى بين بنى اسرائيل .

* * *

والمطلع على الكتب المأثورة بين بنى اسرائيل يتبين منها أنهم آمنوا بهذه النبوات جميعا ، وأنهم بعد ارتقائهم الى الايمان بالنبوة الالهية ما زالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصدق النبى فى دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع بأكبر أنبيائهم ورسلهم عن مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشتغال فى التنجيم .

ففى أخبار صموئيل أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها .. « خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الأتن .. فقال شاول للغلام .. فماذا نقدم للرجل ؟ لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة » .

ويؤخذ من النبوءات التى نسبوها الى النبى يعقوب جد بنى اسرائيل أنهم كانوا يعولون عليه فى صناعة التنجيم فان النبوءات المقرونة بأسماء

أبناء يعقوب تشير الى أبراج السماء وما ينسب اليها من طوالع ومن أمثلتها عن شمعون ولاوى أنهما ، « أخوان سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما لا تدخل نفسى .. لأنهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضائهما عرقبا ثورا .. »

وهذه اشارة الى برج التوأمين وهو برج اله الحرب « زجال » عند البابليين ، ويصورون أحد التوأمين وفى يده خنجر ويصورون أخاه وفى يده منجل .. وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان

ومن الأمثلة فى هذه النبوءات المنسوبة الى يعقوب مثل يهودا .. « جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة . لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب » .

وهذه اشارة الى برج الأسد ، وهو عند البابليين برجان يبدو أمام أحدهما برج يشير الى علامة الملك الذى تخضع له الملوك (١) .

وتجرى النبوءات عن سائر الأسماء — اثنى عشر اسما — كل اسم منها يوافق برجا من أبراج السماء على مثال ما قدمناه .

وقد كثر عدد الأنبياء فى قبائل بنى اسرائيل كثرة يفهم منها أنهم كانوا فى أزمنتهم المتعاقبة يشبهون فى العصور الحديثة أصحاب الأذكار ودراويش الطرق الصوفية ، لأنهم جاوزوا المئات فى بعض العهود واصطنعوا من الرياضة فى جماعاتهم ما يصطنعه هؤلاء الدراويش من التوسل الى حالة الجذب تارة بتعذيب الجسد ، وتارة بالاستماع الى آلات الطرب .

---

(١) The oracles of Jacob, by Eric Burrows.

جاء فى كتاب صموئيل الأول :

أن شاول أرسل لاخذ داود رسلا « فرأوا جماعة الأنبياء يتنبأون وشاول واقف بينهم رئيسا عليهم ، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبأوا هم أيضا وارسل غيرهم فتنبأ هؤلاء ••• فخلع هو أيضا ثيابه وتنبأ هو أيضا أمام صموئيل وانترع عاريا ذلك النهار كله وكل الليل » •

وجاء فى كتاب صموئيل كذلك :

« ••• انك تصادف زمرة من الانبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون ، فيحل عليهم روح الربفيتنبأ معهم وتتحول الى رجل آخر » •

وكانت النبوة صناعة وراثية يتلقاها الأبناء من الآباء كما جاء فى سفر الملوك الثانى : « اذ قال بنو الأنبياء لا ليشع هوذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب الى الأردن .

وكانت لهم خدمة تلحق بالجيش فى بعض المواقع كما جاء فى سفر الأيام الأول حيث قيلأن داود ورؤساء الجيش«أفرزوا للخدمة بنىأسافه وغيرهم من المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج .

* * *

وهؤلاء المئات من المحسوبين على النبوة لبثوا بين قبائل اسرائيل وقرا فادحا لا يصبر القوم على تكاليفه المرهقة الا لمنفعة ينتظرونها من زمرة المتنبئين الذين يثبت لهم صدقهم ، وليست هده المنفعة الا الاعتماد حينا بعد حين على بعض المتنبئين فى الكشف عن الخبايا والانذار بالكوارث المتوقعة ، وأهم ما كان يهمهم من هذه الكوارث أن يحذروا غضب « يهوا » لأنهم جربوا أنه أقدر على النقمة من سائر الأرباب .

وحدث ما لابد أن يحدث فى هذه الحالة من الأسفاف بالكشف الروحى تسخيرا له فى المطالب اليومية على حسب الحاجة اليه فى حينه .

فبدلا من أن يكون الكشف الروحى لمحة من لمحات الصفاء ترتفع فيها حجب الهوى والضلالة عن البصيرة فتدرك مالا تدركه فى عامة أوقاتها — أصبح هذا الكشف صناعة ملازمة لكل من يدعى النبوة بحق أو بغير حق ، ووجب على النبى فى عرفهم أن يكون مستعدا بكراماته ومعجزاته كلما أرادها أو أريدت منه ، وروى القوم من أنباء هذا الاستعداد ما يشبه الاستعداد للمباراة بين فرق الرياضة من الطرفين المتقابلين ، وقد ثبتت لهم غلبة أنباء يهوا على أنبياء البعل على أثر مباراة من هذه المباريات بينهم فى التنبؤ والانذار بالاخطار .

جاء فى كتاب الملوك الأول :

أن « أيزابل » امرأة أخاب ملك اسرائيل قتلت مئات من أنبياء يهوا فلم ينج منهم غير خمسين خبأهم أحد الوزراء المخلصين للدين ثم ظهر النبى « أيليا » متحديا للملك قائلا كما جاء فى الاصحاح الثامن عشر من الكتاب المذكور :

« ·· ولما رأى آخاب ايليا قال له آخاب أأنت هو مكدر اسرائيل · فقال لم أكدر اسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم · فالآن ارسل واجمع الى كل اسرائيل الى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السوارى أربع المئة الذين يأكلون على مائدة ايزابل فأرسل آخاب الى جميع بنى اسرائيل وجمع الانبياء الى جبل الكرمل فتقدم أيليا الى جميع الشعب وقال حتى متى تعرجون بين الفرقتين · ان كان الرب هو الله فاتبعوه ، وان كان البعل فاتبعوه ، فلم يجبه الشعب بكلمة · ثم قال أيليا للشعب أنا بقيت نبيا للرب وحدى وأنبياء البعل أربعمائة وخمسون رجلا · فليعطونا ثورين فيختاروا لانفسهم ثورا واحدا ويقطعوه ويضعوه على الحطب · ولكن لا يضعون نارا وأنا أقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع نارا · ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب · والاله الذى يجيب بنار فهو الله · فأجاب جميع الشعب وقالوا الكلام حسن فقال ايليا لأنبياء البعل اختاروا لانفسكم ثورا واحدا وقربوا أولا لأنكم أنتم الأكثر وادعوا باسم آلهتكم ، ولكن لاتضعوا نارا فأخذوا الثور الذى أعطى لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح الى الظهر قائلين يا بعل أجبنا فلم يكن صوت ولا مجيب · وكانوا يرقعون حول المذبح الذى

عمل وعند الظهر سخر بهم أيليا وقال ادعوا بصوت عال لانه اله لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر أو لعله نائم فيتنبه • فصرخوا بصوت عال وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم ولما جاز الظهر وتنبأوا الى حين اصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا منغ قال أيليا الى جميع الشعب تقدموا الى فتقدم جميع الشعب اليه فرمم مذبح الرب المتهدم ثم أخذ أيليا اثنى عشر حجرا بعدد أسباط بنى يعقوب الذى كان كلام الرب اليه ، قائلا : اسرائيل يكون اسمك، وبنى الحجارة مذبحا باسم الرب، وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البذر ثم رتب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب ثم قال ثنوا فثنوا ، وقال ثلثوا فثلثوا • فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضا ماء وكان عند أصعاد التقدمة أن أيليا النبى تقدم وقال أيها الرب اله ابراهيم واسحق واسرائيل ليعلم اليوم أنك أنت الله فى اسرائيل وأنى أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الامور استجبنى يا رب استجبنى ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الاله وأنك أنت حولت قلوبهم رجوعا فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التى فى القناة • فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا الرب هو الله الرب هو الله فقال له أيليا امسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل • فامسكوهم فنزل بهم أيليا الى نهر قيسون وذبحهم هناك وقال أيليا لآخاب اصعد كل واشرب لانه حس دوى مطر • فصعد آخاب ليأكل وليشرب، وأما أيليا فصعد الى رأس الكرمل وخر الى الأرض وجعل وجهه بين ركبتيه وقال لغلامه اصعد تطلع نحو البحر فصعد وتطلع وقال ليس شيء • فقال ارجع سبع مرات • وفى المرة السابعة قال هوذا غيبة صغيرة قد كف انسان صاعدة من البحر • فقال اصعد قل لآخاب أشدد وانزل لئلا يمنعك المطر وكان من هنا الى هنا أن السماء اسودت من الغيم والريح وكان مطر عظيم فركب آخاب ومضى الى يزرعيل. وكانت يد الرب على أيليا فشد حقوية وركض أمام آخاب حتى تجيء الى يذرعيل » •

* * *

وقد صاحبت القوم هذه الفكرة عن النبوة الحاضرة عند الطلب منذ أوائل عهودهم الى أواخر عهدهم بالأنبياء قبل ظهور السيد المسيح .. فلم تكن النبوة عند القوم فى هذه العهود كافة الا صناعة مرادفة لصناعة

التنجيم أو لصناعة الفراسة المنذرة بالكوارث المتوقعة . فهى اما استطلاع للخبايا أو صيحة فزع من نقمة « يهـوا » الذى تعـودوا أن يعاقبهم بالمصائب الحسية كلما انحرفوا عن سننه ، وأشركوا بعبادته ربا آخر من أرباب الشعوب التى ينازعونها وتنازعهم على المرعى والمقام .

وما يكون للقوم أن يفهموا من النبوة معنى غير معناها هذا ، لأنهم قد تعلموا من أحبارهم وكتبة أسفارهم أن أنبياءهم قد حلوا فى محل العرافين العائفين والسحرة والرقاة الذين ينقلون أقوال الآلهة فى غير بنى اسرائيل .. فهؤلاء جميعا لايصدقون لأنهم ينقلون المعرفة من أرباب غير « يهوا » رب اسرائيل ، وأما شعب اسرائيل فقد قيل لهم : « .. فيقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من أخوتك مثلى له تسمعون . حسب كل ما طلبت من الرب الهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا : « لا أعـود أسمع صوت الرب الهى .! ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت . قال لى الرب قد أحسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وان قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى يتكلم به الرب مما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى . فلا تخف منه — ١٨ سفر الثنية » .

* * *

وهكذا وقر فى أخلاد الشعب من أحباره وعلمائه الى عامة جهلائه أن الكشف على الغيب مرادف لمعنى النبوة ، وأن وقوع الخبر هو امتحان

الصدق الوحيد الذى يمتحن به الأنبياء الصادقون فيما يتحدثون به عن الاله ، وأن الفرق بين أنبيائه وبين السحرة والعرافين والرقاة فى الأمم الأخرى انما هو فرق بين أناس يحسنون الكشف عن الغيب ، وأناس يخطئون فى هـذه الصناعة ، لأنهم ينقلون أنبياءهم عن آلهـة كذبة لا يستحقون العبادة .

* * *

وانه لمن المتفق عليه بين أتباع الديانات الكتابية أن بنى اسرائيل لم يعرفوا النبوة على مثال أتم وأكمل من نبوة موسى الكليم . ومع هذا كان أرفع ما تصوروه من معنى وحى الله اليه عليه السلام أنه كان يخاطبه فما الى فم وعيانا بغير حجاب ، وفى ذلك يقول كاتب الاصحاح الثانى عشر من سفر الخروج ان الله « نزل فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرجا كلاهما فقال : اسمعا كلامى . ان كان منكم للرب فبالرؤيا أستعلم له وفى الحلم أكلمه . وأما عبدى موسى فليس هكذا . بل هو أمين فى كل شىء . فما الى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز » .

وكان اعتقادهم أن موسى عليه السلام يسمع كلام الرب فما الى فم وعيانا بغير حجاب فى كل قضية من قضايا الشعب يعرضونها عليه ، حتى علمه نبى مدين أن يكل القضاء الى أناس من ذوى ثقته وخاصة قومه يلقنهم أحكام الشريعة ويوليهم أمر القضايا الصغيرة مكتفيا بما يعضل عليهم من كبار القضايا . وفى ذلك يقول كاتب الاصحاح الثانى عشر من سفر الخروج :

« وقد حدث فى الغد أن موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح الى المساء ، فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال : ما هذا الامر الذى أنت صانع للشعب ؟ ما بالك جالسا وحدك وجميع

الشعب واقف عندك من الصباح الى المساء ؟ فقال موسى لحميه ان الشعب يأتى الى ليسأل الله : اذا كان لهم دعوى يأتون الىّ فاقضى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه • فقال حمو موسى له : ليس جيدا هذا الامر الذى أنت صانع • أنك تكل أنت وهـذا الشعب الذى معك جميعا • لان الامر أعظم منك لا تستطيع أن تصنعه وحدك • الآن اسمع لصوتى فانصحك • فليكن الله معك . كن انته للشعب أمام الله وقـدم أنت الدعاوى الى الله وعلمهم الفـرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذى يسـلكونه والعمـل الذى يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قـدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشـوة وتقيمهم عليهم رؤسـاء الوف ورؤسـاء مئات ورؤسـاء خماسين ورؤساء عشرات • فيقضون للشعب كل حين ويكون ان كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها اليك وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها وخفف عن نفسك فهم يحملون معك ••• » •

* * *

وبعد نحو ستة قرون من النبوة الموسوية انتهى عهد الأنبياء فى بنى اسرائيل ، ولم يتغير معنى النبوة عندهم فى هذه الفترة الطويلة . بل انحدر الى ما دون ذلك بكثير ، لأن موسى الكليم كان يخاطب الغيب ليتلقى الشريعة . وينقل الى الشعب تحذير الله بنصوص ألفاظه ، وأما الأنبياء بعده فقد تكاثروا بالمئات ليخاطبوا الغيب فيما دون ذلك من الخبايا اليومية ، أو ليتخذوا العلامات والألغاز نذيرا للشعب بالخسائر الحسية التى تصيبه من جراء الخروج على شريعة موسى .

ويتلخص تاريخ النبوة بين بنى اسرائيل اذن فى كلمات معدودات : انهم قد استعاروا فكرة النبوة من جيرانهم العرب الذين ظهر فيهم ملكى صادق على عهد ابراهيم الخليل ، وظهر فيهم بعد ذلك أيوب وبلعام وشعيب ، ففهموا من النبوة معنى غير معنى الرؤية والعرافة والسحر والتنجيم ، وأنهم ما زالوا يتعلمون من جيرانهم الى أن أتى موسى الكليم الذى تتلمذ على حميه نبى مدين قبل جهره بدعوته وبعد أن جهر بهذه الدعوة فى مصر

وخرج بقومه منها الى أرض كنعان ، ولكنهم أخذوها وسلموها فنقضوا منها ولم يزيدوها ، وما كان لهم من حيلة فى زيادتها لأنها — كما فهموها — غير قابلة للزيادة والارتقاء ، ولا مناص من تدهورها مع الزمن وهى موقوفة على قوم دون سواهم لا يشاركون الأقوام فى هداية واحدة ولا فى جامعة انسانية ترتفع بمقاييس الأخلاق والفضائل مع ارتفاع بنى الانسان .

كانت قبائل اسرائيل محصورة فى نفسها ، وكانت عبادتها محصورة فى حدودها ، وكانت قبلتها القصوى من العبادة أن تسلم فى عزلتها مع الهها الذى احتكرته واحتكرها ، فلم تطلب من النبوة الا ما تلتمسه من السلامة فى تلك العزلة : صناعة موقوفة على استطلاع الغيب لتحذيرها من الضربات التى تواجهها ولا تخشاها من آله غير آلهها .

* * *

وبعد ستة قرون من آخر رسالة فى بنى اسرائيل يستمع العالم الى صوت من جانب الجزيرة العربية يدعو الى رب العالمين : رب العربى والأعجمى ، ورب الأبيض والأسود ، ورب كل عشيرة وكل قبيلة ، لا يستأثر بقوم ولا يؤثر قوما على قوم ، الا من عمل صالحا واتقى حدود الله .

صوت نبى ينادى كل من بعث اليه أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الأرض ، ولا يدفع السوء عن نفسه فضلا عن قومه ، ولا يعلم أن الخوارق والمعجزات تنفع أحدا لا ينتفع بعقله ولا يتفكر فيما يسمع من نبى أو رسول !

صوت نبى يقول للناس انه انسان كسائر الناس ، وهو بشير يهدى الى الحق والرشد ، نذير يحذر من الباطل والضلال .

أى مشابهة بين الصوتين ؟

بل أى اختلاف قط بينهما يجاوز هذا الاختلاف ؟

يرثى لمن يقول ان الصوتين سواء . فأما من يقول ان النداء باسم رب العالمين نسخة محرفة من النداء برب القبيلة بين شركائه من أرباب القبائل — فانما هو خطأ حقيق أن يسمى عجزا فى الحس ، لأنه أظهر للحس من أن يحتاج الى اطالة بحث أو تعمق فى تفكير .

ونختم الكلام على النبوة كما نختم الكلام على العقيدة الالهية سائلين : كيف تسنى لنبى الاسلام أن ينفرد بهذه الدعوة وحيدا فى تاريخ الأديان ؟

الارادة الالهية هى الجواب الذى لامعدى عنه لمن يسأل ذلك السؤال .

ومن آمن بالاله فلا معدى له عن ارادة الله فى تفسير هذه الظاهرة التى لا نظير لها فى أديان الكتابيين وغير الكتابيين .. نعم لا معدى له عن ارادة الله ولو وصف الرسول بما شاء من نفاذ البصيرة وسمو الضمير.

العَقائِدُ

(٣)

٣
الانسان

الانسان حيوان ناطق .

الانسان حيوان مدنى بالطبع .

الانسان روح علوى سقط الى الأرض من السماء .

الانسان حيوان راق .

* * *

هذه التعريفات أشهر ما اشتهر من التعريفات المحيطة بمعنىالانسان:

أولها — محيط به من جانب مزاياه العقلية .

وثانيها — محيط به من جانب علاقاته الاجتماعية .

وثالثها — ينظر الى ترتيب الانسان بين أنواع الأحياء على حسب مذهب التطور .

ورابعها — ينظر الى تعريف الانسان بهذه الصفة الى قصة الخطيئة التى وقع فيها آدم حين أكل من شجرة المعرفة بغواية الشيطان .

وكل هذه التعريفات تحيط بمعنى الانسان من بعض نواحيه ، وآخرها لايحيط بمعناه الا عند من يؤمن بقصة الخطيئة ويؤمن معها بميراث الخطيئة فى بنى آدم وحواء .

وأما تعريف الانسان بما وصف به فى القرآن الكريم وأحاديث النبى عليه السلام فقد اجتمع جملة واحدة فى تعريفين جامعين :

الانسان مخلوق مكلف .

والانسان مخلوق على صورة الخالق .

* * *

فالاسلام لا يعرف الخطيئة الموروثة ، ولا يعرف السقوط من طبيعة الى ما دونها ، فلا يحاسب أحدا بذنب أبيه ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وليس مما يدين به المسلم أن يرتد النوع الانسانى الى ما دون طبيعته ، ولكنه مما يؤمن به أن ارتفاع الانسان وهبوطه منوطان بالتكليف ، وقوامه الحرية والتبعة . فهو بأمانة التكليف قابل للصعود الى قمة الخليقة . وهو بالتكليف قابل للهبوط الى أسفل سافلين ، وهذه هى الأمانة التى رفعته مقاما فوق مقام الملائكة ، وهبطت به مقاما الى زمرة الشياطين :

« إِنَّا عَرَضْنا الأمانةَ على السَّمٰوٰتِ والأرْضِ والجبالِ فأبيْن أَن يحملْنَها وأشفقْنَ منها وحمَلَها الإنسانُ » (سورة الأحزاب)

* * *

« بلِ الإنسانُ على نفسِهِ بَصِيرةٌ » (سورة القيامة)

* * *

وبهذه الأمانة ارتفع الانسان مكانا عليا فوق مكان الملائكة ، لأنه قادر على الخير والشر ، فله فضل على من يصنع الخير لأنه لا يقدر على غيره ولا يعرف سواه .

« ويدعُو الإنسانُ بالشَّرِ دعاءهُ بالخيرِ وكانَ الإنسانُ عجولاً » (سورة الإسراء)

* * *

وبهذه الأمانة هبط الانسان غرورا وسرفا الى عداد الشياطين :

« وكذلك جَعَلنا لكلِ نبيٍ عَدواً شياطينَ الإنسِ والجنِ يوحِي بعضُهم إلى بعضٍ زُخرفَ القولِ غُروراً ... »

(سورة الأنعام)

* * *

« إن المُبذِّرِينَ كانُوا إخوانَ الشَّياطِينِ » . (سورة الإسراء)

* * *

وما من نقيصة من نقائص النفس لا تعرو الانسان من قبل هذه الأمانة : أمانة التكليف :

« إنهُ ليئوسٌ كَفورٌ » . (سورة هود)

« إنّ الإنسانَ لظَلومٌ كَفّارٌ » . (سورة إبراهيم)

« إنّ الإنسانَ خُلِق هَلُوعاً إذا مَسّهُ الشرُّ جَزُوعاً وإذا مَسّهُ الخير مَنُوعاً » . (سورة المعراج)

« وكانَ الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جَدَلا » . (سورة الكهف)

« إنّ الإنسانَ لَيطْغَىٰ أنْ رآهُ استغْنَىٰ » (سورة العلق)

« إن الإنسانَ لِربه لكَنودٌ وإنه على ذلكَ لشَهيدٌ وإنه لِحُبِ الخير لَشَديدٌ » . (سورة العاديات)

« إن الإنسانَ لفي خُسْرٍ » (سورة العصر)

« بل يُريدُ الإنسانُ ليفجرَ أمامَه ». (سورة القيامة)

« وكانَ الإنسانُ كَفُوراً » . (سورة الإسراء)

« وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً » . (سورة النساء)

« إنْ يتَّبعونَ إلا الظنَّ وماتَهوَى الأنفسُ . ولقدْ جاءَهم مِن ربِّهمُ الهُدَى أم للإنسانِ ما تمنَّى » . (سورة النجم)

* * *

فهذا الانسان يتردى من أحسن تكوين الى أسفل سافلين ، ولا يزال فى الحالين انسانا مكلفا قابلا للنهوض بنفسه بعد العثرة ، قابلا للتوبة بعد الخطيئة ، محاسبا بما جنت يداه غير محاسب بما جناه سواه .

« وأنْ ليسَ للإنسانِ إلّا ما سَعَى وأنَّ سعيَهُ سوفَ يُرى » ...
(سورة النجم)

* * *

« وكُلَّ إنسانٍ ألزمناهُ طائره فى عُنُقِهِ » ... (سورة الاسراء)

* * *

« ولا تَزِرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرَى » ...
(سورة الأنعام والاسراء وفاطر والزمر)

* * *

« لقد خَلَقنا الإنسانَ فى أحسَنِ تقويمٍ ، ثم رددْناهُ أسْفَلَ سافلينَ ، إلّا الذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ » (سورة التين)

هو مخلوق مكلف .

ذلك جماع ما يوصف به الانسان تمييزا من العجماوات ، وتمييزا من الأرواح العلوية على السواء .

ولهذا كان فى أحسن تقويم .

ولهذا يرتد الى أسفل سافلين .

وقوام التقويم الحسن الايمان وعمل الصالحات ، وسبيل الارتداد الى أسفل سافلين مطاوعة الهوى والغرور والسرف وطغيان القوة والغنى ومنع الخير والهلع من البلاء والعجلة مع الضعف والاغراء .

وقصة آدم مثل لما يعرض للانسان من الخطيئة والنجاة .

خطيئته لاتدينه أبدا ولا تدين أبناءه أبدا ، ونجاته رهينة بتوبته وما ينتفع به من علم ربه .

وعصَى آدمُ ربَّهُ فغوَى ، ثم اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليهِ وهَدَى» ...

(سورة طه)

* * *

« فَتَلَقَّى آدمُ من ربِّهِ كلماتٍ فتابَ عليه ، إنه هو التَّوابُ الرحيمُ » ...

(سورة البقرة)

* * *

ومن تمام خواص الانسانية فى عقيدة المسلم أن قابلية التكليف فى الانسان متصلة بقابلية العلم ويسرة الانتفاع بقوى الجماد والحيوان فى مصالحه وشئون معاشه ..

* * *

«إقرأْ وربُّكَ الأكرمُ ، الذى علَّمَ بالقلم ، علَّمَ الإنسانَ مالَمْ يعلمْ .... »

(سورة العلق)

« وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثم عرضَهم على الملائكةِ فقالَ أنبئُونِى بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كُنتم صادقين ، قالوا سبُحانَكَ لاعِلمَ لنَا إلَّا ما علَّمْتنا إنكَ أنتَ العليمُ الحكيم . » ... (سورة البقرة)

* * *

« ولقد كرّمنا بنى آدمَ وحمَلْناهُم فى البرِّ والبحرِ ورَزَقناهُم من الطيِّباتِ وفضَّلْناهم على كثيرٍ ممنْ خَلَقْنا تفْضيلا » (سورة الإسراء)

* * *

« سخَّر لكمْ مَا فِي الأرْضِ » ... (سورة الحج)

* * *

« سخَّر لكمْ مَا فى السَّمٰواتِ » ... (سورة لقمان)

* * *

هذا العلم الذى استعد له الانسان هو مناط التكليف وهو مآل التبعة التى نهض بها هذا المخلوق المفضل على كثير من المخلوقات الأمين على نفسه وعليها بما وهب له الله من قدرة ومن دراية .

فاذا قامت الكفارة على الخطيئة الموروثة فى المسيحية ، فالأمانة فى الاسلام هى التى يقوم عليها الخلاص ويرجع اليها التكليف وتكتب عليها تبعته فى حياته غير مسئول عما سلف من قبله : تبعة يحملها بما كان له من قدرة عليها وعلى سائر مخلوقات الله التى فى ولايته .

ولا بد أن تعرض لنا مسألة القدر مع مسألة التكليف . ومسألة القدر — كما لايخفى — هى معضلة المعضلات فى جميع الأديان ومذاهب الحكمة والفلسفة ، لأنها هى مسألة الحرية الانسانية والارادة المختارة ، وهى فى الحق مسألة الانسان الكبرى فى علاقته الأبدية بالكون ، فلا نهاية لها الى آخر الزمان ، ولم تواجهها عقيدة غابرة أو حاضرة بأفضل مما واجهها به الاسلام .

ونظرة موجزة فيما انتهت اليه العقائد والمذاهب فى الأمم الغابرة والحاضرة تمهد لنا وسيلة المقارنة بين مسألة القدر فى تلك العقائد

والمذاهب جميعا وبين هذه المسألة فى الديانة الاسلامية كما بسطتها آيات القرآن الكريم .

كان الهنود الأقدمون يجعلون للقدر الحكم الذى لاحكم غيره فى جميع الموجودات ومنها الالهة والناس والأحياء والنبـات والجماد ، ولا فكاك من قبضة « الكارما » فى أدوارها التى تتعاقب بين الوجود والفناء الى غير انتهاء ، ولا اختيار للانسان فى الحالة التى يولد عليها لأنها مقدورة عليه من قبل ميلاده منذ أزل الآزال ، ولا تبديل لها الى أبد الآباد حتى ينفصل من دولاب الخلق ، باجتناب الولادة واللياذ بعالم الفناء أو عالم « النرڤانا » المطلق من قيود « الوعى » والشعور بالشـقاوة أو النعيم .

وحل المجوس مشكلة القدر بعقيدتهم فى الثنوية وانقسام الوجود بين اله النور واله الظلام . فكل ما غلب عليه اله النور فهو خير وكل ما غلب عليه آله الظلام فهو شر ، ولا عاصم لاله النور نفسه من غلبة الشر عليه فى تلك الحرب السجال التى لا تنتهى الا بنهاية للكون كله تتخبط فيها الظنون .

وآمن اليونان بغلبة القدر على العباد والمعبودين . ورواياتهم عن ضرباته تمثله للناس هازئا بهم متحديا لهم يطاردهم ويتجنى عليهم ويريهم عجزهم عن الفرار من نقمته أو نقمـة رسـوله « نمسيس » Nemesis ربة الثأر التى تأخذ الجار بذنب الجار وتلاحق البعيد بجريرة القريب .

وآمن المصريون الأقدمون بالقدر وبالحرية الانسانية ، فأقاموا فى العالم الآخر محكمة سماوية يقف الميت بين يديها ويحاسب على أعماله وتحسب له أو عليه صلوات الكهنة والشفعاء .

وآمن البابليون بالطوالع التى تلازم الانسان بحكم مولده تحت نجم من النجوم يحسب فى علمهم من نجوم السعود أو نجوم النحوس . وجعلوا للأيام نجوما تدور معها ولا تخرج هـذه الأيام من طالعها ، وجعلوا للفصول نجوما تتداولها ولا تتغير فى مجاريها الا بما يكون من وساطة المنجمين وضحايا أصحاب القرابين .

والديانة الاسرائيلية تؤمن — على ما هو معلوم — باختيار الاله لشعب يؤثره على سائر الشعوب وذرية يؤثرها على سائر الذرارى ، واناس يؤثرهم على سائر الناس قبـل خروجهم من بطون الأمهات . فبورك يعقوب وحاق السخط الالهى بعيسو وهما فى البطن جنينـان توأمان ، وأصابت البركة والسخط بنيهما الى أعقاب الأعقاب : « ومن أحشائك يفترق شعبان ، شعب يقوى على شعب وكبير يستعبده صغير.. » .. ولم يبلغ القدر عند بنى اسرائيل أن يكون نظاما كونيا يجرى عليه قضاء الله مجرى النواميس والشرائع الأخلاقية . بل كان « يهوا » يجرى فيه على حكم ثم يندم عليه ويبدله تارة بعد تارة على حسب الحالة التى تطرأ بغير حسبان .. قال النبى أرميا يتحدث باسم يهوا .. « قم أنزل الى بيت الفخارى وهناك اسمع كلامى . فنزلت الى بيت الفخارى اذا هو يصنع عملا على الدولاب . ففسد الوعاء الذى كان يصنعه من الطين بيد الفخارى فعاد وعمله وعاء آخر كما حسن فى عينى الفخارى أن يصنعه . فعاد الىّ كلام الرب قائلا : أما أستطيع أن أصنع لكم كهذا بيدى يا بيت اسرائيل ؟ يقول الرب : هوذا كالطين بين الفخار أنتم كهذا بيدى يابيت اسرائيل . وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالقلع والهدم والأهـلاك فترجع تلك الأمـة التى تكلمت عليها عن شرها فأندم على الشر الذى قصدت أن أصنع بها ، وتارة أتكلم على أمة وعلى مملكة بالبناء والغرس

فتفعل الشر فى عينى فلا تسمع لصوتى فأندم على الخير الذى قلت انى أحسن اليها به » .

وقد ذكر فى سفر الخروج أن يهوا وصف نفسه فقال :

« أنا الرب الهك اله غيور افتقد ذنوب الآباء فى الابناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى واصنع احسانا الى الوف من محبى وحافظى وصاياى »

* * *

ثم جاءت المسيحية بعد الاسرائيلية فربطت بين خطيئة آدم وقضاء الموت عليه وعلى أبنائه ، ومن لم يربط بين الخطيئة وقضاء الموت من المتأخرين جعل الهلاك الروحى قضاء محتوما بديلا من موت الجسد . وأقدم ما جاء من أقوال الرسل المسيحيين عن قضاء الموت فى الانسان كلام بولس الرسول من رسالته الى أهل روما . فانه فى هذه الرسالة يقرر أن الأكل من الشجرة هو أصل الشر فى العالم الانسانى ، وكفارته الموت الذى يصيب الجسد ولا تكون كفارة الروح الا بفداء السيد المسيح ، وقد عاد بولس الى مثل الفخار والخزف فقال : « ماذا نقول ؟ ألعل عند الله ظلما ؟ .. حاشا لله . لأنه يقول لموسى : أرحم من أرحم وأرأف بمن أرأف . فليس الأمر لمن يشاء أو لمن يسعى ، بل الله الذى يرحم .. ومن أنت أيها الانسان حتى تحارب الله ؟ ألعل الجبلة تقول لجابلها لماذا صنعتنى هكذا ؟ أليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ؟ فماذا ان كان الله — وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته — احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهيأة للهلاك ، ولكى يبين غنى مجده عمل آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد .. » .

* * *

وتتباعد آراء العلم الطبيعي والفلسفة النظرية فى هذه المسألة كما تباعدت عقائد الأديان وأقوال المتدينين فيها ، وزبدة آراء العلماء الطبيعيين الى أوائل القرن العشرين أن قوانين المادة تحكم كل شىء فى عالم الجسد فهى ضرورات حتمية لا موضع فيها للحرية الانسانية الا أن تجرى فى مجرى تلك القوانين ، ثم جدت فى القرن العشرين نظريات تشكك فى هذه الحتمية المقيدة بالنواميس والقوانين يقول بها كبار العلماء من طبقة نيلز بوهر الدنمركى Niels. Bohr صاحب جائزة نوبل للعلــوم عن سنة ١٩٢٢ وهينزنبرج Heisenborg. الألمــــانى صاحب جائزة نوبل للعلوم سنة ١٩٣٢ .. والأول يقرر أن الكهارب لاتتبع فى انتقالها قانونا مضطردا تجرى عليه فى الذرة وهى عنصر المادة ، والثانى يقرر أن التجربة العلمية لا تأتى فى تكرارها بنتيجة واحدة وأن التجــارب جميعا تؤيد اللاحتمية ولا تؤيد الحتمية التى اصطلح عليها جمهرة العلماء الطبيعيين الى أوائل القرن العشرين ، ويرد على هيزنبرج علماء آخرون فيقولون ان التجارب تختلف لأن آلات الضبط العلمى لاتحيط بجميع العوامل التى تتكرر فى كل تجربة ، واننا اذا تحققنا من وحدة العوامل فى كل تجربة متكررة فالنتيجة لاشك واحدة .

ولا تحصى مذاهب الفلاسفة وتفريعاتهم على هذه المذاهب فى مسألة القدر والحرية والجبرية والحتمية واللاحتمية . الا أننا نستصفى منها زبدة جامعة لمذهب الواقعيين ومذهب الروحيين أو المثاليين . فزبدة مذهب الواقعيين أن الانسان يفعل ما يريد ولكنه لايريد ما يريد ، وهم يعنون بذلك أن الارادة تختار ، ولكن هذه الارادة نفسها مقيدة بتكوين الانسان الذى تشترك فيه الوراثة وبنية الجســم وضرورات البيئة ، فلا يخلق

الانسان ارادته ، بل تولد فيه هذه الارادة وتنشأ معه بغير اختياره ، فيفعل كما يريد ولكنه لا يريد كما يريد .

وزبدة مذهب الروحيين أو المثاليين أن الانسان جسد وروح . فجسده خاضع لأحكام المادة كسائر الأجساد ، وروحه طليق مختار يخضع لجسده فى أمور ويخضع هو جسده فى أمور ، وهو المسئول اذا انقاد لدواعى جسده ولم يجهد جهده للانتفاع بحريته فى مقاومة تلك الدواعى وموازنتها بما يصلحها عند فسادها ويقومها عند اعوجاجها .

* * *

وجميع هذه المذاهب لاتحل مشكلة القدر على الوجه الحاسم الذى تتفق عليه العقول وترتاح اليه الضمائر . وليس فيها — بتفصيلاتها — عقيدة تفضل عقيدة المسلم أو تقترب من حل لمسألة القدر لم تقترب منه تلك العقيدة .

وقبل أن نجمل أقوال الثقات فى تفسير آيات القرآن الكريم نعود الى مشكلة الشر التى قلنا فى فاتحة هذا الكتاب انها مشكلة شعورية وليست مسألة عقلية فى جوهرها . ومشكلة القدر هى مشكلة الشر بعينها معادة فى عبارات أخرى ، اذ هى مشكلة المحاسبة على الشر الذى يفعله الانسان ويريد أن يعلم مبلغ نصيبه من التبعة فى احتمال جزائه .

وليس فى الأمر مشكلة عقلية . لأن العقل لايستطيع — مع الايمان بوجود الله — أن ينكر قدرته وحكمته وعدله فى اجراء حكمته وقدرته .

والعقل كذلك لا يستطيع أن يعتقد أن الانسان المكلف والحجر الجامد سواء فى الاختيار ، ولا يستطيع أن ينكر التفاوت بين الناس فى الحرية أو التفاوت بين أعمال الفرد الواحد فى الاختيار على حسب الرغبة والمعــرفة .

وانما تبرز المشكلة عند ما تمس الانسان فى شعوره ويحتاج الى التوفيق بين قدرة الله وعدله فيما يصيبه من ألم الجزاء وعذاب النــدم والتبكيت .

ولا شك عندنا فى حقيقة واحدة نعتقد أنها تلم شعث الخلاف كثيرا بعد طول التأمل فيها ..

تلك الحقيقة أن العدل الالهى لاتحيط به النظرة الواحدة الى حالة واحدة ، ولا مناص من التعميم والاحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العدل فى تصريف الارادة الالهية .

ان البقعة السوداء فى الصورة الجميلة وصمة قبيحة اذا حجبنــا الصورة ونظرنا الى تلك البقعة بمعزل عنها ، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون فى الصورة كلها لونا من ألوانها التى لاغنى عنها أو التى تضيف الى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها .

ونحن فى حياتنا القريبة قد نبكى لحادث يصيبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته .

فالنظر الى الكون فى ألف سنة يكشف لنا من دلائل التوفيق بين القدرة الالهية والعدل الالهى ما لا تكشفه النظرة اليه فى سنة واحدة ، وندع القول عن النظرة للحادث الواحد فى الناحية الواحدة من حياة فرد بعينه من أفراد الأمم الانسانية .

وعلى هذا النحو نقول اننا نقترب من التوفيق بين القدرة الالهية والعدل الالهى ولا نقول أننا نحيط بدلائل هذا التوفيق جميعها . فان الاحاطة بدلائل الحكمة الالهية أمر غير معقول فى حكم العقل نفسه . اذ كان العقل المحدود لا يحيط بالقدرة التى ليست لها حدود .

وعلى هذا النحو تتوارد آيات القرآن الكريم عن قدرة الله وعن حرية الانسان وعن عدل الله فى اجراء قدرته ومحاسبة المخلوق على حريته :

* * *

« وما تَشاءون إلّا أنْ يشاء اللهُ إنّ اللهَ كان عليما حكيما »...

(سورة الإنسان)

* * *

« ولو شِئْنا لآتينا كلّ نفسٍ هُداها » ... (سورة السجدة)

* * *

« ذلك بِأنّ اللهَ لم يكُ مُغَيِّرًا نِعمةً أنْعَمَها على قومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم » ... (سورة الأنفال)

* * *

« كلُّ امرىء بمَا كَسَب رهينٌ » ... (سورة الطور)

* * *

« وما ربُّك بظلّامٍ للعبيدِ » ... (سورة فصلت)

* * *

« وما اللهُ يريدُ ظُلماً للعباد » ... (سورة آل عمران)

* * *

« إن اللهُ لا يأمرُ بالفحْشاء أتقولونَ على اللهِ مالّا تَعلمونَ »

(سورة الأعراف)

* * *

ولعل الصعوبة الكبرى انما تساور العقل من فهم قوله تعـالى : « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » .. فلم لا يشاء الله أن تؤتى كل نفس هداها على السواء ؟

وتذليل الصعوبة فى الجواب نفسه . فان الهداية اذا ركبت فى طبائع الناس كما تركب خصائص الأجسام على السواء بين كل جسم وجسم فتلك هى الهداية الآلية التى لا اختلاف بها بين مدارك الأرواح ولوازم الأجسام المادية . ومن اختار ذلك فانما يختار لنوع الانسان منزلة دون منزلته التى كرمته وفضلته على سائر المخلوقات .

فالعدل فيما اختاره الله للانسان أعم وأكرم مما يختاره الانسان لنفسه اذا هو آثر الهداية التى تسوى بينه وبين الجماد .

* * *

وأيا كان القرار الذى يسكن اليه المسلم بعد تلاوة هذه الآيات فمن الصدق لضميره أنه لابد أن يكون فى ذلك القرار عمل للعقيدة الايمانية ، وعمل العقيدة الايمانية هو أن يعالج شعور القلق بشعور الطمأنينة والثقة ، وبخاصة اذا أيقن العقل أن قدرة الله لن تكون الا على هذه الصفة وأن حرية الانسان لن تكون الا على هذا الوجه ، وأن حريته على هذا الوجه لاتناقض أمكان العدل الالهى متى التمسنا دلائل هذا العدل فى آيات الكون كله ولم نقصرها على حادث فى حياة مخلوق يتغير شعوره بآلامه وعواقبها من حين الى حين .

* * *

وكثيرا ما تمر بنا فى رحلات الغربيين الى الشرق الاسلامى كلمات منقولة عن التركية والعربية مثل كلمة : « قسمت » وكلمة « مكتوب » وكلمة « مقدر » يرددونها بالألفاظ محرفة عن ألسنة العامة فى البلاد التى يرحلون اليها ، ويفهمون منها أن المسلم جبرى مستغرق فى الجبرية يستسلم للحوادث ولا يرى أن المحاولة تجديه شيئا فى أصلاح شأنه أو تغيير

قسمته . ومما لا مراء فيه أن هذه الجبرية مسموعة على أفواه الجهلاء شائعة بينهم فى عصور الجمود والاضمحلال ، ولكنها اذا نسبت الى الدين لم يكن لنسبتها اليه سند من الكتاب الكريم ، ولا من الحديث الشريف. فان جبرية المسلم العارف لكتابه وسنة نبيه لن تكون كجبرية أحد من الذين آمنوا قديما بالكارما الهندية أو بالطوالع البابلية أو بالقدر الغاشم فى الأساطير اليونانية ، ولا يستطيع المسلم العارف لكتابه وسنة نبيه أن يدين بجبرية كجبرية المؤمن باصطفاء الله لسلالة من السلالات وخروج سائر السلالات من حظيرة رحمته ونعمته ، ولا يستطيع أن يدين بجبرية كجبرية المؤمن بوراثة الخطيئة وقبول الكفارة عنها بعمل غير عمله . وانما جبرية المسلم على حسب علمه بدينه جبرية ينتهى اليها كل من آمن بقدرة الله وعدله ، وآمن بأن الهداية من طريق التكليف أصح وأدنى الى العدل الالهى من هداية آلية تتركب فى طبائع الناس جميعا كما تتركب خصائص المادة فى طبائع الأجسام

* * *

وبعد فنحن نكتب هذا الفصل عن الانسان فى العصر الذى زيد فيه تعريف" محيط الانسان على التعريفات المحيطة التى اشتهرت من قبل وأجملناها فى أول هذا الفصل لنضيف اليها التعريف المحيط بحقيقة الانسان فى عقيدة الاسلام .

هذا التعريف الجديد الذى زيد فى العصر الأخير هو تعريف العلماء النشوئيين القائلين بمذهب التطور أو مذهب النشوء والارتقاء ، ومعظمهم يعرفون الانسان بأنه حيوان راق ... فيضعون هذا التعريف مقابلا لقول القائلين أن الانسان روح منكوس أو ملك ساقط من السماء .

ما قول المسلم فى هذا المذهب الجديد ؟ أتراه يصدقه ؟ أتراه يكذبه ؟ وهل فى نصوص دينه ما يفسر هذا المذهب تفسير الموافقة والقبول ؟ وهل فى نصوص دينه ما يفسر تفسيرا يوجب عليه رفضه والاعراض عنه ؟

نحن لا نحب أن نقحم الكتاب فى تفسير المذاهب العلمية والنظريات الطبيعية كلما ظهر منها مذهب قابل للمناقشة والتعديل ، أو ظهرت منها نظرية يقول بها أناس ويرفضها آخرون ، ومهما يكن من ثبوت النظريات المنسوبة الى العلم فهو ثبوت الى حين لا يلبث أن يطرق اليه الشك ويتحيفه التعديل والتصحيح ، وقريباً رأينا من فضلائنا من يفسر السموات السبع بالسيارات السبع فى المنظومة الشمسية ، ثم تبين أن السيارات أكثر من عشر ، وأن الصغار منها تعد بالمئات ولا يحصرها الاحصاء ، فليس من الصواب اذن أن نقحم أصول العقيدة فى تفسير أقوال وآراء ليست من الأصول فى علومها ولا يصح أن تتوقف عليها الأصول ، وحسب الدين من سلامة المعتقد وموافقته للعقل أنه لا يحول بين صاحبه وبين البحث فى العلم وقبول الرأى الذى تأتى به فتوح الكشف والاستنباط . وعلى هذه السنة يرجع المسلم الى آيات كتابه وأحاديث نبيه فلا يرى فيها مانعا يمنعه أن يدرس التطور ويسترسل فى مباحثته العلمية الى حيث يلهمه الفكر وتقوده التجربة .

* * *

« ذلكَ عَالِمُ الغيْبِ والشهادةِ العزيزُ الرحيمُ ، الذى أحسَنَ كلَّ شىء خَلقَهُ وَ بدأ خَلْقَ الإنسانِ مِن طينٍ ، ثم جَعَل نَسْلَهُ مِنْ سُلالةٍ من ماء مَهينٍ ، ثم سَوّاهُ ونَفَخَ فيه مِن رُوحهِ » . (سورة السجدة)

* * *

« ولقد خَلقنا الإنسان من سُلالةٍ من طِين » ... (سورة المؤمنون)

* * *

واذا اعتقد المسلم أن خلق الانسان الأول مبدوء من الأرض وأنه مخلوق من سلالة أرضية فلا عليه بعد ذلك أن يسفر مذهب التطور عن نتيجته المقررة كيف كانت على الوجه القاطع المتفق عليه ، فما يكون فى هذه النتيجة نقض لعقيدة المسلم فى أصل الانسان : انه جسد من الأرض وروح من عند الله ، وليس فى وسع العالم النشوئى أن يدحض هــذه العقيدة برأى قاطع أحق منها بالتطبيق والايمان .

* * *

يقول نيتشه فى احدى كلماته التى لاندرى أفى جد أم مزاح : ان الانسان قنطرة بين القرد والسوبرمان .

وكاد يمزح من يقول هذه الكلمة وان لم يقصد الى المزاح . فان القنطرة التى قصاراها أن تنقل الانسان من قرد الى سوبرمان لاتوجد ولا يمكن أن توجد .. فتلك قنطرة لايبنيها القرد ولا يبنيها السوبرمان ولا تبنى نفسها بيديها ولا تبنيها الطبيعة التى قد تخطو من حالق الى الهاوية ، وقد تخطو من الهاوية يمنة ويسرة الى غير وجهة .

انما الاحجى أن يقال ان الانسان قنطرة من الأرض الى السماء يبنيها الله :

قنطرة قرارها أسفل سافلين وذروتها أعلى عليين .

معراج من التراب المجبول الى أفق الأرواح والعقول .

« يا أيُّها الإنسانُ إنكَ كادحٌ إلى ربِّك كَدْحاً فَمُلاقيه » ...

(سورة الانشقاق)

وانه لملاقيه لأنه مخلوق على صورته كما جاء فى الحديث النبوى الشريف .

مخلوق على صورة الخالق .

يرتفع من التراب الى السماء أوجا فوق أوج فى طريق عسر طويل هو طريق النهوض بأمانة التكليف .

وما من مسلم يدين بصورة جسدية للاله الواحد الأحد الذى « ليس كمثله شىء » وله المثل الأعلى .

صورته فى خلد المسلم كوجهه ويده المذكورين فى القرآن الكريم : صورة تناسب كماله ووجه ويد تناسبان ذلك الكمال .

والانسان مخلوق على صورة الخالق لأن صورته جل وعـلا هى صورة كاملة من الصفات الحسنى فى مثلها الأعلى .

رحمة وكرم وعلم وعمـل ومشيئة ومجد وعظمة وفتح وابداع وانشـاء .

وكل صفة من هذه الصفات مطلوبة من الانسـان على غاية ما يستطيع .

لا يرتقى ذلك المرتقى الذى لايدرك بالأبصار ولا بالعقول ، ولكنه يرتقى قادرا على الارتقاء من التراب الى السماء .

مخلوق على صورة الخالق .

مخلوق تهبط به أمانة التكليف الى أسفل سافلين وترتفـع به الى أعلى عليين .

ذلك هو الانسان فى عقيدة الاله الواحد الأحـد الذى لا أول له ولا آخـر .

ذلك هو الانسان فى عقيدة النبى الصادق الأمين : نبى يدعو الى رب العالمين .

العَقَائِدُ

(٤)

٤
الشيطان

فى الكلمة التمهيدية التى قدمنا بها لكتابنا عن « أبليس » قلنا ان معرفة الانسان للشيطان كانت فاتحة خير ... لأنه لم يعرف الشيطان الا بعد أن عرف الخير والشر ، وعرف الفرق بين الشر والضرر . فعرف أن الشر لايجوز وكان كل ما يعرفه منه أنه لايسر ولا يوافق مآربه وشهواته، وعرف أن مخالفة المآرب والشهوات لا تكون شرا على الدوام بل هى خير فى كثير من الأحيان ، ومن ثم عرف كيف يكبح مآربه وشهواته وهو راض مطمئن لأنه يعلم أنه عامل للخير مستقيم على نهج الصلاح .

وقارنا فى فصول الكتاب بين أسلوب الدين فى تعليم الأخلاق وأسلوب التلقين والتعليم الذى سميناه بالأسلوب الأكاديمى ، أو أسلوب المطالعة والدراسة . وان بين الأسلوبين فى أعماق النفس وفى ميادين العمل لبونا جد بعيد ، لأن حدود الخير والشر فى أحدهما حيوية تمتزج بالشعور والوجدان وتسمو الى تقديس الخيرات أو تنحدر الى النفور من نجاسة الشرور ، وما الأسلوب الآخر — أسلوب التلقين والمطالعة الا أسلوب أوراق وأذواق تنقسم فيه معانى الخير والشر فى الضمير والفكر كأنها أقسام فى صفحات أو تصنيفات فى الودائع والمخزونات .

وختمنا كتاب أبليس بكلمة عن مقاييس الحقائق التى تعددت وتنوعت فلا تقاس كلها بمقياس الحساب أو مقياس المعمل أو مقياس التجربة المحسوسة ، وبخاصة ما كان منها متصلا بالضمير والوجدان .

« ولا نخال أن السريرة الانسانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم — علم المقارنة بين الأديان — وعلم الدراسات النفسية ؛ وهو فى خطواته الأولى أو على أبواب النتائج التى لاتتفتح الا بين التردد والانتظـــار .

« لكن الفائدة المبكرة التى خلصت للعقل الانســـانى من بواكير البحث فى العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأنابيق المعامل وتجارب العلميين ومناظر الفلكيين» .

« فهاهنا حشد من العقائد والأخيلة تمتلىء به سيرة النوع الانسانى فى نحو مائة قرن يدركها التاريخ .

« ما هى فى أرقام الحساب أو أنابيق المعامل أو تجارب الطبيعـــة أو مناظر الفلكيين ؟

« سهل على أدعياء العلم أن يعرفوها بكلمتين : حديث خرافة !

وحديث الخرافة يجب أن يلغى . فتعالوا نلغه ونعهد لأدعياء العلم جميعا أن يبدأوا بالنوع الانسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية . وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الانسانى قبل مائة قرن وليأخذوا فى تعليمه الأبجدية من هذه الدروس .

« ولنفرض أولا فرضا مستحيلا أنهم سيكونون قبل مائةقرن على معرفة بما يسمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقا وما يسمونه دراســة منطقية أو علمية .

« وليبدأ النوع الانسانى فى هذه المدرسة بفلسفات الأخـــلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها .

« وليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها ...

« ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء .. !

« ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة الى القرن العشرين فماذا تقول ؟

« تقول ان هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لايعدو الألفاظ والعناوين وأسماء المدارس والمريدين .

« لكن النوع الانسانى ترك هذه الأكاديمية قبل مئة قرن وأمعن فى طريقه الذى هداه اليه القدر وأعدته له الفطرة . ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضة لكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداسة واللعنة، وأن علم العلماء اليوم لا يستطيع أن يقيم من الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فارقا واحدا كالفارق الذى نفهمه ونحسه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الالهية والخلائق الملكية أو الخلائق الشيطانية أو عما يجعلها من الخلائق السماوية أو الخلائق الأرضية أو الخلائق الجهنمية .

« ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعبا بالألفاظ أو تظرفا بالتمثيل والتشـــبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لأنه أولى وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعيرونه من المدرسة النفعية أو المدرسة السلوكية أو المدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة أو تضامن الهيئات والبيئات وما اليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق من مسمياتها شيئا وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون .. وغاية ما تبلغه أنها تأتى الى محصول القرون بعد زرعه ونمائه واستوائه وحصده ، فتكتب العناوين على غلاته وبيادره ولا تأمن بعد ذلك أن تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها .

« فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقاس بمقياس الأرقام

وأنابيق المعامل ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذي سيخطىء لا محال ، كما يخطىء كل واضع لأمر من الأمور فى غير موضعه ، وكل من يقيس شيئا وهو يجهل كيف يقاس .. »

* * *

أن الايمان شوق عميق من أشواق النفس الانسانية ينساق اليه الانسان بباعث من فطرته .

أما الشيء الذى يحتاج الى أناة الفكرة ورحابة الصدر وقياس كل حقيقة بما يناسبها من مقاييسها وخصائصها فذلك هو النفاذ الى أسرار الايمـان .

وكل العقائد الايمانية سواء فى حاجة الى أناة الفكر ورحابة الصدر وحسن القياس للنفاذ الى أسرارها ، ولكن العقيدة فى عمل الشيطان أحوج هذه العقائد جميعا الى التسليم بسعة الحقائق وتعدد المقاييس التى تكشف عن بواطنها وتنفذ الى كنه مدلولاتها .

ومن حضرت فى ذهنه سعة الحقائق وجد بين يديه صعوبة لا صعوبة مثلها فى رفض فكرة الشيطان كما يرفضها أدعياء العلم الذين لو جروا على سننهم فى اثبات الأشياء لرفضوا وجود المادة الملموسة عجزا منهم عن ادراك أصولها ، وما أصولها الا العناصر التى تنشق شعاعا متحركا فى أثير لا وزن له ولا حجم ولا حركة ولا لون ولا طعم ولا تعرف له صفة واحدة من صفات الأجسام بله الأرواح .

وما نعلم من شيء كهذه العقائد فى بواعث الخير والشر قد تراءت فيه يد العناية الالهية آخذة بيمين هذا الانسان الضعيف — بل هذا الحيوان الجهول — تقوده من عماية الجهالة الى هداية التمييز بين الفضيلة والرذيلة وبين الحلال والحرام وبين الفروض والمحظور .

ومن ثم نرى أن مراحل الانتقال فى تصور روح الشر — أو تصور الشيطان — قد تكون من أوضح المعالم لمتابعة الضمير الانسانى فى ارتقائه وتمييزه ، وانه لمن السهل أن تعرف الانسان بمقدار ما يشعر به نحو الشر من النفور أو الخوف . وليست بهذه السهولة معرفتنا للانسان بمقدار مايتمثله من المثل العليا للخير والفضيلة . لأن المثل العليا بطبيعتها تبتعد عن الواقع وتمتزج بالآمال والفروض ، ويشبه هذا فى عالم الحس أن قياس الانحطاط بالنسبة الى الحضيض سهل محدود المسافات ولكن قياس الصعود والارتفاع بالنسبة الى الآفاق العليا أصعب من ذلك بكثير.

ونحن — بالمقارنة بين هذه المراحل فى تصور فكرة الشيطان وسلطان الشر على النفس البشرية — نستطيع أن نبين مرحلة العقيدة الاسلامية من هذه المراحل وأن نعرف منها مدى قوة الضمير الانسانى فى مواجهة قوة الشر كما طرأت على العقائد لأول مرة فى تاريخ الأديان .

بدأ الانسان خطواته المتعسرة فى طريق الخير والشر حيوانا ضعيفا يفهم الضرر ولا يفهم الشر ولا يدريه ، واذا فهم الضرر فانما هو الضرر فى جسده أو فيما يطلبه الجسد من مطالب الطعام والشراب والأمن والراحة ، وكانت الأرواح كلها ضارة تلاحقه بالأذى والاساءة ما لم يتوسل الى مرضاتها بوسائل الشفاعة والضراعة أو بوسائل الضحايا والقرابين .

ثم انقسمت الأرواح عنده الى ضارة وغير ضارة ، وما لم يكن ضارا منها فليس امتناعه عن الضرر لأنه يحب الخير أو يكره الشر ، بل هو يمتنع عن الأضرار به لأنه روح من أرواح أسلافه وذوى قرابته يصادقه كما يصادق الأب ذريته والقريب ذوى قرباه .

ثم طالت مرحلته فى هذه الطريق حتى سنح له بصيص من التمييز بين الضرر الذى يجوز والضرر الذى لا يجوز ، وقد سنح له هذا البصيص من عادة الارتباط بالعهود والمواثيق بينه وبين أربابه وبينه وبين عشرائه وحلفائه ، فما كان مخالفا للعهود والمواثيق فهو ضرر مستغرب لا يجوز ، وما كان ضررا لا يجوز فهو لون من ألوان الشر الذى كان مجهولا قبل الارتباط بعهود الصلاة والعبادة أو عهود المحالفة والولاء .

وربما غبر الانسان فى هذه المرحلة عشرات القرون حتى وصل الى عهد الحضارات العليا ووصل من ثم الى الديانات التى تلائم عقله وضميره فى كل حضارة منها .

هنالك عرف الشر والخير وعرف التمييز بين ما يجوز وما لا يجوز ، وهنالك ظهرت بين أممه المتقدمة قوى الشر الكونية التى تتصرف فى الوجود كله وتقضى فيه قضاء يمتد أثره وراء عمر الانسان الواحد ووراء أعمار الأجيال والأقوام .

وأرفع ما ارتفع اليه الانسان فى هذه المرحلة عقيدة الهند فعقيدة الثنوية فعقيدة مصر الفرعونية .

فكانت عقيدة الهند أن المادة كلها شر أصيل فيها فلا خلاص منه الا بالخلاص من الجسد ، وكان الشر عندهم مرادفا للهدم والفساد ، يتولاه الاله الواحد فى صورة من صوره الثلاث : صورة الخالق وصورة الحافظ وصورة الهادم الذى يهدم بيديه ما بناه وما حفظه فى صورتيه الأخريين .

وكانت عقيدة الثنوية من مجوس فارس أن الشر من عند اله الظلام وأن الخير من عند اله النور ، وأن الغلبة أخيرا لاله النور بعد صراع طويل .

وكانت عقيدة مصر الفرعونية أن الاله « سيت » شرير مع أعدائه ومخالفيه ، وربما كان منه الخير لاتباعه ومؤيديه ، ولم يكن خـلاص الروح عندهم منفصلا عن خلاص الجسد ، ولا العالم الآخر عندهم مخلوقا على مثال أرفع من مثال الحياة فى وادى النيل .

ويميل علماء المقارنة بين الأديان الى تفضيل العقيدة الهندية على العقيدتين الفارسية والمصرية ، ولكنه تفضيل لا يقوم على أساس صحيح لأن الغاء الخير فى عالم المادة بحذافيره لا يفسح فيه مجالا للخير ولا يجعل الخلاص منه الا كالخلاص من مكان موبوء حـدوده كحدود الأبعاد والمسافات وليس فى هذه العقيدة الهندية ما يجعل للهدم لازمة غير لازمة الخلق والحفظ ، فكلها من لوازم عمل الاله بغير تفرقة بين هذه الأطوار تأتى من الاله أو تأتى من العباد .

وربما كانت عقيدة مصر الفرعونية أقرب هذه العقائد الثلاث الى تنزيه الضمير الانسانى من لوثات الوثنية ، لأنها جعلت للشر نزعة منفردة بين نظم الأكوان ، كأنما هى نزعة التمرد فى عالم يقـوم على الشريعة والنظـام .

* * *

ثم تميزت من بين عقائد القبائل البدائية والحضارات العليا عقائد الديانات الكتابية التى يدين بها اليوم أكثر من نصف الأمم الانسانية ، ويتغلغل أثرها فى الأمم الأخرى شيئا فشيئا ولو لم تتحول عن عقائدها الأولى .

تميزت بين ديانات الأولين الديانة العبرية والديانة المسيحية والديانة الاسلامية ، وكانت الديانة العبرية جسرا بين عدوتين : أحداهما عدوة الوثنية والأخرى عدوة التوحيد والتنزيه .

ولهذا لم تتميز قوة الخير وقوة الشر بفاصل حاسم فى الديانة العبرية، فكان الشر أحيانا من عمل الشيطان وأحيانا من عمل الحية ، وكان الشر بهذه المثابة تارة ضررا لا يجوز ، وتارة أخرى ضررا ماديا يأتى من حيوان كريه الى الناس لما ينفثه من سموم قاتلة ، ولم يكن الشيطان منفصلا من زمرة الملائكة بل كان من زمرة الحاشية الالهية التى تنفث سموم الوشاية والدسيسة .

وقد كانوا ينسبون العمل الواحد مرة الى المعبود « يهوا » ومرة الى الشيطان ، فجاء فى كتاب صموئيل الثانى أن الرب غضب على اسرائيل فأهاج عليهم الملك داود وأمره باحصائهم واحصاء يهوذا معهم ، وجاء فى كتاب الأيام أن الشيطان هو الذى وسوس لداود باجراء هذا الاحصاء ولم يرد اسم الشيطان قبل ذلك فى كتب التوراة مقرونا بأداة التعريف التى تدل على الأعلام كأنه كان واحدا من أرواح كثيرة تعمل هذه الأعمال التى انحصرت بعد ذلك فى روح واحـد يسمى الشيطان ، ويستعين بمن على شاكلته من الأرواح .

* * *

ثم انتقلت فكرة الشيطان مرحلة واسعة بعد ظهور المسيحية فتم الانفصال بين الصفات الالهية والصفات الشيطانية ، وأصبح للاله عمل وللشيطان عمل ، ولكنه عمل جسيم يوشك أن يضارع عمل « أهريمان » اله الظلام . لأنه سمى فى الأناجيل باسم رئيس هذا العالم واسم اله هذا الدهر ، وكانت له مملكة الدنيا ولله ملكوت السموات ، واستقل بشطر كبير من قصة الخليقة فى السماء والأرض ، فلولاه لما وقعت الخطيئة ولا سقط الجنس البشرى ولا وجبت الكفارة بالفداء .

واتتقلت فكرة الشيطان أبعد مراحلها بعد ظهور الاسلام ، فهو قوة الشر لا مراء ، ولكنها قوة لا سلطان لها على ضمير الانسان ما لم يستسلم لها بهواه أو بضعف منه عن مقاومة الاغراء .

« إنَّ عبادِي ليسَ لكَ عليهم سلطان » ... (سورة الحجر)

« إنَّ كَيْدَ الشيطان كان ضَعيفا » ... (سورة النساء)

« وما كانَ لِيَ عليكُم مِن سُلْطانٍ إلا أن دعوْتُكُم فاستَجَبْتُم لِي فلا تَلوموني ولُومُوا أنفسَكم » ... (سورة ابراهيم)

فمن أطاع الشيطان فقد أطاع نفسه فظلمها ولم يظلمها الشيطان :

« قالا ربّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا وإن لمْ تَغفِرْ لنا وترْحَمْنَا لنكونَنَّ من الخاسِرين » ... (سورة الأعراف)

وما يكون لشيطان أن يطلع على الغيب أو ينفذ الى أسرار العالم المجهول :

« لو كانوا يَعلمون الغيبَ ما لَبِثُوا فى العذابِ المُهين » ... (سورة سبأ)

وما يكون للشيطان أن يضر أحدا بسحره .

« وما همْ بِضَارِّينَ به من أحدٍ إلّا بإذنِ الله » ... (سورة البقرة)

وما كان لهم من سحر الا أن تضل الابصار والبصائر كأنما ضلال المسحور ضرب من ضلال المخمور .

« إنما سُكِّرتْ أبصارُنا بل نحنُ قومٌ مَسْحُورون » ...

(سورة الحجر)

* * *

« يُخَيَّلُ إليهِ من سِحْرِهِم أنَّها تَسْعَى »... (سورة طه)

* * *

فما كان سحر الشيطان الا ضربا من الخيال أو الخبال ، وما كان له بقوة من قوى السحر أو قوى العلم أن يهزم ضمير الانسان ، وكل هذه القوة الخفية بجميع خصائصها التى تراكمت حولها فى العقائد الغابرة منتهية الى وجود كأنه العدم أو كأنه الوهم الذى يملك الضمير الانسانى أن يتجاهله ويمضى على سوائه غير ملتفت اليه لو شاء ، وأنه ليشاء فلا يكون له عليه من سلطان لمشيئة الشيطان ، اذ لا مشيئة له فى أمر يوسوس به الا أن يشاءه الانسان .

* * *

بهذه العقيدة الوجدانية الفكرية أقام الاسلام عرش الضمير ، وثل عرش الشيطان .

ومن حق البحث الأمين على الباحث المنصف أن يضيفها الى عقائد الاسلام فى الله وفى النبى وفى الانسان ، فاذا عرف الانصاف فما هو بقادر على أن يزعم أن الاسلام ديانة محرفة من ديانة محرفة من ديانة سبقت ، واذا عرف الصواب فما هو بقادر على أن يجحد مرتقاه فى أطوار الايمان وأنه غاية ما ارتفع اليه ضمير المؤمن فى ديانات الأقدمين والمحدثين .

العَقَائِدُ

(٥)

٥
العبادات

يعرف الدين بعبادته بين أناس كثيرين لا يعرفونه بعقائده ، وربما استدلوا على العقائد بالعبادات لأن العبادة فرع من العقيدة يشاهد عيانا فى حيز التنفيذ أو التطبيق . ولكنها — على هذا — من فروع العقائد التى يقل فيها الخلاف وتضيق حولها مواضع الجـدل فى الخصومات المذهبية . اذ كان الغالب على العبادة أنها شعائر توفيقية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها ، ولا يتجه الاعتراض الى وضع من أوضاعها الا أمكن أن يتجه الى الوضع الآخر لو استبدل منها ما يقترحه المقترح بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها .

لماذا يكون الصوم شهرا ولا يكون ثلاثة أسابيع أو خمسة ؟

لماذا تكون حصة الزكاة جزءا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءا من تسعة أو من خمسة عشر ؟

لماذا نركع ونسجد ولا نصلى قياما أو قياما وركوعا بغير سجود ؟ .

من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فليس ما يمنعه أن يعود الى الاعتراض لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع ، أو فرضت الزكاة فوق مقدارها أو دون هذا المقدار ، أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذى اتفق عليه أتباع الدين .

وليس معنى ذلك أن هذه الأوضاع لا تعرف لها أسباب تدعو اليها

وتفسر لنا اتباعها دون غيرها ، ولكنها فى نهاية الأمر أوضاع « توقيفية » لا موجب من العقل للتحكم فيها بالاقتراح والتعديل ، لأن المقترح المعدل لن يستند الى حجة أقوى من الحجة التى يرفضها ويميل الى سواها .

ويسرى هذا على كل تنظيم فى أمور الدنيا ولا يسرى على أمور الدين وحده . فلماذا يكون عدد الكتيبة فى جيش هذه الأمة ٥٠ — مثلا — ويكون فى جيش أمة غيرها ٤٠ أو مائة ؟ ولماذا يجعل اللون الأخضر رمزا لهذا المعنى فى ألوان العلم القومى عند قوم من الأقوام ، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين ؟

لا مناص فى النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم بها أقرب الى العقل من المجادلة فيها ، لهذا يقل الخلاف بين أصحاب الأديان فى شعائر العبادة حيث يكثر فى كل كبيرة وصغيرة من شئون العقائد الفكرية أو عقائد الضمير .

الا أن هذا كله لا يقضى علينا بقبول كل عبادة على كل وضع يخطر على البال . ولا يمنعنا أن نفاضل بين العبادات فنرى منها عبادة أفضل من عبادة وفريضة أولى بالاتباع من فريضة . اذ لا شك أن العبادة التى تؤدى غرضها أفضل من العبادة التى لا تؤدى هذا الغرض ولا تؤدى غرضا من الأغراض ، ولا شك فى وجود المزايا التى تتفاوت بها العبادات وان لم تكن هذه المزايا داخلة فى الغرض المقصود بشعائر العبادات .

والغرض من عبادات الأديان ينطوى على أغراض متشعبة يضيق بها الحصر لانها تقابل أغراض الدنيا جميعا بأغراض الدين . ولكننا قد نجمعها جهد المستطاع فى تنبيه المتدين على الدوام الى حقيقتين لاينساهما الانسان فى حياته الخاصة أو العامة الا هبط به النسيان الى درك

البهيمية واستغرق فى هموم مبتذلة لا فرق بينها وبين هموم الحيوان الأعجم ، ان صح التعبير عن شواغل الحيوان الأعجم بكلمة الهموم .

احدى الحقيقتين التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه اليها ضمير الانسان على الدوام هى وجوده الروحى الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية وغير شهواته الحيوانية .

والحقيقة الأخرى التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه اليها ضميره هى الوجود الخالد الباقى الى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية ، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقى اذا أريد فيه أن يحيا حياة تمتد بآثارها الى ما وراء معيشته اليومية ووراء معيشة قومه بل معيشة أبناء نوعه . وعبثا يترقى الانسان من مرتبة البهيمية الى مرتبة تعلوها ان جاز أن يعيش أيامه يوما بعد يوم وهو لا يذكر أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة أو واجب العمر كله ، فان الترقى فى كل صورة من صوره يقضى الى غاية واحدة هى خلاص الانسان من ربقة الانحصار فى مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر المحدود بحياته الفــردية .

* * *

عبادة المسلم فى جميع فرائضها تتكفل له بالتنبيه الدائم الى هاتين الحقيقتين .

انه فى صلاته يستقبل النهار ويتوسطه مرتين ثم يختمه ويستقبل الليل بالوقوف بين يدى الله كأنه يستهديه فى عمله ويؤدى اليه الحساب عن هذا العمل من ساعة اليقظة الى الساعة التى يستسلم فيها للرقاد أو ينطوى فيها تحت جنح الظلام .

وان المسلم فى صيامه ليذكر حق الروح من شرابه وطعامه ، ويذكر أنه ذو ارادة تأخذ بيديها زمام جسدها ولا تترك لهذا الجسد أن يأخذ بزمامها ويتصرف بها على هواه ، وأصح ما يكون الصيام الذى ينبه الضمير الى هذه الحقيقة أن يقدر المرء على ترك الشراب والطعام فترة من الزمن ، ولا يكون قصاراه منها أن يستبدل شرابا بشراب وطعاما بطعام .

أما الزكاة فى فرائض الاسلام فهى المذكر له بحصة الجماعة من ماله الذى يكسبه بكده وكدحه ، وهى المذكر له بأن يعمل لغيره ولا يعمل لنفسه وكفى ، وهى الامتحان له فيما تهوى الأنفس من المال والمتاع ، حيث كان الصيام امتحانا له فيما تهوى الأنفس من الشراب والطعام .

واذا كان الاسلام دينا يدعو الناس كافة الى عبادة رب العالمين فالحج هو الفريضة التى تتمثل فيها هذه الأخوة الانسانية على تباعد الديار واختلاف الشعوب والأجناس ، وهى فى اصطلاح العرف الشائع بين الناس بمثابة صلة الرحم وتبادل الزيارة بين أبناء الأسرة الواحدة يجمعها الملتقى فى المكان الذى صدرت منه الدعوة اليها ، وهو أجدر مكان فى بقاع الأرض أن يتم فيه هذا اللقاء .

* * *

ولا حاجة الى بيان حكمة الركن الأول من أركان الاسلام وهو ركن الشهادتين . شهادة أن لا اله الا الله ، وشهادة أن محمدا رسول الله .

فهاتان الشهادتان هما الركن الذى تقوم عليـــه أركان العبادات الاسلامية ، وبغيره لا يكون المسلم مسلما بعقائده وعباداته .

والشهادتان أسهل العبــادات بلفظهما لأنه لايعدو أن يكون نطقا بكلمات معدودات ، ولكنهما بمعناهما أصعب الأركان فى الأديان لأنهما انتقال من دين الى دين بل مرحلة واسعة بين تاريخ وتاريخ .

* * *

وعلى هذه الوتيرة وما شابهها فى الفرائض الاسلامية يتاح للمسلم أن يوفق بين عباداته التوقيفية وبين أدائها للغرض من العبادة ، وهو تذكيره بوجوده الروحى وتذكيره بوجود اسمى من وجوده وأبقى . واذا كان تحقيق الغرض من العبادة هو ميزان التفاضل بين الشعائر التوقيفية فحسب الاسلام من مزية فى شعائره أنه يوفق بين أوضاعها وأغراضها هذا التوفيق ، لو لم تكن له مزية أخرى .

على أن عبادات الاسلام قد امتازت بين عبادات الأديان بمزية لا نظير لها فى أرفعها وأرقاها بالنظر الى حقيقتها أو بالنظر الى جماهير المتدينين بها ، وتلك مزيته البينة التى يرعى بها استقلال الفرد فى مسائل الضمير خير رعاية تتحقق لها فى نظام حياة .

فالعبادات الاسلامية بأجمعها تكليف لضمير الانسان وحده لا يتوقف على توسيط هيكل أو تقريب كهانه .

يصلى حيث أدركه موعد الصلاة وأينما تكونوا فثم وجه الله .

ويصوم ويفطر فى داره أو فى موطن عمله ، ويحج فيذهب الى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سدانة ولا حق عنده لأحد فى قربانه غير حق المساكين والمعوزين .

ويذهب الى صلاة الجماعة فلا تتقيد صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو اتاوة محراب ، ويؤمه فى هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للامامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم ان لم يكن معروفا عندهم قبل ذلك .

أنه الدين الذى نتعلم منه أن الانسان مخلوق مكلف .

لا جرم تقوم عباداته على رعاية حق الضمير المسـئول واستقلاله بمشيئته أكرم رعاية .

ومرة أخرى نعود فى ختام هذ الفصل عن العقائد فنسأل : أهذا هو الدين الذى يستبيح من يدرى ما يقول أن يزعم أنه نسخة محرفة من دين قـديم ؟

الفصل الثاني

المعاملات

من العلماء المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من يسلم لعقائد الدين سموها ونزاهتها ولكنه مع هذا يعيب الدين نفسه بشرائعه وأحكام معاملاته . اما لأنه يرى أن الأديان ينبغى أن تكون مقصورة على العقائد والوصايا ولا تتعرض للتشريع وأحكام المعاملة التى تصطدم بالحوادث العملية وتجرى مع تقلبات الأحوال فى البيئات المختلفة والأزمنة المتعاقبة على سنن شتى ، ولا تخضع للنص الواحد فى جميع أطوارها وملابساتها.

هذا ، أو لأنه يعيب المعاملات لذاتها ويرى فيها نقصا يتجافى بها عن مبادىء العدل وأصول الآداب المرعية بين أمم الحضارة .

وقد تعمدنا — من أجل هذا — أن نتبع الكلام على العقائد الاسلامية بالكلام على المعاملات الاسلامية ، وتحرينا فى الكلام على هذه المعاملات أن نقصرها على أبواب المعاملة التى وردت فيها أشد الشبهات على الشريعة الاسلامية فى العصر الحاضر ، من جانب علماء المقارنة بين الأديان أو من جانب المبشرين العاملين على تحويل المسلمين فى بلادهم عن عقائدهم وأحكام دينهم . ونقدم بالقول — على التخصيص — تلك المعاملات التى قيل انها علة تأخر المسلمين وعجزهم عن الأخذ بأسباب الحضارة ومجاراة الأمم فى ميادين الأعمال الاقتصادية والشرائع العملية، ونعنى بها معاملات الشركات والمصارف ومعاملات الجزاء والعقاب فى القوانين . فليس من غرضنا فى هذا الكتاب أن نبسط القول فى المعاملات بمعناها المعروف بين الفقهاء من معاملات البيوع أو معاملات الأحوال

الشخصية وما اليها من أبواب الأحكام التى لا ترد الشبهة عليها من خصوم الاسلام وممن يفترون الأباطيل عليه . وربما تناولنا بعض هذه الأبواب فى موضعه من الكلام على الحقوق الاجتماعية ، ولكننا لا نحسبها من مواطن الشبهة التى يقال من أجلها انها قد حالت بين المسلمين فعلا وبين النهوض بأعباء الأعمال الاقتصادية وأعمال التشريع فى العصر الحديث .

والذى نراه من مراجعة النقد الدينى أن المنكرين لتعرض الأديان لشئون المعاملات مخطئون لا يجشمون عقولهم مؤونة الرجوع الى نشأة الشرائع الدينية فى أوقاتها ومناسباتها . والا لعرفوا أن هذه الشرائع لازمة للعاملين بها لزوم العقائد والوصايا الأخلاقية ، وان العقائد تصطدم بالواقع كما تصطدم به أحكام الشرائع ، فلا معنى لاختصاص أحكام الشرائع وحدها بالنقد اذا كانت العقائد معها عرضة للامتحان مع تقلبات الأحوال وتجدد الطوارىء والضرورات .

والواجب فى رأينا أن يكون النقد كله موجها الى المعاملات لذاتها اذا كان فيها ما يجافى مبادىء العدل وأصول الأخلاق ويحول دون مجاراة الآخذين بها لسنن التطور والتقدم وضرورات الحياة العملية جيلا بعد جيل .

ولو أن النقاد الدينيين كلفوا أنفسهم أن يتتبعوا أسباب التشريع فى الأديان الكتابية الكبرى لعلموا أنها قامت بقيام تلك الأديان فى ظروف تحتم النظر فى التشريع كما تحتم النظر فى الاغتقاد ، ولعلموا أن أديان الحضارات الأولى التى استغنت عن وضع نصوص القوانين لم تكن لتستغنى عنها لولا أنها نشأت فى دول عريقة الحكومات والأحكام، ومن أعرق تلك الحضارات الأولى حضارة مصر وحضارة بابل وحضارة

الهند وحضارة الصين . فهذه جميعا قد ظهرت فيها الكهانة مجاورة للدولة صاحبة القوانين والأحكام ، ولم تخلص العقائد فيها مع ذلك من الامتزاج بالقوانين فى مصادرها وأسانيدها يوم كان كل أمر مقدس واجب الطاعة مستمدا من الأوامر الالهية . ولكن رسالة الدين هنا لم تكن منعزلة عن رسالة الدولة فى عقائدها ولا فى شرائعها ، فلما قامت رسالة الأنبياء من دعاة الأديان الكتابية قامت بمعزل عن الدولة بل قامت ثائرة على الدول من حولها فوجب لها مع العقائد تشريع يتناول أحوال المعاش وأحكام المعاملات .

ويصدق هذا القول على الأديان الكتابية الثلاثة بغير استثناء للمسيحية التى يخطر لبعضهم أنها تعمدت أن تقصر الدين على العقائد والوصايا دون القوانين والمعاملات .

فالواقع أن السيد المسيح قد جاء مؤيدا لشرائع العهد القديم ولم يجىء مبطلا لها أو معطلا لأحكامها : جاء متمما للناموس ولم يجىء هادما للناموس . وكان العالم من حوله مكتظا بالشرائع الدينية والشرائع الدنيوية : للهيكل شرائعه من أراد أن يتبعها ويعمل بها فذلك اليه . وللدولة شرائعها من أراد أن يتبعها ويعمل بها فذلك اليه . ومن هنا استطاع المسيح أن يقول للذين تعمدوا أن يحرجوه فى مسألة الضرائب : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. فلم يجد من لوازم رسالته أن يثور على شرائع الدولة ولا على شرائع الدين . ولما جاءه المكابرون من اليهود بالمرأة الزانية ليأمر برجمها ويصطدم من ثم بسلطان الهيكل رد عليهم كيدهم باحراجهم كما أحرجوه ، فقال لهم : من لم يخطىء منكم فليرمها أولا بحجر . فلم يقل ان حكم الرجم باطل ولم يأمر به فيقيم الحجة

عليه لأصحاب السلطان فى هيكل العبادة والشريعة ، وكانت ثورته فى لبابها ثورة على الرياء فى دعوى الأمناء على الشريعة الدينية ، ولم تكن ثورة على الأحكام والنصوص كما وردت فى كتب العهد القديم .

* * *

أما الديانة الكتابية الأولى فمهما يكن الرأى فى نصوص شرائعها اليوم فقد كان التشريع فيها يوم الدعوة اليها لازما كلزوم الدعوة الى العقيدة أو الوصايا الأخلاقية : كان موسى عليه السلام يقود شعبا بغير دولة الى أرض يقيمون فيها حكما غير الحكم الذى خضعوا له فى موطنهم الذى تركوه من أرض الدولة المصرية . فلم تكن رسالته رسالة عقيدة وحسب ، ولم يكن قيام العقيدة ميسورا بغير قيام القانون .

وكل نقد يوجه الى أحكام المعاملات يمكن أن يوجه مثله الى العقائد والوصايا . لأن التحجر وسوء الفهم غير مقصورين على الأعمال والتطبيقات ، أو سبيلهما الى العقائد النظرية أيسر من سبيلهما الى الوقائع العملية . اذ كانت الوقائع العملية مما يضطر المخطىء الى الشعور بخطئه ، وليس فى العقائد النظرية ما يضطر المعتقد الى الشعور بالخطأ من أول وهلة ، الا اذا تغير شعوره وتغير وجدانه فارتفع بنفسه وبأحوال معيشته من الخطأ الى الصواب .

ولمن شاء أن يشير الى المعاملات فى كتب الشرائع السماوية كما يشاء ولكنه يحيد عن جادة الانصاف اذا اختص الشريعة الاسلامية بنقده كأنها الشريعة الكتابية الوحيدة التى تعرضت للمعاملات . فان الشريعة المنسوبة الى موسى عليه السلام قد تناولت من أمور المعيشة ما هو اليوم من شئون الأطباء ، وتناولت من تشريع الجزاء والعقاب أحكاما

لا يقرها اليوم أحد من المؤمنين بها ، وان كان من المؤمنين بايحاء الشريعة من الله الى كليم الله .

فمن الشئون التى كان يتولاه الكاهن تمحيص أعراض العلل والأدواء وعزل المصابين بها واعلان نجاستهم على الملأ لاعتقادهم أن المرض الخبيث المعدى نجاسة منافية للطهارة الدينية أو ضربة من الضربات الالهية ، ويشرح كتاب اللاويين فى الاصحاح الثالث عشر منه مثلا من ذلك فيقول فى بيان المعاملة الواجبة للمصابين بالبرص :

« اذا كان انسان قد ذهب شعر رأسه فهو أقرع . أنه طاهر . وان ذهب شعر رأسه من جبهة وجهه فهو أصلع . أنه طاهر . لكن اذا كان فى القرعة أو الصلعة ضربة بيضاء ضاربة الى الحمرة فهو برص مفرخ فى قرعته أو فى صلعته كمنظر البرص فى جلد الجسد فهو انسان أبرص ، أنه نجس ، فيحكم الكاهن بنجاسته . أن ضربته فى رأسه . والابرص الذى فيه الضربة تكون ثيابه مشقوقة ورأسه يكون مشقوقا ويغطى شاربيه وينادى : نجس نجس ! كل الأيام التى تكون الضربة فيه يكون نجسا . انه نجس يكون وحده خارج المحلة ... » .

وكان الكاهن يتولى من شئون الطعام والشراب ما هو ألصق بالمعيشة اليومية من شئون الطب ومعاملة المصابين بالعلل والسقام ، فالكاهن هو الذى يزكى الطعام المباح ويستولى على نصيب المعبد منها واليه المرجع فى التميز بين الأطعمة المطهرة والأطعمة النجسة من لحوم الحيوان .

وتناولت الشريعة معاملات الجزاء والعقاب فى الجرائم التى تقع من الناس وفى الاصابات التى تقع من الحيوان ويجزى بها الحيوان كما يجزى بها صاحبه فى بعض الأحيان . ومن أمثلة ذلك عقاب الثور الذى ينطح انسانا كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج:

« انه اذا نطح ثور رجلا فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل ... »

وتقرر الشريعة كيف تكتب على الألواح وكيف تكون الألواح التى تكتب عليها كما جاء فى سفر الخروج ، بل تقرر ملابس الهيكل وأنواع الأنسجة التى تخاط منها ثياب الكهان والخدم بأمر من الله لموسى تكرر ذكره فى الكتب الخمسة المنسوبة اليه .

هذه الأوامر المفصلة فى معاملات المعيشة ومعاملات الجزاء والعقاب مستغربة على السواء فى رأى الناظرين اليها من وجهة نظر غير وجهة المتدينين المتشبثين بها الى اليوم . ولكننا — بعد الالمام بها — نعود فنكرر أنها لا تسوغ القول بقصر الدين على العقائد والوصايا دون الشرائع والمعاملات . فان الخطأ يعترى العقيدة كما يعترى الشريعة ، ومرجع الأمر اذن الى الصلاح والفساد لا الى العمل أو الاعتقاد . وما كانت عقائد بنى اسرائيل بأثبت على الزمن من معاملاتهم وشرائعهم التى تداولوها بعد عصر موسى الكليم ، ولعل حاجتهم الى معاملات تشبه تلك المعاملات فى الجملة كانت أشد من حاجتهم الى عقائدهم كما تداولوها بعد عهودهم المهجورة .

وكل ما يجوز لنا أن نستخلصه من دراسة الشريعة المنسوبة الى موسى أن بنى اسرائيل لم تكن لهم رسالة عالمية انسانية ، وأنهم قد وافقتهم عقائدهم ومعاملاتهم فى عزلتهم بين أبناء الحضارات الأولى . فلما انتهت رسالتهم المحدودة بما يوافقهم تفرقوا بين الأمم من غير دولة ولا سيادة على أحد ، فلم يقم لهم سلطان يتولى فرض عقائدهم ومعاملاتهم

على الأمم ولا على أنفسهم ، وانقضى دورهم التاريخى فى أمر العقائد وأمر المعاملات .

وكذلك تتفق النظرتان الى هذا التاريخ المشحون بدلالاته ومغازيه: نظرة المؤمن بحكمة الغيب العجيبة فى تسيير مقادير الشعوب ، ونظرة المؤمن بعبرة التاريخ دون سواه .

* * *

وعلى هذه السنة من المساواة بين حق الدين فى نشر العقائد وحقه فى فرض الشرائع والمعاملات ننظر الى معاملات الدين الاسلامى كما ننظر الى عقائده فلا نرى فيها ما يعوقه عن أداء رسالته العالمية الانسانية التى توافرت له بدعوته الى اله واحد هو رب العالمين أجمعين وخالق الأمم بلا تميز بينها فى الحظوة عنده غير ميزة التقوى والصلاح : رب المشرقين والمغربين يصلى له المرء حيث شاء ، وأينما تكونوا فثم وجه الله.

فما منع الاسلام قط معاملة بين الناس تنفعهم وتخلو من الضرر بهم والغبن على فريق منهم ، وأساس التحريم كله فى الاسلام أن يكون فى العمل المحرم ضرر ، أو اجحاف ، أو حطة فى العقل والخلق . وما فرض الاسلام من جزاء قط ألا وهو « حدود » مقدرة بشروطها وقيودها ، صالحة على موجب تلك الشروط والقيود للزمان الذى شرعت فيه ، ولكل زمان يأتى من بعده . لأنها لا تجمد ولا تتحجر ولا تتحرى شيئا غير مصلحة الفرد والجماعة ، وكفى باسم « الحدود » تنبيها الى حقائق الجزاء والعقاب فى الاسلام . فانها « حدود » بينة واضحة تقوم حيث قامت أركانها ومقاصدها وتحققت حكمتها وموجباتها . والا فهى حدود لا يقربها حاكم ولا محكوم الا حاقت به لعنة الله .

والشبهة المتوافرة فى العصر الحاضر انما ترد على المعاملات الاسلامية من قبل الناقدين والمبشرين ، لأنها تمس ضرورات المعيشة المتجددة فى كل يوم ، وترصد للمسلم فى طريقه حيث سار وأينما اضطربت به صروف الرزق والكسب ومرافق العمل والتدبير . ويتحرى الناقد الموطن الحساس من نفس المسلم حين يلقى فى روعه أن شيئا فى دينه يغل يديه عن العمل فى عصر المصارف والشركات ، وأن شيئا فى دينه يتقهقر به الى الوراء ولا يصلح للتطبيق فى عصر النظم الحكومية التى تجرى القضاء والجزاء على أصول العلم والتهذيب .

وليس فى المصارف والشركات شىء نافع برىء من الضرر والغبن يحرمه الاسلام .

وليس فى أصول العلم والتهذيب شىء يناقض حدود الجزاء فى شريعة الاسلام .

* * *

تتلخص شبهة المعاملات الاقتصادية فى مسألة واحدة هى مسألة الربا الذى يقول الناقدون انه قوام المصارف والشركات .

وتتلخص شبهة القضاء والجزاء فى حدود السرقة والزنا والخمر والمقارنة بين عقوباتها فى الاسلام وعقوباتها فى الشرائع الموضوعة التى تسمى بالشرائع العصرية .

* * *

ولا ينسى القارىء المسلم — قبل أن يضع نفسه موضع المتهم المطالب بالدفاع عن دينه — أن الناقدين والمبشرين يغالطونه ويغالطون أنفسهم حين يختصون الاسلام بالنقد فى مسألة الربا — على التخصيص

ـ فان الربا محرم أشد التحريم فى اليهودية والمسيحية من شرائع العهد القديم الى شرائع الكنيسة فىالقرون الوسطى الى شرائع اللوثريين وأتباعهم بعد عصر الاصلاح . وقد كان تحريم الربا فىاليهودية والمسيحية عاما مجملا بغير بيان للفارق بينه وبين المعاملات المحللة من صفقات البيوع والمبادلات . وأما فى الاسلام فما من تحريم قط ورد فيه الا وهو مشفوع بحدود تقيم الفاصل بينه وبين الكسب الحلال .

حرم الربا تحريما باتا فى الكتب المنسوبة الى موسى عليه السلام . فجاء فى الاصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج :

« ان أقرضت فضة الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى » .

وفيه بعد ذلك :

« ان ارتهنت ثوب صاحبك فالى غروب الشمس ترده اليه ... لانه وحده غطاؤه . هو ثوب لجلده . فىماذا ينام ! »

وجاء فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنيه :

« لا تقرض أخاك ربا . ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء ما مما يقرض بربا ... » .

وسرى هذا التحريم الى عهد النبى حزقيال والنبى نحميا . فقال النبى نحميا فى الاصحاح الخامس من كتابه :

« انى بكت العظماء والولاة وقلت لهم انكم تأخذون الربا كل واحد من أخيه ... » .

والمقصود باشارة نحميا أن الربا المحرم انما هو الربا الذى يأخذه الاسرائيلى من أخيه . لأن الربا المأخوذ من أبناء الأمم الأخرى مباح كيف كان ، والاصحاح الثالث والعشرون من سفر التثنيه المنسوب الى موسى عليه السلام صريح فى اباحة أخذ الربا من الأجنبى حيث يقول مخاطبا شعب اسرائيل :

« للاجنبى تقرض بربا ولكن لاخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك فى كل ما تمتد اليه يدك ٠٠ »

فليس هذا تحريما انسانيا منبعثا من شعور بالرحمة والعدل فى المعاملة ، ولكنه تحريم عصبية يبيح من القسوة على أبناء الأمم الانسانية كافة ما يحرمه فى معاملة الاسرائيلى لأخيه .

وقد سرى تحريم الربا فى شعب اسرائيل دون غيره الى ما بعد قيام المسيحية واعلانها الدعوة الى جميع الأمم لأنهم أبناء ابراهيم بالروح ... فحرمت الربا فى غير شعب اسرائيل ولم تقيد تحريمه بقوم من المؤمنين دون آخرين .

ثم سرى تحريم الربا من أوائل عهد المسيحية الى قيام حركة الاصلاح وانشقاق الكنائس عن كنيسة رومة البابوية . فاتفقت الكنائس جميعا على تحريم الربا واشتد « لوثر » فى هذا التحريم حتى وضع رسالة عن التجارة والربا حرم فيها كثيرا من البيوع الربوية كالبيع المعروف فى الفقه الاسلامى باسم بيع « النجش » أو المعروف باسم بيع السلم . والنجش هو التواطؤ على رفع السعر لاكراه الآخرين على قبول الشراء بزيادة على سعر السوق ، والسلم هو بيع الآجل بالعاجل بزيادة فى سعر المبيع .

قال لوثر فى شرح أنواع الربا التى تروج باسم التجارة ما نلخصه فيما يلى :

« ان هناك أناسا لا تبالى ضمائرهم أن يبيعوا بضائعهم بالنسيئة فى مقابل أثمان غالية تزيد على أثمانها التى تباع بها نقدا ، بل هناك أناس لا يحبون أن يبيعوا شيئا بالنقد ويؤثرون أن يبيعوا سلعهم جميعا على النسيئة » ٠٠٠ ثم قال :

ان هذا التصرف مخالف لاوامر الله مخالفته للعقل والصواب ٠ ومثله فى مخالفة الأوامر الالهية والأوامر العقلية أن يرفع البائع السعر لعلمه

بقلة البضاعة المعروضة أو لاحتكاره القليل الموجود من هذه البضاعة ، ومثل ذلك وذاك أن يعمد التاجر الى شراء البضاعة كلها ليحتكر بيعهـــا ويتحكم في رفع أسعارها .

وبادر لوثر على أثر ذلك الى دفع الاعتراض الذى قـد يعتـرض به من يحتج بتصرف يوسف عليه السلام قبل أعوام المجاعة فقال « انه اذا شاء أحد أن يحتج بسلوك يوسف كما ورد في سـفر التكوين حين جمع كل الحبوب التي كانت في البلاد ثم اشترى بها في وقت المجاعة للملك مصر كل ما فيها من أموال وماشية وأرض ممايبدو حقا كأنه احتكار - فالجواب على ذلك أن صفقة يوسف هـذه لم تكن احتكارا بل مبايعة شريفة كما جرت عادة البلاد ، فانه لم يمنع أحـدا أن يشترى كما اشترى خلال سنوات الرخاء وانما كان عمله من وحى الحـكمة التى يسرت له أن يجمع حبوب الملك في سنوات الرخاء بينما كان الاخرون يخزنون منها القليل أو الكثير ،

قال لوثر انه من التصرفات التي تدخل فى باب المراباة ولا تدخل فى باب التجارة أن يعمد أحـدهم الى الاحتكار من طريق الترخيص اذا عجز عن الاحتكار من طريق المغالاة ، فيبيع ما عنده بالسعر الرخيص ليكره غيره على البيع بهذا السعر فيحل بهم الخراب .

وقال انه من قبيل الغش والاحتيال أن يبيع أحد ما ليس فى يده لانه يعلم موضع شرائه فيستطيع أن يعرض على مالكه ثمنـا دون الثمن الذى يفرضه على طالب الشراء .

وعد لوثر من الربح المحرم أن يتآمر التجار الكبار فى أوقات الحروب على اشاعة الأكاذيب لدفع الناس الى بيع ما عندهم واحتكاره بين أيديهم ، ثم تقدير أثمانه على هواهم ، وقال أن بعض الممالك الاوربيـة - كالمملكة الانجليزية - تعقد فى عاصمتها مجلسـا يراقب الاسواق ويدبر الوسائل لاحتجان السلع المرغوب فيها لاحتكارها ومقاسمة الدولة فى أرباحها .

وقال انه من الحيل المعهودة لترويج الربا باسم التجـارة أن تبـاع السلعة الى أجل ويعلم البائع أن شـاريها لابد أن يبيعها فى هذا الاجل بأقـل من ثمنها ليسـدد ما عليـه من الدين ويشـتريها بالثمن الذى يضطره اليه .

قال : وهناك تصرف آخر مألوف بين الشركات وهو أن يودع أحد مبلغا عند تاجر : ألف قطعـة من الذهب أو ألفين على أن يؤدى له التاجر مائة

او مائتين كل سنة سواء ربح أو خسر ··· ويسوغ هذه الصفقة بانهـا تصرف ينفع التاجر لانه بغير هذا القرض يظل معطلا بغير عمل ، وينفع صاحب المال لانه بغير هذا القرض يبقى ماله معطلا بغير فائدة ·

ومما اخرجه لوثر من أبواب التجارة المشروعة والحقه بالربا المحرم أن يخزن البائع غلاله فى الاماكن الرطبة ليزيد فى وزنها ، وأن يزوق السلعة ليغرى الشارى ببذل الثمن الذى يربى على ثمنها ، وأن يتخذ من وسائل الاحتكار أو الاغراء ما يمكنه من جمع الثروة الضخمة ، لانه — أى لوثر — يقرر فى رسالته أن التجارة المحللة لم تكن قط وسيلة لجمع الثروات الضخام ، وأنه اذا وجدت ثروة ضخمة فلابد هنالك من وسيلة غير مشروعة ·

ولعل لوثر قد بلغ فى تحريم البيوع المربية وألحاقها بالربا الممنوع أو الملعون ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده من رؤساء الدين المسيحى فى العصور المتأخرة . ومما لا ريب فيه أن الحالة النفسية التى تساور المصلح الاجتماعى أو الواعظ الدينى باعث قوى على التشدد فى حظر المحرمات وذرائعها واتقاء الشبه التى توقع الأبرياء فى حبائلها . وهذه الحالة النفسية قد كانت على أشدها فى القارة الأوروبية بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر فى ابان الدعوة الى حركة الاصلاح . فقد كان لوثر يرجو أن يعمل الملوك والأمراء ورؤساء الدين على كف أذى المرابين والمغالين بالبيع والشراء فخاب أمله فيهم أجمعين وثبت له من معرفته بهم ومن اشاعات الناس عنهم أنهم يشجعون الربا والمغالاة بالأرباح لمقاسمة أربابها وابتزاز القروض والاتاوات منهم وتسخيرهم فى محاربة بعضهم بحبس البضائع واحتكار الأسواق . وقد دفعته هذه الحالة النفسية الى ضروب من التحريم لو أخذت بها أوربة الاستعمارية بعده لما قامت لها قائمة ولا جمعت ثرواتها الضخام التى قال بحق انها لا تجتمع من تجارة بريئة ولا من ربح حلال .

ونحن انما نشير الى الحالة النفسية التى دفعت لوثر الى التشدد فى حظر المحرمات وذرائعها لكى نلم بالحالة النفسية التى تلقى بها المسلمون زحف المصارف والشركات الأوربية على بلادهم وسيطرتها على حكوماتهم وشعوبهم . فما بلغ من ضرر المرابين بالشعوب الأوربية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر أن يفقدهم كرامة أوطانهم وأن يذل رؤوسهم ونفوسهم كما فعلت المصارف والشركات الأجنبية بالشعوب الاسلامية منذ أغارت عليها مؤيدة بجيوش الدول من ورائها. فهذه المصارف والشركات هى التى مهدت للامتيازات الأجنبية سبلها وهى التى نصبت شباك الديون لتسويغ الغزو والاحتلال باسم المحافظة على الحقوق وضمان سدادها ، وهى التى تذرع بها الساسة لخنق النهضات الوطنية فى ابانها واثقالها بالقيود والأعباء التى تعجزها عن مجاراة الغرب فى صناعته وتجارته وتكفل للاستعمار أن ينشب أظفاره أبدا فى أبدانها .

فاذا حق للمصلح الكبير « لوثر » أن يتشاءم من المصارف والشركات وأن يحتسب ثرواتها الضخام فى عداد السرقات الملعونة وهى لا تجنى على استقلال الأمم ولا تذلها للواغلين عليها ، فخليق بالمسلمين — ولا ريب — أن يتشاءموا من تلك المصارف والشركات مرات وأن يستريبوا بها ولا يروا فيها لأول وهلة ما يغريهم بالتشبه بها والتسابق بينهم على منهاجها . فهى بلاء تعوذوا منه وأجفلوا من قدوته ، ولهم العذر كل العذر اذا أغرقوا فى الخوف منها حتى أوجسوا خيفة من خيرها الذى لم يعرفوه ، لأنهم عرفوا شرها ولم يسلموا من بلائه أعواما طوالا قد طالت بحساب المصائب بأضعاف ما طالت بحساب الأيام .

* * *

على أن الاسلام نفسه قد ظهر فى ابان حالة نفسية تشبه الحالة التى أصابت الغرب بين القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر ، وتشبه الحالة التى أصابت المسلمين على أيدى المستغلين والمستعمرين . وقد كان ما حرمه الاسلام من الربا وذرائعه بلاء كهذا البلاء الذى شقيت به شعوب الغرب وشقيت به الشعوب الشرقية والاسلامية . فقد كان الربا الذى وجده فى الجاهلية فنهى عنه وحرمه حقيقا بالتحريم فى كل شرعة وكل مكان ، ومن اطلع على وصفه كما كان يوم حكم الاسلام بتحريمه لم يستطع أن يقول فيه قولين ، ولا أن يجعل للشرائع موقفا منه غير موقف التحريم الشديد بغير هوادة تبيح للمحتال أن يتسلل اليه بذرائعه ودواعيه .

فسر الامام الطبرى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً واتقوا اللهَ لعلكم تفلحون » . (سورة آل عمران)

فقال فى أسباب نزول الآية : «انما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه اذا حل الأجل فيقول له : تقضينى أو تزيدنى ، فان كان عنده شىء يقضيه قضى والا حوله الى السن التى فوق ذلك ، ان كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيا ثم هكذا الى فوق . وفى العين يأتيه فان لم يكن عنده أضعفه فى العام القابل ، فان لم يكن عنده أضعفه أيضا فتكون مائة فيجعلها الى قابل مائتين ، فان لم يكن عنده جعلها أربعمائة، يضعفها له كل سنة أو يقضيه .. »

* * *

كان هذا هو الربا الذى تعاطاه الجاهليون وتعاطاه معهم أهل الكتاب من بلاد يثرب ، وكانت الآيات المتقدمة أولى الآيات التى نزلت بالنهى عنه وتحريمه . فمنعه الاسلام كما يمنعه اليوم كل قانون معمول به فى بلاد المصارف والشركات وكل ما استحدثه من ضروب المعاملات التى تسمى بالمعاملات العصرية . وما من قانون ينتظم عليه أمر الجماعة لا يحرم هذه المعاملة المنكرة ولا يشدد العقاب عليها .

وكان آخر ما نزل من القرآن الكريم آيات فى تحريم الربا نزلت قبل وفاة النبى عليه السلام بأقل من ثلاثة أشهر وهى من قوله تعالى فى سورة البقرة :

« الذينَ يأكلُونَ الرِّبا لا يقُومون إلا كما يقُومُ الذِى يتَخبَّطهُ الشيطانُ من المسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثلُ الرِّبا وأحَلَّ اللهُ البيعَ وحَرَّمَ الرِّبا فمن جاءهُ موعظةٌ من ربه فانتهَى فلهُ ما سَلَفَ وأمرُهُ إلى اللهِ ومنْ عادَ فأولئكَ أصحابُ النارِ همْ فيها خالدون ، يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ويُربى الصدقاتِ واللهُ لا يحبُّ كلَّ كفَّارٍ أثيمٍ . إن الذينَ آمنوا وعَملوا الصالحاتِ وأقامُوا الصلاةَ وآتوُا الزكاةَ لهمْ أجرُهُمْ عندَ ربِّهمْ ولاخوفٌ عليهِمْ ولاهُمْ يَحزَنُون . ياأيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وذَروا ما بَقِىَ من الرِّبا إن كنتُمْ مُؤمِنين فإن لم تفعلوا فأْذَنوا بحربٍ من اللهِ ورسولِه وإن تُبْتُمْ فلكم رءوسُ أموالكم لا تَظلُمونَ ولا تُظلَمون وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنظِرَةٌ إلى مَيْسَرةٍ وأن تَصَدَّقُوا خيرٌ لكم إن كنتمْ تعلمون ، واتَّقُوا يومًا تُرجَعون فيه إلى اللهِ ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسَبَتْ وَهُم لا يُظلمون » .

(سورة البقرة)

ولا خلاف بين المسلمين على موضوع الربا الذى وردت فيه جميع هذه الآيات . فهو ربا الجاهلية المعروف بربا النسيئة ، وأحاديث النبى

عليه السلام فى ذلك وأقوال المفسرين لا موضع فيها لخلاف .

ففى الصحيحين أن النبى عليه السلام قال : انما الربا فى النسيئة .

وسئل الامام أحمد عن الربا الذى لا يشك فيه فقال : هو أن يكون له دين فيقول له أتقضى أم تربى ؟ فان لم يقضه زاده فى المال وزاده هذا فى الأجـل .

روى الامام ابن القيم ذلك فى أعلام الموقعين وقسم الربا الى نوعين: جلى ، وخفى ، فتحريم الأول قصدا وتحريم الثانى وسيلة . فأما الجلى فربا النسيئة ، وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، مثل أن يؤخر دينه ويزيده فى المال كلما أخره زاد فى المال حتى تصير المائة عنده آلافا مؤلفة ، وفى الغالب لا يفعل ذلك الا معدم محتاج .. وأما الربا الخفى فهو ذريعة للربا الجلى وهو ما استحدث بعد الجاهلية من بيع الجنس بالجنس على غير سواء . فيباع الدرهم بدرهم وزيادة وتباع الكيلة بكيلة وزيادة ، من غير مطال أو تأخير اجتنابا للحكم القاطع فى ربا النسيئة ، ويسمى هذا الربا بربا الفضل لزيادة أحد المبيعين على الآخر . ويقول ابن القيم انه من البيع الذى يتخذ ذريعة للربا الممنوع . فهو حرام حيث يكون ذريعة للحرام ، ولا اتفاق على القطع بتحريمه لاختلاف بعض الصحابة فيه كعبد الله بن عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير ، وزيد بن أرقم وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وما يحرم سدا للذرائع يباح للمصلحة كما قال الامام بن القيم فى الجزء الأول من أعلام الموقعين[1] .

والحكم الفصل فى هذا البيع الذى كانوا يتخذونه ذريعة للربا قول النبى عليه السلام :

---

(١) راجع الجزء الثالث من تفسير المنار .

« الذهبُ بالذهبِ والفضة بالفضة والبُرُّ بالبُر والشعيرُ بالشعيرِ والتمرُ بالتمرِ والملحُ بالملحِ مِثلا بِمِثل سواء بسواء يَداً بِيَدٍ ، فإذا اختلفتْ هذه الأصناف فبيعوا كيفَ شِئتم إن كانَ يداً بيدٍ . . »

وواضح من هذا الحكم أنه يحرم الربا الذى ستروه باسم البيع والشراء . فما يكون لأحد أن يشترى صنفا بصنف مثله على غير سواء الا أن يكون سفيها أو مضطرا .. والسفه والاضطرار كلاهما مبطل للبيع المشروع . فاذا اختلف الصنفان قيمة فلا حرج فى المبايعة لأنهما يختلفان بالمقايضة ، فلا وجه للتحريم هنا ولا التباس بين البيع المحلل والربا الممنوع .

* * *

وبالمقارنة بين الأديان الكتابية بعد تلخيص الحكم الاسلامى فى مسألة الربا — نعلم أن الناقدين لا حجة لهم فى اختصاص الاسلام بالنقد لما يزعمونه من تعويقه أعمال الحضارة بتحريمه هذه المعاملات. لأنه لم ينفرد بتحريم الربا بين هذه الأديان ، حتى ما كان من قبيل البيوع التى تدس الربا وراء ستار من البيع والشراء . فهذه أيضا قد حرمتها المسيحية على ما تقدم فى رسالة « لوثر » التى أخذت بها جميع المذاهب مع مذهب الكنيسة البروتستانتية .

وبغير حاجة الى المقارنة بين الأديان الكتابية نعلم أن هؤلاء الناقدين لا حجة لهم أصلا على الاسلام فيما حرمه من ربا النسيئة أو ربا الفضل بأنواعه . كما حرم الاسلام من هذه المعاملات كل تصرف فيه ظلم واضطرار وأكل للحقوق بالباطل وابتزاز للأموال فى غير عمل ولا طائل . وازدهار الحضارة مرهون بالغاء كل تصرف من هذا القبيل ، غير مرهون

على زعمهم بحمايته والاغضاء عنه وعن ذرائعه . وفى وسع المصارف والشركات أن تتجنبه وتمضي فى عملها حيث كانت فى البلاد الاسلامية، فليس فى الاسلام نص ولا تأويل يحرم التصرف النافع الذى لا اضطرار فيه ولا اغتصاب للحقوق ، وما كان من قبيل الاضطرار والاغتصاب فى أعمال المصارف والشركات فقد حرمته القوانين الوضعية بما اشترعته من قيود الرقابة وحدود الربح والفائدة ، فما استطاعت حكومة من الحكومات المتحضرة أن تقف مكتوفة اليدين لتطلق أيدى المرابين فى تثمير الديون بغير ثمرة للمدين ، وبغير ربح غير ربح الدائن المتحكم فى فرائس الضنك والاضطرار .

ولا نحب أن ندع هذا الموضوع قبل الالماع فى هذه العجالة الى مذاهب الفلاسفة والعلماء فى الربا بعد الالماع الى مذاهب الأديان فيه

فمن أقدم البحوث الفلسفية عن الربا بحث المعلم الأول أرسطو — فى كتابه عن السياسة — ومذهبه فيه أنه ربح مصطنع لا يدخل فى باب التجارة المشروعة ، وعنده أن المعاملة على أنواع ثلاثة : معاملة طبيعية وهى استبدال حاجة من حاجات المعيشة بحاجة أخرى كاستبدال الثوب بالطعام ، ومعاملة صناعية وهى استبدال النقد بحاجة من حاجات المعيشة وهى التجارة التى لا حرج فيها ، ومعاملة مصطنعة ملفقة وهى اتخاذ النقد نفسه سلعة تباع ، فانما حق النقد أن يكون وسيلة للمبايعة ومعيارا تعرف به أسعار السلع المختلفة ، وأما اتخاذه سلعة تباع وتشرى فهو خروج به عن غرضه وابتذال للتجارة فى غير مصلحتها .

واعتمد الحبر الفيلسوف توما الاكوينى — حجة المسيحية فى القرون الوسطى — رأى أرسطو هذا فى النقد فأوجب به تحريم الربا من الوجهة

الفلسفية وأخرج من تعريف الربا كل تصرف لا يحدث فيه تبادل النقد فعلا وانما يؤخر فيه اعطاء النقد لسداد ريع أو أجرة أو ثمن بضاعة ... وعقب توما الاكويني أتباع" نظروا في تعريف الربا من الوجهة الفلسفية العلمية فلم يجعلوا منه ما هو بمثابة تعويض الدائن عن فوات ربح كان في وسعه Lucrum Cessans أو تعويضه عن خسارة أصابته من جراء دينه Damnum Emergens أو عن خسارة أصابته من جراء المماطلة في الوفاء بحقه في موعد السداد المحدود .

ودرج الفلاسفة على اعتماد رأى أرسطو وتوما الاكويني في النقد الى فاتحة عصر الفلسفة الحديثة ، فقال دافيد هيوم Hume في كتاب المحاضرات السياسية الذى طبع سنة ١٧٥٢ « ان النقد ليس مادة للتجارة ولكنه أداتها ... وانه ليس دولابا من دواليب التجارة ولكنه الزيت الذى يلين مدارها » .

وبدأت فلسفة الاقتصاد الحديث بدراسات « أبى الاقتصاد » آدم سميث Adam Smith (١٧٢٣ — ١٧٩٠) وهو معاصر للفيلسوف دافيد هيوم ، ورأيه في ريع الأرض أنه اذا تكاثر في حساب الثروة العامة كان من قبيل الكسب بغير عمل ، وهو لا يمنع الربح من الديون ولكنه يحده ويستحسن الاقلال من قيمته ، وعلى هذا الرأى درج الاقتصاديون المحدثون الى عهد المذهب الاقتصادى الجديد الذى هدم كثيرا أو بدل كثيرا من آراء الاقتصاديين السلفيين ، ولكنه حافظ على رأيهم في استحسان الاقلال من ربح الديون وزعم ان القليل منه يشجع المقترضين على الانتفاع بالأموال المدخرة ولا يرهقهم بأعباء السداد أو يحرمهم ثمرة العمل الذى يجتذبون الأموال المدخرة الى أسواقه بدلا من تعطيلها في خزائن الشركات وودائع الصناديق .

* * *

وتعتبر قضية الربا فى القرن العشرين من القضايا المؤجلة أو المعلقة، الى حين . لأن الانقلابات التى تجمعت من حوادثِ هذا القرن قد نقلت القضية من البحث فى الثمرة الى البحث فى جذورِ الشجرة من أصولها : كانوا يسألون من قبل عن ثمرات الأموال المحللة أو المحرمة ولمن تكون؟ فأصبحوا اليوم يسألون عن الأموال من مصادرها الى مواردها لمن تكون كلها ومن هو صاحب الحق الأول فى ثمراتها ؟ .

فالاقتصاديون الماديون ينكرون ملك رؤوس الأموال أصلا ، ويرفضون السماح للفرد بملك شىء يمكن أن يسمى مالا أو رأس مال ، ولا معيار عندهم لحق الفرد فى أجور العمل الا ما تفرضه له الجماعة من نفقة على قدر الحاجة اليها ، ولا موضع للكلام عن الأرباح المحللة أو المحرمة حيث لا يكون رأس مال ولا يكون أصل معترف به تتفرع عليه الفواضل من المكاسب والأجور .

وغير الاقتصاديين الماديين يعترفون للفرد بحق الملك وحق حيازة الأموال ولكنهم ينتقلون فى توزيع المرافق الكبرى شيئا فشيئا الى الملكية العامة أو الملكية على المشاع باسم التأميم أو الاستيلاء ووضع خطط التعمير .

والمذهبان معا يتفقان على ضرورة الحد من الثروات الكبيرة بعد استيفاء جميع الضرائب والرسوم ، فاذا بقيت لصاحب المال حصة من الربح تزيد على مقدار معلوم أخذتها الدولة باسم الأمة ، وفاقا لمبدأ من مبادىء التشريع مصطلح عليه بين أمم الحضارة التى تكثر فيها الثروات الضخام وتكثر فيها النفقات العامة للتعمير والمعونة أو للحيطة والدفاع .

* * *

ونحن لا نريد أن نقارن هنا بين الاسلام والديانات الكتابية فى قضية الربا بأنواعه . ولكننا نريد أن نقارن بينه وبين المذاهب الاقتصادية التى يظن أصحابها أنهم يحيطون بحكمة التشريع عامة فى جميع العصور لأنهم حسبوا أن فترة من فترات الزمن تستوعب هذه الحكمة وتفرغ منها على نحو لا يقبل المراجعة والتعديل . فاذا خيل اليهم فى وقت من الاوقات أن الحضارة مرهونة بنظام معلوم فى المصارف والشركات خطر لهم أن يفرضوا هذا النظام بعجره وبجره على الماضى والحاضر والمستقبل فى المشرق والمغرب وبين جميع الملل والأقوام ، وطلبوا الى أصحاب العقائد أن ينسخوها والى أصحاب الشرائع أن ينقضوها ، والى أصحاب المبادىء الخلقية والفكرية أن يقتلعوها من جذورها ، واجترأوا على من يناقضهم وينظر الى ما فوق أنوفهم فاتهموه بالجمود والنكسة وألقوا عليه تبعة الفساد والرجعة بالعقول الى الوراء .

وها هى ذى قواعد الحضارة التى يتعللون بها تتطلب اليوم من نظم الاقتصاد ما لم تكن تتطلبه قبل خمسين سنة ، وسوف تتطلب بعد خمسين سنة ما لم تتطلبه اليوم ، فما هو الميزان العادل الذى تصح فيه الموازنة بين هذه المذاهب وبين الدين ؟ هل نبيح لهذه المذاهب المتقلبة أن تفرض سلطانها على الدين الذى لا مزية له ان لم تركن منه ضمائر الأمم الى قرار مكين ثابت على تقلب الزعازع والأحوال ؟ هل ننتظر من الدين أن يعرقل هذه المذاهب ويأخذ الصواب منها بذنب الخطأ فيحرم الصواب والخطأ على السواء ؟ .

لا هذا ولا ذاك .

بل يمضى كل مذهب الى مداه المقدور ، ويتسع الدين لأحداث

الزمن فلا يتصدى لها فى مجراها ولا يمنعها أن تذهب الى مداها ، وأن تضطرب اضطرابها لمستقر لها تمحصه الأيام :

« فأمّا الزَّبَدُ فيذهبُ جُفاء وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرض » .

(سورة الرعد)

وتلك هى مزية الاسلام بين المذاهب والأديان ، لا يقف فى طريق رأى صالح ولا يحول بينه وبين التجارب تنبذ منه ما لا سبيل الى قبوله وتبقى منه ما هو صالح للبقاء .

وتلك الزعازع التى تمخضت عن حوادث القرن العشرين ينظر اليها الاسلام وهو ثابت على قراره المكين ، فلا يمنع صالحا منها أن يثبت صلاحه ، ولا يدع لفاسد منها أن يطغى بفساده طغيانا لا رجعة فيه .

انه لا يمنع الملكية العامة ، بل يأمر بها فى مرافق الجماعة ولا يبيح أحدا أن يملك موارد الماء والنـار والكلاء ، كما جاء فى الحـديث الشريف [1] ، ومن فقهائه فى مذهب الظاهرية من يشترط العمل لاستحقاق الكسب حتى فى تأجير الأرض وزراعة الشجر وجنى الثمرات .

ولا يبطل الاسلام ملكية الآحاد . ولكنه يخول الجماعة أن تحتسب لها نصيبا منها يقدره الامام بتفويض من الأمة ، وتزيد حصة الجماعة كيف زادت فلا ينكر الاسلام هذه الزيادة ، لأنه يحـرم كنز الذهب والفضة ويأمر بتوزيع الثروة بين الناس :

« كى لا يكونَ دُولةً بينَ الأغنياء منكم » .. (سورة الحشر)

وقوام الأمر كله فيما يبيح ويمنع مرجع واحـد ثابت على الزمن

---

(١) روى ابن ماجه باسـناد صحيح عن أبى هريرة قال رسول الله « ثلاث لا يمنعن : الكلأ والماء والنـار » وروى احمد وابو داود : الناس شركاء فى ثلاثة : الكلأ والماء والنار » .

ثبوت الجماعة البشرية ، وهو المصلحة العليا التى تتقدم فيها مصلحة الكثير على مصلحة القليل ، ويتقدم فيها حساب الزمن الطويل على حساب الزمن القصير .

ولتكن المصلحة ملكا أو ربحا أو تجارة أو مرفقا تتداوله الأيدى بإسم من الأسماء حينا بعد حين ، فما كان فيه ظلم واكراه وأكل للأموال بالباطل فهو حرام ، وما برىء من هذه الآفات جميعا فهو حلال لا يمنعه أحد ، ومن منعه من رعية أو امام فهو المخالف لعقيدة الاسلام .

* * *

ويقال عن حدود الجزاء اجمالا ما يقال عن الربا بأنواعه ، فلا حجة لمن يختص الاسلام بالنقد فى مسائل الحدود . لأنه لم يفرض على جريمة من الجرائم عقابا أقسى مما فرضته الأديان الكتابية قبله ، وما فرضته الشرائع الموضوعة فى أوانه .

ولا حجة لمن ينقد العقوبات لأنه يقارن بينها وبين عقوبات العصر الحديث . فان الحدود فى الاسلام بينة لا تناقض مصلحة الجماعة فى زمن من الأزمان .

ولقد كانت الشريعة الاسلامية ضرورة لا محيد عنها فى ابان الدعوة الاسلامية . فلم يكن من الميسور ولا من المعقول أن تلبث الأمة الاسلامية حقبة من الزمن على شريعة الجاهلية أو تمضى فى حياتها العامة هملا بغير شريعة يدين بها الحاكم والمحكوم ، ونزلت شريعتها فى حينها على مثال لا تفضله شريعة عاصرتها فى جملتها ولا فى تفصيلها ، وتعاقبت بعدها العصور وما فى غارض من عوارضها حالة لم تقدر لها الشريعة كفايتها من التصرف والتوفيق .

ولسنا فى هذا الكتاب بحاجة الى أن نضيف شيئا فى موضـوع الحدود الى ما أجملناه عنه فى رسالتنا عن الشيوعية والاسلام . فان الافاضة فى البحوث الفقهية ليست من أغراض كتابنا هذا ولم تكن من أغراض ذلك الكتاب ، وبحسبنا من مسألة الحدود أن نجلو الشبهة عن قواعدها وندع للمستزيد أن يتوسع فى شروحها وتفريعاتها حيث يطيب له المزيد منها . فانما استقرت حكمة الاسلام على جلاء القواعد وتوطيد القاعدة سليمة يقام عليها ما يقام من بناء سليم .

« تنزلت الشريعة الاسلامية فى الجزيرة العربية على عهد الجاهلية ، يوم كانت شريعتها الغالبة بين جميع القبائل العربية شريعة الغارات التى تستباح فيها دماء المغلوب وأمواله ونساؤه وكل مملوك له فى حوزة الفرد أو حوزة القبيلة ، وكان أهل الكتاب يدينون بشريعة موسى التى لم يبطلها السيد المسيح ولها حدود مفصلة فى التوراة وقصاص تؤخذ فيه العين بالعين والسن بالسن ، كما ذكرها القرآن الكريم » .

« فاذا جاء الاسلام بعقوبات لا تصلح لعهد الدعوة لم يعط التشريع حقه فى ذلك العهد ولا فى العصور التالية ، ولكنه يعطى التشريع حقوقه جميعا اذا صلح لزمانه ولم ينقطع صلاحه لما بعده ولم يمتنع فيه باب الاجتهاد عند اختلاف الأحوال . فيشتمل جزاؤه على جنايات الحدود والقصاص وعلى الجنايات التى تستحدثها أحوال المجتمعات ويأخذها الشارع بما يلائمها من موجبات الجزاء » .

« وهذا ما صنعه الاسلام فى جنايات الحدود والقصاص وفى غيرها من الجنايات التى تدخل عند الفقهاء فى باب التعزير ، وعلينا أن نذكر :

« أولا — أن الحدود مقيدة بشروط وأركان لابد من توافرها

جميعا بالبينة القاطعة والا سقط الحد أو انتقل الى عقوبات التعزير اذا كان ثبوته لم يبلغ من اليقين مبلغ الثبوت الواجب لاقامة الحدود » .

« وأن نذكر — ثانيا — أن القصاص مشروط فيه العمد وارادة الأذى بعينه . فان لم يثبت العمد فالجزاء الدية أو التعزير ، وقد يجتمعان أو يكتفى بالدية دون التعزير أو بالتعزير دون الدية » .

« ولنذكر أن جرائم التعزير تشمل جميع الجرائم التى يعاقب عليها بالسجن أو بالغرامة أو بالعقوبات البدنية » .

« ولنذكر فى جميع هذه الأحوال أن الشريعة الاسلامية توجب درء الحدود بالشبهات للشك فى ركن من أركان الجناية أو ركن من أركان الشهادة . فلا يقام الحد ، وينظر ولى الأمر فى التأديب بعقوبة من عقوبات التعزير » .

ولنضرب المثل بأكبر جنايات الحدود وأشيعها فى الجاهلية العربية وجاهليات الأمم فى عنفوانها ، وهى جناية قطع الطريق والعبث فى الأرض بالفساد . ففى هذه الجناية يقول القرآن الكريم :

« إنما جزاء الذينَ يُحاربونَ اللهَ ورسولَه ويَسعَوْنَ فى الأرضِ فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أوْ تُقَطَّع أيديهم وأرجُلُهم من خلافٍ أو يُنفَوْا مِنَ الأرضِ ذلكَ لهم خِزْىٌ فى الدنيا ولهمْ فى الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ . إلَّا الذين تابوا من قبلِ أن تقدروا عليهم فاعلموا أنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ » . (سورة المائدة)

« فهذه جناية لها عقوبات متعددة على حسب الاضرار والجرائر ، ومنها القتل والصلب وقطع الأطراف والنفى وهو بمعنى النبذ من الجماعة اما بالسجن أو بالاقصاء ، ويلزم العقاب من لزمته أحكام الدين ،

فاذا كانت جنايته قد انتهت بالتوبة قبل أن يلزمه قضاء الاسلام فهذا هو الباب الذى فتحه الاسلام لابتداء عهد وانتهاء عهد غبر بأوزاره وعاداته وانطوى حساب الجناية والعقاب فيه بانتهائه » .

« وأشد هذه العقوبات لم يكن شديدا فى عرف أمة من الأمم عوقب فيها من يقطعون الطريق ويعيثون فى الأرض بالفساد مع حضور الحذر وكثرة مغرياته وقلة الزواجر الاجتماعية التى تحمى المجتمع من أضراره وجرائره . وقد كانت عقوبات القتل والتمثيل قائمة فى جميع الأمم مع قيام الجريمة وقيام أسباب الحذر منها ، وظلت كذلك الى القرن السابع عشر فى البلاد الأوربية التى استقر فيها الأمن بعد الفزع وانتظمت فيها حراسة الطريق بعد الفوضى التى طغت عليها من جراء فوضى الجوار بين الحكومات » .

« وتلحق بجناية قطع الطريق جناية السرقة التى لا غصب فيها ، وشروطها أن يكون السارق عاقلا مكلفا وأن يكون المال المسروق محرزا مملوكا لمن يحرزه بغير شبهة ، بالغا نصاب السرقة كما يتفق عليه الفقهاء، وكل جريمة من قبيل السرقة لم تثبت فيها هذه الأركان المشروطة فلا يؤخذ فيها الجانى بحد السرقة ويؤخذ فيها بعقوبات التعزير . وعند الضرورة القاهرة التى يقدرها الامام يجوز العفو كما عفا عمر بن الخطاب رضوان الله عليه عن الغلامين السارقين فى عام المجاعة » .

« ولا بد أن يمتد نظر الباحث على مدى مئات السنين قبل أن يسأل عن صلاح الشريعة لعصر من العصور . ولا محل لسؤاله اذا أراد أن يحصر هذه الشريعة فى زمن واحد وبيئة واحدة . ولكنه يحسن السؤال اذا عرض أمامه أحوالا للأمم فيها القديم والحديث وفيها الهمجى

والمتحضر وفيها المسالم المأمون والشرير المحذور ثم سأل : هل فى الشريعة قصور عن حالة من الحالات التى تعرض لتلك الأمم فى جميع أطوارها ؟ وهل هناك عقوبة نصت عليها الشريعة لم تكن صالحة من تلك الحالات ؟

« فهكذا توزن الشرائع التى تحيط بالمجتمعات فى مئات السنين ، وبغير هذا الوزن تكثر منافذ الخطأ أو يبطل السؤال فلا محل للسؤال[١] » .

* * *

وغنى عن القول بعد هذه الاعتبارات أن فهم الشريعة بنصوصها لا يغنى عن فهمها بروحها وحكمتها .

وروح التشريع الاسلامى كما ظهرت فى نصوص الأحكام وأركان الثبوت روح سمحة جانحة الى العذر وتمهيد الطريق للتوبة والصلاح . فليست العقوبة غرضا مطلوبا لذاته يبادر اليها ولىّ الأمر خفيف الضمير معفى من الحرج والمراجعة . ولكنها ضرورة يدفعها ما دفعتها الشبهة والأمل فى التوبة والصلاح . وليس الامام الذى يتحرج من اقامة الحد فى غير موقعه من الثبوت وتوافر الأركان مخالفا للاسلام مقصرا فى اقامة حدوده . بل المخالف للاسلام المقصر فى اقامة الحدود من يهجم على العقوبة قبل أن يستوفى أركانها ويدرأ كل شبهة فيها تأتى لمصلحة المتهم أو لمصلحة الجماعة . وانما الامام الحق فى الاسلام من يذكر أن اطلاق المذنب خير من ادانة البرىء ، وأن التحرج أولى ما يكون بمن يعاقب على الحرج فى أمور الدنيا والدين .

---

(١) كتاب الشيوعية والانسانية للمؤلف .

وسيأتى البيان عن مهمة الامام فى تطبيق الحدود والاحكام وتقدير المصالح والضرورات فى أمور الجزاء وأمور السـياسة الشرعية على التعميم . ولكننا ننتهى بهذه العجالة عن المعاملات الى غايتها اذا عرفنا أن الاسـلام لا يوجب على الناس معاملة تضر ولا ينهاهم عن معاملة تفيد ، وأنه يؤدى للمؤمنين به خير ما تؤديه العقيدة الثابتة على تعاقب الأجيال : لا تمنع التجربة الصالحة أن تثبت صلاحهاولا تفرط فى الدائم اللازم ذهابا مع العاجل المشكوك فيه .

الفصل الثالث

الحقوق

الحرية الإسلامية

أصــدق ما قيل فى الأديان العــالمية أنها ثورات واســعة ولا تقاس السعة فى هــذه الثــورات بامتــداد المكان ولا بكثرة العــدد لأنها أوسع ما تكون اذا نشبت فى داخــل النفس الانسانية وكانت القــوة الثائرة والقوة المتغلبة فيها مملكة واحدة : هى مملكة الضمير .

ولا نهاية يومئذ لمظاهر التبديل والتغيير التى تتكشف بها الثــورة فى تلك المملكة الصغيرة الكبيرة ، لأنها تلحق بكل ما تزاوله النفس من شئونها الباطنة والظاهرة : تلحق بالأفكار والهواجس الخفية ، وتلحق بالعادات أو الأخلاق ، وتلحق بالعرف والقانون ، وتلحق بالنظم الاجتماعية والدساتير الحكومية ، وتلحق بالحاكمين والمحكومين ، وتلحق بكل مملكة لأنها لحقت قبل ذلك بتلك المملكة الصغيرة الكبيرة . مملكة الضــمير !

وأوسع ما تكون ثورة الضمير اذا جاءت من قبل الثورة فى تقــدير الحقــوق .

ان الثائر لضيق نزل به يهدأ اذا انفرج ذلك الضيق ، وانه ليثور كما تثور الريح المحجوزة والحيوان الحبيس ، ما هو الا أن يرتفع الحجاز وينفتح الباب حتى تهدأ الثورة ويسكن الثائر والمثير . ولكنه اذا وثب وثبته فى سبيل حق يؤمن به لا يرجع عنه أو يظفر به كما يطلبه ، واذا

ظفر به لنفسه لم يكفف عن الطلب وهو يراه مضيعا عند غيره ، ويكاد يلمس في كل شيء نذيرا له بضياع الحق وحافزا له على حمايته أن يضيع. فانما الثورة الباطنة هي محضأ الثورة الظاهرة ، وطالب الحق هو المطلوب الذي لا ينام عن طلبه ، وهو الرقيب على سريرته قبل كل رقيب .

ولم تعلن في ثورات العالم الدينية حقوق عامة للانسان قبل ثورة الاسلام في القرن السادس للميلاد . لأن الانسان نفسه لم يكن عاما فيوليه الدين حقوقا عامة ، وانما ولد هذا الانسان — العام — يوم آمن الناس بالله يتساوى لديه كل انسان وكل انسان ، ويوم نيطت حقوقه بواجباته بغير تفرقة بين قبيل وقبيل .

فمن تحصيل الحاصل أن يقال ان حقوق الانسان لم تكن منظورة من ثورة دينية قبل ثورة الدين الذي دعا الناس الى عبادة رب العالمين ، فانما توجد الحقوق العامة اذا وجد صاحبها الذي يستحقها ويؤدي لها فرائضها ، ولم يوجد لهذه الحقوق صاحب مضطلع بها في ثورة دينية قبل ثورة الاسلام . اذ لم يكن هناك الانسان الذي يتساوى في كل قبيل وكل مكان .

على أننا نرجع الى تاريخ الثورات الاجتماعية أو السياسية قبل الاسلام فلا نراها تخالف الثورات الدينية المعاصرة لها في كبير طائل ولا نرى بينها حركة يصدق عليها أنها حركة « حقوق انسانية » بمعنى من معاني هذه العبارة كما نفهمها في العصر الحاضر . فربما كان بينها ما يسمونه بحركات الديمقراطية في بلاد اليونان ، وربما بدا لهم من كلمة الديمقراطية أنها من حركات الشعوب فهي على هذا خليقة أن تحسب من حركات الحقوق الانسانية ، وليست هي كذلك حتى في دلالتها اللفظية التي نشأ منها الغلط في فهم حقيقتها . لأن كلمة « ديموس » اليونانية كانت تطلق

على المحلة التى تسكنها القبيلة ، ثم أطلق النظام الديمقراطى عندهم على الحكومة التى تشترك القبائل فى انتخابها ، ولم يكن اشتراكها فى الانتخاب اعترافا بحق انسانى يتساوى فيه آحاد الناس ، وانما كان اعترافا بالقبيلة واتقاء لمعارضتها واضرابها عن العمل فى الجيش وتلبية نفير الدفاع .

ومثل هذا الحق فى رومة حق « التريبون » الذى تنتخبه القبيلة ويشتق من اسمها Tribe ، ولا شأن لانتخابه بما نسميه اليوم حقوق الانسان .

وقد توالت على اليونان والرومان أنواع من الحكومات الديمقراطية لم يكن لها من مبدأ تقوم عليه غير أنها خطط عملية لأمن الفتنة واستجلاب الولاء من المجندين للجيش والأسطول من أبناء القبائل وأصحاب الصناعات . وآية ذلك أن الحكومة الديمقراطية نشأت بين الأسبرطيين أصحاب النظم والاجراءات الادارية ولم تنشأ بين الاثينيين أصحاب الفلسفات والبحوث النظرية ، وليس هذا بالمستغرب من اليونان الأقدمين اذا نظرنا الى حقوق الانتخاب فى الديمقراطيات الغربية الى أواسط القرن العشرين ... فان هذا الحق كان يتدرج فى التعميم على حسب الحاجة الى الناخبين فى مصانع الحرب وفى جيوش المقاتلين ، فناله العمال فى البلاد الصناعية قبل أن يناله الزراع ، ونالته المرأة بعد أن أصبحت عاملة فى المصانع تنوب فيها عن الجند المقاتلين ، وناله السود فى الولايات المتحدة بعد اضطرار الدولة الى خدمتهم فى المصانع وفى الجيوش على التدريج بين الحربين العالميتين .

غير هذا ولا ريب هو المقصود بالديمقراطية الانسانية ، فانها حقوق معترف بها للانسان وليست خططا عملية يوجبها تكافؤ القوى بين الطوائف وجماهير الناخبين . وليست الديمقراطية الانسانية مما يتصور بغيره

عناصره الثلاث التى لا انفصال بينها : وهى المساواة والمسئولية الفردية وقيام الحكم على الشورى وعلى دستور معلوم من الحدود والتبعات ، وهذه هى العناصر الثلاثة التى نادى بها الاسلام لأول مرة فى تاريخ الانســـان .

* * *

« يا أيُّها الناسُ إنا خلقناكُم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكُم شُعُوباً وقبائِلَ لِتعارَفُوا إن أكرَمَكُم عندَ اللهِ أتقاكُم » (سورة الحجرات)

* * *

« كلُّ امرىء بما كسَبَ رَهِينٌ » (سورة الطور)

* * *

« وأمْرُهُمْ شُورَى بينَهم » (سورة الشورى)

* * *

ونبى الاسلام هو القائل صلوات الله عليه :

« لا فضل لعربى على عجمى ولا لقرشى على حَبَشىٍّ إلا بِالتقوىَ »

وهو القائل صلوات الله عليه فى خطبة الوداع :

« أيها الناس . إن ربكم واحدٌ ، وإن أباكم واحدٌ ، كُلُّكم لآدمَ وآدمُ من ترابٍ إن أكرمكُم عندَ اللهِ أتقاكم ، وليس لعربى على عَجَمى ولا لعجمى على عَربى ولا لأحمرَ على أبيضَ فضلٌ إلا بالتقوى »

وهو القائل صلوات الله عليه :

« يا معشرَ قريشٍ ! اشتروا أنفسَكم . لا أُغنى عنكم من اللهِ شيئاً . ويا بنى عبدِ مَناف ! لا أُغنى عنكم من اللهِ شيئاً . يا عباسَ بنَ عبدِ المطلب !

ما أغنى عنك من اللهِ شيئاً . يا فاطمة بنتَ محمدٍ ! سليني ما شئتِ من مالى .
لا أغنى عنك من الله شيئاً » . .

* * *

وطالما قيل عن هذه الديمقراطية الاسلامية أنها هى الديمقراطية العربية نقلها الاسلام من بيئة الصحراء التى نشأ فيها .

وهى كلمة من كلمات القشور التى تجوز على الأسماع بغير عناء لأن الطلاقة شبيهة بالمعهود من الصحراء فى الحس والخيال .

الا أن الطلاقة الحسية — فيما وراء القشور — لا تشبه حرية الحقوق فى أصل من أصولها التى تقوم عليها .. انها كطلاقة الريح فى الفضاء وطلاقة العصفور فى الهواء وطلاقة الأوابد بعيدا من المطاردين والأعداء ، وشتان الحرية الانسانية — حرية الحقوق المرعية — وهذه الطلاقة التى يتمتع بها الحيوان والانسان على السواء بمعزل عن العوارض والرقباء .

فاذا تركنا هذه الطلاقة فى بيدائها الغافلة عنها وبحثنا عن حرية الحقوق فى حكومة من حكومات الجاهلية لم نجد ثمة الا استبدادا بالأمر كأشد ما عرف الاستبداد فى دولة من دول الطغيان ذوات الصولة والصولجان . فقد كانت القدرة على الظلم قرينة بمعنى العزة والجاه فى عرف السيد والمسود من أمراء الجزيرة من أقصاها فى الجنوب الى أقصاها فى الشمال . وما كان الشاعر النجاشى الا قادحا مبالغا فى القدح حين استضعف مهجوه لأن :

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

وما كان حجر بن الحارث الا ملكا عربيا حين سام بنى أسد أن

يستعبدهم بالعصا وتوسل اليه شاعرهم عبيد بن الأبرص حيث يقول :

أنت المـلك فوقهـــم   وهـم العبيـد الى القيـامة
ذلـوا لسـوطك مثلمـا   ذل الأشـيقر ذو الخـزامة

وكان عمرو بن هند ملكا عربيا حين عود الناس أن يخاطبهم من وراء ستار ، وحين استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته فى داره .

وكان النعمان بن المنذر ملكا عربيا حين بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوما للرضى يغدق فيه النعم على كل قادم اليه خبط عشواء ، ويوما للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح الى المساء .

وقد قيل عن عزة كليب وائل أنه سمى بذلك لأنه كان يرمى الكليب حيث يعجبه الصيد فلا يجسر أحد على الدنو من مكان يسمع فيه نباحه ، وقيل « لا حر بوادى عوف » لأنه من عزته كان لا يأوى بواديه من يملك حرية فى جواره ، فكلهم أحرار فى حكم العبيد .

ومن القصص المشهورة قصة عمليق ملك طسم وجديس الذى كان يستبيح كل عروس قبل أن تزف الى عريسها ، وفيه تقول فتاتهم عفيرة :

فان أنتمُ لم تغضبوا بعد هـذه   فكونوا نساءً لا تعاب على الكحل
ودونكم طيب العـروس فانمـا   خلقتم لأثواب العروس وللنسل

ويستوى أن تصح هـذه القصـة على علاتها أو لا تصـح منها الا الرواية والنظم الموضوع . فانها لصحيحة بجوهرها كل الصحة اذا وقر فى أذهان الرواة والسامعين أن الظلم حق للقادر المعتز بقدرته ، وان اذلال الأعزاء علامة العزة فوق كل عزيز . ولو لم يكن هذا دأب

الملوك فى معهود العرب الأولين لما قالت احدى الملكات فيما رواه القرآن الكريم على لسانها :

« إن الملوكَ إذا دخلُوا قريةً أفسدوها وجعَلوا أعِزّةَ أهلِهَا أذِلّةً وكذلك يفعلون » . . . (سورة النمل)

* * *

فالديمقراطية الاسلامية اذن لم تكن نباتا عربيا نما فى الجاهليـــة وورثه الاسلام منها . لأن الديمقراطية لم يكن لها وجود فى الجاهلية لوجود الأمارة والرئاسة الحكومية ، وما كان منها غير ذلك من قبيل الطلاقة المرسلة فى الصحراء الواسعة فانما هو طلاقة مادية كطـلاقة الطائر فى جوه أو كطلاقة الهواء الذى لا عائق له فى فضائه والماء الذي لا عائق له فى مجراه . وتلك الطلاقة المادية — ان جاز أن نسميها حرية — فانما هى الحرية التى يستمتع بها المرء لأنها شيء مزهود فيه لا يجد من يصادره أو يرغب فيه .

ولم تكن الديمقراطية الاسلامية كذلك نباتا منقولا من تربة أجنبية لأن الديمقراطية الاسلامية ديمقراطية حقوق تلازم الانسان ، وما نبت قبلها من الديمقراطيات فهو على أحسنه خطط عملية تمليها الضرورة على حسب الحاجة اليها ، وليس هناك « انسان » يحق له أن يطلبه اذا فقد القدرة عليه ، لأن هذا « الانسان » صاحب الحق فى الديمقراطية باعتباره « انسانا » مساويا لسائر أبناء آدم وحواء لم يكن له وجود مفهوم قبل الدعوة الاسلامية .

لم تنبت الديمقراطية الاسلامية فى تربة الصــحراء ولا فى تربة الحضارة ، ولكنها كانت معجزة الهية مثلها فى الظهور بين الجاهليين

كمثل الايمان بالاله الواحد الأحد الذى لا يحابى قوما لأنهم قومه دون سائر الأقوام ولا يلعن قوما لأنهم ورثوا اللعنة من الآباء والأجداد .

حق الانسان والايمان بالله رب العالمين — كلاهما معجزة الهية تجلت بها قدرة الله على غير مثال سابق متسلسل من أسبابه فى بيئته ولا فيما جاورها من البيئات . فان السوابق التى سلفت قبل الدعوة الاسلامية كأنت كسوابق المرض الذى يتطلب الدواء ولم تكن كسوابق العلاج الذى ينتهى بالشفاء ، وتلك هى السوابق التى تتجلى فيها قدرة الله على يد رسول من رسله ينبعث بالهداية ملهما موفقا بوحى من الله ، فيصنع المعجزة التى لم تمهد لها أسبابها ودواعيها ، لأن أسبابها الخفية ودواعيها الكامنة فى السريرة الانسانية تفوت ذرع العقول ولا تدخل فى الحساب .

ولسنا نحب أن يفهم القارىء من كلامنا أن المعجزة الالهية تقلب أوضاع الأمور وتأتى فى أوانها بغير سبب مقدور ، وانما نريد أن الأسباب لا تنكشف كلها لعلم الانسان وان علم الله هو الذى يحيط بالخوارق التى لا تدخل فى الحسبان .

فالمرض الذى يؤدى الى الموت سبب ، والمرض الذى يؤدى الى العلاج المنقذ سبب ، فاذا اختلط علينا السببان وجاء الشفاء من حيث نتوقع الهلاك والفناء . فتلك معجزة من المعجزات الالهية علمها عند الله، وأسبابها غير الأسباب التى نقدرها لها قبل وقوعها .

نشأت الدعوة الاسلامية فى بيئة مريضة بأدواء العصبيات وضروب الضلال فى اختلاط من العبادات والخرافات . فلو جرت الأسباب التى ندركها فى مجراها المعهود فالدعوة التى تأتى من قبل هذه البيئة لن

تدعو الى اله واحد يتساوى لديه جميع الناس ، ولن تمنح الانسان حقا واحدا يتساوى فيه جميع الناس .

ولكن هذه الدعوة جاءت بهذا وذاك : جاءت بالدعوة الى رب العالمين والى الحق الذى يتساوى فيه أبناء آدم وحواء ، وجاءت بذلك لأن انسانا واحدا خلق الله فيه من قوة الروح ما يكافىء تلك العصبيات جميعا وتلك الضلالات جميعا ويتغلب عليها ويجريها فى غير مجراها .

ذلك هو رسول الله .

وتلك هى المعجزة الالهية :

وأسبابها نفهمها الآن ، بعد أن هدينا اليها ، ولكننا لم نكن لنفهمها لو ترقبناها قبل وقوعها وانتظرناها من حيث تنتظر الأسباب العاملة فى حياتنا ، ولا سيما الأسباب التى نحسبها اليوم من الأسباب «الطبيعية» دون سواها .

معجزة من المعجزات الالهية أن تجىء الدعوة الى رب العالمين من صحراء لا تعرف غير الفوارق بين العصبيات والأنساب .

ومعجزة مثلها أن يجىء من تلك الدعوة حق الانسان الذى يرفعه عمله ولا يرفعه نسبه ، أيا كان هذا النسب بين الاعراق والأقوام .

ولا انفصال بين المعجزتين بعد الروية فى السبب الذى تنبعثان منه والنهاية التى تؤديان اليها .

كلتا المعجزتين صادرة من ينبوع واحد . فمن آمن برب العالمين لم يؤمن برب فريق دون فريق من الناس ، ومن آمن بالمساواة بين أعمال الناس وحقوقهم فلن يؤمن برب غير ربهم أجمعين .

ويقال بحق ان الانسان يتطلب المثل الأعلى فى الصفات الالهية ، وانه من أجل هذا لا ينزه حاكمه عن صفة يقبل الاتصاف بها فى حق الله.

ومن البديه أنه لا يتخيل حاكمه منزها عن المحاباة بين رعاياه اذا جاز عنده أن الله لا يتنزه عن المحاباة بين خلقه فى غير عمل ولا مزية .

فلا جرم كان الايمان برب العالمين ايمانا بحق العدل والمساواة ، وايمانا بالديمقراطية التى تقوم على هذا الحق فى الأرض وفى السماء . ولله المثل الأعلى .

والله فى عقيدة المسلم هو أحكم الحاكمين .

فهو الحاكم الذى لا يظلم أحدا ولا يحاسب أحدا بغير تكليف ولا يغير ما بالعبد حتى يغير ما بنفسه ، ولا يأمر الحاكم بأمر الا كان هذا الأمر من شريعته فى عباده ، ومن نواميسه فى قضائه وقدره . .

* * *

« ولا يَظلمُ ربُّكَ أحدًا » . . . (سورة الكهف)

* * *

« إن اللهَ لا يَظلمُ مِثقَالَ ذَرَّة وإن تَكُ حسنةً يُضاعفها ويُؤْتِ من لَدُنهُ أجراً عظيما » . . . (سورة النساء)

* * *

« ذلكَ بأن اللهَ لم يكُ مُغَيِّرًا نعمةً أنعمَها على قومٍ حتى يُغيِّرُوا ما بأنفسهم » . . . (سورة الأنفال)

* * *

« إن اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ حتى يُغيِّرُوا مَا بأنفسِهم » . . .
(سورة الرعد)

* * *

« وما كنّا معذّبينَ حتى نبعثَ رَسولًا » . . .   (سورة الإسراء)

* * *

« وإنْ مِن أمّةٍ إلا خَلا فيها نَذيرٌ » . . .   (سورة فاطر)

* * *

واذا كان هذا عهد الله على نفسه أمام خلقه فالثورة التى جاء بها الاسلام فى عالم الحقوق أرفع وأوسع من أن تحسب من تلك الثورات التى تبتدىء وتنتهى فى نطاق الحركات الاجتماعية أو السياسية . انها ثورة كونية ترتفع بالحقوق والقيم فى نظر الانسان الى أعلى فأعلى والى أكمل فأكمل . فلا تبقى له من علاقة ببنى نوعه أو بالكون الذى يحتويه الا ارتفعت بمقدار ما ارتفع عنده من حق ومن قيمة .

* * *

ومن أجمل ما فى الاسلام أن هذه الحقوق العليا فيه لا تحرم الانسان حقه فى الحياة ولا تزهده فى طيباتها ومحاسنها ، فحق الضمير لا يجور على حقه فى الحياة الدنيا . وهو مأمور بالسعى والعمل والاستمتاع بما يكسبه بسعيه وعمله من نعمتها وزينتها ، أمره بذلك كأمره برعاية حقه من العدل والحرية والكرامة .

* * *

« يا أيُّها النَّاسُ كُلوا مما فى الأرضِ حَلالاً طَيِّباً » . . .

(سورة البقرة)

* * *

« يا أيُّها الذينَ آمنوا أنْفِقُوا من طَيباتِ ما كَسَبْتُمْ » . . .

(سورة البقرة)

* * *

« يا بَنِى آدمَ خُذوا زِينَتكُم عنـــدَ كلِّ مســجدٍ وكُلوا واشربُوا ولا تُسْرِفُوا » . . . (سورة الأعراف)

* * *

« لا تُحرِّموا طَيِّباتِ ما أحلَّ اللهُ » . . . (سورة المائدة)

* * *

ونقول ان الأمر بحق الحياة من أجمل ما جاء به الاســلام . لأن الانسان لم يتعود من الدين قبله أن يأمره بهذا الحق ، وانما تعود من أديان كثيرة أن تنهاه عنه ، وأن تجعل زهده فى الأرض شرطا لحظوته فى السماء .

الأمة

آمن المسلمون بالحق الالهى فجعلوا الأمة مصدرا لجميع السلطات ومرجعا لجميع المسئوليات . وهذا هو الحق الالهى اذا فهم على سوائه ولم تنحرف به الأهواء الى غير معناه ، خدمةً للمطامع وتزجية للمآرب عند ذوى السلطان .

لا مصدر للسلطة العامة فى الاسلام غير الأمة .

ولا مرجع فيه للمسئولية العامة غير الأمة .

ولا تعارض بين هذا وبين نصوص الكتاب وسنة الرسول .

فان النصوص والسنن لا تقوم بذاتها ، بل تقوم بمن يفهمها ويعلمها ويعمل بها ويؤديها على وجوهها ، وكل أولئك تشمله الأمة بما انطوت عليه من خاصتها وعامتها ، وجملة ذوى الحل والعقد والعاملين من عليتها وســوادها .

فهى التى تأتمر بنصوص الكتاب والسنة ، وهى المسئولة عن صوابها وخطئها حيث ائتمرت به واتفقت عليه أو اختلفت فيه .

وأول ما تكرر من ذلك الحق كان فى حياة النبى عليه السلام . فانه كان مأمورا بمشاورة أمته ، وكان الأمر بينهم شورى فى كل شأن من الشئون غير التبليغ الذى خصه الله به ولولاه لم تكن الدعــوة الى هــذا الدين .

* * *

« وشَاوِرهُم فى الأمرِ » . . .   (سورة آل عمران)

* * *

« وأمرُهُم شُورى بينَهم » . . .   (سورة الشورى)

* * *

ولما قبض عليه السلام الى الرفيق الأعلى كانت ولاية الأمر بعده لمن تولية الأمة وتبايعه على الخلافة ، وتولاها من تولاها من الخلفاء الراشدين بالبيعة العامة ، ولم يدع أحد بعدهم حقا فى ولايتها بغير هذه البيعة .

ولا يوجد فى الاسلام حق بغير تبعة . فحق الأمة فيه وتبعتها متكافئتان متساويان .

حقها تام وتبعتها تامة .

حقها تام لا يصدها عنه ذو سلطان بغير رضاها ، وتبعتها تامة لا يعفيها من جرائرها عذر من الأعذار .

وهى متكافلة متضامنة فى حقوقها وتبعاتها ، لأنها متكافلة متضامنة فيما يصيبها من عواقب أعمالها .. « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

فلا عذر لها فى ضلال تنساق اليه متابعة لأسلافها ، ولا عذر لها فى ضلال تنساق اليه متابعة لأحبارها وكبرائها ، فان اللائمة لتعود عليها فى ذلك كله كما عادت على الذين من قبلها .

* * *

« وإذا قِيلَ لهم اتبعُوا ما أنزلَ اللهُ قالوا بل نَتَّبِـعُ ما ألفَيْنا عليه آباءَنا . أوَلَوْ كانَ آباؤُهم لا يعقِلون شيئاً ولا يهتَدون » . . .   (سورة البقرة)

* * *

« قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً من دُونِ اللهِ » . . . (سورة التوبة)

* * *

« قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ! قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِين فى الأَرْضِ قَالُوا . أَلَمْ تَكُنْ أَرضُ اللهِ واسعةً فَتُهاجِرُوا فيها » . . . (سورة النساء)

هذه المسئولية التامة المتناسقة بين طوائف الأمة وطبقاتها — تمليها شريعة تامة متناسقة فى عقائدها وتكاليفها ، ولولا هذا التناسق فىالدين الاسلامى لكان اضطلاع الأمة بمسئولياتها العامة من النقائض التى لا تعقل فى قسطاس العدل أو فى منطق الواقع ، لأنها تسوم الناس من جانب ما تبطله من الجانب الآخر .

فالاحبار والكهان فى الأمم الخالية كانوا يقومون بينها هيئة مفروضة عليها مرسومة بمراسمها الموروثة وأزيائها المقررة وأتاواتها المضروبة عليها كأنها ضرائب الدولة ، وكانت هذه الهيئة قائمة فى الطليعة تهتدى فيهتدى من يليها ، وتضل فلا يملك أحد سبل الهداية من ورائها . وكان سبيل الهداية الوحيد أن يتصدى نبى من الأنبياء لهذا السد المغلق فيحطمه ويفتح فيه الثغرة التى يسلكها من يتطلع الى بصيص من النور يطالعه من لدنها .

ولو فرض الاسلام على الأمم هيئة كهذه الهيئة لما استقام للأمة حقها العام ولا تسنى لها أن تضطلع بتبعاتها العامة . الا أنه أعفاها من طغيان الكهانة وفتح أمامها منادح للفكر الانسانى لم تكن مفتوحة من قبله ، فجعل النصيحة حقا لكل قادر عليه من أولى الفهم والدراية ، وجعل العلم وظيفة عامة يطلبها من يشاء ويتولاها من يشاء ولا سلطان

له على الناس غير سلطان القدوة الحسنة والاقناع بالحجة والبينة الصادقة ، وهو المسئول ان خان هذه الأمانة ، والمستمعون له هم المسئولون ان سمعوها فلم يستجيبوا لندائها .

* * *

« وَلْتَكُنْ منكم أُمةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخَيْرِ ويأْمُرُونَ بالمعروفِ وينهَوْن عن الْمُنكَر » . . . (سورة آل عمران)

* * *

« وما هلك الأمم من قبلهم إلا لأنهم « كَانُوا لاَيَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ » . (سورة المائدة)

وان كلمة « المنكر » وحدها لكافية فى الدلالة على هذه الفريضة العامة . فانها من الانكار الذى يشيع بين الناس فلا يجرى بينهم أمر من الأمور أنكروه ولم يتعارفوا عليه . فاذا اصطلحوا على المنكر وجهلوا الأمر بالمعروف فتلك أيضا جريرتهم يحاسبون عليها ما دام من حقهم أن يتجنبوها ، ولا ظلم ولا حيف فى هذه المسئوليات العامة بين الأمم . بل الظلم والحيف أن يتساوى الجاهلون والعارفون ، أو تتساوى جماعة الجهلاء الذين نفعتهم ويلات الجهل وبلاياه فجهدوا جهدهم للخلاص منه ، وجماعة الجهلاء الذين سدروا مع الجهل ولم يشعروا بويلاته وبلاياه . ولا يحل فى قسطاس العدل على كل حال أن تكون الأمة مصدرا لجميع السلطات الا اذا كانت مع هذا مرجعا لجميع التبعات والمسئوليات .

« ذلكَ بما قَدَّمَتْ أيْدِيكُمْ وَأنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ » . . .
(سورة آل عمران)

* * *

ولا يحسب على الاسلام أن المسلمين لم يحفظوا حقهم ولم يضطلعوا بتبعتهم ، وانما يحسب عليه أنهم حفظوا الحق ثم ندموا على حفظه واضطلعوا بالتبعة ثم ندموا على الاضطلاع بها ، أو يحسب عليه أنهم ضيعوا الحق فلم يصبهم بلاء من تضييعهم اياه ، وانهم نكصوا عن التبعة فلم يصبهم بلاء من النكوص عنها . ولم يحدث من هذا ما يدعو المسلم الى الندم على ايمانه بدينه ، ولكنه قد حدث منه مرارا ما يدعوه الى الندم على التفريط فى أوامر هذا الدين القويم ونواهيه .

* * *

ولعله من علامات الخير أن تدول الدول وأن يذهب ما أفسدت من أمور الدين والدنيا وتبقى للمسلم عقيدته فى حقوق أمته مصونة فى قلوب المحافظين والمجددين ملحوظة فى آراء الوادعين والثائرين ، يقول أشدهم محافظة ما يقوله أشدهم قلقا وثورة ، ويتلاقى الماضى والمستقبل لديهم أجمعين على كلمة سواء يسمعها من شاء بعد أربعة عشر قرنا كما سمعها أسلافه قبل أربعة عشر قرنا فى صدر الاسلام وابان الدعوة المحمدية .

يقول امام من أشهر الأئمة المتأخرين بالمحافظة على القديم :

ان كتب الكلام ... (كلها مطبقة متفقة على أن منصب الخليفة والامام انما يكون بمبايعة أهل الحل والعقد وأن الامام انما هو وكيل الامة وأنهم هم الذين يولونه ملك السلطة وأنهم يملكون خلعه وعزله وشرطوا لذلك شروطا أخذوها من الاحاديث الصحيحة . وليس لهم مذهب سوى هذا المذهب ... » (١)

ولا يفوتنا فى ختام هذه الكلمة عن حقوق الأمة أن ننبه الى حقيقة النسبة الى الأمة حيثما وردت فى القرآن الكريم . فان كتاب الله يعنى بهذه الكلمة أن الخطاب الالهى موجه الى الأمم عامة لا تستأثر به أمة

---

(١) الشيخ محمد بخيت فى كتابه عن حقيقة الاسلام وأصول الحكم .

ولا تحجب عنه أمة خلافا لمن قال من بنى اسرائيل ان « الأمم » لا تتلقى خطابا من الله وانهم وحدهم — أمة اسرائيل — قد استأثروا بهذا الخطاب دون خلق الله .

ويدل على ذلك أن كلمة « الأميين » قد وردت فى القرآن الكريم مقابلة لأهل الكتاب أو لأهل الكتاب من بنى اسرائيل خاصة فى غير موضع ، فالأميون قد وردت فى سورة آل عمران مرتين منسوبة الى كل أمة غير بنى اسرائيل :

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فى الأُمِّيِّين سَبِيلٌ » . . .
(سورة آل عمران)

« وقُلْ لِلذينَ أُوتوا الكتابَ والأُمِّيِّينَ » ... (سورة آل عمران)

* * *

وقد وردت بهذا المعنى حيث جاء فى القرآن الكريم أن الله « بعث فى الأميين رسولا » .. تكذيبا لدعوة الذين يزعمون أن الله تعالى لا يخاطب الأمم ، وتذكيرا لهم بأن الأمة هى موضع الخطاب من الله كلما بعث اليها برسول .

« وإن مِّنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلاَ فيها نَذِيرٌ » . (سورة فاطر)

الأسرة

الأسرة هى الأمة الصغيرة ، ومنها تعلم النوع الانسانى أفضل أخلاقه الاجتماعية ، وهى فى الوقت نفسه أجمل أخلاقه وأنفعها .

من الأسرة تعلم النوع الانسانى الرحمة والكرم ، وليس فى أخلاقه جميعا ما هو أجمل منهما وأنفع له فى مجتمعاته .

فالرحمة فى اللغة العربية من الرحم أو القرابة ، وهى كذلك فى اللغات الهندية الجرمانية . لأن كلمة « كايند Kind مأخوذة كذلك من الرحم ، وكلمة الطفل التى تتمثل الرحمة كلها فى العطف عليه مأخوذة منها .

والكرم فى اللغة العربية مأخوذ من النسب الصريح الذى لا هجنة فيه ، وهو فى اللغات الهندية الجرمانية مأخوذ كذلك من « الجانر » Genre ... والمنسوب اليها هو الكريم .

واذا تتبعنا سائر الفضائل والمناقب الخلقية المحمودة بلغنا بها فى أصل من أصولها على الأقل مصدرا من مصادر الحياة فى الأسرة . فالغيرة والعزة والوفاء ورعاية الحرمات كلها قريبة النسب من فضائل الأسرة الأولى ، ولا تزال من فضائلها بعد تطور الأسرة فى أطوارها العديدة منذ عشرات القرون .

ولا بقاء لما كسبه الانسان من أخلاق المروءة والأيثار اذا هجر الأسرة وفكك روابطها ووشائجها .

فمن عادى الأسرة فهو عدو للنوع الانسانى فى ماضيه ومستقبله . ولا يعادى الأسرة أحد الا تبينت عداوته للنوع الانسانى من نظرته الى تاريخ الأجيال الماضية . كأنه ينظر الى عدو يضمر له البغضاء ويهـدم كل ما أقامه من بناء .

وما من سيئة تحسب على الأسرة بالغة ما بلغت سيئاتها من الكثرة والضرر هى مسوغة لمحب بنى الانسان أن يهدم الأسرة من أجلها ويعفى على آثارها .

فحب الأسرة — حقا — قد سول للناس كثيرا من الجشع والأثرة، ومن الجبن والبخل ، ومن الكيد والاجرام .

وكذلك حب الانسان نفسه قد فعل هذا فى العالم الانسانى وزيادة.

ولكننا لا نمحو الانسان ولا نمحو الأسرة من أجل الأثرة وأضرارها. وانما نمحو الأثرة ما استطعنا ونوفق بينها وبين الايثار غاية ما يستطاع التوفيق بين الخليقتين ، ونفلح فى ذلك مع الزمن لأننا أفلحنا كثيرا فى تعميم روابط الأسرة الصغيرة بين أبناء الأسرة الكبيرة ، وهى الأمة ، ولأننا أفلحنا كثيرا فى تعميم المنافع والمرافق من هذه المثابة فضلا عن المناقب ومكارم الأخلاق . فلولا الأسرة لم تحفظ صناعة نافعة توارثها الأبناء عن الآباء ثم توارثها أبناء الأمة جمعاء ، ولولا الأسرة ما اجتمعت الثروات التى تفرقت شيئا فشيئا بين الوارثين وغير الوارثين من الأعقاب، ولولا الأسرة لاستجاب لدعوة الهدم والتخريب كل من لا خلاق له من حثالات الخلق ونفاياتهم فى كل جماعة بشرية . فالأسرة هى التى تمسك اليوم ما بناه النوع الانسانى فى ماضيه ، وهى التى تؤول به غدا الى أعقابه وذراريه حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل .

لا أمة حيث لا أسرة .

بل لا آدمية ، حيث لا أسرة .

ولن ينسى الناس أنهم أبناء آدم وحواء الا نسوا أنهم أبناء رحم واحد وأسرة واحدة ، كائنا ما كائن تأويلهم لقصة آدم وحواء .

ومتى علمنا أن واجب الانسان لبنى نوعه فى الاسلام — انما هو واجب الأسرة الكبرى التى جمعت أخوة الشعوب والقبائل لتتعارف بينها، فقد علمنا شأن الأسرة فى هذا الدين وعلمنا أن قرابة الرحم والرحمة حجة القرابة بين الأخوة من أبناء آدم وحواء ، وأنها هى شفاعة كل انسان عند كل انسان .

***

تقوم الأسرة فى الاسلام على أنها كيان دائم تراد له السعة والامتداد والوئام .

وتتحقق سعة الأسرة وامتدادها ووئامها بنظامين من النظم التى شرعها لها الاسلام ، وهما نظام المحارم فى الزواج ونظام الميراث .

فالاسلام يحرم الزواج بالأقربين ولا يبيح من ذوى القرابة الا من أوشكوا أن يكونوا غرباء ، فالزواج يجمع منهم فى الأسرة من أوشكوا أن يتفرقوا كأبناء العمومة والخؤولة .

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهاتُكُم وَبناتُكُم وأَخَوَاتُكُم وعَمَّاتُكُمْ وخَالاَتُكُم وبنَاتُ الأخِ وبنَاتُ الأُخْتِ وأمهاتُكُمُ اللاَّتِى أَرْضَعْنكُم وأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وأُمهاتُ نِسَائِكم وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِى فى حُجُورِكُمْ من نسائِكُمُ اللاَّتى دخلتُمْ بهن فإنْ لم تكونُوا دَخلتُمْ بهن فلا جُناحَ عليكُمْ وحَلائِلُ أبنائِكُمْ الذين من أَصْلابِكم وأَن تَجْمَعُوا بينَ الأُختينِ إلَّا ما قَدْ سَلَفَ إنَّ اللهَ كان غَفورًا رَحيمًا » .   (سورة النساء)

والمقاصد من هذا التحريم منوعة لا نحصيها فى هذا المقام ، أجلها وأجداها توسعة الأسرة ووقايتها من شواجر الخصومة والبغضاء ، وأن يتحقق بالزواج من أسباب المودة والنسب ما لم يتحقق بالقرابة ، فيرجع الى الأسرة من أوشك أن ينفصل عنها ، ويحرم الزواج بذوى القرابة الحميمة التى لا حاجة بها الى توثيق النسب والمصاهرة ، وهما فى القرآن الكريم من آيات خلق الانسان كما جاء فى سورة الفرقان :

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » . . . (سورة الفرقان)

ويشرع الاسلام نظام الميراث لأن الأسرة كيان يعيش ويتصل عمره بعد انقضاء أعمار أعضائه . ولا اعتراض على نظام الميراث من وجهة النظر الى طبائع الأحياء ولا من وجهة النظر الى المصلحة الاجتماعية ، فان الأبناء يرثون من آبائهم ما أرادوه وما لم يريدوه ، وحق لهم أن يرثوا ما خلفوه من عروض كما ورثوا عنهم ما خلفوه من خليقة لا فكاك منها ، ولا غبن على المجتمع فى اختصاص الأبناء بثمرة العمل الذى توفر عليه الآباء ، لأن هذه الثمرة اذا بقيت فى المجتمع كان الورثة أحق بها من سواهم ، وكان الغبن فى النهاية أن يتساوى العامل لغده والعامل الذى لا ينظر الى غير يومه وساعته ، أو يتساوى من يعمل ويبنى للدوام ومن لا يعمل ولا يبالى ما يصيب المجتمع بعد يومه الذى يعيش فيه .

* * *

ويتحقق وئام الأسرة وامتدادها بما فرضه الاسلام من حقوق لكل عضو من أعضائها ، فلا حق لانسان على انسان أعظم من حق الآباء والأمهات فى الاسلام على الأبناء والذرية . وبحسبك أنه كاد أن يكون البر بهم مقرونا بالايمان بوحدانية الله .

« قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ أَلاَّ تُشرِكُوا بِهِ شَيْئاً وبالوالدَيْنِ إِحْسَاناً » ... (سورة الأنعام)

وكادت الطاعة لهم الا يسبقها واجب غير واجب الطاعة للاله المعبود .

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بوالديهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وفِصالُهُ فى عَامَيْنِ أنِ اشْكُرْ لِيَ ولوَالدَيْكَ إِلَيَّ المَصيرُ . وإنْ جَاهَداكَ على أنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لكَ بِهِ عِلمٌ فلا تُطعهُما وصاحِبْهُما فى الدُّنيا مَعروفًا » ... (سورة لقمان)

* * *

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعبُدوا إلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدَيْنِ إِحساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحَدُهُما أو كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وقُلْ لَهما قولاً كَريمًا . واخْفِضْ لهما جَناحَ الذُّل من الرَّحمةِ وقُلْ ربِّ ارْحَمْهُما كما رَبَّيانِي صَغيرًا .. » (سورة الإسراء)

وفى القرآن الكريم غير الوصايا فى هذه الآيات وصايا مثلها تذكر كلما ذكر الوالدان ، وفيه من الآيات ما يتصل به شكر الانسان لنعمةالله على أبويه بدعائه الى الله أن يصلح له ذريته وأن يلهمه العمل الذى تصلح به حياته الباقية .

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بوالديهِ إِحْسَاناً حملتْـهُ أُمُّه كُرْهاً وَوَضعتْه كُرْهاً وحَمْلُهُ وفِصالُهُ ثَلاثونَ شهراً حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبلَغَ أرْبَعينَ سَنةً قالَ ربِّ أوْزِعْنِى أن أشكُرَ نِعمَتَكَ التى أنْعمْتَ علَيَّ وعلى والدَيَّ وأنْ أعمَلَ صالحًا ترضاهُ وأصْلحْ لِي فى ذُرِيَّـتِي إني تُبْتُ إليكَ وإنِّي مِنَ المسلمين .. » ... (سورة الأحقاف)

* * *

وربما سبق الى الخاطر فى عصرنا هذا أن البر بالأبناء لا يحتاج الى وصية دينية كوصية الأبناء بالآباء ، لما ركب فى طباع الأحياء من حب البنين والرقة لصغار الأطفال على العموم . الا أن أحوال الأمم وأحكام شرائعها قبل الاسلام تنبىء عن مسيس الحاجة الى هذه الوصية ، لأن أخطاء العرف الشائع فيها كانت أشد من أخطاء العرف الشائع فى معاملة الأبناء للآباء . فكان الولد فى شريعة الرومان بمثابة العبد الذى يملكه والده ويتصرف فيه برأيه فى كل ما يرتضيه له قبل بلوغ رشده ، وكانت شريعة حمورابى توجب على الأب الذى يقتل ولدا لغيره أن يقدم ولده لأبى القتيل يقتص منه بقتله ، وكان اليهود يقتلون الأبناء والبنات مع أبيهم اذا جنى الأب جناية لم يشتركوا فيها ولم يعلموها ، ومن ذاك ما فى الاصحاح السابع من كتاب يشوع حين اعترف عخان بن زارح بسرقة الرداء النفيس والفضة :

« فأرسل يشوع رسلا فركبوا الى الخيمة واذا هى مطمورة فى خيمته والفضة تحتها . فأخذوها من وسط الخيمة وأتوا بها الى يشوع والى جميع بنى اسرائيل وبسطوها أمام الرب فأخذ يشوع عخان بن زارح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الى وادى عجور فقال يشوع : كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم ؟ فرجمه جميع بنى اسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورجموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة الى هذا اليوم . فرجع الرب عن حمو غضبه ولذلك دعى اسم ذلك المكان وادى عجور الى هذا اليوم . »

* * *

أما عرب الجاهلية الذين نزل فيهم القرآن الكريم فقد أبيح بينهم قتل الأولاد وجرت بينهم شريعة الثأر من الابن بذنب أبيه مجرى العرف المحمود . فلما جاء الاسلام أثبت للولد حقا فى الحياة والملك كحق أبويه،

وشرع له من مولده حقوق الرضاع والحضانة ، وكان أبر بالأبناء من آبائهم وأمهاتهم ، لأنه كان يأخذ العهد عليهم ألا يقتلوا أبناءهم ويحميهم مما لا يحتمون منه بحنان الأبوة والأمومة .

* * *

« يا أيُّها النبيُّ إذا جاءكَ المؤمنَاتُ يُبايعْنَكَ على ألا يُشرِكْنَ باللهِ شيئاً ولا يَسْرِقْنَ ولا يزْنِينَ ولا يقتُلْنَ أولادَهُنَّ » ... (سورة الممتحنة)

* * *

« قدْ خَسِرَ الَّذينَ قتَلوا أوْلادَهُمْ سَفهاً بغيْرِ عِلمٍ » ...

(سورة الأنعام)

* * *

« ولا تَقتُلُوا أولادَكُم خَشْيَةَ إملاقٍ نحنُ نرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ » . . .

(سورة الإسراء)

* * *

أما حقوق الأسرة من حيث الروابط الزوجية فقد جاء الاسلام فيها بالجديد الصالح وأقام حقوق الزوجين على أساس العدل بينهما ، وأقام العدل على أساس المساواة بين الحقوق والواجبات ، وهى المساواة العادلة حقا فى هذا الموضوع . اذ كانت المساواة بين الذين لا يتساوون بأعمالهم وكفايتهم ظلما لا عدل فيه .

ولم يهبط الاسلام بمنزلة المرأة فى جانب من جوانب حياتها العامة أو حياتها البيتية التى وجدها عليها ، ولكنه ارتفع بها من الدرك الذى هبطت اليه فى الحضارة الغابرة وعقائد الأمم التى تأثرت بتلك الحضارات قبل ظهوره ، وكلها لم تكن على حالة مرضية فى بلاد العالم المعمور .

كانت المرأة فى الحضارة الرومانية تابعا له حقوق القاصر أو ليست له حقوق مستقلة على الاطلاق .

وكانت فى الحضارة الهندية عائقا للخلاص من دولاب الحياة الجسدية ، وخلاص المرء مرهون « بالموكشا » أى بالانفصال عنها ، وكان حقها فى الحياة منتهيا بانتهاء أجل الزوج ، تحرق على جدثه عند وفاته ولا تعيش بعده الا حاقت بها اللعنة الأبدية وتحاماها الآل والأقربون .

وكان للمرأة فى الحضارة المصرية القديمة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش ويبوئها مكان الرعاية فى الأسرة ، ولكن الأمة المصرية كانت من الأمم التى شاعت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد وشاع فيها مع اعتقاد الخطيئة الأبدية أن المرأة هى علة تلك الخطيئة وخليفة الشيطان وشرك الغواية والرذيلة ، ولا نجاة للروح الا بالنجاة من أوهاقها وحبائلها .

وكانت معيشة البداوة فى الجاهلية العربية تمنح المرأة بعض الحرية لأنها كانت عضوا نافعا فى تلك المعيشة البدوية تسقى وترعى وتنسج وتستخرج الطعام من الألبان والثمرات ، ولكن هذه المعيشة البدوية نفسها كانت ترغب الآباء فى ذرية البنين وتزهدهم فى ذرية البنات ، لأن البنين جند القبيلة وحماة حوزتها وعدتها فى شن الغارات والتأهب لردها ، فلم يكن أبغض الى الأب من خبر يأتيه بمولد أنثى ولو كان ذا وفر ووفرة ، ومنهم من كان يئد البنات اشفاقا من العار ان لم يئدهن خشية املاق ، والى ذلك يشير القرآن الكريم حيث جاء فى سورة النحل .

« وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وجْهُـهُ مُسْوَدًّا وهو كَظِيمٌ . يتوارَى مِنَ القَوْمِ من سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أيُمْسِكُهُ على هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فى الترابِ ألا سَاءَ ما يَحْكُمُونَ » . (سورة النحل)

وتكررت الاشارة اليه حيث جاء فى سورة الزخرف بعد تسفيه الذين جعلوا للرحمن جزءا من عباده :

« ... أم اتَّخذَ مما يَخْلُقُ بَنَاتٍ وأصْفاكُم بالبَنينَ وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بما ضَرَبَ للرَّحمٰنِ مَثَلاً ظَلَّ وجهُهُ مُسْودًّا وهُو كَظيمٌ »

(سورة الزخرف)

فلما بعث النبى صلوات الله عليه بالدعوة الاسلامية لم تكن للمرأة منزلة مرضية ولا حقوق مرعية فى وطن من أوطان الحضارة أو البداوة، فرخص الاسلام عنها هذه الوصمة وخولها من الحقوق ما يساوى حقوق الرجل فى كل شىء الا فى حق القوامة :

« الرِّجالُ قوّامُون على النِّساءِ بمَا فضَّل الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وبما أنْفَقُوا مِنْ أموالِهِمْ .. » ...

(سورة النساء)

* * *

« ولَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عليهِنَّ بِالمعروفِ وللرِّجالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » ...

(سورة البقرة)

* * *

وهذا الذى عنيناه بالمساواة بين الحقوق والواجبات لأن المساواة بين الرجل والمرأة فى جميع الكفايات والأعمال أمر لم يقم عليه دليل من تكوين الفطرة ولا من تجارب الأمم ولا من حكم البداهة والمشاهدة ، بل قام الدليل على نقيضه فى جميع هذه الاعتبارات.. ولم تتجاهل الأمم فوارق الجنسين الا كان تجاهلها لها من قبيل تجاهل الطبيعة التى تضطر من يتجاهلها الى الاعتراف بها بعد حين ، ولو من قبيل الاعتراف بتقسيم العمل بين جنسين لم يخلقا مختلفين عبثا بعد أن غبرت عليهما

ألوف السنين ، وأحرى أن يكون طول الزمن مع تطور الأحوال الاجتماعية سببا لاختصاص كل منهما بوظيفة غير وظيفة الجنس الآخر، ولا سيما فى الخصائص التى تفترق فيها كفاية الحياة البيتية وكفاية الحياة الخارجية ، فان طول الزمن لا يلغى الفوارق بل يزيدها ويجعل لكل منهما موضعا لا يشابه سواه .

ان تكوين الفطرة فى مسألة النسل التى هى قوام حياة الأسرة يفرق بين الذكر والأنثى تفرقة لا سبيل الى الاغضاء عنها فى حياة النوع الانسانى على الخصوص . فان وظيفة النسل طليقة فى الرجل يصلح لها ما صلحت بنيته طول حياته الى السبعين وما بعد السبعين ، ووظيفة التناسل فى المرأة مقيدة بالحمل مرة واحدة فى كل عام وقلما تصلح لها المرأة بعد الخامسة والأربعين أو الخمسين فى أكثر الأحوال .

وفى تجارب الأمم شواهد ملموسة على الفارق الأصيل بين الجنسين فى الكفاية العقلية والكفاية الخلقية . فان المرأة على العموم لا تساوى الرجل فى عمل اشتركا فيه ، ولو كان من الأعمال التى انقطعت لها المرأة منذ عاش الجنسان فى معيشة واحدة . لا تطبخ كما يطبخ ولا تتقن الأزياء كما يتقنها ولا تبدع فى صناعة التجميل كما يبدع فيها ولا تحسن أن ترثى ميتا عزيزا عليها كما يرثى موتاه ، وهى منذ بدء الخليقة تردد النواح وتنفرد بأكثر مراسم الحداد . ومن اللغو أن يقال أن هذه الفوارق أنما نجمت من عسف الرجل واستبداده ، فان الرجل لم يكن ينهى المرأة أن تطبخ وأن تخيط الثياب وأن تتزين أو ترقص أو تترنم بالأغانى والأناشيد ، ولو أنه نهاها فاستطاع أن ينهاها فى بيتها وفى الدنيا الرحيبة لقد كان ذلك منه دليلا على غلبة العقل والارادة لا ريب فيه .

وندع الارادة فى كل شىء وتتأمل الغريزة الجنسية المركبة فى اناث جميع الأنواع . فهل من المجهول الخفى أن الأنثى تكتم ارادتها ولا تجهر بها وأنها تتصدى للذكر حتى يلتفت اليها ؟ وهل من المجهول الخفى أن أصوات الذكور تغلظ وتقوى بعد بلوغ النضج لانفرادها بالدعاء الجنسى واقتران هذا الدعاء بالنمو فى كل قوة تكفل لها الغلبة والسبق فى صراع الانتخاب الجنسى ؟ وهل مما يستطاع ادعاؤه هنا أن هذه الفوارق الأصيلة قد خلقها ذكور الحيوان ولم تكن عن حكمة عميقة فى بنيان الجنسين . ينقاد اليها الذكور كما ينقاد اليها الاناث ؟ .

واذا اعتبرنا مسألة القوامة من وجهة « ادارية » بحت واعتبرنا أن الأسرة هيئة لا غنى لها عن قيم يتولاها فمن يكون هذا القيم من الزوجين ؟ أتكون القوامة للمرأة أم تكون للرجل ؟ . أتكون حقوق الأبناء فى ذمتها أم تكون فى ذمته ؟

ان هذه الأمور من وقائع الحياة التى لا ترحم من يتجاهلها ولا تحلها تحيات الأندية ولا جعجعة الفروسية الكاذبة فى بقاياها المتخلفة من عصورها المنقرضة ، وما كان للمرأة فى أحسن حالاتها فى تلك العصور المنقرضة من مكانة غير مكانة العشيقة فى قصص الغرام .. كأنما هى مباهاة الفارس بشجاعته تعلو به فى كل موقف له مع المخلوقة الضعيفة أن يكون كموقفه مع الأنداد والنظراء .

ولا نحب أن نغضى عن الباعث الذى يتذرع به من ينكرون قوامة الرجل لادعاء المساواة بين الجنسين . فانهم يتذرعون لدعواهم هذه باضطرار المرأة الى الكدح لنفسها أحيانا فى ميدان العمل طلبا للقوت ولوازم المعيشة . فهذه ولا مراء حالة واقعة تكثر فى المجتمعات الحديثة كلما اختلت فيها وسائل العيش وتأزمت فيها أسباب الكفاح على

الأرزاق . ولكننا نراهم كأنهم يحسبونها حالة حسنة يبنون عليها دعائم المستقبل ولا يحسبونها حالة سيئة تتضافر الجهود على اصلاحها وتدبير وسائل الخلاص منها ، وما هى فى الواقع الا كالحالة السيئة التى دفعت الآباء والأمهات الى الزج بأطفالهم فى ميدان الكفاح على الرزق فأنكرتها القوانين وحرمتها أشد التحريم ، ولم تجعلها حجة تسوغ بقاءها وتقيم عليها ما تستتبعه من النظم الحديثة فى الأسرة أو فى الحياة الخارجية

* * *

واذا أعطيت هذه الاعتبارات قسطها من الجد والروية صح لدينا أن الاسلام قد جاء بالهداية الصالحة فى تقـرير مكان المرأة من الأسرة بالقياس الى الحالة التى كانت عليها قبل الدعوة الاسلامية ، وبالقياس الى الحالات التى يحتمل أن تؤول اليها فى جميع الظروف والعـوارض الاجتماعية . اذ رفعها الاسلام من الهوان الذى ران عليها من ركام العادات الخالية ، وأقام حقوقها الزوجية على الأساس الذى يحسن فى جميع الأحوال أن تقام عليه .

ان الاسلام لم يمنع الاكتفاء بزوجة واحدة بل استحسنه وحض عليه ، ولم يوجب تعدد الزوجات بل أنكره وحذر منه ، ولكنه شرع لأزواج يعيشون على الأرض ولم يشرع لأرواح تعيش فى السماء ، ولا مناص فى كل تشريع من النظر الى جميع العوارض والتقدير لجميع الاحتمالات ، وفى هذه الاحتمالات ولا ريب ما يجعل اباحة التعدد خيرا وأسلم من تحريمه بغير تفرقة بين ظروف المجتمع المختلفة أو بين الظروف المختلفة التى يدفع اليها الأزواج .

* * *

وينبغى أن ننبه الى وهم غالب بين الجهلاء والمتعجلين من المثقفين عن سنن الأديان فى تعدد الأزواج قبل الاسلام . اذ الغالب على أوهامهم أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى أباح تعدد الزوجات أو أنه أول دين آباحه بعد الموسوية والمسيحية .

وليس هذا بصحيح كما يبدو من مراجعة يسيرة لأحكام الزواج فى الشرائع القديمة ، وفى شرائع أهل الكتاب . فلا حجر على تعدد الزوجات فى شريعة قديمة سبقت قبل التوراة والانجيل . ولا حجر على تعدد الزوجات فى التوراة أو فى الانجيل ، بل هو مباح مأثور عن الأنبياء أنفسهم من عهد ابراهيم الخليل الى عهد الميلاد ، ولم يرد فى الأناجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبياء ولمن دونهم من الخاصة والعامة ، وما ورد فى الأناجيل يشير الى الاباحة فى جميع الحالات والاستثناء فى حالة واحدة . وهى حالة الأسقف حين لا يطيق الرهبانية فيقنع بزوجة واحدة أكتفاء بأهون الشرور . وقد استحسن القديس أوغسطين أن يتخذ الرجل سرية مع زوجته اذا عقمت هذه وثبت عليها العقم ، وحرم مثل ذلك على الزوجة اذا ثبت لها عقم زوجها لأن الأسرة لا يكون لها سيدان [1] واعترفت الكنيسة بأبناء شرعيين للعاهل شرلمان من عدة زوجات ، وقال وستر مارك Westermark العالم الثقة فى تاريخ الزواج ان تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقى الى القرن السابع عشر وكان يتكرر كثيرا فى الحالات التى لا تحصيها الكنيسة والدولة ، وعرض جروتيوس Grotius العالم القانونى المشهور لهذا الموضوع فى بحث من بحوثه الفقهية فاستصوب شريعة الآباء العبرانيين والأنبياء فى العهد القديم .

* * *

(١) كتاب الزواج الأمثل Bono Conjugali .

فالاسلام لم يأت ببدعة فيما أباح من تعدد الزوجات ، وانما الجديد الذى أتى به أنه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الاباحة المطلقة من كل قيد ، وأنه حسب حساب الضرورات التى لا يغفل عنها الشارع الحكيم ، فلم يحرم أمرا قد تدعو اليه الضرورة الحازبة ويجوز أن تكون اباحته خيرا من تحريمه فى بعض ظروف الأسرة أو بعض الظروف الاجتماعية العامة .

أما أن هذه الظروف قد تضطر أناسا الى الزواج بأكثر من واحدة فالأمر فيها موكول الى الذين يعانون تلك الضرورات من الرجال والنساء، ومن تلك الضرورات أن يحتفظ الرجل بزوجته عقيما أو مريضة لايريد فراقها ولا تريد فراقه ، ومنها أن يتكاثر عدد النساء فى أوقات الحروب والفتن مع ما يشاهد من زيادة عدد النساء على عدد الرجال فى كثير من الأوقات ، فاذا رضيت المرأة فى هذه الأحوال أن تتزوج من ذى حليلة فذلك أكرم لها من الرضا بعلاقة الخليلة التى لا حقوق لها على زوجها وأكرم لها كثيرا من الرضا بابتذال الفاقة أو بذل النفس فى سوق الرذيلة

ومن حسنات التشريع فى جميع هذه الضرورات أنه يحسب حسابها ولا ينسى الحيطة لاتقاء ما يتقى من أضرارها ومن سوء التصرف فيها ... وكذلك صنع الاسلام بعد اباحة تعدد الزوجات للضرورة القصوى ، فانه اشترط فيه العدل ونبه الرجال الى صعوبة العدل بين النساء مع الحرص عليه :

« فإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تَعدِلُوا فواحِدةً » . (سورة النساء)

« ولنْ تستطِيعُوا أن تعدِلُوا بينَ النِساء ولو حَرَصْتُمْ » ..
(سورة النساء)

واشترط على الأزواج القدرة على تكاليف الحياة الزوجية والتسوية فى السكن والرزق بينهم وبين الزوجات ...

« .. أَسْكِنُوهُنَّ من حيثُ سكنتم من وُجْدِكُمْ » ...

(سورة الطلاق)

« ... وعلى الْمَوْلودِ لهُ رِزْقُهُنَّ وكِسْوَتُهُنَّ بالمعروفِ » ...

(سورة البقرة)

ولا يسقط عن الزوج واجب الاحسان فى المعاملة سواء اتصلت بينه وبين حليلته آصرة الزواج أو انتهت بينهما هذه الآصرة الى الفراق بغير رجعة :

« الطَّلاقُ مَرَّتَان فإِمْساكٌ بمعروفٍ أو تَسْريحٌ بِإِحسانٍ ولا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَأْخُذُوا مِمَّا آتيتمُوهُنَّ شيئًا إلا أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ » . . .

(سورة البقرة)

بل لا يسقط عنه هذا الواجب حتى فى حالة الطلاق بعد زواج لم تنعقد فيه الصلة بين الزوجين :

« يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ المؤمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ من عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً » .

(سورة الأحزاب)

وهنالك حيطة تعدل سلطان التشريع كله فى أمر تعدد الزوجات ، لأنها تكل القول الفصل فيه الى اختيار المرأة فان شاءت قبلته وأن لم تشأ رفضته فلا يجوز اكراهها عليه و لايصح الزواج اذا بنى على الاكراه .

وفى الحديث الشريف :

« لَا تُنْكَحُ الأَيِّمُ حتى تستأمِرَ ولا البِكر حتى تستأذِنَ » وفيه : « إن الثَّيِّبَ أحقُّ بنفسِها من وليها والبِكر تستأمرُ وإذنُها سكُوتُها » .

وقد أبطل النبى عليه السلام زواجا أكرهت فيه فتاة بكر على الزواج بأمر أبيها لمصلحة له فى زواجها بابن أخيه ، وحدثت عائشة رضى الله عنها فيما رواه النسائى : « أن فتاة دخلت عليها فقالت : ان أبى زوجنى من ابن أخيه يرفع لى خسيسته وأنا كارهة ، فقالت : أجلسي حتى يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأرسل الى أبيها فدعاه فجعل الأمر اليها فقالت : يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء » .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه أحمد وأبو داوود وابن ماجة: « ان جارية بكرا أتت النبى صلى الله عليه وسلم فذكرت أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها رسول الله ... »

وعلماء الفقه متفقون على أن للمرأة الرشيدة أن تلى جميع العقود بنفسها وأن توكل فيها من تشاء ولا يعترض عليها ، وأنها أحق من وليها بالأمر فى عقود الزواج اذا خالفها ولم يستأمرها .

ولا حرج على المرأة فى تشريع تعدد الزوجات متى كان الرأى فيه موكولا الى مشيئتها تأبى منه ما تأباه وتقبل منه ما لا ترى فيه غضاضة عليها أو ترى أنه ضرورة أخف لديها من ضرورات تأباها .

ثم يأتى العرف الاجتماعى فيتولى تنظيم التشريع فوق هذه الولاية الموكولة الى الزوجات ، وان العرف الاجتماعى ليقدر فى هذه الشئون

على تنظيم أقوى من كل سلطان ، ومن أمثلة التنظيم الذى يتولاه العرف كما قلنا فى غير هذا الكتاب : « انه يحد من رغبات الطبقة الغنية فى هذه المسألة كما يحد من رغبات الطبقة الفقيرة فيها على اختلاف أنواع الحـدود . فالطبقة الغنية أقدر على الانفاق وأقدر من ثم على تعدد الزوجات ، ولكن الرجل الغنى يأبى لبنته أن تعيش مع ضرة أو ضرائر متعددات ، والمرأة الغنية تطلب لنفسها ولأبنائها نفقات ترتفع مع ارتفاع درجة الغنى حتى يشعر الأغنياء أنفسهم بثقلها اذا تعددت بين زوجات كثيرات . فلا ينطلق الزوج الغنى فى رغباته على حسب غناه ، بل يقيم له العرف حدودا وموانع من عنده تكف من رغباته لتثوب به الى الاعتدال. ولهذا نرى فى الواقع أن الطبقات الغنية تكتفى بزوجة واحدة فى معظم الأحيـان . وربما كان للاختيار نصيب من ذلك كنصيب الاضطرار . لأن الأغنياء يستوفون حظوظهم من العلم والثقـافة فيدركون بلطف الذوق مزايا العطف المتبادل بين زوجين متكافئين فى الكرامة والشعور .

« والطبقة الفقيرة لا ترفض المرأة فيها ما ترفضه المرأة الغنية من معيشة الضرائر ، ولكن العجز عن الانفاق يمنعها أن تنطلق مع الرغبة كما تشاء ، فلا تستبيح تعديد الزوجات بغير حدود . وهكذا تقوم الشريعة فى تعدد الزوجات بما عليها ويقوم العرف الاجتماعى بما عليه ، ويقع الالزام حيث ينبغى أن يقع مع الرغبة والاختيار [1] » .

ومما يعمله العرف الاجتماعى فى أحوال الضرورة أن يكون الزوج غنيا وأن تكون المرأة المرغوب فيها من الطبقة الفقيرة ، ففى هذه الحالة ترغب المرأة المخطوبة فى قبول تعدد الزوجات باختيارها أو تضطر اليه

(١) كتاب الفلسفة القرآنية للمؤلف .

تطلعا منها الى معيشة أحب من معيشتها ، فلا تزال الضرورة فى هـذه الحالة أكرم لها من ضرورة تغريها بالتفريط فى العرض طمعا فى المال .

* * *

على أن العرف الاجتماعى — مع سلطانه الغالب — قد يستفيد من روح الدين وحكمة التشريع فوق ما يستفيده من نصوصه فى أوامره ونواهيه . وروح الدين الاسلامى التى سرت الى العرف فى المجتمعات الاسلامية أن الزواج رحم ومودة وسكن .

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ». (سورة الروم)

فلا زواج بغير مودة ورحمة ، ولا حكمة للزواج ان لم يكن ملاذا يأوى منه الزوجان معا الى سكن يلقيان عنده أعباء الصراع العنيف فى الحياة الخارجة الى حين . وخير الزواج ما استطاع أن يدبر للانسان كهفا أمينا يثوب اليه كلما ألجأته المتاعب والشواغل الى ظلاله . وانه ليعيش من الدنيا فى جحيم موصول العذاب ان لم يكن له فيها ذلك الكهف الأمين وذلك الملجأ الحصين .. فان عز عليه أن يجده كما أراده فليس ذلك بحجة على أن حياة الجحيم هى الحياة المثلى وان كهوف الأمان ليست بالمطلب الجدير بالطلب والصيان .

ومن قديم الزمن هيأت الأمومة طبيعة المرأة لتدبير ذلك السكن وتزويده بزاد المودة والرحمة . ومن أراد أن يتكلم بلغة «الاستغلال» والانتفاع بالفرص فله أن يقول ان النوع الانسانى خليق أن يستغل الفوارق بين طبيعتى الجنسين لينتفع بكل منهما غاية ما ينتفعه فى موضعه وبحاله . وليكن ذلك من قبيل تقسيم العمل وتخصيص كل طبيعة لما

يناسبها ولا يكن خصومة على دعاوى المساواة أو الرجحان . فما خلق الجنسان ليكون كل منهما مساويا لصاحبه فى طراز واحد من المزايا والملكات ، وانما خلقت لكل منهما مزاياه وملكاته ليكمل بها صاحبه ويزيد بها ثروة النوع كله من خصائص النفس وألوان الفهم والشعور .

وعلى هذه السنة الطبيعية الاجتماعية ، من تقسيم العمل واتقان كل عامل لضرب من ضروبه يتعاون الزوجان كل فيما هو أصلح له من مطالب الحياة : على الرجل شطر الكفاح فى سبيل الرزق وكفاية أهله مئونة الكدح فى مضطرب الزحام والصراع ، وعلى المرأة شطر السكن الأمين وكلاءة الجيل المقبل فى نشأته الأولى ، وليس بالشطر الزهيد حضانة الغد واعداد مستقبل الانسانية مرحلة بعد مرحلة على الدوام .

* * *

وتحتوى الشريعة الاسلامية تفصيلا مسهبا عن حقوق كل من الزوجين قبل الآخر وقبل الأسرة فى مجموعها ، وكلها تتجه الى هذه الغاية المقصودة من اقامة الأسرة على المودة والرحمة ، ولا ينحرف عنها حق من الحقوق عن هذه الغاية بلا استثناء حق التأديب لرب الأسرة . فان حق التأديب لا ينفى المودة والرحمة ولم ينفهما فيما هو أمس الأمور بالمودة والرحمة وهو تربية البنين وتربية المتعلمين ، وتخويل رب الأسرة حق التأديب بدل" من أحوال كثيرة كلها غير صالح وكلها غير معقول فى شئون القوامة البيتية ، فاما أن يكون لرب الأسرة هذا الحق فى معظم الشئون البيتية واما أن يستغنى عن التأديب فى الأسرة أو يوكل التأديب فيها الى دور الشرطة والقضاء فى كل كبيرة وصغيرة تعرض للزوجين على الرضا والغضب والجهر والنجوى . هذا أو يكون التأديب المسموح به أن

ينصرم حبل الزواج وأن ينهدم بنــاء البيوت على من فيها من الآباء والأمهات والبنين .

ولا يخفى أن عقوبات التــأديب انما توضع للمسيئات والمســيئين ولا توضع لمن هم غنيون عن التأديب متورعون عن الاساءة ، وليس من أدب التشريع أن تسقط الشرائع حساب كل نقيصة تسترذلها وتأنفه منها ، فما دامت النقيصة من النقائص التى تعرض للانسان ولو فى حالة من ألوف الحالات فخلو التشريع منها قصور يعاب على الشريعة ولايمتنع به الضرر الواقع من تلك النقيصة . ولو حذف من القوانين كل عيب تأنف من ذكرها لما بقيت فى تلك القوانين بقية تستلزمها الضرورة الموجبة لبقائها . اذ كانت العيوب التى لا تأنف الأسماع منها أهون الأضرار الاجتماعية وأغناها عن التشريع والعقاب .

والأدب العام — بعد — شىء غير عقوبات التأديب فى القانون . فالحياء يأبى للرجل الكريم أن يضرب امرأته وأن يعاملها بما يغض من كرامتها . ومما أنكره النبى عليه السلام غير مرة أن يضرب الرجل امرأته وهو يأنس اليها فى داره : « أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العير » ؟

الا أن الخلائق المستحسنة — خلائق الكرامة والحياء — ليست هى الخلائق التى توجب الحساب والعقاب وليست هى الخلائق التى يقف عندها التشريع وتبطل بعدها فرائض الزجر والمؤاخــذة . فاذا وضعت العقوبات فى مواضعها فلا مناص من أن يحسب فيها الحساب للحميد والذميم من الأخلاق والعيوب ، بل لا مناص لحسبان الحساب للذميم خاصة لأن الضرورة هنا ضرورة النهى والردع وليست ضرورة الثواب والتشجيع . وبين الوعظ والهجر والعقــوبة البــدنية تتفاوت العقوبات الزوجية فى الاسلام ثم يكون التحكيم أو الفراق : »

« واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا . وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ... » ... (سورة النساء)

وانه لمن السخف الرخيص أن يقال ان جنس النساء قد برىء من المرأة التى يصلحها الضرب ولا يصلحها غيره ، ونقول انه سخف رخيص وخيم لأنه ذلك السخف الذى يضر كثيرا ولا يفيد أحـدا الا الذى يشترى سمعة الكياسة فى سوق الحذلقة « التقليدية » ويسميه الغربيون بينهم باسمه الذى هو به حقيق : وهو اسم الدعى المتحذلق Snob ... ولقد وجد هؤلاء فى أمم لم تستكثر عقوبة الجلد على كرامة الرجولة وكرامة الجندية ، وغبرت مئات السنين وهى تعلن القوانين التى توجب العقوبة البدنية لمن يخالفون الأوامر أو النظم العسكرية ، وان لهم مع ذلك لمندوحة من العقوبات المستطاعة فى المعـاهد العامة كالحبس والتأخير وتنزيل الرتبة وقطع الأجور والحـرمان من أنواط الشرف والفصل من الخدمة . فلولا أنها حذلقة خاوية لا تفيد أحدا ولا تدل على كياسة صادقة لما جاز فى عرف هؤلاء الأدعياء أن تسرى عقوبة الجلد فى مؤاخذة الجنود وأن تمتنع بعد اخفاق الحيل جميعا فى عقوبة النشوز.

ولم تترك هذه العقوبة على كراهتها بغير حدها المعقول الذى تمليه كل مشكلة بحسبها من الخلق المعهود فى آداب الزوجين ، وانما حدها الصالح أن تكون أصلح من الفراق وهدم بناء الأسرة فى تقدير الرجل والمرأة . فان لم تكن كذلك فهى المضـارة التى توجب التحكيم بين الأسرتين ، أو توجب الطلاق بحكم الشريعة مرجعها الأخير الذى ينبغى أن يؤخر الى أقصاه بعد انقطاع الحيلة وذهاب الرجاء فى الوفاق .

« ولا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا ومَنْ يفعلْ ذلكَ فقدْ ظَلَمَ نفْسَه » .

(سورة البقرة)

ويحق للمرأة عند نشوز زوجها وأعراضها أن تلجأ الى حكم غير حكمه ترضاه قبل شكواها من أذى المضارة التى توجب الطلاق ..

وإنِ امرأةٌ خافتْ من بَعْلِها نُشُوزًا أو أعراضًا فَلا جُناحَ عليهما أنْ يُصلِحا بينَهُما صُلحاً والصُّلْحُ خَيرٌ ... »...

(سورة النساء)

* * *

فاذا جاز لباحث يتوخى الصدق أن يعقب على تشريع الاسلام فمن واجبه أن يحمد لهذا التشريع أنه قدر للواقع حسابه وأحاط كل تقدير بما يستدعيه من الحيطة والضمان الميسور فى أمثال هذه العلاقات ، وان نظرة الشريعة الاسلامية الى حقوق المرأة من مبدئها قد كانت نظرة تصحيح لما سلف من الشرائع ، واتمام لما نقص فيها .

فلم يكن للزواج حدود فى الشرائع الوضعية ولا فى الشرائع الدينية قبل الاسلام ، ولا كان فيها ما يعتبر شريعة واقية مقدرة لأحـوالـه وضروراته عند المقارنة بينها وبين الشريعة الاسلامية .

كانت المرأة كالرقيق فى قوانين الدولة التى كانت تسمى أم القوانين وهى الدولة الرومانية .

وكانت حطاما يحـرق بقيد الحيـاة على ضريح زوجهـا فى الديانة البرهميـة .

وكانت ديانة العهد القديم تبيح لمن يشاء أن يتزوج ما يشاء بلا قيد ولا ضمان ، وبهذه الاباحة وردت فيه أخبار ابراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان .

ثم جاءت المسيحية فلم تنقض حكما من أحكام الناموس فى أمر الزواج . وسئل بولس الرسول عن شرط الأسقف فكتب فى رسالته الأولى الى تيموثاوس انه ينبغى أن يكون « بلا لوم بعل امرأة واحدة » وهو تخصيص لا موجب له لو كان هذا هو الحكم العام المرعى بين جميع المؤمنين بالدين .

وظل آباء الكنيسة فى الغرب يبيحون تعدد الزوجات ويعترفون بأبناء الملوك الشرعيين من أزواج متعددات ، فلما منعته بعد القرن السابع عشر على أثر الخلاف بينها وبين الملوك الخارجين عليها كانت حجة منعه أن الاكتفاء بالواحدة أخف الشرور لمن لا يقدر على الرهبانية ، ولم يكن منعه اكبارا لشأن المرأة يوم كان الخلاف بينهم على أنها ذات روح أو أنها جسد بغير روح ... ولم يكن بينهم خلاف يومئذ على أنها حبالة الشيطان، أبعد أن يكون الانسان عنها أسلم ما يكون .

وبينما أمم الحضارة فى اجماعها هذا على تلك النظرة الزرية الى المرأة كانت أمة الصحراء تقضى فيها قضاء لا خيار بينه وبين ما عداه : كانت تتشاءم بمولدها ولا تبالى أن تعاجلها بالدفن فى مهدها ، مخافة العار أو مخافة الاملاق .

ومن تلك الزاوية النائية عن العالم تقبل عليه دعوة سماوية تنصفها من ظلم وترفعها من ضعة وتبسط لها كنف المودة والرحمة وتنتزع لها من القلوب عدلا أعيى على الرؤوس ، وتقيد من مباح الزواج ما لم يقيده عرف ولا قانون ، وتجعل لها الخيار بين ما ترضاه منة وما تأباه ، وتستجد لها حياة يستحى المنصف والمكابر أن يجحدا فضلها العميم على ما كانت عليه .

وأما بعد هذا فماذا جاءت به القرون بعد القرون من زيادة لهـا على نصيبها من عدل الاسلام ؟

خير ما لها فى الاسلام لم يدركه خير ما لها فى العصر الحديث ، وشر ما يصيبها من الاسلام رحمة ونعمة بالقياس الى الشر الذى يسلمها العصر الحديث اليه .

ولا تزال فضائل العصر الحـديث فى حاضرها ومآلها دعوى لم يؤيدها ثبوت من حوادث الواقع ولا من مبادىء النظر .

فأما حوادث الواقع فشكوى المرأة منها فى بيتها وفى دنياها كأسوأ ما كانت فى عهد من العهود .

وأما مبادىء النظر فلا خير للمرأة أن تكون على مبدأ القرون الوسطى شيطانا يسلم الانسان ما سلم منه ، ولا خير لها أن تكون على مبـدأ الفروسية الكاذبة ملكا فى مباذل السوقة ، ولا هى فى خير مع الناس حتى يقنعوا لها الطبيعة — ان استطاعوا — ويقنعوا أنفسهم قبلها أن المرأة والرجل ندان متساويان متعادلان .

زواج النبي

يندر أن يطرق خصوم الاسلام موضوع الزواج دون أن يعرجوا منه الى زواج النبى ويتذرعوا به الى القدح فى شخصه الكريم والتشكيك من ثم فى دعوته المباركة ودينه القويم .

وللاسلام خصوم محترفون وخصوم ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه عليه السلام .

ولا خفاء بخصومه المحترفين . فهم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح فى الاسلام صناعة يتفرغون لها ويعيشون منها ، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملا لها أهم وأخطر من عملها فى تبشير المسلمين أو تبشير الوثنيين وأشباه الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية الى الاسلام . فلا غنى لأصحاب هذه الخصومة — أو هذه الحرفة — من اختلاق المآخذ وتصيّد التهم التى تجرى بها أرزاقهم وتتصل بها أعمالهم ، سواء عرفوا الحقيقة من وراء هذه المآخذ وهذه التهم أو جهلوها وأعرضوا عن البحث فيها ، لأنهم يريدون الاتهام ولا يستريحون الى معرفة تهدم كل ما عملوه وتصرفهم عن كل ما ألفوه وعقدوا النية عليه .

أما خصوم الاسلام من غير زمرة المبشرين فأكثرهم يخاصمونه على السماع ولا يعنيهم أن يبحثوه ولا أن يبحثوا دينا من الأديان حتى الدين الذى آمنوا وشبوا من حجور أمهاتهم عليه . وقليل من أولئك الخصوم غير المحترفين من يتلقى الدراسات الاسلامية تلفقا لا يفيد الدارس

ولا يبتغى منه الا أن يعلّم ما تعلمه لطائفة من التلاميذ يكفيهم منه أن يعرف من أخبار الاسلام ما لم يعرفوه . وبعض هؤلاء الدارسين المدرسين حسن النية لا يأبى أن يعترف بالحقيقة اذا استمع اليها ، وبعضهم سيىء النية لأنه مسخر فى خدمة الاستعمار وما اليها من الدعايات الدولية ، فلا يعنيه من المعرفة الا ما يملى له فى عمله ويمهد لدعايته .

وما اتفق خصوم الاسلام عن سوء نية على شىء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الاسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة النبى عليه السلام ، وتمثيله لأتباعه فى صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الاصلاح ، وأى صورة تغنيهم فى هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح ؟ .

انهم لعلى صواب فى الخطة التى تخيروها لاصابة الاسلام فى مقتله من هذا الطريق الوجيز .

وانهم لعلى أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها ، اذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شىء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه ، فاذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج الى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترى عليه.

فلا حجة للمسلم على صدق محمد عليه السلام فى رسالته أصدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها فى معيشة نبى الاسلام من مطلع حياته الى يوم وفاته .

ما الذى يفعله الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد اذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه محمد بين قومه ؟

لم يكن عسيرا عليه أن يجمع اليه أجمل بنات العرب وأفتن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية .

ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه .

فهل فعل محمد ذلك بعد نجاحه ؟

هل فعل محمد ذلك فى مطلع حياته ؟

كلا : لم يفعله قط بل فعل نقيضه وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شظف العيش فى داره .

ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة ، ولم يبن بعذراء قط الا العذراء التى علم قومه جميعا أنه اختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده : أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

هذا الرجل الذى يفترى عليه الأئمة الكاذبون أنه الشهوان الغارق فى لذات حسه — قد كانت زوجته الأولى تقارب الخمسين وكان هو فى عنفوان الشباب لا يجاوز الخامسة والعشرين وقد اختارته زوجا لها لأنه الصادق الأمين فيما اشتهر به بين قومه من صفة وسيرة ، وفيما لقبه به عارفوه وعارفوا الصدق والأمانه فيه ، وعاش معها الى يوم وفاتها على أحسن حال من السيرة الطاهرة والسمعة النقية ، ثم وفى لها بعد موتها فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه سيدة مسلمة رقت له فى عزلته فخطبت له السيدة عائشة باذنه ، ولم تكن هذه الفتاة العزيزة عليه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

وما بنى — عليه السلام — بواحدة من أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة وانما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن . ومعظمهن كن أرامل مأيمات فقدن الأزواج أو الأولياء وليس من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن ان لم يفكر فيهن رسول الله .

فالسيدة سودة بنت زمعة مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة الى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته الا ان تعود الى أهلها فيكرهوها على الردة أو تتزوج بغير كفؤ لها أو بكفؤ لها لا يريدها .

والسيدة هند بنت أبى أمية — أم سلمة — مات زوجها عبد الله المخزومى ، وكان أيضا ابن عمها ، أصابه جرح فى غزوة أحد فقضى عليه ، وكانت كهلة مسنة فاعتذرت الى الرسول عليه السلام بسنها لتعفيه من خطبتها ، فواساها قائلا : سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرا ، فقالت : ومن يكون خيرا لى من أبى سلمه ؟ وكان الرسول عليه السلام يعلم أن أبا بكر وعمر قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به اليه ، فطيب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها .

والسيدة رملة بنت أبى سفيان تركت أباها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها ، فأرسل النبى عليه السلام الى النجاشى يطلبها من هذه الغربة المهلكة وينقذها من أهلها اذا عادت اليهم راغمة من هجرتها فى سبيل دينها ، ولعل فى الزواج بها سببا يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العداوة الى مودة تخرجه من ظلمات الشرك الى هداية الاسلام .

والسيدة حورية بنت الحارث سيد قومه كانت بين السبايا فى غزوة بنى المصطلق فأكرمها النبى عليه السلام أن تذل ذلة السباء فتزوجها

وأعتقها وحض المسلمين على اعتاق سباياهم فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء عند رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله .

والسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت وعرضها على عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للنبى فلم يشأ أن يضن على صديقه ووليه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر قبله ، وقال له : يتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان .

والسيدة صفية الاسرائيلية بنت سيد بنى قريظة خيرها النبى بين أن يردها الى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة الى ذويها ، ولولا الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لما علمنا أن السيدة صفية قصيرة يعيبها صواحبها بالقصر ، ولكنه سمع احدى صواحبها تعيبها بقصرها فقال لها ما معناه من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : انك قد نطقت بكلمة لو ألقيت فى البحر لكدرته ، وجبر خاطر الأسيرة الغريبة أن تسمع فى بيته ما يكدرها ويغض منها .

والسيدة زينب بنت جحش — ابنة عمته — زوجها من مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ، فنفرت منه وعز على زيد أن يروضها على طاعته، فأذن له النبى فى طلاقها ، فتزوجها عليه السلام لأنه هو المسئول عن زواجها ، وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه . لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها .

والسيدة زينب بنت خزيمة مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا فى غزوة أحد ، ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها، فتكفل بها عليه السلام ، اذ لا كفيل لها من قومها .

وهذا هو الحريم المشهور فى أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين »

وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا منها الا أنها بواعث انسان غارق فى لذات الحس ، شهوان !

ولقد أقام هؤلاء الزوجات فى بيت لا يجدن فيه من الرغد ما يجده الزوجات فى بيوت الكثيرين من الرجال مسلمين كانوا أو مشركين . وعلى هذا الشرف الذى لا يدانيه عند المرأة المسلمة شرف الملكات أو الأميرات شقت عليهن شدة العيش فى بيت لا يصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف والقناعة بأيسر اليسير ، فاتفقن على مفاتحته فى الأمر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة وهى موفورة لديه لو شاء أن يزيد فى حصته من الفىء ، فلا يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه . الا أن الرجل المحكم فى الأنفس والأموال — سيد الجزيرة العربية — لم يستطع أن يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة ، فأمهلهن شهرا وخيرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه حق المرأة المفارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف .

ولو أن هذا الخبر من أخبار بيت النبى كان من حوادث السيرة المحمدية التى تخفى على غير المطلعين المتوسعين فى الاطلاع لقد كان للمبطلين بعض العذر فيما يفترونه على نبى الاسلام من كذب وبهتان . الا أنه خبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر فى كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآيات فى سورة الأحزاب :

« يا أَيُّها النبيُّ قُلْ لأزواجِكَ إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها

فتعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَراحًا جَميلا . وإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ فإنَّ اللهَ أعَدَّ للمُحسِناتِ مِنكُنَّ أجْرًا عَظِيما » ...

(سورة الأحزاب)

* * *

وأقل المبشرين المحترفين ولعا بالتفتيش عن خفايا السيرة النبوية خليق أن يطلع على تفاصيل هذا الحادث بحذافيره . لأنه ورد فى القرآن الكريم خاصا بالمسألة التى يتكالب المبشرون المحترفون على استقصاء أخبارها واحصاء شواردها ، وهى مسألة الزواج وتعدد الزوجات . وقد كان لهذا الحادث الفريد فى سيرة النبى صدى لم يبلغه حادث من الحوادث التى عنيت بها العشيرة الاسلامية حين كانت فى بيئتها المحدودة تحيط بايمانها احاطة الأسرة بأبيها .

حدث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « كنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى ضربا شديدا وقال : أثم هو ؟ ففزعت فخرجت اليه ، وقال : حدث أمر عظيم ! قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم منه وأطول .. طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه .. »

ولما تألب ربات البيت يشكون ويلحفن فى طلب المزيد من النفقة لبث النبى فى داره مهموما بأمره ، وأقبل أبو بكر فوجد الناس جلوسا لا يؤذن لأحد منهم . فدخل الدار ولحق به عمر بن الخطاب فوجد النبى واجما وحوله نساؤه ، فأحب أبو بكر أن يسرى عنه بكلمة يقولها .. وكأنه فطن لسر هذا الوجوم من النبى بين نسائه المجتمعات حوله . فقال : « يا رسول الله ! لو رأيت بنت خارجة .. سألتنى النفقة فقمت

اليها فوجأت عنقها . ! فضحك النبى وقال : هن حولى كما ترى يسألننى النفقة . فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر الى حفصة يجأ عنقها ، ويقولان : تسألن رسول الله ما ليس عنده ؟ فقلن : والله لانسأل رسول الله شيئا أبدا ليس عنده .. »

وهجر النبى نساءه شهرا ، يمهلهن أن يخترن بعد الروية بين البقاء على ما تيسر له ولهن من الرزق وبين الانصراف بمتعة الطلاق . وبدأ بالسيدة عائشة فقال : انى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك . فسألته.. وما هو يا رسول الله ؟ فعرض عليها الخيرة مع سائر نسائه فى أمرهن . فقالت : أفيك يارسول الله أستشير قومى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة . وأجاب أمهات المسلمين بما أجابت به السيدة عائشة ، وانتهت هذه الأزمة المكربة بسلام، وما استطاع صاحب الدار — وهو يومئذ أقدر رجل فى العالم المعمور — أن يحل أزمة داره بغير احدى اثنتين : أن يجمع النية على فراق نسائه أو يقنعن معه بما لديهن من رزق كفاف .

أعن مثل هذا الرجل يقال انه حلس شهوات وأسير لذات ؟

أعن مثله يقال انه ابتغى من رسالته مأربا يبغيه الدعاة غير الهداية والاصلاح ؟

فيم كان هذا الشقاء بأهوال الرسالة وأوجالها من ميعة الشباب الى سن لا متعة فيها لمن صاحبه التوفيق والظفر أو لمن صاحبته الخيبة والهزيمة ؟ .

ومن أراد الدعوة لغير الهداية والاصلاح فلماذا يريدها ، وما الذى يغنمه من ورائها ؟ .

أتراه يريدها مخاطرا بأمته وحياته مستخفا بالهجرة من وطنه والعزلة بين أهله ، ليسوم نفسه بعد ذلك عيشة لا يقنع بها أقرب الناس منـه وأعلاهم شرفا بالانتماء اليه ؟

أمن أجل الحس ولذاته يتزوج الرجل بمن تزوج بهن وهو سيد الجزيرة العربية وأقدر رجالها على اصطفاء النساء الحسان من الحرائر والاماء ؟

وهل يتزوج بهن الشهوان الغارق فى لذات الحس ليقتدين به فى اجتواء الترف والزينة وخلوص الضمير للايمان بالله وابتغاء الدار الآخرة؟

وما مأربه من كل ذلك ان كان له مأرب فى طويته غير مأربه فى العلانية ؟ وعلام يجاهد نفسه ذلك الجهاد فى بيته وبين قومه ان لم تكن له رسالة يؤمن بها ولم تكن هذه الرسالة أحب اليه من النعمة والأمان ؟

ان المبشرين المحترفين لم يكشفوا من مسألة الزواج فى السيرة النبوية مقتلا يصيب محمدا أو يصيب دعوته من ورائه ، ولكنهم قد كشفوا منها حجة لا حجة مثلها فى الدلالة على صدق دعوته وايمانه برسالته واخلاصه لها فى سره كاخلاصه لها فى علانيته ، ولولا أنهـم يعولون على جهل المستمعين لهم لاجتهدوا فى السكوت عن مسألة الزواج خاصة أشد من اجتهادهم فى التشهير بها واللغط فيها .

وعلم الله ما كانت براءة محمد من فريتهم مرتهنة بجلاء الحقيقة فى مسألة الزواج والزوجات . فان أحدا يفقه ما يفوه به لا يسيغ أن يقول ان عملا كالذى قام به محمد يضطلع به رجل غارق فى لذات الحس مشغول بشهوات الجسد . ولئن كان كذلك ثم استطاع أن يتم دعوته فى حياته

وأن يبقيها تامة قوية لخلفائه ليكونن اذن آية الآيات على تكوين من الخلق لا يدانيه تكوين .

ولسنا نعتقد أن دينا رفيعا يسول للمتدين به أن يفترى الأباطيل على خلق الله ، وأقبح من ذلك فى شرع الدين الرفيع أن يكون الافتراء على الناس سبيلا الى التبشير بكلمات الله . ولكن المبشرين المحترفين لا يدينون بالله ولا بالناس ، وانما يدينون بعبادة الجسد الذى ينكرونه ذلك الانكار ويؤمنون به فى أعمالهم وأقوالهم أخس الايمان .

الطبقة

الطبقة فى المجتمع هى الفئة التى تتشابه به فى درجة العمل ونمط المعيشة ومأثور الخلق والعادة ، وهى — بعد الأمة والأسرة — أكثر الوحدات الاجتماعية ذكرا وأكبرها خطرا فى العصر الحاضر .

والناس مصطلحون على تقسيم الطبقات الى ثلاث : غنية وفقيرة وميسورة، أو عليا ودنيا ووسطى، ولعله تقسيم مستعار من مرتفعات المكان التى يمكن أن تنقسم الى فوقية وتحتية ومستوية ، أو من الرسوم الجغرافية التى يمكن أن تنقسم الى شرقية وغربية ومتوسطة، أو من تنظيمات الجيوش التى يمكن أن تنقسم الى طليعة وساقة وقلب . أما تقسيم المجتمع الى ثلاث طبقات من حيث درجات العمل وانماط المعيشة ومأثورات الخلق والعادة فهو تقسيم على وجه التشبيه والتقريب ، كأنه تقسيم الناس الى ثلاثة ألوان بين البياض والسواد ، أو تقسيمهم الى ثلاثة أشكال من ملامح الوجوه . وكلها تقسيمات تقبل على وجه التشبيه والتقريب لا على وجه الدقة والتحقيق .

فلا نهاية للفوارق بين الناس فى الطائفة الواحدة ولا فى العمل الواحد ، ولا يوجد فاصل واحد تنحصر فيه أسباب التفرقة بين طائفة وطائفة أو بين واحد وواحد من أبناء الطائفة . لأن المرجع فى أسباب هذه التفرقة لا يقف بنا فى النهاية دون الظاهرة الكونية التى لا يشذ عنها كائن واحد بين السموات والأرضين ، فليس فى أجرام السموات الواسعة

جرمان يتساويان فى الحجم أو فى الحركة أو فى الضوء أو فى المسافة ، وليس على فرع واحد من شجرة ورقتان تتساويان فى السمة أو فى اللون أو فى الموضع أو فى مادة العصارة النباتية ، وليست هنالك ورقة واحدة تتساوى فى وقتين من أوقات النهار والليل .

واذا بلغ من عمق هذه الظاهرة الكونية واتساعها أن تتمثل فى المادة الجامدة فى تركيبها المحدود فأحرى بالجماعة الانسانية التى لا تنحصر تراكيبها الحسية والمعنوية ألا تضيق فيها عوامل هذه الظاهرة حتى تنحصر برمتها فى سبب من أسباب الأخلاق أو سبب من أسباب الفكر أو أسباب الاقتصاد أو أسباب العوارض الطبيعية . فان هذه العوامل المتشابكة فى كل جماعة انسانية تتساند وتتناظر وتعمل عمل الاضداد كما تعمل عمل الأشباه فى كل معرض من معارض الحياة . ونحسب أنه لو جاز أن يكون بينها عامل أضعف من سائر العوامل لكان أضعفها جميعا عامل الاقتصاد الذى زعم جماعة الماديين التاريخيين أنه هو عاملها الوحيد أو عاملها الذى لا يقوى على مناهضته عامل سواه .

في بلاد الطبقات — بلاد الهند — لم تكن السيادة العليا لطبقة التجار وذوى الأموال والمرافق الصناعية والزراعية ، بل كان هؤلاء معدودين من الطبقة الثالثة أو الثانية على أكبر تقدير ، ومن فوقهم جميعا طبقة المقاتلين وفرسان الحروب وذوى الشجاعة والدربة على استخدام السلاح .

والاقطاعيون فى أوربة لم يكونوا يوما من أيامهم طبقة متفقة فى المصلحة أو متجاورة على وئام وسلام . بل كان اسمها نفسه مشتقا من المنازعة والخصومة ، وكانت العداوة بين كل فارس منها وجيرانه أشد من العداوة بين الفارس والفلاح .

ورأس المال زال من البلاد الروسية وزال معه أغنياؤها وسراتها ونبلاؤها ، وظهرت فيها — مع هذا — طبقة حاكمة من الخبراء والمهندسين لا تدانيها فى سطوتها واستبدادها طبقة حاكمة فى أشهر البلاد باستبداد نظم الصناعة ورؤوس الأموال .

والصناعة الكبرى لم تكن هى الطور الاقتصادى الأخير الذى جرد العمال طبقة مستقلة تتقدم الصفوف لما يسمونه حرب الطبقات ، ولكنهم تجردوا لهذه الحرب لأنهم تجمعوا فى أمكنة متقاربة يتفقون فيها على المطالب والحركات ويستطيعون باتفاقهم أن يعطلوا الأعمال فى المصانع ويكرهوا أصحابها على الاصغاء اليهم ، وكذلك فعل العمال فى عهد الرومان قبل عهد الصناعة الكبرى بنحو عشرين قرنا حين ثاروا بقيادة « سبارتكوس » . وفعل عمال سبرطة قبلهم ما فعلوه ، ومنهم طوائف « الهيلوب » الذين كانوا يقتسمون حصة من غلال الأرض الزراعية كما كانوا يتقاضون الأجور .

والطبقة الغنية يخرج منها من يخرج ويدخل اليها من يدخل كلما تغيرت فيهم صفاتهم النفسية أو الفكرية . فغنى اليوم فقير الغد ، وفقير الأمس غنى اليوم ، على حسب صفاتهم أو حسب الفرص التى تتهيأ لهم ويسوسونها بعقولهم وأخلاقهم ، لا لأن العوامل الاقتصادية وحدها هى التى تخلق طبقات المجتمع وتبقيها الى أن تتبدل هذه فتتبدل تلك معها ، كأنهما — معا — كتلة صماء تتغير من فترة الى فترة ولا عمل فيها لارادة الداخلين فيها ولا الخارجين منها .

* * *

وستبقى الطبقات ما بقى الناس مختلفين ، وسيبقى الاختلاف بينهم بلا عد وبلا حد ، يقسمه من يريد التقريب والايجاز ثلاثا ثلاثا أو أربعا

أربعا أو اثنتين اثنتين ، الا أنه سيرجع فى مئات الفوارق وألوفها الى تلك الظاهرة الكونية التى لا تدع ورقتين على فرع واحد من الشجرة الواحدة متشابهتين كل التشابه فى تركيب الأجزاء ، وأحرى ألا يتشابه التركيب فى الجماعات الانسانية ولو تشابهت ظروفها الاقتصادية كل التشابه فيما بدا واستتر وفيما يملكه الأفراد أو تملكه الجماعات من ارادة وتدبير.

* * *

ويحق لنا أن ننظر الى المسألة من وجهة أخرى غير وجهة الواقع الذى لا حيلة لنا فيه . فنسأل : أترانا نسلم لهذه الظاهرة الكونية لأنها قضاء حتم ينفذ فينا كما ينفذ فى الكون كله من أعلاه الى أدناه ؟ أترانا نبدل من هذه الظاهرة الكونية لو ملكنا التبديل فى حياتنا الانسانية فلا ندع بين الانسان والانسان موضعا لاختلاف التركيب فى الأجسام أو فى الأخلاق أو فى العقول أو فى الأحوال والأطوار ؟

لو أننا فعلنا ذلك لظلمنا أنفسنا وحرمنا النوع الانسانى ثروة من الأفكار والعواطف والأذواق يجنى علينا الحرمان منها أفرادا وجماعات.. فان هذه الثروة النفسية هى التى تميزنا من الأحياء الدنيا ، وهى التى تميز المتقدمين منا على المتأخرين ، وهى التى تفيدنا من تنويع الكفايات وتوزيع الأعمال وتجعل كل فريق منا لازما لكل فريق بين سكان الكرة الأرضية قاطبة أو بين السكان فى كل بقعة من بقاعها على انفراد . ويظل هذا التنويع فى أفكارنا وأخلاقنا وأذواقنا ثروة نفسية نحرص عليها ولو ثبت أنها — فى أصولها — ضرورات اجتماعية تقسرنا عليها المنفعة المادية والحاجة الحيوانية . فان الضرورات التى تفتح لنا آفاقا من الفكر والخلق والذوق تنوعها وتوسع جوانبها خير من الضرورة التى تحبسنا

فى أفق ضيق يهبط بنا شيئا فشيئا الى حضيض تحت حضيض من الحيوانية العجماء .

فلو أننا ملكنا زمام أمانينا بأيدينا لما طاب لنا أن نلغى طبقات الناس التى يخلقها تنوع الأفكار والأخلاق والأذواق ، ولا بد أن يخلق معها اختلافا فى درجات الأعمال وانماط المعيشة ومأثورات العرف والعادة . فان شر المجتمعات لمجتمع متشابه قليل المزايا يصدق عليه ما قاله الشاعر العربى بفطرته السليمة فى بنى الجهيم :

وبنو الجهيم قبيلة ملعونة حُصّ اللحى متشابهو الألوان

وان مجتمعا كهذا المجتمع الضيق المتشابه فى أحوال أبنائه وأطوارهم لشر من المجتمع الذى تتنوع فيه الأحوال والأطوار ولو طغى فيه أناس على آخرين وثار فيه المقهورون على الطغاة القاهرين ، فانه يؤول فى آخرة المطاف الى بقاء الأصلح من الفريقين أو بقاء الصالح من أخلاق كل فريق .

ولعلنا نرجو من هذا الصراع خيره فى هذا العصر اذا كان من آثار شروره أن نعلم بها ، وأن نعرف ما نحذره منها ، ونسعى الى اجتنابه بما فى وسعنا . فاذا لم يكن من أمانينا أن نمحو الاختلاف لأنه محو للتنويع أو محو لثروتنا الانسانية — فليكن من أمانينا أن نجعله اختلافا لا طغيان فيه ولا استئثار ، ولا مذلة فيه من الجانب الآخر ولا حرمان .

وخير المجتمعات اذن مجتمع يسمح للكفايات والمزايا الخلقية بالمجال الذى يناسبها فى الحياة العامة ، ولكنه لا يسمح لها بأن تحرم أحدا حقه أو تقف بينه وبين مجاله الذى استعد له بما هو أهله ، ولو لم يولد فيه ولم يكن منه بالنسب والوراثة .

وهذا المجتمع هو الذى يأمر به الاسلام ويحمده ويزكيه بتعاليمه ووصـــاياه .

فهو لا يمنع التفاوت بين أقدار النـــاس وان كانوا من الأنبيــاء والمرســلين :

* * *

« ولَقَدْ فضَّلْنا بعضَ النَّبيِّينَ على بعضٍ » (سورة الإسراء)

* * *

« تِلْكَ الرُّسُلُ فضَّلْنا بَعضَهُم على بعضٍ مِنْهُم مَنْ كلَّم اللهُ ورفعَ بعضَهم درجاتٍ » ... (سورة البقرة)

ولا يسوى الاسلام بين العلماء والجهــلاء ، ولا بين المؤمنين فى صدق الايمان .

* * *

« هَلْ يَسْتوِى الذينَ يَعلَمونَ والذينَ لا يَعْلَمون » (سورة الزمر)

* * *

« يرفعِ اللهُ الذينَ آمنوا مِنكم والذينَ أُوتُوا العلمَ درجاتٍ » ...
(سورة المجادلة)

* * *

وليس من العدل فى الاسلام أن يختلف الناس فى العمل ويتساووا فى الأرزاق ، فهم مختلفون فى درجات الرزق كاختلافهم فى درجات العلم والايمان .

* * *

« نَحْنُ قَسَمْنا بينَهم معيشتَهم فى الحياةِ الدُّنيا ورَفعنا بَعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ » ... (سورة الزخرف)

« واللهُ فضَّلَ بعضَكم على بعضٍ فى الرِّزقِ » ... (سورة النحل)

* * *

الا أن هذا التفاضل فى العلم أو فى الرزق لا يقـوم على النسب الموروث ولا على الغصب والسطوة ، وانما يقوم على العمل ولا يحق لأحد أن يحتفظ به الا بمقدار ما يبتغى فيه بعمله .

* * *

« إنما المُؤْمنونَ إخْوةٌ » ... (سورة الحجرات)

* * *

« وهو الذى جعَلَكُم خَلائِفَ الأرضِ ورفَعَ بعضَكم فوقَ بعضٍ درجاتٍ لِيبْلُوَكُمْ فيما آتاكم » ... (سورة الأنعام)

* * *

« ولـكلٍّ درجاتٌ مما عملوا وما رَبُّكَ بغافلٍ عما يعملون » ...
(سورة الأنعام)

* * *

ولا يخفى أن المجتمع الاسلامى مجتمع ضمائر ونفوس يخاطبها الدين ، ولديها سبل الخطاب الذى يراد به صلاح العقول والأبدان . فاذا خص الاسلام طائفة بالخطاب فتلك هى الطائفة التى تمتاز بالعلم والقوامة الفكرية فى الأمة ، ولا يحمد الاسلام من مجتمع انسانى أن يخلو من هذه الطائفة التى تناط بها النصيحة وتوكل اليها مهمة الهداية الى الرشد والتحذير من الضلالة فى مصالح الدين والدنيا . وتلك هى جماعة أهل

الذكر وجماعة الداعين الى الخير والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وهى الجماعة التى سماها فقهاء الاسلام بعد ذلك بأولى الحل والعقد ووكلوا اليها ترشيح الامام والرقابة على ولاية الأمور ، تطوعا لا يندبهم له أحد ولا يفرضه أمر مرسوم يتحكم فيه سلطان الدولة ، ولكنها أمانة العلم ينهض بها من هو أهل لها ويستمع له من يستمع وهو مسئول عن صوابه أو خطئه فى الثقة والاختيار .

***

« فاسألوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعلمون » (سورة النحل)

***

« ولْتكُن منكم أُمَّةٌ يدعونَ إلى الخيرِ ويأمرُونَ بالمَعروفِ وَينهَوْنَ عن المُنكرِ » ... (سورة آل عمران)

***

وأسوأ المجتمعات فى الدين الاسلامى مجتمع أقوامٍ لا يتواصون بالخير ولا يتناهون عن منكر فعلوه . الا أن الاسلام يعنى بالضمائر والنفوس ويقرن الى ذلك على الدوام عنايته بمرافق الدنيـــا ومصالح الأجســـام .

***

فالمسلم مأمور كما تقدم — فى غير موضع — بأن يستوفى نصيبه من طيبات دنياه ، وله أن يجمع من المال ما يستحقه بعمله وتدبيره ، ولكن فى غير اسراف ولا استئثار ولا احتكار .

كسب المال مباح محمود ، ولكن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى الخير ملعونون مستحقون للعذاب الأليم :

« والَّذِينَ يكنِزُونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَهَا فى سبيلِ اللهِ فبشِّرْهُم بعذابٍ أليم » (سورة التوبة)

وصلاح المال أن تتداوله الأيدى

« كَيْ لا يكونَ دُولةً بينَ الأغْنياءِ مِنكم » (سورة الحشر)

وليس من الخير فى غنى المال أن يجمعه الانسان حتى يطغيه

« إنَّ الإنْسانَ ليطغَى أن رآهُ استَغنَى » (سورة العلق)

أما المحتكرون فهم منبوذون من المجتمع الاسلامى يبرأ منهم ويلعنهم الله ، كما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » وكما جاء فيها : « من احتكر طعاما أربعين يوما يريد به الغلاء فقد برىء من الله وبرىء الله منه » .

ودفعا للحيلة فى المضاربة بالنقد أو بالطعام لاحتكاره وتحليل الربا عليه قد نهى عليه السلام أشد النهى عن مبادلة المعادن والأطعمة المتماثلة بزيادة فيها فقال فى روايات متشابهة : « الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد. فمن زاد أو اشتراه فقد أربى .. »

والاسلام يحب للمسلم أن يعمل ويكسب ويكره له أن يتبطل ويتكل على غيره . وأحاديث النبى عليه السلام تؤكد الأوامر الالهية فى هذا المعنى فيما يجمعه قوله تعالى :

« وقلِ اعْمَلُوا فسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُم ورسولُه والمُؤمنون »

(سورة التوبة)

والنبى عليه السلام يقول « ان الله يحب العبد المحترف ويكره العبدَ البطّال » .

ويقول : « أفضل الكسبِ كسب الرجل بيده » .

وكان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الاسلامية يقول : « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة . فان من قصر به عمله لا يسرع به حسبه .. »

فلا عذر فى المجتمع الاسلامى لمن يقعد عن العمل والكسب وهو قادر عليهما . أما الذى يقعد عنهما اضطرارا لعجز أصابه أو حرج وقع فيه فله على المجتمع حق مفروض لا هوادة فيه يؤديه عنه كل من ملك نصاب الزكاة وهى احدى الفرائض الخمس التى بنى عليها الاسلام ، ولم يتكرر فى القرآن الكريم ذكر فريضة منها كما تكرر ذكر هـذه الفريضة بلفظها أو بلفظ يدل عليها كالصدقة والاحسان والبر واطعام اليتامى والمساكين ومن الآيات التى ورد فيها الحض على الزكاة ما يعلم المسلم أن البر فى العقيدة وايتاء المال لأصحاب الحق المشروع فيه :

« ليسَ البِرَّ أنْ تُوَلُّوا وُجوهَكُم قِبَلَ المَشرِقِ والمَغرِبِ ولَكنَّ البِرَّ مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيِّينَ وآتَى المالَ على حُبِّهِ ذوِي القُربَى واليتامَى والمَساكينَ وابنَ السَّبيلِ والسَّائِلينَ وفى الرِّقابِ »

(سورة البقرة)

ومما ورد فى الحض على الزكاة باسم الصدقات مع بيان مستحقيها قوله تعالى فى سورة التوبة :

« إنمَا الصَّدقاتُ للفقراء والمساكينِ والعاملينَ عَليها والمُؤلَّفةِ قُلوبُهم وفى الرِّقابِ والغَارمينَ وفى سبيلِ الله وَابنِ السَّبيلِ فَريضةً مِنَ اللهِ »

(سورة التوبة)

وتجب الزكاة على الأنعام والماشية وعلى الأموال وعروض التجارة وغلات الزروع . ونصاب الزكاة فى الابل خمس وفى البقر ثلاثون وفى الغنم أربعون ، ونصابها فى الأموال والعروض وثمرات الزروع يضارع هذه القيمة على وجه التقريب ، والحصة المفروضة على النصاب تضارع ربع العشر من رأس المال ، والحصة المفروضة على الثمرات تضارع العشر مما يسقيه المطر ونصف العشر مما تسقيه الغروب وأدوات الرى على اجمالهـا .

ففى كل سنة يستحق المعوزون المفتقرون الى المعـونة جزءا من أربعين جزءا من رؤس الأموال فى الأمة ، أو جزءا من عشرة أجزاء من ثمرات الزراعة وما اليها ، وهو مقدار من الثروة العـامة لا يخصص مقدار مثله فى الأمم الحديثة التى تقررت فيها حصة من موارد الدولة للانفاق على العجزة والشـيوخ ومن يستحقون العون لغـير تفريط أو تقصـير .

ومن الآيات المتقدمة نعلم أن المستحقين للزكاة ثمانية أصناف هم : (١) الفقراء وهم الذين يملكون شيئا دون نصاب الزكاة ويستنفدونه فى حاجاتهم وضروراتهم و (٢) المساكين وهم الذين لا يملكون شيئا و (٣) عمال الزكاة وهم موظفو الدولة الذين يحصلونها أو يوزعونها و (٤) المؤلفة قلوبهم وهم المسلمون حديثو العهد بالاسلام ممن تخشى عليهم الفتنة أو الكفر يستألفهم الاسلام ولا يعملون ما يؤذى المسلمين و (٥) الأرقاء الذين يفتدون من الأسر بالمال و (٦) المنكوبون بالمغارم و (٧) المجاهدون الذين يحتاجون الى النفقة و (٨) الغرباء المنقطعون عمن يعولهم ، وكل من هو فى حكم هؤلاء اضطرارا الى رعاية المجتمع وعجزا عن ولاية أمره بنفسه .

* * *

ولم يقصد الاسلام بفريضة الزكاة أن يجعلها حلا لمشكلة الفقر فى المجتمعات الانسانية . فانما تحل مشكلة الفقر فى المجتمع الاسـلامى بالعمل والسعى فى طلب الرزق يتعاون على تدبير وسائلهما ولاة الأمر وطلاب الأعمال ويحاسب الامام على التوانى فى هذه المهمة كما يحاسب على التوانى فى سائر مصالح الرعيه . ولا شك أن الاسلام قد صنع فى حل مشكلة الفقر من أساسها صنيعه الذى لم يسبقه اليه دين من الأديان الكتابية أو أديان الحضارات الغابرة . فانه مسح عن الفقر قداسته التى جللته بها عبادات الأمم وأحاطته بها فى الصـوامع والبيع والمحاريب المنقطعة عن العمران ، ومسح عنه تلك القداسة من جذورها حين أنكر تعذيب الجسد وحرمانه ، وحين رفع عن الجسد مسبة الدنس والنجاسة المتأصلة فى دخيلة التكوين . فأوجب على المسلم أن ينعم بطيبات الرزق وأنكر عليه أن يحرم مما أحل الله من تلك الطيبات التى لا تقف عند حدود الضروريات بل تتخطاها الى الزينة والجمال . ومن استهان بأثر هذه النظرة السليمة الى الفقر فليتخيل كيف كانت مشكلة الفقـر تساس للعلاج بين أناس ينظرون اليه نظرة التقديس وينظرون الى متاع الجسد نظرة الزراية والتدنيس ؟ وليتخيل الفارق البعيد بين مجتمع يعمل على تعظيم الفقر واعتبار العمل فى طلب الرزق غلطا تبتلى به الروح من غواية الجسم المرذول ، وبين مجتمع يعمل على ايجاب السعى ويلوم أبناءه على تحريم الطيبات والزهد فى الدنيا ، ويؤاخذ الانسان اذا مد يده بالسؤال وعنده قوت يكفيه مؤنة السؤال .

ان الاسلام قد جاء بالوسيلة التى لا غنى عنها فى مكافحة الفقر وحل مشكلته يوم جعله ضرورة لا تباح للمسلم الا كما تباح الضرورات التى لا حيلة فيها و لااختيار معها . وانما فرض الزكاة لمن أصابتهم تلك

الضرورات وأقعدتهم عن السعى واستنفذوا — مع المجتمع — كل حيلة فى تدبير العمل المستطاع . ومن لم يكن منهم مستطيعا عملا بتدبير من الامام أو بتدبير من نفسه فهو مكفول الرزق بما تجبيه الدولة من حصة الزكاة حقا معلوما يتقاضونه من الأمام ولا هوادة فيه .

وليست حصة الزكاة بالقدر الصغير عند المقارنة بينها وبين الحصة التى تخصص من ثروة الأمة فى المجتمعات الحديثة للانفاق على العجزة والشيوخ والمنقطعين عمن يعولهم ، فانها — كما هو معلوم — تضارع جزءا من أربعين جزءا من ثروة الأمة فى كل سنة ، أو تضارع عشر الثمرات الزراعية وما اليها ، وليس فى مجتمع من المجتمعات — حتى الشيوعية منها — من يزيد على هذا القدر فى الانفاق على ذوى الحاجات من العجزة والشيوخ . الا أن الاسلام مع هذا لم يقصر الاحسان على فريضة الزكاة ولا أسقط عن القادرين واجب الغوث لمن يعرفونهم ويقدرون على امدادهم بما يعينهم على شدائدهم . اذ ليست الزكاة هى كل ما يصنعه المحسنون القادرون على الاحسان ، ولكنها هى الاحسان الذى تفرضه الدولة وتستخلصه من المفروض عليهم عنوة ان لم يؤدوه طواعية فى موعده المعلوم .

واذا انفصلت مشكلة الفقر ومشكلة الطبقات على هذا النحو فالعاطلون كلهم فى كفالة المجتمع والطبقات كلها عاملة منتجة تنحل مشكلتها بتصحيح أوضاعها وتوطيد هذه الأوضاع على نظام عادل فى مجتمع سليم.

وآخر الحلول التى أسفرت عنها تجارب القرون المتطاولة فى مشكلة حرب الطبقات — أن هذه المشكلة لا تزال بازالة الطبقات بل بازالة الحرب بينها ، وان هذه الحرب تمنع كلما تقاربت الفجوة الواسعة بين الطبقات

فلا افراط فى الغنى ولا افراط فى الفقر ولا سبيل لفريق منها أن يجوز على فريق سواه . وقد ابتدع خبراء الصناعة والاقتصاد في العصر الأخير وسيلة للتقارب بين ذوى الأموال وطوائف الصناع والعمال أن يشتركوا فى المصلحة الكبرى متعاونين عليها مساهمين فيها ، اما بتوزيع الحصص على تفاوت مقاديرها ، واما بتعميم المرافق التعاونية التى تتلاقى فيها منافع المنتجين والمستنفدين وأرباح البائعين والشراة .

وليس فى هذا الحل شرط من شروطه لا تيسره تعاليم الاسلام ووصاياه . فان التعاون أدب من آدابه يأمر به الناس جميعا وتندب للتنبيه اليه أمة تتواصى بالمعروف وتتناهى عن المنكر .

***

« وتَعاوَنوا على البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعاوَنوا على الإِثْمِ والعُدْوانِ »
(سورة المائدة)

***

« وتَوَاصَوْا بالحَقِّ وتَواصَوْا بالصَّبرِ » (سورة العصر)

***

وواجب الكبار فيه كواجب الصغار . فليس من المسلمين كبير لا يرحم الصغير وصغير لا يوقر الكبير كما جاء فى الحديث الشريف : « ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر . بالمعروف وينهَ عن المنكر » .

وانه لما ييسر هذا التعاون بين طوائف الأمة أن تقرر فيها كفالة الضعفاء فرضا محتوما على القادرين ، وأن يمتنع حبس المال فى أيدى فريق من الناس فلا افراط فى الغنى ولا افراط فى الفاقة ، ولا استئثار ولا حرمان .

ولا تحل مشكلة الطبقات بالرأى أو بالواقع الا على هذا النحو الذى ينتهى الى ازالة حرب الطبقات ولا ينتهى الى ازالة الطبقات . فالعالم بخير ما دام فيه أنواع الكفايات وفوارق المزايا والصفات ، وما دامت هذه الأنواع والفوارق فيه يتمم بعضها بعضا ويجرى بعضها على معونة بعض . والعالم على شر ما يكون اذا زال فيه كل خلاف بزوال الأداة المختلف عليها : يتنازع الناس الأموال فتزول الأموال ، ويتنازعون الحكم فيزول الحكم ، ويتنازعون الحرية فتزول الحرية ، وما هم فى الحق بقادرين على ازالة شىء واحد يتنازعون عليه ، فلو أزالوا فوارق الأرزاق لم يزيلوا الفوارق بينهم على الذكاء والغباء ، أو على القوة والضعف أو على الجاه والخمول ، أو على الوسامة والدمامة ، أو على الذرية والعقم.. ولو أنهم أزالوها لزالوا أجمعين ، ولكنهم باقون برحمة الله .

« ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » (سورة هود)

الرق

شرع الاسلام العتق ولم يشرع الرق . اذ كان الرق مشروعا قبل الاسلام فى القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه : رق الأسر فى الحروب ، ورق السبى فى غارات القبائل بعضها على بعض ، ورق البيع والشراء ، ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون .

وكانت اليهودية تبيحه ، ونشأت المسيحية وهو مباح فلم تحرمه ولم تنظر الى تحريمه فى المستقبل ، وأمر بولس الرسول العبيد باطاعة سادتهم كما يطيعون السيد المسيح ، فقال فى رسالته الى أهل أفسس :

« أيها العبيد ! أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، ولا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب عبدا كان أم حرا . »

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية ، وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم ، وأضاف القديس الفيلسوف توما الأكوينى رأى الفلسفة الى رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل زكاه . لأنه على رأى أستاذه أرسطو حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب .

ومذهب أرسطو فى الرق أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة . فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة ، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الاداة المسخرة الى منزلة الكائن العاقل الرشيد .

وأستاذ أرسطو — أفلاطون — يقضى فى جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق « المواطنة » واجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من سادتهم أو من السادة الغرباء ، ومن تطاول منهم على سيد غريب أسلمته الدولة اليه ليقتص منه كما يريد .

وقد شرعت الحضارة اليونانية نظام الرق العام ، كما شرعت نظام الرق الخاص أو تسخير العبيد فى خدمة البيوت والأفراد ، فكان للهياكل فى آسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها ، وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة ، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة .

وانقضى على العالم عصور بعد عصور وهذا النظام شائع فى أرجائه بين الأمم المعروفة فى القارات الثلاث ، ينتشر بين أمم الحضارة وقبائل البادية التى تكثر فيها غارات السلب والمرعى ، ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى كوادى النيل وأودية الأنهار الهندية . الا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة ، وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر الى المكانة الاجتماعية والحقوق الانسانية .

وعلى هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الاسلامية من

قبل الصحراء . ليس فيه من يستغرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة الى تعديل فيها حيث يكثر الأرقاء أو حيث يقلون .

ففي البلاد التى كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاجتماعيه والاقتصادية فيها مرتبطة بأعمال الرقيق فى البيوت والمزارع والمرافق العامة ، فلم يكن تغيير هذه الأوضاع مما يخطر على البال ، ولم يكن تغييرها مستطاعا بين يوم وليلة ، لو أنه خطر على بال أحد .

وفى البلاد التى قل فيها عدد الأرقاء لم تكن هنالك مسألة حازبة أو معجلة تسمى مسألة الرقيق وتستدعى من ذوى الشأن اهتماما بالتغيير والتعديل .

وكان عدد الأرقاء قليلا فى البادية العربية بالقياس الى أمم الحضارة اذ كان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع فى اليدين، فلم يكن بدعا من الدين الجديد أن يترك الحالة فى الصحراء العربية — وفى العالم — على ما كانت عليه : حالة لا يستغربها أحد ، ولا يفكر أحد فى تغييرها أو تعديلها . ولكنه لم يتركها ، ولم يغفلها ، ولم يؤجلها بين الأغضاء والاستحسان لهوانها وقلة جدواها . بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوىء الاجتماعية والأخلاقية : يصلح منها ما هو قابل للاصلاح فى حسنه ، ويمهد للتقدم الى المزيد من الاصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه.

ونحن نحب أن نلخص ما صنعه الاسلام فى هذه المسألة قبل أربعة عشر قرنا فى بضع كلمات : أنه حرم الرق جميعا ولم يبح منه الا ما هو مباح الى الآن . وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع، وان الأمم الانسانية لم تأت بجدية فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الاسلام قبل ألف ونيف وثلثمائة عام .

فالذى أباحه الاسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر الى الآن .

لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى الى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة .

وهذا هو كل ما أباحه الاسلام من الرق أو من الأسر ، على التعبير الصحيح .

وغاية ما هنالك من فرق بين الماضى قبل أربعة عشر قرنا وبين الحاضر فى القرن العشرين أن الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما فى عصر الدعوة الاسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين ، فمن وقع منهم فى الأسر بقى فيه حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله ، اذا سمح له الآسرون بالفداء .

فماذا لو أن الدول العصرية بقيت على خطة الدول فى القرن السادس للميلاد ؟ ماذا لو أن الحروب اليوم انتهت كما كانت تنتهى فى عصر الدعوة الاسلامية بغير اتفاق على تبادل الأسرى أو على افتكاكهم من الأسر بالتعويض والغرامة ؟ .

كانت حالة الأسرى اليوم تشبه حالة الأسرى قبل أربعة عشر قرنا فى حقوق العمل والحرية والتمتع بالمزايا الاجتماعية ، وكان كل أسير يظل فى موطن أسره رقيقا مسخرا فى الخدمة العامة أو الخاصة محروما من المساواة فى حقوق المواطنة بينه وبين أبناء الأمة الغالبة .

حاله كحالة الرق التى سمح بها الاسلام على كره واضطرار .

ولكن الاسلام لم يقنع بها فى ابان دعوته ، وأضاف الى شريعته فى الرق نوافل وشروطا تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة . فاذا كانت الشريعة الدولية لم تعرف الدولة فى فكاك رعاياها من الأسر فقد سبق الاسلام الى فرض هذا الواجب على الدولة فجعل من مصارف الزكاة انفاقها « فى الرقاب » أى فكاك الأسرى ، وأن يحسب للأسرى حق من الفيء والغنيمة كحق غيرهم من المقاتلين .

واذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب فى الحروب الحديثة فالاسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب ، وحرص على التخفيف من شدته ما تيسر التخفيف منه وجعل المن فى التسريح أفضل الخطتين :

« فإما مَنًّا بعدُ وإمَّا فِداءً حتى تضعَ الحربُ أوْزَارَهَا » (سورة محمد)

وحث المسلمين على قبول الفدية من الأسير أو من أوليائه :

« والذينَ يبتغُونَ الكتابَ مِمَّا مَلَكتْ أيمانُكُم فكاتبُوهُم إن عَلِمتُم فيهِمْ خَيْراً وآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللهِ الذى آتاكُمْ » . (سورة النور)

وقد كثرت وصايا النبى عليه السلام بالأرقاء فقال فى بعض الأحاديث « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » وكانت من آخر وصاياه قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى وصيته « بالصلاة وما ملكت أيمانكم » ونهى المسلمين أن يتكلم أحد عما ملك فيقول : عبدى وأمتى . وانما يذكرهم فيقول فتاى وفتاتى كما يذكر أبناءه وبناته . وكان عليه السلام يعلم صحابته بالقدوة فى معاملة الرقيق كما يعلمهم بالفريضة والوصية ، فكان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك ، وقال لوصيفة أرسلها فأبطأت فى الطريق : « لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك » .

ومن الوسائل الفردية التى تحرى بها الاسلام تعميم العتق وتعجيل فكاك الأسرى أنه جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب ، كالقتل الخطأ والحنث باليمين ومخالفة قسم الظهار .

* * *

« ومن قَتَلَ مُؤمناً خَطَأً فتحريرُ رَقبةٍ مُؤمنةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهلِهِ إلَّا أن يصَّدَّقُوا . فَإن كانَ من قوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وهوَ مُؤمِنٌ فَتحْريرُ رَقَبَةٍ مُؤمنةٍ . وإن كانَ من قوْمٍ بينكُم وبينَهُم مِيثاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهلِهِ وتحريرُ رقبةٍ مُؤمِنةٍ » (سورة النساء)

* * *

« لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمَانِكم ولكن يُؤَاخِذُكُمْ بما عَقَّدْتُمُ الأَيْمانَ فكَفَّارته إطْعامُ عَشَرَةِ مساكِينَ من أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أو كِسوتُهم أو تحريرُ رَقبةٍ » (سورة المائدة)

* * *

« والذينَ يُظاهِرُونَ من نسائِهم ثمَّ يَعودُونَ لِمَا قالُوا فَتحْريرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبلِ أنْ يتَمَاسَّا » (سورة المجادلة)

* * *

ويحسب من الرذائل المأخوذة على الانسان السيىء أنه لا يقتحم هذه العقبة أو لا ينهض بهذه الفدية المؤكدة :

« فلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ وما أدراكَ ما العقَبَةُ فكُّ رقبةٍ أو إطْعامٌ فى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبةٍ يتيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ » (سورة البلد)

* * *

فالعتق اذن هو الذى شرعه الاسلام فى أمر الرق . وأما نظام الرق بأنواعه فقد وجده مشروعا فحرمه جميعا ، ولم يبح منه الا ما هو مباح الى اليوم فى نظام الأسرى وتسخيرهم فى أعمال من يأسرونهم من المتقاتلين . وسبق القوانين الدولية بتقريره الزام الدولة واجب السعى فى اطلاق أسراها واعتاقهم بالفداء ، وشفع ذلك بالوسائل الفردية فيما تنتقل به الذمة الى الأفراد من مالكى الأرقاء بعد وفاء الدولة بذمتها .

ولا يقال هنا انه عمل كثير أو قليل ، بل يقال انه العمل الوحيد الذى استطيع فى محاربة نظام الرق ولم تستطع أمم الانسانية ما هو خير منه فى علاج هذه المسألة الى الآن .

* * *

أى شفاعة كانت لأولئك المساكين المنسيين فى عصر يصفونه بحق — فى تاريخ العالم — بأنه عصر الجهالة والظلمات ؟

لقد كانوا — على كثرتهم أو قلتهم — أهون شأنا من أن يحفل بهم صاحب شريعة أو ولاية ، ولم يبلغ من مسألتهم فى جزيرة العرب ولا فى بلد من بلاد العالم أن تسمى مشكلة تلح على ولاة الأمر أن ينظروا فى حلها بما يرضى العبيد أو بما يرضى السادة المتحكمين فيهم : كانت مسألتهم من المسائل المفروغ منها أو من مسائل العادة التى يتقبلها الناس على علاتها ولا يستغربون منها شيئا يدعوهم الى تعديلها ، بل الى الكلام فيها . فاذا بالاسلام يملى لهم على المجتمع حلا كحل الظافر المنتصر فى كفاح يسام مغلوبه ما لم يكن ليرضاه باختياره ، واذا بالنظام العريق فى أمم الحضارة بقية من بقايا الأمس رهينة بيومها الموعود

شأن الأرقاء فى الجزيرة العربية أهون يومئذ من أن يدعو ولاة الأمر الى عناية به على قسر أو على اختيار .

وشأن الأسرى فى حروب الدول يومئذ كشأن الطريدة من الحيوان لا تسلم من التمزيق الا لتغنى غناء المطية المسخرة فى غير رحمة ولا مبالاة بحساب . وشرائع الدين — كشرائع العرف — قدوة لا يقاس عليها ما شرعه الاسلام بغير سابقة فى أمر الأسرى ولا فى أمر الأرقاء .

شريعة العهد القديم كما نص عليها الاصحاح العشرون من كتاب التثنية تقول للمقاتل المؤمن بها :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها الى الصلح . فان أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيهـــا يكون لك للتسخير وتستعبد لك . وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما فى المدينــة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب الهك . هكذا تفعل بجميع المـــدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الامم هنــا . أما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصــيبا فلا تستبقى منهــا نســمة ما بل تحرمهــا تحريما ... »

وأقسى من هذا الجزاء جزاء المدن التى ينجم فيها ناجم بالدعوة الى غير آله اسرائيل ، فانها كما جاء فى الاصحاح الثالث عشر من كتاب التثنيــه .

« فضربا تضرب بحد السيف وتحرم بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف تجمع كل أمتعتها الى وسط ساحتها وتحرق بالنار .. المدينة وكل أمتعتها كاملة للرب الهك ، فتكون تلا الى الابد لا تبنى بعده ... »

فالقدوة فى حروب الدين وحروب الفتح تغرى بالقسوة ولا تغرى بالعفو والرحمة . وأحرى بعرب الجاهلية أن يكونوا فى قسوة بنى اسرائيل أو أشد منهم قسوة لأنهم أهل بادية مثلهم « يدهم على كل انسان ويد كل انسان عليهم » كما قيل عنهم فى العهد القديم .. فاذا عللت وصايا

الرق فى الاسلام بالعلل الطبيعية التى تسيغها عقول منكرية فماذا يقول الذين ينكرون الدعوة الاسلامية تعصبا لدين آخر ؟ وماذا يقول الذين ينكرونها من الجاحدين للأديان ؟

يقول المنكرون المتعصبون لدين غير الاسلام ان الدعــوة برمتها تلفيق رجل دجال . ولا ندرى كيف تسيغ عقولهم أن يكون الرسول الدجال أرفع أدبا وأشرف خلقا وأبر بالانسانية الضعيفة من الرســل الصادقين المصدقين .

ويقول المنكرون من أنصار العلل الطبيعية ان الدعــوة الاسلامية وليدة البلاد العربية خرجت من اطواء عقائدها وتقاليدها ومأثوراتها . ولا ندرى كيف يكون الابهام والغموض اذا كان هــذا هو التعليل والتفسير ، فاننا لا نقول شيئا ترضاه العقول وتستريح اليه اذا قلنا ان البيئة العربية جاءت بنقيض المنتظر منها ونقيض المنتظر من العالم حواليها.

ان تصديق أعجب الخوارق لأجدر بعقــول الفريقين من قبــول هذا اللغو الذى صدقوه واطمأنوا اليه . ونحن أيضــا نريد للدعوة الاسلامية سببها المعقول فلا نرى تناقضا بين هذا السبب وبين الواقع الذى لا غرابة فيه الا اذا أوجبنا نحن على عقولنا أن نستغربه متعسفين.

فالغريب عندنا أن يأتى رجل دجال بما لم تأت به أرفع الحضارات والديانات من قبله ، والغريب عندنا أن يكون محمد مبعوثا بارادة الأمة العربية وهى ما هى فى أيام الجاهلية .

أما الواقع الموافق للعقل ، ولا مناقضة فيه لنواميس الكون ، فهو أن يخلق الله انسانا كاملا يلهمه الحق والرشد ويعينه الى الهداية عليهما بعمل يستطيعه ويستطيع الناس أن يفهموه — متى حدث — كما يفهمون

جلائل الأعمال — الا أنهم لا يستطيعون أن يتوقعوه اذا قصروه على المألوف المعهود فى سياق التاريخ .

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق فى الاسلام ، ترتضيه عقولنا ونقول عن يقين انه أقرب الى العقل من معجزة الدجل ومعجزة النقائض المستحيلة ، ونحسب أن المكابرة تقصر عن الذهاب الى الأمد الذى يدفعها اليه من لا يفرقون بين الدجل والصدق أو لا يفرقون بين الواقع والمستحيل .

* * *

وتنطوى القرون ويتكشف الزمن عن أزمة الرق الكبرى فى التاريخ الحـديث .

ان وصايا الاسلام فى مسألة الرق خولفت كثيرا وكان من مخالفيها كثير من المسلمين ، ولكن الاسلام — على الرغم من هذه المخالفـة المنكرة — لا يضيره ولا يغض منه قضاء التجربة العملية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الأرقاء وجناية الآخرين من أتباع الأديان الكتابيـة .

فالقارة الافريقية — فى بلاد السود — مفتوحة أمام أبناء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين ، ولم تفتح للنخاسين من الغرب الا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الأطلسى فى العالم القديم والعالم الجديد.

وفى أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعا من العبيد السود تبلغ عدة الباقين من ذريتهم — بعد القتل والاضطهاد — نحو خمسة عشر مليونا فى الأمريكتين : عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسة فى القارات الثلاث منذ أكثر من ألف سنة ، وهو فارق جسيم بحساب الأرقاء يكفى للابانة عن الهاوية السحيقة فى التجربة العملية بين النخاستين ، ولكنه فارق هين الى جانب الفارق فى حظوظ أولئك الضحايا

بين العالم القديم والعالم الجديد . فان فى الأمريكتين الى اليوم أمة من السود معزولة بأنسابها وحظوظها وحقوقها العملية ، وليس فى بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل ، لأن الأسود الذى ينتقل اليها يحسب من أهلها بعد جيل واحد ، له ما لهم وعليه ما عليهم بغير حاجة الى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير .

حقوق الحرب

شاع عن الاسلام أنه دين السيف ، وهو قول يصح فى هذا الدين اذا أراد قائله أنه دين يفرض الجهاد ومنه الجهاد بالسلاح ، ولكنه غلط بين اذا أريد به أن الاسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال فى موضع الاقناع .

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربى كبير هو توماس كارليل صاحب كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » فانه اتخذ محمدا عليه السلام مثلا لبطولة النبوة وقال ما معناه

«ان اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم · اذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ، فاذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها »

والواقع الثابت فى أخبار الدعوة الاسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشركى قريش فى مكة المكرمة ، فهجروا ديارهم وتغربوا من أهليهم حتى بلغوا الى الحبشة فى هجرتهم ، فهل يأمنون على أنفسهم فى مدينة عربية قبل التجائهم الى « يثرب » واقامتهم فى جوار أخوال النبى عليه السلام ، مع ما بين المدينتين من التنافس الذى فتح للمسلمين بينهما ثغرة للأمان ؟ ولم يكن أهل يثرب ليرحبوا بمقدمهم لولا ما بين القبيلتين الكبيرتين فيها « قبيلتى الأوس والخزرج » — من نزاع على الامارة فتح بينهما كذلك

ثغرة أخرى يأوى اليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة ، وهو الجوار الذى لم يضق من قبل بكل لائذيه فى عهد الجاهلية .

ولم يعمد المسلمون قط الى القوة الا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الاقناع ، فاذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة ، واذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء .

لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها ، ولذلك حاربوا الفرس لأن كسرى أرسل الى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى أو ضرب عنقه وارسال رأسه اليه ، وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم الى تبوك فبادرهم النبى عليه السلام بتجريد السرية المشهورة الى تخوم الحجاز الشمالية ، وعادت السرية بغير قتال حين وجدت فى تبوك أن الروم لا يتأهبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام .

ولم يفاتح النبى عليه السلام أحدا بالعداء فى بلاد الدولتين . انما كتب الى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى ، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم الا بعد تحريضهم القبائل العربية فى العراق والشام على غزو الحجاز واعدادهم العدة لقتال المسلمين. وقد علم المسلمون باصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة ، ولولا اشتغال كسرى وهرقل بالفتن الداخلية فى بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب قبل أن يتأهبوا لمدافعتها أو التحصن دونها .

وفى الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها الا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة الى اتقاء الهجوم المبيت فى أرض تلك القبائل ، وكانت العداوة سافرة بين المسلمين ومشركى قريش لا يكتمها المشركون.

ولا يواربون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الايقاع بمحمد وأصحابه وفض العرب من حوله وايذاء كل من يدخل منهم فى دينه . فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب الا فى أيام صلح الحديبية ، ثم عادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى تم فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين الى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين . وقد حرص الاسلام على تسمية كل عدو من أعدائه باسمه لا يعدوه ولم يخلط بين حرب الشرك وحرب النفاق . لأنه لا يحاسب على العداوة بالنيات كما يحاسب على العداوة بالأعمال .

أما قبائل الجزيرة العربية فى غير قريش فلم يحاربهم الاسلام الا حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبها ، وأخبار السرايا الاسلامية فى بلاد العرب معروفة محفوظة بأسبابها ومقدماتها ، وكلها كما أحصاها المؤرخ العصرى — أحمد زكى باشا — حروب دفاع واتقاء هجوم .

« ونذكر من بعد ذلك غزوة بنى قينقاع من يهود المدينة ، فقد حاربهم المسلمون لنقضهم العهد بعد غزوة بدر الكبرى وهتكهم حرمة سيدة من نساء الأنصار ، ثم غزوة بنى غطفان ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا بعد أن علموا أن بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا برئاسة دعثور المحاربى للاغارة على المدينة ، ثم سرية عاصم بن ثابت الأنصارى وكانوا مع رهط عضل والقارة الذين خانوهم ودلوا عليهم هذيلا قوم سفيان بن خالد الهذلى الذى قتله عبد الله بن أنيس ، ثم سرية المنذر بن عمرو وهم سبعون رجلا يسمون القراء أخذهم عامر بن مالك ملاعب الأسنة لطمعه فى هداية قومه وايمانهم فلم يرع قومه جواره وقتلوا القراء ، ثم غزوة بنى النضير من يهود المدينة وذلك لنقضهم العهد والقائهم صخرة على النبى صلى الله عليه وسلم لما كان فى ديارهم ، ثم غزوة دومة

الجندل ولم يخرج المسلمون لقتالهم الا لما علموا أن فى ذلك المكان أعرابا يقطعون الطريق على المارة ويريدون الاغارة على المدينة ، ثم غزوة بنى المصطلق وهؤلاء ممن ساعدوا المشركين فى أحد ولم يكتفوا بذلك بل أرادوا جمع الجموع للاغارة على المدينة ، ثم غزوة الخندق وكانت مع الأحزاب الذين حاصروا المدينة ، ثم غزوة بنى قريظة من يهود المدينة لنقضهم العهد واجتماعهم مع الأحزاب ثم غزوة بنى لحيان لقتلهم عاصم ابن ثابت واخوانه الذين حزن عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم غزوة الغابة لاغارة عيينة بن حصن فى أربعين راكبا على لقاح للنبى صلى الله عليه وسلم كانت ترعى الغابة ، ثم سرية محمد بن مسلمة الى القصة لما بلغ المسلمين أن بذلك الموضع ناسا يريدون الاغارة على نعم المسلمين التى ترعى بالهيفاء ، ثم سرية زيد بن حارثة لمعاكسة بنى سليم الذين كانوا من الأحزاب يوم الخندق ، ثم سرية زيد كذلك للاغارة على بنى فزارة الذين تعرضوا له ، ثم سرية عمر بن الخطاب لما بلغ المسلمين من أن جمعا من هوازن يظهرون العداوة للمسلمين ، ثم سرية بشير بن سعد لما بلغهم من أن عيينة بن حصن واعد جماعة من غطفان مقيمين بقرب خيبر للاغارة على المدينة . ثم سرية غالب الليثى ليقتص من بنى مرة بفدك لأنهم أصابوا سرية بشير بن سعد ، ثم غزوة مؤتة وكانت لتعرض شرحبيل بن عمرو الغسانى للحارث بن عمير الأزدى رسول النبى صلى الله عليه وسلم الى أمير بصرى يحمل كتابا وقتله اياه ، ولم يقتل للنبى صلى الله عليه وسلم رسول غيره حتى وجد لذلك وجدا شديدا . ثم سرية عمرو بن العاص لما بلغهم من أن جماعة من قضاعة يتجمعون فى ديارهم وراء وادى القرى للاغارة على المدينة ، ثم سرية على بن أبى طالب لما بلغهم من أن بنى سعد بن بكر يجمعون الجموع لمساعدة يهود خيبر

على حرب المسلمين ، ثم غزوة خيبر لأن أهلها كانوا أعظم محرض للأحزاب ثم سرية عبد الله بن رواحة لما بلغهم من أن باين رزام رئيس اليهود يسعى فى تحريض العرب على قتال المسلمين ، ثم سرية عمرو بن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان جزاء ارساله من يقتل النبى عليه الصلاة والسلام غدرا ، ثم حرب العراق لما ارتكبه كسرى عند ما أرسل اليه كتاب عرض عليه فيه الاسلام ، فانه مزق الكتاب وكتب الى بازان — أمير له باليمن يقول له : « بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر اليه فاستتبه فان تاب والا فابعث الى برأسه . أيكتب الى هذا الكتاب وهو عبدى ؟ » فبعث بازان بكتاب كسرى الى النبى صلى الله عليه وسلم مع فارسين يأمره أن ينصرف معهما الى كسرى فقدما اليه وقالا له : شاهنشاه بعث الى الملك بازان يأمره أن يبعث اليك من يأتى بك ، وقد بعثنا اليك فان أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك . فليس بعد ذلك عذر للمسلمين فى امتناعهم عن حرب الفرس خصوصا وقد كان للعرب ثارات كثيرة فى ذمة العجم .. ثم غزوة تبوك لما بلغ المسلمين من أن الروم جمعت الجموع تريد غزوهم فى بلادهم ، وقد أعقبها فتح الشام والقسم الأعظم من دولة الروم » [1] .

* * *

فهذا حق السيف كما استخدمه الاسلام فى أشد الأوقات حاجة اليه .

حق السيف مرادف لحق الحياة ، وكلما أوجب الاسلام فانما أوجبه لأنه مضطر اليه أو مضطر الى التخلى عن حقه فى الحياة وحقه فى حرية

---

(١) — المحاضرة السابعة من المحاضرات الاسلامية .

الدعوة والاعتقاد . فان لم يكن درءا للعدوان والافتيات على حق الحياة وحق الحرية فالاسلام فى كلمتين هو دين السلام .

وأيسر من استقصاء الحروب وأسبابها فى صدر الاسلام أن نلقى نظرة عامة على خريطة العالم فى الوقت الحاضر لنعلم أن السيف لم يعمل فى انتشار هذا الدين الا القليل مما عمله الاقناع والقدوة الحسنة . فان البلاد التى قلت فيها حروب الاسلام هى البلاد التى يقيم فيها اليوم أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد أندونيسية والهند والصين وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سهول الصحارى الواسعة . فان عدد المسلمين فيها قريب من ثلثمائة مليون ، ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد الا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم بله الملايين ، ونقارن بين هذه البلاد والبلاد التى اتجهت اليها غزوات المسلمين لأول مرة فى صدر الدعوة الاسلامية : وهى بلاد العراق والشام . فان عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرة ملايين يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين . ومن المفيد فى هذا الصدد أن نعقد المقارنة بين البلاد التى قامت فيها الدولة الاسلامية والبلاد التى قامت فيها الدول المسيحية من القارة الأوربية . فلم يبق فى هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية . وقد أقام المسلمون قرونا فى الأندلس وخرجوا منها وأبناؤها اليوم كلهم مسيحيون .

وأنفع من الاحصاءات والمقارنات أن تتفهم دخيلة الدين من روحه التى تصبغ العقيدة بصبغتها فيما يعيه المتدين على قصد منه أو فيما ينساق اليه بوحى من روح دينه كأنه عادة مطبوعة لا يلتفت الى قصده منها . وروح الاسلام فى العلاقة بين المسلم وسائر بنى الانسان .

تشف عنها كل آية وردت فى القرآن الكريم عن حكمة الاجتماع من أكبر الجماعات الى أصغرها ، ومن جماعة النوع الانسانى فى جملته الى جماعة الأسرة، وطبيعة الاجتماع فى كل مخلوق انسانى منذ تكوينه فى أصلاب آبائه وأجداده . فما هى حكمة الاجتماع فى الشعوب والقبائل ؟ وما هى حكمة الاجتماع فى بنيان الأسرة ؟ وما هى حكمة الاجتماع فى خلق الانسان فى بطن أمه ؟

حكمتها كلها فيما يتعلمه المسلم من كتابه أنها وشيجة من وشائج المودة والرحمة ، وسبيل الى التعارف والتقارب بين الغرباء .

فالتعارف هو حكمة التعدد والتكاثر بين الشعوب والقبائل من أبناء آدم وحواء :

« يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْناكُم من ذكَرٍ وأُنثَى وجَعلْناكُمْ شُعُوباً وقبائِلَ لِتَعارَفُوا » (سورة الحجرات)

والمودة والرحمة هى حكمة الاجتماع فى الأسرة :

« ومن آياتِهِ أنْ خَلَقَ لكُمْ من أنفُسِكُمْ أزْواجاً لِتَسْكُنوا إليْها وجَعَلَ بينكُم مَوَدَّةً ورَحمةً » (سورة النحل)

والنسب هو حكمة الاجتماع من خلق الانسان منذ تكوينه فى صلب أبيه :

« وهوَ الذى خَلَقَ من الماء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وصِهْراً »

(سورة الفرقان)

والمؤمنون اخوة ، والناس اخوان من ذكر وأنثى ، وشر ما يخشاه الناس من رذائلهم أنها تلقى بينهم العداوة والبغضاء :

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بينكُمُ العداوةَ والبَغْضَاء فى الخَمْرِ والمَيْسِرِ » (سورة المائدة)

والعداوة والبغضاء هما الجزاء الذى يصيب الله به من ينسون آياته ويكفرون بنعمته ، وهما الجزاء الذى أصاب الله به أهل الكتاب بعد ما جاءهم من البينات فضلوا عن سوائه ولم يبق لهم من دينهم غير اسم يدعـــونه :

« ومِنَ الذينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا ميثَاقَهُمْ فنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فأَغرَيْنَا بينَهُمُ العَداوَةَ والبَغْضَاء إلى يَوْمِ القِيامَةِ »

(سورة المائدة)

« وقالتِ اليَهودُ يَدُ اللهِ مَغْلولةٌ غُلَّتْ أَيْديهِمْ ولُعِنُوا بمَا قَالُوا بل يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاء ولَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُم ما أُنْزِلَ إليْكَ من رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاء إلى يَومِ القِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً واللهُ لا يُحِبُّ المُفسِدِينَ »

(سورة المائدة)

* * *

ولا خفاء بروح الدين كما توحيه الى وجدان المسلم هـــذه الآيات وما فى معناها من كلمات كتابه . فانها تلهمه أن المودة والرحمة حكمة الله فى خلقه ، وان العداوة والبغضاء عقاب لمن يضلون عن حكمته ومغبـــة السوء التى تستدرجهم اليها الرذيلة والمعصية . ومن آمن بالله على هدى هذا الدين فقد آمن بآله يرضيه من عباده أن يسلكوا ســـبيل المودة والسلام ويسخطه منهم أن يسلكوا سبيل العداوة والعدوان .

* * *

وقد تعددت آراء المشترعين وأصحاب الآراء فى القوانين بين طائفة ترى أن الانسان مطبوع على الشر وأن حالة الحرب هى الحالة الطبيعية بين الناس حتى تتقرر بينهم حالة غيرها من أحوال المصالحة والتراضى على المسالمة والأمانة ، وطائفة ترى أن الانسان — بطبعه — مخلوق وديع يدفعه الخوف والحاجة الى الشكاسة فيتعدى على كره ويصد العدوان على كره وتجرى عادته على وفاق ما تمليه عليه معيشة الأمن والرخاء أو معيشة القلق والاضطراب .

والاسلام دين ينظر الى هذه المشكلة نظرة الدين ولا يعنيه الواقع ليجعله مثلا مختارا للعلاقة بين الناس . بل يعينه الواقع ليختار لهم ما هو أجدر باختيارهم وأصلح لشئون أفرادهم وجماعاتهم ، ويروضهم على أن يكونوا خيراً من الواقع فيما يطيقونه وينفعهم أن يطيقوه .

فالعلاقة بين الناس فى دستور الاسلام علاقة سلم حتى يضطروا الى الحرب دفاعا عن أنفسهم أو اتقاء لهجوم تكون المبادرة فيه ضربا من الدفاع . فالحرب يومئذ واجبة على المسلم وجوبا لا هوادة فيه ، وهو — مع وجوبها — مأمور بأن يكتفى من الحرب بالقدر الذى يكفل له دفع الأذى ، ومأمور بتأخيرها ما بقيت له وسيلة الى الصبر والمسالمة ويتكرر هذا الأمر كلما تكرر الاذن بالقتال والتحريض عليه ، وكل تحريض أمر به ولى الأمر فى القرآن فهو التحريض على تجنيد الجند وحض العزائم على حرب لم يبق له محيد عنها ، ولا غرض له منها الا أن يكف بأس المعتدين عليه وعلى قومه ، ثم لا اكراه له فى هذه الحرب على متطوع لقتال أو نجدة وهذا هو موضع التحريض فى قوله تعالى :

« فَقَاتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا »

(سورة النساء)

أما أواصر القتال فمن آياتها فى القرآن الكريم ما ورد فى سورة البقرة :

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »

« فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ » .

وفى سورة النحل :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ »

وفى سورة الأنفال :

« وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ »

وفى سورة النساء :

« فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا »

* * *

أما المشركون الذين لم يصدوا المسلمين عن دينهم ولم يبادلوهم بالعدوان فلا حرج على المسلم أن يبر بهم ويعدل فى معاملتهم وأن يعاهدهم ويوفى لهم عهدهم الى مدته والى أن ينقضوه مخالفين بما عاهدوا عليه ان لم يكن له أجل محدود :

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »

(سورة الممتحنة)

* * *

« إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »

(سورة التوبة)

ولم يجعل الاسلام وفاء المعاهدين بعهودهم تدبيرا من تدبيرات السياسة أو ضرورة من ضروراتها التى تجوز فيها المراوغة عند القدرة عليها . بل جعله أمانة من أمانات العقل والضمير وخلقا شريفا يكاد الخارج عليه أن يخرج من آدميته ويسلك فى عداد السائمة التى لا ملامة عليها :

« وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا »

(سورة النحل)

* * *

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ »

(سورة الأنفال)

* * *

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؟ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ »

(سورة التوبة)

* * *

ومن توكيد الاسلام لواجب الوفاء بالعهد أنه يحرم على المسلمين أن يستبيحوا القوم منهم يستنصرونهم فى الدين اذا كان بينهم وبين أعداء المستنصرين لهم عهد وميثاق :

« وَإِنِ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ » (سورة الأنفال)

* * *

ولا يبيح الاسلام لولى الأمر أن يستخدم السيف فيما شجر بين المسلمين من نزاع يخاف أن يفضى بينهم الى القتال الا اذا بغت طائفة منهم على الأخرى فله بعد استنفاد الحيلة فى الاصلاح بينهما أن يقاتل الفئة الباغية حتى تكف عن بغيها :

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ، فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ »

(سورة الحجرات)

* * *

وفيما عدا العلاقة التى تنعقد بين المسلمين وأبناء دينهم أو بينهم وبين المعاهدين لا تكون الأمة التى لا ترتبط بالدين ولا ترتبط بالعهد الا عدوا يخاف ضرره ولا يؤمن جانبه الا على وجه من الوجهين : أن يقبل الدين أو يقبل الميثاق .

والاسلام يسمى بلاد هذا العدو « دار حرب » لأنها بلاد لا سلام فيها للمسلم ، ويفرق بين حقوقها وحقوق المسلمين أو حقوق المعاهدين ، ولا يعترف لها بهذه الحقوق أو تلك الا أن تدين بالاسلام أو تقبل الصلح على عهد متفق عليه .

وليس معنى هذا التقسيم الطبيعى فى الحقوق أن الاسلام يكره القوم على قبوله اذ أن نص القرآن الكريم يمنع الاكراه فى الدين :

« لَا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »

(سورة البقرة)

ولكن معنى تقسيم البلاد الى بلاد سلم وبلاد حرب ان بلاد الحرب لا تدخل فى السلم الا اذا قبلت الدين أو تعاهدت على الصلح بقتال أو بغير قتال . وتأبى طبيعة الأمور تقسيما لحقوق السلم والحرب غير هذا التقسيم .

ومتى وقعت الحرب فلا قتال لأحد غير المقاتلين ولو كان من بلاد الأعداء ، ولم يكن النبى عليه السلام وخلفاؤه يتركون المقاتلين من المسلمين المتوجهين الى الحرب بغير وصاية مشددة يحاسبونهم عليها فيما يتبعونه من خطة قبل الرعايا المسالمين من أعدائهم ، وخلاصة هذه الوصايا كما أجملها الخليفة الأول أبو بكر الصديق : « ألا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة ، وسوف تبرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم للصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وتشتمل تعاليم الاسلام على أحكام مفصلة لكل حالة من الحالات التى تعرض بين المتحاربين فى أثناء القتال أو بعده . وهى حالات الأمان والاستئمان والمهادنة والموادعة والصلح على معاهدة .

فالأمان هو « رفع استباحة الحربى ورقه وماله حين قتاله أو العزم عليه » .

والاستئمان هو « تأمين حربى ينزل لأمر ينصرف بانقضائه » .

والمهادنة « عقد لمسلم مع حربى على المسالمة مدة ليس هو فيها على حكم الاسلام » .

والموادعة « عقد غير لازم محتمل النقض ، للامام أن ينبذه حسب قوله تعالى : « واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء » .. ويشترط فى حالة النبذ أن يبلغه القائد الى جنده والى الأعداء وهم على حكم الأمان حتى يعلموا بانتهاء الموادعة (١) .

والوفاء بالشرط المتفق عليه فى كل حالة من هذه الحالات فريضة مؤكدة بنصوص القرآن الكريم ونصوص الأحاديث النبوية ، تقدمت بها الأمثلة فى معاهدات النبى عليه السلام ومعاهدات خلفائه رضوان الله عليهم ، وأشهرها عهد الحديبية قبل فتح مكة وعهد بيت المقدس بعد فتح الشام .

فالنبى عليه السلام قد اتفق على عهد الحديبية بعد هجرته من مكة بست سنوات ، وكان يريد الكعبة معتمرا مع طائفة من صحبه فتصدى له المشركون وحالوا بينه وبين البيت الحرام ، فقال النبى عليه السلام لرسولهم : « انا لم نجىء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين . وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فان شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بينى وبين الناس . فان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا والا فقد حموا ، وان هم أبوا فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى وينفذن الله أمره . ثم أنفذت قريش رسولها سهيل بن عمرو العامرى فاتفق مع النبى عليه السلام على أن يرجع النبى وصحبه

---

(١) تراجع البدائع للكاسانى وشرح حدود الامام الاكبر للتونسى وزاد المعاد لابن القيم .

فلا يدخلوا مكة تلك السنة ، فاذا كانت السنة القادمة دخلوها فأقاموا فيها ثلاثا بعد أن تخرج منها قريش ، وتهادنوا عشر سنين لا حرب فيها ولا أغلال ولا أسلال ، ومن أتى محمدا من قريش بغير اذن وليه رده اليهم ، ومن أتى قريشا من المسلمين لم يردوه ، واستكثر المسلمون هذا الشرط فقال عليه السلام : نعم انه من ذهب منا اليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فيجعل الله له فرجا ومخرجا . ومن أحب منهم أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه ..

ثم أخذ النبى عليه السلام فى املاء العهد وابتدأه « بسم الله الرحمن الرحيم » فأبى سهيل بن عمرو أن يبدأ العهد بهذه الفاتحة الاسلامية وقال بل يكتب : باسمك اللهم . فأجابه النبى الى ما طلب ومضى يملى قائلا : هذا ما قاضى عليه رسول الله . فقال سهيل : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

وبينما هم يكتبون العهد لم يفرغوا منه أقبل أبو جندل بن سهيل ابن عمرو يرسف فى القيود فرمى بنفسه بين المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه وأخذ بتلابيب ولده . فقال النبى لأبى جندل : يا أبا جندل ! قد لجت القضية بينا وبينهم ولا نغدر .. » ومضى النبى وصحبه على رعاية عهدهم حتى نقضته قريش وأمدت بنى بكر بالسلاح والأزواد فى حربهم لبنى كعب فأصبح المسلمون فى حل من نقض ذلك العهد وعمدوا الى مكة فاتحين ففتحوها بعد ذلك بقليل .

أما عهد بيت المقدس فذلك هو العهد الذى كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل ايليا ، وهو أشهر العهود فى صدر الاسلام بعد عهد الحديبية ،

وفيه يقول الخليفة العظيم : « انه أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، وانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار على أحد منهم ، ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وأن يخرجوا منها الروم واللسوت ، ومن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام معهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية .. ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينه وبين صلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم » .

وقد حدث أثناء التعاهد على هذا الصلح حادث كحادث أبى جندل عند كتابة صلح الحديبية ، فحان موعد الصلاة والخليفة العظيم فى كنيسة بيت المقدس ، ولا مانع عند المسلم من اقامة الصلاة فى الكنائس أو فى معابد الأديان غير الاسلام . اذ أينما تكونوا فثم وجه الله ، ولكنه أشفق أن يقيم الصلاة فى مكان فيحرص المسلمون بعده على احتجاز ذلك المكان الذى صلى فيه أمير المؤمنين . فخرج من الكنيسة وصلى فى جوارها ولم يبح لنفسه أن يورط أتباعه فى ذريعة يتعللون بها لمخالفة عهد من عهوده.

وكلا العهدين ، عهد مكة وعهد بيت المقدس ، يفند زعم الزاعمين أن الاسلام يعتمد على الاكراه فى نشر دعوته . وثانيهما — وهو عهد الصلح فى الشام بعد هزيمة دولة الروم — واضح فى بيان الشروط التى يعرضها الاسلام على المعاهدين بعد الحرب التى ينتصر فيها . فمن أحب أن يقيم فى مكانه فله أن يقيم وهو آمن على نفسه ودينه وحريته ، ومن

أحب أن يرحل الى بلاد الدولة المنهزمة فله أن يرحل كما أراد وهو آمن فى طريقه ، ومن دان بالاسلام فهو مقبول فى زمرة المسلمين ، ومن بقى على دينه فليس عليه الا أن يؤدى الجزية فتحميه الدولة مما يحمى منه سائر رعاياها وله ما لهم وعليه ما عليهم الا الحرب ، فانها لا تطلب منه فى خدمة دين غير دينه .

وشرع الاسلام القتال على درجات فلم يشرع حالة الا وضع لهـا حدودها وبين للمسلمين ما يجب عليهم فيها ، وتم له فى نحو عشرين سنة قانون دولى كامل لأحوال الحرب مع المقاتلين على اختلافهم ، فأتم فى القرن السادس ما بدأت فيه أوربا فى القرن السابع عشر ، ولم يزل قاصرا عن غايته مهملا فى ساعة الحاجة اليه .

بدأ النبى عليه السلام دعوته واستجاب له من استجاب من قومه وهو لا يأذن بقتال . فلما اشتد به وبأصحابه ما أصـابهم من أذى المشركين فعذبوهم وفتنوهم وأخرجوهم من ديارهم كان ذلك بدامة الاذن بمقاتلة المعتدين فى الحد الذى يكفى لدفع العدوان ، كما تقدم ، ولا يبقى بعده أثرا للضغينة والانتقام :

« أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ »

(سورة الحج)

وكان النبى صلوات الله عليه يعاقب فى حروبه بمثـل ما عوقب به ولا يجاوزه الى اللدد فى الخصومة ، فاذا انتهت الحرب على عهد من العهود وفى به وأخذ على أتباعه أن يفوا به فى غير اغلال ولا أسلال ، أى فى غير خيانة ولا مراوغة . وثابر على الوفاء فى جميع عهوده ، وثابر أهل الجزيرة

من المشركين واليهود على الغدر بكل عهد من تلك العهود ، وعقدوا النية سرا وجهرا على اعنات المسلمين واخراجهم من ديارهم لا يحرمون حراما فى مهادنتهم ولا فى مسالمتهم ولا يزالون يؤلبون عليهم الأعداء من داخل الجزيرة وخارجها . وأصروا على ذلك مرة بعد مرة حتى أصبحت معاهداتهم عبثا لا يفيد ولا يغنى عن القتال فترة الا ردهم اليه بعد قليل، ووضح من لدد القوم واصرارهم عليه أنهم لا يهادنون الا ليتوفروا على جمع العدة وتأليب العدو من الخصوم والأحلاف ، فبطلت حكمة الدعوة الى العهد ولم يبق للمسلمين من سبيل الى الأمان معهم الا أن يخرجوهم من حيث أرادوا أن يخرجوا المسلمين ولا يبقوا أحدا غير مسلم فى تلك الجزيرة التى أبت أن تكون وطنا للمشركين وأحلافهم دون سواهم . فانتهت حكمة التخيير بين المعاهدة والقتال ، ووجب الخيار بين أمرين لا ثالث لهما ، وهما الجوار على الاسلام أو على الخضوع لحكمه ، فلا جوار فى الجزيرة لأحد من المشركين وأحلافهم اليهود الا أن يدين بالاسلام أو بالطاعة .

« وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ »
(سورة البقرة)

وقال النبى عليه السلام يومئذ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله » .

وفى هذا المعنى ينص القرآن الكريم على محاربة أهل الكتاب الذين تحالفوا مع المشركين ونقضوا العهود المتوالية بينهم وبين النبى كما تقدم فى ذكر الغزوات والسرايا :

« قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ » (سورة التوبة)

والوجه الوحيد الذى ينصرف اليه هذا الحكم أنه حيطة لا محيد عنها لضمان أمن المسلمين مع من يجاورونهم فى ديارهم ويتآمرون على حربهم ، فلا يحل للمسئول عن المسلمين أن يكل أمانهم الى عهد ينقض فى كل مرة . ولكنه يأمن عليهم فى جوار قوم مسلمين أو قوم مطيعين للدولة يؤدون لها حقها ، فهم اذن لا يملكون من الاستقلال بالعمل فى طاعة تلك الدولة ما يملكه المعاهد المؤمن على عهوده .

* * *

وعلى الجملة شرع الاسلام حكما لكل حالة يمكن أن توجد بينه وبين جيرانه على الحذر أو على الأمان . فنص على حالة الدفاع والعدوان ، ونص على الدفاع الواجب فى حدوده على حسب العدوان ، ونص على التعاهد والمسالمة الى مدة أو الى غير مدة ، ولما بطلت جدوى المعاهدة لم تبق له خطة يأخذ بها أعداءه غير واحدة من اثنتين : الحرب أو الخضوع للاسلام ايمانا به أو طاعة لمولاته ، ولم يجعل الايمان بالاسلام حتما على أعدائه المصرين على العداء . بل جعله خيارا بين أمرين ، ومن سام الاسلام أن يرضى بغير هذين الأمرين فقد سامه أن يرضى بحالة ثالثة لا يرضاها أحد وهى حالة الخوف الدائم من عدو متربص به لا تجدى معه المهادنة ولا يؤمن على عهد من العهود .

وانقضى عهد النبى صلوات الله عليه والمسلمون يعلمون حدودهم فى كل علاقة تعرض لهم بين أنفسهم وبينهم وبين جيرانهم : علاقة المودة

والوئام ، وعلاقة الشعب والفتنة . وعلاقة الحرب أو علاقة التعاهد أو علاقة الموادعة والمهادنة أو علاقة الأمان والاستئمان . وهذه العنــاية باقامة الحدود وبيان واجباتها هي وحدها حجة قائمة للاســلام على خصومه الذين يتهمونه بأنه دين الاكراه الذى لا يعرف غير شريعة القوة أو شريعة السيف . فمن كان لا يعرف غير شريعة السيف فما حاجته الى بيان لكل حالة من حالات السلم والحرب بأحكامها وواجباتها وحدودها وتبعاتها ؟ لا حاجة به الى حد من هذه الحدود ما دام معه السيف الذى يجرده متى استطاع ، ولا حاجة به الى حد من هذه الحدود ما دام عزلا من السيف مغلوبا على كل حال . فانما يبحث عن تلك الحدود من يضع السيف فى موضعه ويأبى أن يضعه فى موضع المسالمة والاقناع ، وكذلك كانت شريعة الاسلام منذ وجب فيه القتال ، ولم يوجبه الا البغى والقسر والعنت والاخراج من الديار .

* * *

وبينما كانت هذه الحدود معلومة مقسومة بأقسامها وتبعاتها فى شريعة الاسلام كانت العلاقة بين الأمم فى القارات الثلاث فوضى لا تثوب الى ضابط ولا يستقر بينها السلام الا حيث يمتنع وجود المحــارب فيمتنع وجود الحرب بالضرورة التى لا اختيار فيها .

كانت شريعة الرومان أن كل قوى يجاورك عدو تقضى عليه . فلم يكن للقارة الحديثة (التى سموها بقرطاجنة) من ذنب الا أنها دولة قوية تعيش على العدوة الأخرى من بحرهم الذى أغلقوه دون غيرهم mare clausum أو الذين سموه بحرنا وحرموا على غيرهم أن يشاركهم فيه mare Nostrum

وكذلك كانت شريعة فارس فى الشرق مع من يجاورها ، وكذلك

كانت شريعة الاسكندر وخلفائه على دولته الواسعة ، وكذلك بقيت شريعة الدول فى القارة الأوربية الى القرن السابع عشر أول عهدهم بالبحث فى الشرائع الدولية وحقوق الحرب والسلام . فلم يلتفتوا قط الى البحث فى الحقوق يوم كان الحق كله للسيف، تتولاه دولة واحدة تخضع من حولها من الرعايا المتفرقين ولا تنازعها دولة أخرى فى ولايتها عليهم واستبدادها بأمرهم : لم تكن هنالك شريعة فى الحقوق يوم كانت شريعة السيف كافية مغنية لمن يملكه اذا غلب ولمن يخضع له اذا حقت عليه الغلبة . فلما انقسمت الدولة الكبرى فى القارة الأوربية تفرقت الدول شيعا وتنازعت العروش والتيجان تنازع الحطام الموروث لا تنازع الحقوق والواجبات بين الأمم والشعوب . ويومئذ — فى أوائل القرن السابع عشر — بدأت بحوثهم فى حدود الحرب والسلام وتصدى فقيههم الكبير جروتيوس Grotius لاستنباط هذه الحدود من وقائع الأحوال فيما سماه بقانون الحرب De Jury Belt ، ولا يزال بينهم أساس المراجع الى العصر الحديث . لم يحدث فيه جديد ذو بال الا أنهم يرجعون عنه الى الوراء عدة قرون ، فيبيحون اليوم ما كان محظورا من اقتحام الحرب بغير علة أو بلاغ . .

وان القارىء المسلم ليبتسم حين يقرأ فى مراجع تلك البحوث الفجة انها بحوث فى شريعة تسرى على العالم الأوربى الذى كان معروفا يومئذ باسم العالم المسيحى Christendom ، ولا تسرى على العالم المحمدى Mohammednism لأنه عالم جهالة لا يفقه هذه الحدود ولا يلتزم بواجباتها وتبعاتها ... فمن دواعى السخرية حقا أن يقال هذا عن دين يتناول المتعلم المبتدىء فيه مرجعا من مراجع أصوله التى فرغ البحث فيها منذ القرن السادس للميلاد فيرى فيه أحكام الاعلان والتبليغ والنبذ والمعاهدة

والصلح والذمة والهدنة والموادعة والسفارة والوساطة ، ويرى لكل حكم من الأحكام واجباته على المسلم فى حالتى ابرامه ونقضه وواجبات الامام والرعية فيه مفصلة مرددة كأنها صيغ العقود التى يتحرى فيها الموثقون غاية التوكيد والتقييد منعا للأغلال والأسلال كما جاء فى أول عهد بين الاسلام والمشركين . فان القارىء المسلم حين يمر بذلك السخف المضحك فى بواكير القانون الدولى عند القوم ليحس كأنه على مشهد من ألاعيب أطفال يتواصون فيما بينهم على كتمان أسرارهم عن كبارهم ... لأن هؤلاء الكبار الخبثاء أغرار لا أمان لهم على تلك الأسرار !

* * *

ومن البديهى أن الأديان تعليم يبين للناس مواطن التحليل والتحريم، وليست هى بالقوى المادية التى تجرهم من أعناقهم الى الخير وتحيطهم بالسدود لتصدهم عن مقارفة الشر ، وليست هى بترياق الساعة الذى يقال فى أساطير السحر أنه يبرىء الأدواء لساعته ويخلفها بالصحة السابغة والشباب المقلد . وقصاراها من الهداية أنها كالمصابيح التى تنير المسالك أمام السالك وتبطل العذر لمن يسلك أسوأ الطريقين على علم بما فيه من السوء والعوج وما فى غيره من السداد والاستقامة ، وهى على هذا كسب عظيم لبنى الانسان يضيرهم أن يفقدوه . فالناس يخالفون القوانين والآداب كل يوم ولا يقال من أجل هذا انهم لم يكسبوا شيئا بتدوين القوانين والمطالبة برعايتها ، وانهم فى الزمن الذى يخالفون فيه القانون لا يزالون كما كانوا فى زمن الهمجية السائمة لا يميزون بين المحرم والمباح ولا يعرفون أنهم خالفوا القانون أو لم يخالفوه .

والمسلمون قد تعلموا أصول « القانون الدولى » قبل ظهور القانون الدولى فى الغرب بأكثر من عشرة قرون ، فخالفوه كثيرا فيما بينهم

وخالفوه كثيرا فيما بينهم وبين غيرهم ، وتمحلوا المعاذير أحيانا لتسويغ الحرب التى لا تسوغ ونقض العهود التى يوصيهم الدين برعايتها ، وظهر بينهم المجرمون الدوليون كما يظهر المجزمون والعصاة مع كل قانون وكل عرف مأثور . الا أن هؤلاء المجرمين — كثروا أو قلوا — لم يبطلوا فضيلة دينهم ولم ينسخوا أحكامه بعصيانهم ، وذهبوا وبقيت تلك الأحكام ماثلة أمام ولاة الأمر يطيعونها أو يسول لهم الطمع أن يتعدوا حدودها ، فلا يجسروا على تعديها جهرة الا أن يتمحلوا لها معاذيرها ويبدلوا معالمها ، ومن لج به البغى فتعدى حدودها ولم يكترث لعواقب العدوان لم ينج من تلك العواقب فى مصيره وانتهى به البغى الى نهاية كل جامح عسوف مستبد برأيه .

ولما تجاورت دول الاسلام ودول الغرب حول البحر الأبيض المتوسط كانت شريعة الدول الغربية فى القانون الدولى هى الشريعة التى خلفتها لها دولة الرومان :

من جاورك فهو عدوك تخضعه أو يخضعك وتبدأ بالحرب متى استطعت أو يبدؤك هو بالحرب متى استطاع ... وكانت هذه الشريعة على أشدها فى معاملتهم لبلاد المسلمين لأنهم أفردوها بعداء واحد فوق كل عداء

واذا وضع الميزان بين هذه الدول فى هذه الفترة ذهبت كل غدرة من جانب الدول الاسلامية بغدرة مثلها من جانب الدول الغربية وبقيت فى كفة الغرب غدرات كثيرة لا نظير لها ولا مسوغ لها غير شريعة العداء الدائم فى جميع الأحوال .

والترك العثمانيون هم مضرب المثل عند الغربيين للشريعة التى تجوز فى معاملات الغرب ولا تجوز فى معاملات الأمم الأخرى . ومنهم من يخلط بين كلمة التركى وكلمة المسلم فيظن أن المسلمين كلهم من الترك ويكتب

كتابهم يومئذ عن قسوة التركى وذمة التركى ولباس التركى ولغة التركى وهو يشمل بالكلمة جميع المخالفين للأوربيين من المسلمين . وحقهم فى عرف القوم أنهم لا حق لهم معروف بين حقوق الآدميين .

ولكن هؤلاء الترك لم يكن من شريعتهم قط أنهم يعاملون أناسا سلبت حقوقهم واستبيحت دماؤهم وأموالهم لهم بلا سبب ولا مسوغ غير الخلاف فى الدين . وطالما هم سلاطين الترك باكراه المسيحيين فى بلادهم على الاسلام أو تستباح دماؤهم وأموالهم فنهاهم عن ذلك شيوخ الاسلام وقيدوهم بالفتاوى الشرعية التى لا تبيح للسلطان المسلم أن يقتل ذميا أو يقتل مخالفا يقبل أداء الجزية بعد تخييره بينها وبين المعاهد أو الاسلام... ولولا هذه الفتاوى لاستطاع سلاطين الترك أن يحولوا أوربة الشرقية الى الدين الاسلامى فى جيل واحد أو جيلين ، ولولا أن الفتوى الشرعية كانت لها رهبتها فى ضمير السلطان المسلم لما اكترث لها أولئك السلاطين الأقوياء المتحكمون فى ممالكهم ولا سيما أيام الفتوح التى أضافت الى قوتهم عظمة المجد وخيلاء الظفر والسطوة . فقد كانت رهبة الفتــوى من العالم العارف بأوامر الدين ونواهيــه تخيف بطل الحــرب الذى لا تخيفه الجيوش والمعامع لأنها رهبة من الله سيد السادة وملك الملوك القادر على أن يخذل المنتصر وينصر المخذول ، بل كانت هــذه الرهبة تزلزل العروش تحت أربابها وتطيح بهم من فوقها ، وكثيرا ما لجأ اليها المنكرون لحكم السلطان فاستندوا اليها فى جواز خلعه ، وكثيرا ما لجأ اليها السلاطين أنفسهم لاجازة ولاية بعدهم لا تجيزها لهم قوة السيف والمال ، أو لاجازة العقاب الذى يحلونه بالعصاة ولا بد له من سند شرعى يسوغه لولى الأمر القادر عليه ، وما استطاع السلطان أن يوقع بجمع « الانكشارية » المتمردين على الاصلاح الا بسند من تلك الفتــاوى يحتمى به من غضب الله وغضب رعاياه .

ومن أضاليل فقهاء الغرب فى القانون الدولى أنهم أسقطوا حقوق الترك فى المعاملات الدولية لأنهم مغيرون على البلاد الأوربية فى غير مسوغ للاغارة عليها ، وهم — أى هؤلاء الفقهاء — لا يشق عليهم أن يعلموا مسوغ تلك الاغارة لو كان لهم ميزان واحد للمعاملات بين الدول يزنون به حقوقها جميعا على سواء . فان العالم الأوربى باتفاق ملوكه وأمرائه وبابواته قد شهر الحرب على العالم الاسلامى فى حروبه الصليبية قبل زحف الترك العثمانيين على آسيا الصغرى فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد ، وكانت أخبار مذابح المسلمين فى بيت المقدس وفى المغرب الأندلسى تجوب آفاق القارة الآسيوية الى أقصاها شرقا وتجوب آفاق القارة الافريقية الى أقصاها جنوبا ، وتتغلغل فى أنحاء العالم الاسلامى مع الحجاج والمهاجرين فى كل عام ، فلا تدع مسلما فى الأرض بمعزل عن الشعور بحالة الحرب الداهمة لأنه يعلم أنها مشهورة عليه . ولعل فقهاء الغرب يجهلون عمق هذا الشعور الذى ملأ جوانب العالم الاسلامى عدة قرون لأنهم يجهلون مدى انتشار الخبر الذى يهم شعوب المسلمين على أفواه القوافل المترددة فى آسيا وأفريقيا من الحجاج والمهاجرين . وعمق هذا الشعور هو الذى قوض دولتى الأسبان والبرتغال فى آسيا قبل سائر المستعمرين لأنهما وصلتا الى الشرق الاسلامى مسبوقتين بسمعة العداوة التى لا عداوة مثلها لشعوب الاسلام . أما أن يعلم فقهاء الغرب عمق هذا الشعور فى بلاد العالم الإسلامى ثم يستكثروا على شعب من شعوبه أن ينظر الى الغرب نظرته الى محارب يقتص منه فلا عذر له الا الأثرة العمياء التى تجيز لصاحبها أن يقتحم بلاد غيره ثم لا يفهم من اقتحام بلاده بعد ذلك الا أنه عدوان بغير سابقة وبغير حجة !

وتأبى الحوادث الا أن تجىء عفوا بما ينقض دعوى هؤلاء الفقهاء عن رعاية الاسلام للقوانين والعهود ، فيطلق الغرب نفسه لقب « سليمان القانونى » على سلطان من أكبر سلاطين القسطنطينية لم يشتهر بعمل من أعماله الحربية كما اشتهر بأعماله القانونية التى أقامت المعاملات بين الغرب وبلاده على سنن التشريع والمعاهدة ، وهذه هى السنن التى اعترف بها فى ابان مجده وقوته منحا سخية للغرب فما زالت حتى أصبحت مع الضعف قيودا وأغلالا يتحكم بها المستعمرون الغربيون فى أعناق الشرقيين !

* * *

ونحن نكتب هذه السطور عن حقوق الأمم فى الاسلام وعن حقوقها عند فقهاء الغربيين بعد أن تنبهوا الى البحث فيها منذ أوائل القرن السابع عشر ولا ندرى ما مصير هذه الحقوق من الوجهة العملية فى عالمنا الحديث .

فقد تقهقرت دول الغرب فى بعض أحكام القانون الدولى الى ظلمات القرون الوسطى ، وأسقطت حرمته فى أخطر الحقوق وهو حق المفاتحة بالحرب أو حق الاغارة على الأمم بغير اعلان .

وان تقدم العالم الانسانى بالقانون الدولى لهو ضرورة قاسرة ليس فيها كبير فضل من نصوص وأحكام ولا كبير فضل للمقاصد والنيات . فان اشتباك العالم فى المصالح بعد اقتراب أنحائه بالمواصلات وتسامع الأخبار قد خلق بين الأمم علاقات مقصودة وغير مقصودة ترغم القوى على محاسنة الضعيف ، وتجعل الخطر فى بعض أطراف الكرة الأرضية محسوسا به فى أبعد أطرافها من بلاد الأقوياء والضعفاء .

فهذه العلاقات مرجوة الخير مبتدئة بالأمم فى طريق لا يسهل عليها النكوص عنه وهى آمنة على سلامتها وسلامة العالم الانسانى فى جملته، فاذا صح فيها رجاء العالم الانسانى فهو رجاء يساق الغرب فيه بسائق الضرورة العمياء ويقل فيه فضل السعى والتدبير ، ولكنه رجاء يتلقاه المسلم تصديقا لايمانه بالله ولعقيدته فى حكمته . لأنه يؤمن بأن التعارف بين الناس هو الحكمة الالهية من خلق الشعوب والقبائل واختلاف الأجناس والألوان .

حق الأمام

الامام فى الاسلام هو وكيل الأمة فى اقامة حدود الله . فحقه مرادف لحق الأمة ما قام بهذه الأمانة . لأنه يتولى الامامة لايتاء كل ذى حق حقه ، ويملك الأمر وتجب له الطاعة فيما تدعو مصلحة الأمـة فيه الى تشريع جديد .

وطاعته مقرونة بطاعة الله ورسوله :

« أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ »

(سورة النساء)

وفى الحديث الشريف : « من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى . اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة » .

وليس للامام أن يعطل حدا من حدود الله .

وليس له أن يقيم حدا منها فى غير موضعه .

واقامته فى غير موضعه أن يقام حيث لا تثبت أركانه ولا تدرأ شبهاته. فالامام الذى يعطل الحد مخالف لأوامر الله ، والامام الذى يقيم حـدا ليس بثابت الأركان ولا مدروء الشبهات مخالف لأوامر الله .

وعلى الامام تقع تبعة الأمة كلها فى تقدير مصالحها وضروراتها وتقدير ما يترتب على هذه المصالح والضرورات من اجراء الأحكام أو وقفها أو التوفيق بينها وبين أحوالها .

وليس هذا من الاجتهاد الذى يجوز فيه الخلاف ، لأن الاجتهاد اعتماد على تقدير لم يرد فيه نص صريح ، وأما رعاية الضرورات فقد وردت فيها نصوص صريحة لا تفهم على معنى من المعانى ان لم يكن معناها أن للاضطرار حكما غير حكم الاختيار ، وان تقدير الاضطرار فى تطبيق الشرع موكول الى ولى الأمر ساعة حصوله :

« فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ »

(سورة البقرة)

* * *

« وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ »

(سورة الأنعام)

* * *

« فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

(سورة المائدة)

والأمر بالتفكير نص صريح فى القرآن الكريم كهذه النصوص عن الضرورات ، فليس من الدين أن يتلقى المسلم آيات ربه فى كتابه وآيات ربه فى خلقه بغير تفكير :

* * *

« فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » (سورة الأعراف)

* * *

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (سورة النحل)

* * *

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (سورة النحل)

* * *

« كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (سورة الروم)

* * *

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ »

(سورة الأنعام)

* * *

« وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » (سورة البقرة)

* * *

وليس فى القرآن الكريم أمر واجب على الانسان أكثر من واجب العقل والتفكير ، وليس فيه نعى على قوم أشد من النعى على الذين لا يعقلون ولا يتفكرون .

فرعاية الضرورات نص صريح ، والأمر بالتعقل والتفكير نص صريح ، ومن قال بغير ذلك فهو الذى يجتهد برأى من عنده يخالف صريح النصوص .

* * *

أما موضع الاجتهاد الذى يطلب من الامام فى مسائل التشريع فهو الذى فصله الفقهاء فى أبواب القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح . وقد أجملها العالم الفاضل الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه عن مصادر التشريع الاسلامى فيما لا نص فيه فقال « انه اذا عرضت للمكلف واقعة فيها حكم دل عليه نص فى القرآن أو السنة أو انعقد عليه اجماع المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور وجب اتباع هذا الحكم ولا مجال للاجتهاد بالرأى فى حكم هذه الواقعة . واذا عرضت واقعة ليس فيها

حكم بنص ولا اجماع ولكن ظهر للمجتهد أنها تساوى واقعة فيها حكم بنص أو اجماع فى العلة التى بنى عليها حكم النص أو الاجماع فانه يسوى بين الواقعتين فى حكم النص لتساويهما فى العلة التى بنى عليها، وهذه التسوية هى القياس وهو أول طرق الاجتهاد بالرأى ، لأن المجتهد يستنبط علة حكم النص باجتهاده برأيه ويتحقق من وجودها فى الواقعة المسكوت عنها باجتهاده برأيه .

« واذا عرضت واقعة يقتضى عموم النص حكما فيها أو يقتضى القياس الظاهر المتبادر حكما فيها أو يقتضى تطبيق الحكم الكلى حكما فيها وظهر للمجتهد أن لهذه الواقعة ظروفا وملابسات خاصة تجعل تطبيق النص العام أو الحكم الكلى عليها أو اتباع القياس الظاهر فيها يفوت المصلحة أو يؤدى الى مفسدة فعدل فيها عن هذا الحكم الى حكم آخر اقتضاه تخصيصها فى العلم أو استثناؤها من الكلى أو اقتضاه قياس خفى غير متبادر فهذا العدول هو الاستحسان . وهو من طرق الاجتهاد بالرأى لأن المجتهد يقدر الظروف الخاصة لهذه الواقعة باجتهاده برأيه ويرجح دليلا على دليل باجتهاده برأيه .

« واذا عرضت واقعة ليس فيها حكم بنص ولا اجماع ولا قياس ولا يتعارض فيها دليلان وظهر للمجتهد أن هذه الواقعة فيها أمر مناسب لتشريع حكم أى أن تشريع الحكم بناء عليه يحقق مصلحة مطلقة لأنه يجلب نفعا أو يدفع ضررا فاجتهد فى تشريع الحكم لتحقيق هذه المصلحة فهذا هو الاستصلاح ، وهو من طرق الاجتهاد بالرأى لأن المجتهد يهتدى الى الأمر المناسب فى الواقعة برأيه ويهتدى الى الحكم الذى يبنيه عليه برأيه .

« فواقعة القياس واقعة ليس فيها حكم بنص أو اجماع ألحقت بواقعة فيها حكم بنص واجماع ، وواقعة الاستحسان واقعة تعارض فى حكمها دليلان . وعدل المجتهد فيها عن حكم أظهر الدليلين لسند استند اليه فى العدول ، وواقعة الاستصلاح واقعة بكر لا حكم فيها بنص ولا اجماع ولا قياس ، وشرع فيها المجتهد الحكم لتحقيق مصلحة معينة » .

واجتهاد الصحابة باذن النبى عليه السلام هو السند الذى يرجع اليه الفقهاء فى جواز الاجتهاد أو وجوبه عند الاضطرار اليه ، وأشهر وصاياه عليه السلام لكبار صحبه وصيته لمعاذ بن جبل وعمرو بن العاص .

وقد روى الامام أحمد بسند مرفوع الى أصحاب معاذ من أهل حمص فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه الى اليمن قال: كيف تصنع اذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فان لم يكن فى كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فان لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال اجتهد رأيى لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وروى عن عمرو بن العاص أنه جاء خصمان يختصمان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا عمرو اقض بينهما . قال : أنت أولى بذلك منى يا نبى الله. قال : وان كان . قال : على ماذا أقضى ؟ قال : ان أصبت القضاء بينهما لك عشر حسنات وان اجتهدت فأخطأت فلك حسنة.

ويلاحظ بعض رواة الأحاديث أن حديث معاذ مرفوع الى أصحاب له مجهولين فيقول الامام ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين ردا على هذه الملاحظة ان الحديث « وان كان عن غير مسمين فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك لأنه يدل على شهرة الحديث وأن الذى حدث به الحارث

ابن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم ، وهذا أبلغ فى الشهرة من أن يكون عن واحد منهم ولو سمى . كيف وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذى لا يخفى ولا يعرف فى أصحابه متهم ولا كذاب ولا مجروح ؟ بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخيارهم لا يشك أهل العلم بالنقل فى ذلك . كيف وشعبة حامل لواء هذا الحديث ، وقد قال بعض أئمة الحديث : اذا رأيت شعبة فى اسناد حديث فاشدد يديك به ... قال أبو بكر الخطيب : وقد قيل أن عبادة ابن أنس رواه عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ ، وهذا اسناد متصل ورجاله معروفون بالثقة . على أن أهل العلم نقلوه واحتجوا به فوقفنا بذلك على صحته عندهم كما وقفنا على صحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا وصية لوارث ، وقوله فى البحر : هو الطهور ماؤه والحل ميتته ، وقوله : اذا اختلف المتبايعان فى الثمن والسلعة قائمة تحالفا وترادا البيع ، وقوله : الدية على العاقلة ، وان كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الاسناد ، ولكن لما تلقتها الكافة عن الكافة غنوا بصحتها عندهم عن طلب الاسناد لها ، فكذلك حديث معاذ لما احتجوا به جميعا غنوا عن طلب الاسناد له ...

وقد عنى الامام ابن القيم بمناقشة مخالفيه على ديدن فقهاء الاسلام فى التحرج من ابداء الرأى أو معارضته بغير دليل والحرص على ابراء الذمة فى كل قول يأخذون به أو ينقدونه ، فأجاب المتشككين فى اسناد الحديث بالحجة التى اصطلح عليها علماء الأثر ، ولكنه كان فى غنى عن ذلك بأدلة الاجتهاد الكثيرة من أعمال النبى عليه السلام وأعمال الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم . وفى هذا الأمر خاصة — أمر معاذ رضى الله عنه — كان الامام ابن القيم فى غنى عن مناقشة السند باثبات حقيقة واحدة

لا شك فيها وهي ان معاذا ولي القضاء قبل تمام التنزيل ولما تتنزل الآية الشريفة: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ..» ولو لم يكن من حق الامام أن يقضي بما يراه موافقا للقرآن الكريم لما أمكن أن تسند الولاية الى أحد وفى القرآن الكريم بقية يجهلها الولاة. وكيفما كان تأويل المتأولين فى جواز الاجتهاد فما يكون لصاحب رأى فى الاسلام أن يزعم أن الناس أمروا بالنصوص الكتابية كما تؤمر الآلات التى تساق الى عملها ولا تدرى حكمته ولا تفقه معنى لتحريم الحرام وتحليل الحلال ، وانهم لم يؤمروا بالنصوص كما يؤمر العقلاء المكلفون بالنصوص المتواترة أن يتدبروا أوامر الله ونواهيه ويتدبروا آيات الله فى الكتاب وآياته فى الأرض والسماء . وبئس مثل المتعالمين الذين يحتجون بالكتب ولا يفقهونها ، فانهم كما جاء فى القرآن الكريم

« كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ »

(سورة الجمعة)

على أن الأدلة على جواز الاجتهاد ، بل على وجوبه ، كثيرة كما قدمنا فيما ثبت من أعمال النبى عليه الصلاة والسلام وأعمال خلفائه الراشدين ، ولا سيما الخليفة الثانى الذى تولى خلافة النبى فى دولة واسعة الأطراف تتطلب من الامام أن يتصرف فى تطبيق النصوص كلما عرضت له المشكلات بجديد لم يكن على عهده به قبل اتساع الدولة .

فالنبى عليه السلام تدرج فى ايجاب التكليف ، وجاء فى رواية الامام أحمد : « ان وفد ثقيف اشترطوا على رسول الله ألا يحشروا ولا يعشروا ولا يجمعوا ولا يستعلى عليهم غيرهم ، أى لا يخرجوا للغزو ولا يؤدوا الزكاة ولا يصلوا ولا يولى عليهم أحد من غير قبيلتهم ، فقال عليه الصلاة والسلام « لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا يستعمل عليكم غيركم ولا خير فى دين لا ركوع فيه » .

وقبل النبى منهم ما اشترطوه وهو يقول كما جاء فى رواية أبىداود انهم « سيصدقون ويجاهدون » ... أى انهم سيؤدون فرائض الاسلام متى ثبت الايمان فى قلوبهم وشاهدوا غيرهم من المسلمين يتصدقون ويخرجون للجهاد .

وروى أبو داود عن عبد الله بن فضالة عن أبيه قال « علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيما علمنى : وحافظ على الصلوات الخمس . قلت ان هذه ساعات لى فيها أشغال فمرنى بأمر جامع اذا أنا فعلته أجزأ عنى . فقال : حافظ على العصرين — وما كانت من لغتنا — فقلت : وما العصران ؟ فقال : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها .

ومثل هذه الرواية أن رجلا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فأسلم على أنه لا يصلى صلاتين فقبل ذلك منه .

وروى البخارى عن أم عطية أنها قالت : « بايعنا صلى الله عليه وسلم فقرأ علينا : ألا يشركن بالله شيئا ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها فقالت : أسعدتنى فلانة فأريد أن أجزيها . فما قال لها صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلقت ورجعت فبايعها . وفى رواية النسائى أنه عليه الصلاة والسلام قال : فاذهبى فأسعديها فذهبت فساعدتها ثم جاءت فبايعت[1].

وقد صنع رسول الله ذلك ترغيبا للمشركين فى الاسلام وتأليفا لقلوبهم وتدرجا بهم فى الصبر على فرائضه وفضائله وتعويدا لهم أن يطيعوا أوامر دينهم عن رغبة فيها واقتداء حسن بمن يطيعونها .

---

(١) راجع كتاب اجتهاد نبى الاسلام لصاحب الفضيلة الاستاذ عبد الجليل عيسى أبو النصر .

وتعددت مسائل الاجتهاد التى قضى بها الفاروق فى مدة خلافته ، فأعفى من العقوبة وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم ، وفرض الخراج ، وأنشأ من المكافآت والعقوبات ما لم يكن معمولا به قبل خلافته .

كان يقول : لا تقطع اليد فى عذق ولا عـام سنت ، وسرق غلمـة لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مزينة وأقروا بالسرقة فقال عمر لكثير ابن الصلت : اذهب فاقطع أيديهم ، ولمح فى وجوههم شحوبا فأمر بردهم وقال : أنا والله لولا انى أعلم انكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم أكل ما حرم الله عليه حوله لقطعت أيديهم . وأيم الله اذ لم أفعل لأغرمنك غرامة توجعك . ثم قال : يا مزنى ! بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال بأربعمائة . قال عمر : اذهب فاعطه ثمانمائه ...

وسئل الامام أحمد بن حنبل : أتعمل به ؟ قال : أى لعمرى . لا تقطع يد السارق ان حملته الحاجة على ذلك والناس فى مجاعة وشدة .

وأسقط عمر سهم المؤلفة قلوبهم ، وكان النبى عليه السلام قد أعطى أبا سفيان والأقرع بن حابس وعباس بن مرداس وصفوان بن أميـة وعيينة بن حصن كل واحد منهم مائة من الابل . وطلب عيينة بن حصن والأقرع بن حابس أرضا من أبى بكر الصديق فكتب لهما بها . فلما رأى عمر الكتاب مزقه وقال : ان الله أعز الاسلام وأغنى عنكم . فان ثبتم عليه والا فبيننا وبينكم السيف .

ومن سوء الفهم أن يقال ان الفاروق خالف النص فى هذه القضية ، وانما يقال انه اجتهد فى فهم النص كما ينبغى وانه بحث عن المؤلفة قلوبهم فلم يجدهم ، لأن تأليف القـلوب انما يكون مع مصلحة للاسـلام والمسلمين ، فان لم يكن تأليف لم يكن هناك مؤلفة يستحقون العطاء .

ولو أن عيينة والأقرع وأصحابهما سئلوا يومئذ : أهم من المؤلفة قلوبهم يستحقون العطاء لأنهم ضعاف الايمان لما قبلوا أن يثبتوا في ديوان العطاء.

ولما فتحت أرض الجزيرة وما وراءها لم يشأ أن يقسمها وقال : كيف بمن يأتى من المسلمين ؟ يجد الأرض قد قسمت وورثت عن الآباء . ما هذا برأى . ثم أرسل الى عشرة من الأنصار وقال لهم : انى لم أزعجكم الا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أمركم ... قد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم . أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ؟ لابد لها أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم . فمن أين أعطى هؤلاء اذا قسمت الأرضين والعلوج ؟ فقالوا جميعا : الرأى رأيك ، فنعم ما قلت وما رأيت . ان تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم يتقوون به — رجع أهل الكفر الى مدنهم .

وقد أخذ عمر بتمييز السابقين الى الاسلام بالمكافأة على الذين تبعوهم كرها ولم يشهدوا من الغزوات ما شهدوه . وأنفذ فتوى على رضى الله عنه حين أفتى بمعاقبة شارب الخمر بعقوبة القاذف لأن المخمور لا يملك لسانه اذا سكر وهذى ، وأمضى كثيرا من المكافآت والعقوبات على هذا القياس .

ولم يتحرج الخليفة الأول من الاجتهاد بالرأى عند وجوبه ، وانما كثر الاجتهاد فى عهد الخليفة الثانى لكثرة دواعيه ، وكان الصديق يقدم على الاجتهاد أحيانا حين يحجم عنه صاحبه كما حدث فى حروب الردة

حيث أمر الصديق بحرب مانعى الزكاة وتردد عمر فى جواز حرب المسلم الناطق بالشهادتين .

وسئل الصديق عن الكلالة فقال : انى سأقول فيها برأيى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان . أراه ما خلا الوالد والولـــد .

واجتهد عثمان وعلى كما اجتهد أبو بكر وعمر رضوان الله عليهم . فمن اجتهاد عثمان أنه يأمر بكتابة المصحف على حرف واحد منعا لاختلاف الألسنة فى القراءة ، ويوشك أن يكون لعلى رضى الله عنه رأى فى كل معضلة عرضت للخلفاء من قبله ، ربما رأى الرأى ثم عدل عنه ثم عدل عن عدوله كما حدث فى فتواه ببيع أمهات البنين . فقد كان اتفق مع عمر على منع بيعهن ، ثم قال لقاضيه عبيدة السلمانى كأنه يخيره بين البيع ومنعه . فقال عبيدة : يا أمير المؤمنين ! رأيك ورأى عمر فى الجماعة أحب الينا من رأيك وحدك . فقال : اقضوا بما كنتم تقضون ، فانى أكره الخـــلاف .

ولم ينته الاجتهاد بعد الخلفاء الراشدين . لأن الاجتهاد انما أوجبه أنه ضرورة تعرض للامام المسئول مع تقلب الأحوال وتجدد الطوارىء والمناسبات ، وأحرى أن يكون للتابعين ألزم منه للأولين الذين كانوا على مقربة من معاهد التنزيل وجيرة النبى صاحب الرسالة .

غير أن أهل الذكر الذين يوليهم المجتمع الاسـلامى أمانة العـلم والأمر بالمعروف قد بادروا الى دعم أسس التشريع واسـتنبطوا له الضوابط والآداب من آيات الكتاب وأحاديث الرسول ومأثور السلف الصالح فخلصت لهم من ذلك نخبة قيمة من القواعد والشروط يحق لنا

أن نسميها قوانين التقنين ، وهى تقابل اليوم ما يسمى فى عرف المشترعين الغربيين بالحكم وجوامع الأمثال Maxims

ومن هذه القواعد أن اليسر مفضل على الحظر فى أوامر الشرع ونواهيه . فحيثما أمكن السماح فهو أفضل من الحجر والتقييد ، لقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ولما أثر عن النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث السيدة عائشة أنه : « ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختار أيسرهما ما لم يكن اثما ، فان يكن اثما كان أبعد الناس عنه » .

ومن قواعد التشريع أن المعروف عرفا كالمشروط شرطا ، وما رآه المسلمون حسنا فهو حسن ، وانه « لا يجوز اقامة الحد مع احتمالِ عدم الفائدة » و «أن الضرورات تبيح المحظورات» وانه «لا ضرر ولا ضرار» و « ان اختيار أخف الضررين مصلحة » و « البينة على المدعى واليمين على من أنكر » و « الصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا » و « لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس أن تراجع الحق » و « اياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس » .

ومن ضوابط التشريع فصل السلطات وفصل عمل الحكم عن عمل التنفيذ ، وفى ذلك يقول أحمد بن القرافى فى الذخيرة : « ان ولاية القضاء متناولة للحكم لا يتدرج فيها غيره وليس للقاضى السياسة العامة ... وأما قوة التنفيذ فأمر زائد على كونه حاكما ... وليس للقاضى قسمة الغنائم وتفريق أموال بيت المال على المصالح واقامة الحدود وتركيب الجيوش وقتال البغاة » .

ومن ضوابط التشريع حق النقض « فيما خالف نص آية أو سنة

أو اجماع أو ما يثبت من عمل أهل المدينة أو القياس الذى لا يحتمل الا معنى واحدا أو الدليل القاطع الذى لا يحتمل اختلاف الآراء » .

وتفصيل ذلك مستفيض فى كتب الفقهاء .

فالامامة ، بهذه الضوابط والآداب ، مصدر دائم من مصادر التشريع لكل زمن بما يستجد فيه ، ولكل حالة بما يناسبها ، يواجه به الاسلام ضرورات التشريع بغير حجر على الامام أو على الأمة ، وحقهما فى ذلك سواء لأن الامام وكيل الأمة فى حماية الحقوق ولأن اجماع الأمة هو الحجة التى يستند اليها الامام كلما تيسر الاجماع التام فما تيسر منه كاف فى أجراء أعمال الامامة .

ولا تقع فى الحسبان — بهذه المثابة — قضية واحدة يقال ان مصادر التشريع الاسلامى تضيق عن حكمها الذى يناسب زمانها وأحوالها ، ولا يجوز مع هذا أن نحسب الشريعة الاسلامية من الشرائع المتحجرة التى لا تقبل المرونة ، وان كانت كذلك لا تحسب من الشرائع الرخوة التى لاتتماسك على أساس متين .

وقد حاول حاكم من أكبر حكام الغرب أن يلصق بالتشريع الاسلامى مظنة التحجر فى العصر الحاضر ، فشاء القدر أن يجرى عليه قصاصا كان ينعاه على التشريع الاسلامى فى معاقبة المفسدين ، لأنه أمر باحراق عصابة من اللصوص فى مزرعة من القصب لاذت بها وتحصنت فيها من مطارديها ، فى جهة البلينا من صعيد مصر ، فأمر الحاكم مفتشه من قومه بأن يشعل النار فى المزرعة ويتصيد من يهرب منها ضربا بالرصاص .

ذلك الحاكم هو لورد كرومر قيصر قصر الدوبارة فى القاهرة كما يلقبونه فى زمنه وقد أخذ على الشيخ العباسى مفتى الديار المصرية أنه سئل عن عقاب العصابات فذكره كما جاء فى الآية الكريمة :

« إِنَّمَا جَزَاءُ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(سورة المائدة)

وهذه عقوبات فرضت فى الجزيرة العربية قبل استفتاء الشيخ العباسى (سنة ١٨٩٠) بثلاثة عشر قرنا وفيها التخيير بين القتل وقطع الأطراف وبين السجن أو الاقصاء من الديار ، وفيها العفو عمن تاب واستقام وليس فيها الاحراق الذى كان للحاكم مندوحة عنه ، لو أنه آثر أن يصبر على محاصرة المفسدين حتى يستسلموا له طائعين .

وقبل الاحتلال البريطانى لمصر — أثناء الاحتلال الفرنسى فى القرن الثامن عشر — حكم قضاة نابليون على سليمان الحلبى قاتل القائد كليبر بالقتل على الخازوق وقطع يديه ورجليه يدا بعد يد ورجلا بعد رجل ثم احراقه حيا بعد هذا التعذيب .

أما الذين حاكمتهم محاكم التفتيش فى القرن الثالث عشر للميلاد — أى بعد بعثة النبى العربى بسبعة قرون — فحكمت عليهم بالاحراق فعدتهم مئات وألوف ، منهم العلماء والأدباء والقساوسة والمتهمون بالسحر ومحالفة الشيطان ، وليس منهم سفاح ولا قاطع طريق ، وذنبهم كله أنهم يحللون ومن المعرفة ما يحرمه رجال الدين .

ولا نعلم أن أحدا من قضاة التفتيش أو قضاة نابليون ندم على احراق الناس بقية الحياة ، ولكننا نعلم أن خليفة مسلما عاقب لصا من عتاة الجناة المفسدين غدر بعهد الأمان وقتل الأبرياء وتحدى ولى الأمر

وأعوانه واستحق حكم الموت فأحرقه الخليفة بالنار . ذلك هو الفجاءة ابن اياس بن عبد ياليل الذى وفد على الخليفة أبى بكر الصديق يسأله سلاحا يحارب به المرتدين ويحمى به الطريق ، فلما أعطاه السلاح خرج به يقطع الطريق وينهب السابلة ويحارب المسلمين ، فطارده الخليفة حتى ظفر به فألقي به فى النار ، وعاش بقية حياته يندم على هذه المثلة لأنها من غضب الحدة ، وان كان غضبا لا يعاب .

* * *

والعبرة فى معظم هذه الأخطاء التى يقع فيها نقاد الشريعة الاسلامية من ساسة الغرب أنهم يرغبون فى توجيهها ولا يكلفون أنفسهم أن يترددوا فيها ، ولولا ذلك لما وجهوا نقدهم الى موضع الاستيفاء والضمان من هذه الشريعة . لأنهم لم يسألوا أنفسهم قــط فى أمر العقــوبات التى يستعظمونها : هل هم على يقين أنها لم تكن فى حالة من الحالات رادعة أو لازمة للتحذير والتخويف ؟ وهل أوجبتها الشريعة الاسلامية فى جميع الحالات ولم توجب معها عقوبة أخرى تصلح للأخذ بها فى زمانها وفى غير زمانها ؟ وهم خلقاء أن يترددوا فى النقد اذا كلفوا أنفسهم بعض هذه الأسئلة ، لأنهم ينكرون على الشريعة الاسلامية شرط التشريع الذى يزعمون أنهم يطلبونه وهو الوفاء بحاجة الزمن والمطابقة لجميع الأحوال ويسقطون من حسابهم مصدر التشريع الدائم فى الاسلام وهو مصدر الامامة ومن ورائه حق الأمة أو حق الاجماع . فان هذا المصدر أوفى من أكبر المصادر العصرية التى يعولون عليها وهو مصدر السيادة . اذ كانت السيادة معززة بحق ولاة الأمر وحق الاستفتاء العام ، وكانت الامامة شاملة لهذه الحقوق جميعها وتزيد عليها قداسة الدين واتفاق الأمة فى جميع أزمنتها ، كأنها وحدة عامة لا تتقيد بارادة الاحياء فى فترة واحدة .

ولا حاجة للأمة فى عصر من عصورها الى مصدر من التشريع أوفى من مصدر السيادة بهذا المعنى الواسع المحيط بكل حرمة من حرمات الشرع فى غير حد ولا حجر على حرية الأحياء ولا حرية الأجيال المقبلة . لأن التبعة على قدر السلطة فى كل جيل من أجيال الأحياء .

وما من جهة واحدة يستند اليها حق الامامة كله فى الاسلام ، ولا استثناء فى ذلك لصاحب الرسالة وأمين التبليغ نبى الاسلام عليه السلام » :

« لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » (سورة آل عمران)

« إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » (سورة الكهف)

* * *

« وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » . (سورة ق)

* * *

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »
(سورة آل عمران)

* * *

ويؤمر النبى بمشاورة المسلمين :

« وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » (سورة آل عمران)

ويؤمر المسلمون بالمشاورة بينهم :

« وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » (سورة الشورى)

* * *

فحق الامامة اذن أعم من حق السيادة لأنه فى جانبى التشريع والتنفيذ مستمد من أوامر الله وسنة رسول الله واجتهاد أولياء الأمر واجتهاد الجماعة الاسلامية كلها برأيها على أتم صورة يثبت عليها .

ولهذا وجبت للامامة طاعة تناسب هذه القداسة . فلا حدود لها الا أن يأمر الامام بالخروج من الدين أو بمعصية الخالق فهو لا يطاع اذن لأنه ليس بأمام . وقسطاس العهد بين الامام ورعيته كما جاء فى حديث عبادة ابن الصامت : بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا وعلى ألا ننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » ويتمم الحديث فى رواية أخرى « ألا ننازع الأمر أهله الا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان .. » .

ويقول النبى عليه السلام : « ان الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

وفى الأثر « ان السلطان ظل الله فى أرضه يأوى اليه كل مظلوم من عباده فاذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، واذا جار كان عليه الأصر وعلى الرعية الصبر » .

* * *

وليس حق الامامة بالبداهة حق الامام لشخصه ولا هو من الحقوق التى يمكن أن تحصر فى جهة واحدة ، وانما يحق للامام منه ما هو حقه بموجب البيعة والأمانة العامة . فهو مطيع فى هذه الأمانة مطاع .

ومن ثم وجب أن يتولى الامام عمله باختيار رعاياه . ولا بد من البيعة العامة لكل أمام مسئول تجب له الطاعة ، يرشحه من استطاع من أولى

الحل والعقد وينعقد له الأمر بعد اجازة هذا الترشيح بالبيعة العامة ويجوز أن يرشحه واحد أو يشترط فى ترشيحه اتفاق عدد من المسلمين تجوز لهم صلاة الجماعة . الا أن الاتفاق على عدد المرشحين لا يغنى عن المرجع الأخير وهو اتفاق الجماعة بلا خلاف أو اتفاقها على القدر الذى ترجح به الكفة وتمتنع به الفتنة . ومن أقدم على الفتنة فاثمها عليه يقضى فيه الامام المختار أو يقضى فيه سلطان الجماعة حيث استقام لها سلطان مشروع .

* * *

ومن تمام التكافل « والتضامن » فى المجتمع الاسلامى أن أمانة « الامامة » لا تعفى الأمة من واجب النصيحة لأمامها ، وقد جمع نبى الاسلام الدين فى كلمتين اذ قال : « الدين النصيحة » وسئل : لمن يا رسول الله ؟ فقال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ».

وقال عليه السلام فى حديث آخر : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وازاء هذا الواجب من الرعية واجب يتممه من قبل الامام ، ويتأسى فيه الأئمة بصاحب الامامة الأولى الذى قال لرجل أصابه وجل عند لقائه : « رويدك يا هذا . انما أنا بشر : « أنا ابن امرأة أعرابية كانت تأكل القديد » .

وفى كتاب الله خطاب للنبى ولكل امام متبوع :

« وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ » (سورة الحجر)

* * *

« وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ »

(سورة الشعراء)

* * *

وختام القول فى هذا الحق المحيط بجميع الحقوق — حق الامامة — أنه باب مفتوح للتشريع فى كل عصر وكل مجتمع وانه يكفل للأمة الاسلامية ما يكفله حق السيادة وزيادة . فلا منفذ لنقد التشريع الاسلامى فى جميع مصادره ما بقى له هذا المصدر مستمدا من ضمير الانسان وحكمة الله .

الفصل الرابع

الأخلاق والآداب

التناسق ظاهرة عجيبة فى الاسلام ، يلمسها من تأمل فيه وألقى عليه فى مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعباداته وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق ويحمده من الأخلاق والآداب .

هنالك وحدة تامة أو بنية واحدة يجمعها ما يجمع البنية الحية من تجاوب الوظائف وتناسق الجوارح والأعضاء .

ويندر أن تقرأ فى كلام ناقد من الأجانب عن اللغة العربية شيئا من مآخذ التناقض فى الاسلام الا بدا لك بعد قليل أنه مخطىء ، وأن مرد الخطأ عنده الى جهل الاسلام أو جهل اللغة العربية ، وبعضهم يجهلها وهو من المستشرقين لأنه يستظهر ألفاظها ولا يتذوقها ولا ينفذ الى لبابها من وراء نصوص القواعد والتراكيب .

قرأنا لبعضهم أخيرا كتابا عن الشيطان يلم فيه بصفة ابليس فى الاسلام ويستغرب فيه — من هذا الدين — أن يقول عن الله انه أمر الملائكة بالسجود لآدم ... مع أنه الدين الذى اشتهر بغاية التشدد فى انكار الشرك وتفكير كل ساجد لغير الله .

ومرد الخطأ فيما بدر الى الكاتب من التناقض بين التوحيد وبين السجود لآدم أنه فهم السجود بمعنى الصلاة دون غيرها من معانى الكلمة فى اللغة العربية . وفاته أن الكلمة عرفت فى اللغة العربية قبل أن يعرف العرب صلاة الاسلام ، ولم يفهموا منها أنها كلمة تنصرف الى العبادة دون غيرها ، لأنهم يقولون « سجدت عينه » أى أغضت ، وأسجد عينه أى غض منها ، وسجدت النخلة أى مالت ، وسجد « أى غض رأسه

بالتحية ، وسجد لعظيم » أي وقره وخشع بين يديه . ولا تناقض على معنى من هذه المعانى بين السجود لآدم وتوحيد الله . وانما السجود هنا هو التعظيم المستفاد من القصة كلها ، وهو تعظيم الانسان على غيره من المخلوقات .

وبعضهم يرى أن الاسلام مناقض بطبيعته للعمل والسعى فى سبيل الحياة . لأنه يفهم من الاسلام أنه التواكل وتسليم الأمر الى الله بغير حاجة الى الحول والقوة ، لأنه لا حول ولا قوة الا بالله .

وجهل هؤلاء بالفهم أكبر من جهلهم باللغة . لأن الاسلام الى الله وحده وتحريم الاسلام لغيره يأبى على المسلم أن يسلم للظلم أو يسلم للتحكم من الناس أو من صروف الحياة ، وينهاه أن يستسلم للخيبة وللقسمة الجائرة ، وان يستسلم لكل قضاء لا يرضاه ويعلم أن الله لا يرضاه .

وبعضهم يرى أن الاسلام والسلم نقيضان ، لأنه يفهم من كلمة أسلم أنها التسليم فى الحرب (Surrender) أو التسليم قبل الحرب خوفا من القتال . فكل مسلم فهو خاضع للسيف هزيمة بعد الحرب أو خوفا من الحرب قبل اشهارها عليه .

وهؤلاء المتحذلقون على اللغة التى يجهلونها يفوتهم أن كلمة «أسلم» فى ميدان الحرب هى نفسها مأخوذة من اعطاء اليد أو بسطها للمصافحة ، وأن المقصود بهذه الكلمة فى الدين أنها استقبال الله والاتجاه اليه ، فمن أسلم وجهه لله فقد استقبل طريقه وأعطاه وجهه ولم يتحول عنه الى غيره . وكل المتدينين قبل الدعوة المحمدية موصوفون بأنهم مسلمون كما جاء فى سورة البقرة :

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »

(سورة البقرة)

وفى القرآن الكريم أن المسلمين وصفوا بالاسلام فى الكتب الأولى كما جاء فى سورة الحج :

« وَجَاهِدُوا فِى اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ »

(سورة الحج)

وأكثر ما اطلعنا عليه من النقائض المزعومة فهو من قبيل هذه الأخطاء فى التفرقة بين الكلمات على معانيها المطلقة وبين هذه الألفاظ على معانيها التى قيدها الاصطلاح أو خصصتها لغة القرآن الكريم .

وفيما عدا هذه النقائض وما اليها يروع الباحث فى الاسلام ذلك التناسق بين عقائده وأحكامه أو بين عقائده وأخلاقه . ولعل هذا التناسق أظهر ما يكون بين الأخلاق المتعددة التى حمدها الدين من المسلم ، وهى متفرقات تجمعها وحدة لا تستوعبها وحدتها الاسلامية . فهى فى جملة وصفها أخلاق اسلامية وكفى .

هل هى أخلاق قوة ؟ هل هى أخلاق محبة ؟ هل هى أخلاق قصد واعتدال ؟ هل هى أخلاق اجتماعية ؟ هل هى أخلاق انسانية ؟

هى كذلك أحيانا ولكنها ليست كذلك فى جميع الأحيان ، لأن أخلاق القوة قد تفهم على وجوه متعددة ، أو متناقضة ، يحمد الاسلام بعضها ولا يحمد بعضها ، أو يذمها جميعا اذا فهمت على مذهب فلاسفة القوة فى العصر الأخير .

وقد توصف الأخلاق فى الاسلام بأنها « أخلاق محبة » لأن أصول العلاقات بين الناس قائمة فى الاسلام على شرعة المحبة والاخوة كأنهم من أسرة واحدة . ولكن الاسلام ينكر من المسلم أن يحب الخبيث كما يحب الطيب ، ويعرف العداوة فى الحق كما يعرف الصداقة فيه .

وليس قوام الأخلاق كله فى التوسط أو فى القصد والاعتدال على مذهب الفلسفة اليونانية أو فلسفة أرسطو على الخصوص . وليس مآل الأخلاق كله فى الاسلام الى وحى المجتمع أو وحى الانسانية برمتها ، لأن المجتمع قد يدان بأخلاقه كما يدان الفرد ، ولأن الانسانية لا ترتفع الى ما فوق جوانب الضعف فيها ان لم يكن لها من المثل العليا ما يسمو عليها أو تسمو هى اليه جيلا بعد جيل .

* * *

أخلاق القوة فى العصر الأخير مقترنة باسم « فردريك نيتشه » رسول السوبرمان الذى كاد ايمانه بالسوبرمان أن ينقلب الى عداوة للانسان .

فالسوبرمان لا يرحم ولا يغفر ولا يعرف للضعيف نصيبا من «الانسان الأعلى» غير نصيب الزراية والاذلال ، أو الابادة والاستئصال ، محافظة على سلامة النوع من عدوى الضعف وعواقب الابقاء على الضعفاء ، وهم فى عرفه أولى بالاجتناب من مرضى الجذام .

والأخلاق عنده قسمان : قسم للسادة لا يقبله العبيد ، وقسم للعبيد لا يقبله السادة . فليس بين الفريقين جامعة انسانية تلتقى بهم فى صفة

من الصفات ، بل هم أعداء يتسلط منهم القادر على العاجز ، ولا يحسن بالمتسلط أن يقبل من العاجز غير الخنوع والهبوط فى الذلة من هاوية الى هاوية ، لا نهاية لها غير الانقراض والفناء .

* * *

وأخلاق القوة عرفت قبل نيتشه بتفسير لا تفسير فيه عند الحاجة الى تفسير ، لأنه يجعل القوة مرادفة للاستحسان ، ولا ندرى منه لماذا يكون هذا الاستحسان .

وتفسير الفيلسوف هوبز .Hobbes للقوة من هذا القبيل .

فالناس على زعم هؤلاء المفسرين يحمدون الرحمة ؛ لأنهم يحمدون القوة ، ويرون فى الرحمة دليلا على قوة الرحيم لأنه يتفضل بها على الضعيف ويترفع بها عن معاملته كما يعامل الأنداد والنظراء .

والناس يحمدون العفو ؛ لأن الذى يعفو عن المسىء اليه يعتد بقوته ويأمنه ان وفى له بالشكر أو غدر به على السواء .

وهم يحمدون الكرم ؛ لأنه عطاء . ولا يملك ما يفضل من حاجته ويجود به على المفتقر اليه غير الأقوياء .

وهم يحمدون الصبر ؛ لأن القوى جليد يتماسك لصدمة المصاب ولا يتضعضع تحت وقره الثقيل . فهو يصبر على بلائه لأنه قوى يحتمل منه ما لا يحتمله الضعيف . ولا يكون القوى جزوعا وان عظم عليه المصاب .

وهم يحمدون الدهاء ؛ لأنه قوة فى العقل يتمكن بها صاحب العقل القوى من تسخير الأقوياء بالأجسام ، ويحمدون الذكاء والحذق والمعرفة

والبراعة في صناعة من الصناعات ؛ لأنها علامة من علامات القوة على نحو من الأنحاء .

وهذه الفضائل ، أو المزايا ، تفيد أصحابها قــوة كما تنم فيهم عن القوة التي تصدر عنها . فهي محمودة لما تدل عليه ، ولما تؤدي اليــه .

أما العظمة والمجد والشجاعة فلا حاجة بها الي تفسير عند من يرجعون بالأخلاق جميعا الى القوة على هذا الأسلوب . لأنها ظاهرة بقوتها معترف بسبب الاعجاب بها بين الأقوياء أو الضعفاء .

وقبل الرجوع بالأخلاق المثلى الى القوة على مذهب هوبز أو على مذهب نيتشه — كانت المدرسة اليونانية تعتبر الأخلاق الفاضلة وسطا بين طرفين ، أو تحث طالب الفضيلة على الاعتدال في جميع الأمــور والاتجاه الى الحسن من كل خلق على قدر حظه من الاعتدال .

فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الاسراف والبخل ، والصبر وسط بين الجمود والجزع ، والحلم وسط بين النزق والبلادة ، والرحمة وسط بين القسوة والخور . وكل فضيلة على هذا القياس فهي مسألة توسط في المسافة بين غايتين .

وفي زماننا هذا يغلب على مدارس الأخلاق انها تؤول بالفضائل كلها الى باعث واحد وهو باعث المصلحة الاجتماعية ، أو باعث الغرائز النوعية التي يتصل بها بقاء نوع الانسان . ومن هذه المدارس ما يحصر المصلحة في الطبقة الغالبة على المجتمع . فلا مصلحة للمجتمع كله في الأخــلاق الفاضلة التي يحمدها المجتمع في عهد من العهود ، ولكن المصلحة فيها للطبقة المتحكمة فيه بثروتها وسطوتها . فما تراه حســنا فهو الحسن

بالنسبة اليها لاستبقاء منافعها ، وهى اذن تسوم الطبقات الأخرى أن تستحسنه على المحاكاة والتقليد وان لم يكن لها خير فيه .

* * *

والاسلام يحمد كثيرا من الأخلاق المحمودة فى هذه المذاهب ، ولكننا لا نستطيع أن نجمع الأخلاق الاسلامية كافة فى نطاق مذهب منها ، ولا سيما مذهب القوة فى فلسفة نيتشه ومذهب الطبقة الاجتماعية فى فلسفة الماديين .

فمذهب القوة فى رأى نيتشه يناقض جميع الأديان الالهية ، ولعله يوافق دينا يعتقد اتباعه أنه دين اله واحد يختارونه ويختارهم فيستبقيهم ويمحق غيرهم من العالمين ... ولكنه لا يوافق الأديان التى تدعو الى اله واحد للأقوياء والضعفاء ، وقد يكون الأخذ بمذهب القوة فى رأى نيتشه هدما لهذه الأديان من قواعدها واقتلاعا لها من جذورها . اذ لا قيمة للدين ما لم ينشىء أمام القوة الطاغية قوة تكبحها وتهذبها وهى قوة الضمير ، ولا رسالة للدين بين البشر ان لم تكن رسالته أن يربى فيهم وازعا للقوة البدنية وقوة المطامع والشهوات . وقد تعلم الناس دهرا طويلا أن حماية المريض غير حماية المرض ، وأن العناية بالمرضى تؤول على الدوام الى عناية بالصحة ، يستفيد منها الأصحاء كما يستفيد منها المصابون . وليس بالعسير عليهم أن يتعلموا كذلك أن حماية الضعيف غير حماية الضعف ، وأن العناية بالضعفاء تؤول الى عناية شاملة يستفيد منها الأقوياء والضعفاء . أو تكون فائدة الأقوياء منها مقدمة على فائدة الضعفاء .

وتفسير « هوبز » للقوة لا يقرب مذهب القوة كثيرا الى حقيقة الأخلاق الاسلامية . لأن الاسلام لا يحمد من الأخلاق أنها حيلة ملتوية

أو مستقيمة الى طلب القوة ، بل يحمد منها في كل شأن من شئون الانسان أنها وسيلة الى طلب الكمال ، ويحبب الى الانسان أحيانا أن يؤثر الهزيمة مع الكمال على الظفر مع القوة ، اذا كان الظفر وسيلة من وسائل القوة الباغية التى لا تتورع عن النجاح بكل سلاح .

ومذهب الفلسفة اليونانية ينتهى بنا الى مقيـاس للأخلاق شـبيه بمقاييس الهندسة والحساب بعيد عن تقدير العوامل النفسـية والقيم الروحية فى الأخلاق العليا على التخصيص . وقد تصدق هذه الفلسفة اذا كان المطلوب من الانسان أن يختار بين رذيلتين محققتين . فانه فى هذه الحـالة يحسن الاختيار بالتوسط بين طرفين متقابلين كلاهما مذموم ومتروك . الا أننا لا نقول من أجل ذلك ان الكرم نقص فى رذيلة البخل، أو نقص فى رذيلة السرف ، ولا نقول من أجل ذلك ان الكرم اذا زاد أصبح سرفا ، وان السرف اذا نقص أصبح كرما . بل تكون الزيادة فى الكرم كرما كبيرا ، والنقص فى السرف سرفا قليلا ، ولا يكون الكرم أبدا درجة من درجات السرف ، ولا البخل أبدا درجة من درجات الكرم . بل هى أخلاق متباينة فى الباعث متباينة فى القيمة ، يتقـارب الطرفان فيها أحدهما من الآخر ، ولا يتقارب الطرف من الوسط كما يظهر من قياس الهندسة أو قياس الحساب .

وقد رأينا فى مباحث العلل النفسية التى كشفها العلم الحديث أن الشذوذ يقرب بين المسرفين والبخلاء فى أعراض متشابهة ، وأن العلة الكامنة فى التركيب قد تظهر فى الأسرة الواحدة بخلافى أحد الأخوين ، وسرفا فى الأخ الآخر . أو تظهر فى أحدهما هوسا بالاقدام والاقتحام ، وتظهر فى أخيه هوسا بالحذر والاحجام . فلا افراط هنا ولا تفريط فى

« كمية » واحدة تقاس بمقياس الهندسة والحساب ، ولكنها خلائق متباينة تختلف بالباعث لها وتختلف بقيمتها فى معايير الأخلاق .

ولو صح مذهب الفلسفة اليونانية أو مذهب أرسطو على الأصح لما جاز للانسان أن يطلب المزيد من فضيلة الكرم — مثلا — لأنه ينتقل على هذا الرأى الى رذيلة السرف والتبذير . الا أن زيادة الكرم لاتكون الا زيادة فى فضيلة مشكورة ، ولابد من التفرقة بين زيادة الكرم وزيادة العطاء . فانهما فى الواقع أمران مختلفان ، وقد قيل لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير . وفى القول الثانى توضيح لازم للقول الأول ، لأن زيادة الخير الى أقصى حدوده واجبة لا تخرج به عن كونه خيرا محمودا يزداد حمده مع ازدياده ، ولا يحسب من السرف على وجه من الوجوه .

وانما يلتبس الأمر على أصحاب مدرسة التوسط فى جميع الأمور لأنهم ينظرون فى تقدير الكرم الى المال المبذول والى مصلحة الباذل فى حساب المال ، ولا التباس فى الأمر اذا نظروا الى الباعث والموجب والمصلحة فى عمومها ولو ناقضت مصلحة الباذل فى بعض الأحيان .

فمن كانت طاقته أن ينفق ألف دينار ولا يتقاضاه الواجب أو تتقاضاه مصلحته أن ينفق ألفين فهو مسرف ما فى ذلك خلاف . لأنه يفعل شيئا يضره ولا توجبه عليه مصلحة أكبر من مصلحته . أما اذا كان باعث الانفاق شيئا غير مصلحته وغير هواه وكان حبس المال فى يديه ضارا وخيم العاقبة على الناس وعليه فى النهاية — فالكرم أن يزداد فى الانفاق على حسب المصلحة العظمى ، وعلى قدر التضحية وانكار الذات يكون حظ البذل من الفضيلة المحمودة أو حظه من الخير الذى لا سرف فيه .

وتصعب المقارنة بين التطرف والتوسط حين تكون المسألة مسألة

درجات ولا تكون هناك مقادير تعد بالأرقام . فاذا ترخصنا فقلنا ان الكريم هو الذى يبذل ألف دينار ، وان المسرف هو الذى يبذل ألفين أو ثلاثة آلاف ، والبخيل هو الذى يبذل مائة أو لايبذل شيئا على الاطلاق — فمن هو الشجاع ومن هو المتهور ومن هو الجبان ؟

ليست هنا مقادير تعد بالأرقام . فاذا عرفنا أن الجبان هو الذى يحجم عن الخطر فمن هو الشجاع ؟ ومن هو المتهور ؟ ان التهور ليكونن أفضل من الشجاعة اذا قلنا ان الشجاع قليل الاقدام على الخطر وان المتهور كثير الاقدام عليه ، أو قلنا ان درجة الخطر الذى يقدم عليه المتهور أعظم من درجة الخطر الذى يقدم عليه الشجاع . ولكننا حين نقول ان الشجاع هو الذى يقدم على الخطر حيث يجب الاقدام عليه نرجع بالفضيلة والرذيلة الى مقياس الواجب وتقديره ، وتصبح المسألة هنا مسألة قدرة على فهم الواجب والعمل به ، وليست مسألة أعداد أو أبعاد ... فالمتهور والجبان كلاهما عاجز عن فهم الواجب والعمل به ، والشجاع هو القادر على الفهم والعمل ، ولا يستقيم فى التعبير اذن أن نقول ان المتهور أكثر شجاعة من الشجاع ، وأن الجبان أقل شجاعة منه ، لأنهما معا خلو من الشجاعة الواجبة بغير افراط أو تفريط .

ولن يشذ الانسان عن الاعتدال فى الطبع اذا هو آثر أن يذهب فى كل فضيلة الى نهايتها القصوى ، فماذا يعاب فى جمال الوجوه — مثلا — اذا انتهى الى غاية لا غاية بعدها فى معهود الأبصار ؟ وماذا يعاب فى جمال الأخلاق اذا انتهى الى مثل تلك الغاية فى معهود البصائر ؟ ان كلمة من كلمات اللغة العربية العامرة بمدلولاتها النفسية والفكرية لتهدينا الى قسطاس الحمد فى كل حسنة مأثورة . فكلمة « ناهيك » حين تقول ناهيك

من رجل أو ناهيك من عمل أو ناهيك من خلق — هى قسطاس الثناء فيما تنشده النفوس الانسانية من كل فضل منشود . فهو الفضل الذى ينتهى بنا الى النهاية فلا تتطلع بعده الى مزيد .

غير أن مذهب الاعتدال — مع هــذا — أقرب المذاهب الى فهم الأخلاق المحمودة فى الاسلام ، على اعتبار أن خلق الاعتــدال فضيلة مستقلة تدل على طبع سليم وعقل رشيد يقدران لكل عمل قدره ولا يمنعهما الاعتدال أن يذهبا به الى غاية الكمال ، اذا كان له هذا القدر بين أقدار الأخـــلاق .

* * *

ومذهب المصلحة الاجتماعية لا يناقض مكارم الأخلاق الاسلامية كل المناقضة ولا يوافقها كل الموافقة . اذ مجمل الرأى فى الاسلام أن المجتمع يقاس بالدين وليس الدين يقاس بالمجتمع ، فقد يسفل المجتمع فتتفق فيه الآراء والأهواء على مصلحة يأباها الدين ويحسبها مضرة أو مفسدة يؤنب المجتمع من أجلها كما يؤنب الأفراد .

وربما كانت مصلحة النوع الانسانى أصدق المقاييس للخلق المحمود فى الاسلام . ولكن النوع الانسانى يترقى فى العلم بمصالحه حقبة بعد حقبة ، ومن حوافزه الى الترقى أن تكون أمامه أمثلة عليا للأخلاق أرفع من مألوف الأخلاق التى يسترسل معها بغير جهد وبغير رياضة وبغير تربية مفروضة عليه ، يعتقد أنه يتلقاها ممن هو أكبر من الانسان وأحق منه بالطاعة والاصغاء الى هدايته وتعليمه .

لابد من الفضائل الالهية فى تعليم الانسان مكارم الأخلاق ، وما اكتسب الانسان أفضل أخلاقه الا من الايمان بمصدر سماوى يعلو به عن طبيعته الأرضية .

وهذا هو المقياس الأوفى لمكارم الأخلاق فى الاسلام .

ليس مقياسها الأوفى أنها أخلاق قوة ، ولا أنها أوساط بين أطراف ، ولا أنها ترجمان لمنفعة المجتمع أو منفعة النوع الانسانى بأجمعه فى وقت من الأوقات .

وانما مقياسها أنها أخلاق كاملة ، وان الكمال اقتراب من الله .

وقد يكون الكمال كالجمال مقياسا غير متفق عليه قابلا للتفاوت — بل للتناقض — كما تتفاوت مقاييس العرف وتتناقض فى كثير من المعقولات والمحسوسات...لكننا تقول قولا مفيدا حين نقول ان الانسان يحب أجمل الوجوه ، أو أجمل الشمائل ، أو أجمل الخصال ، ونقول قولا مفيدا حين نضع الكمال فى موضع الجمال .

الا أن الاسلام يقرن المثل الأعلى فى كل فضيلة بالصفات الالهية .

... ولله المثل الأعلى ...

وكل صفة من صفات الله الحسنى محفوظة فى القـرآن الكريم ، يترسمها المسلم ليبلغ فيها غاية المستطاع فى طاقة المخلوق .

ولا تكلف نفس الا وسعها كما جاء فى غير موضع من الكتاب الحكيم.

ليس للأخلاق الاسلامية مقياس جامع من القوة ، ولا من التوسط بين الأطراف ، ولا من منفعة أمة قد تناقضها منفعة أمة غيرها ، ولا من منفعة الأمم جميعا فى عصر يتلوه عصر غيره بمنفعة أكرم منها وأحرى بالسعى اليها .

فالدين الاسلامى بعقائده وآدابه ، أو بجملته وتفصيله ، يستحب القوة للمسلم ويأمره باعداد عدتها من قدرة الروح والبدن ، ولكنه

يستحبها قوة تعطف على الضعيف وتحسن الى المسكين واليتيم ، ويمقتها قوة تصان بالجبروت والخيلاء ولا ينال الضعفاء منها غير الهوان والاذلال .

« إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ » (سورة لقمان)

* * *

« فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » (سورة النحل)

* * *

« أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ » (سورة الزمر)

* * *

ولا يستحب الاسلام القوة للقوى الا ليدفع بها عدوان الأقوياء على المستضعفين العاجزين عن دفع العدوان :

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ » (سورة النساء)

ولم يوصف الله بالكبرياء فى مقام الوعيد للكبرياء بالنكال والاذلال، الا ليذكر المتكبر الجبار أن الله أقدر منه على التكبر والجبروت .

* * *

والاسلام يزكى مذهب التوسط فيما يقبل التوسط بالمقادير أو بالدرجات كالانفاق الذى ينتهى الاسراف فيه الى اللوم والحسرة :

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا » (سورة الإسراء)

* * *

« وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا »
(سورة الفرقان)

* * *

« كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » (سورة الأنعام)

* * *

« وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ »
(سورة الأعراف)

* * *

ولكن القسطاس فى فضائل الاسلام لا يرجع الى المقدار والتوسط فيه ، بل يرجع الى الواجب وما يقتضيه لكل أمر من الأمور . فاذا وجب بذل المال كله وبذل الحياة معه فى سبيل الحق فلا هوادة ولا توسط هنا بين طرفين ، وانما هو واجب واحد يحمد من المرء أن يذهب فيه الى أقصاه .

ولا يصدق هذا على شئون القوة والكرم وحسب ، بل يصدق فى شئون الرحمة حيث تجب لمن هو أهل لها .

فالاسلام على كراهته الذل لأتباعه يستحب منهم الذل فى الرحمة بالوالدين الشيخين :

« وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » (سورة الإسراء)

لأن الذل هنا زيادة فى الرحمة يأتى من كرامة فى النفس ولا يأتى من هوان فيها .

وملاك الاعتدال فى الخلق الاسلامى أن المسلم يؤمر بالعمل لدنياه كما يعمل لدينه ، ويؤمر بصلاح الجسد كما يؤمر بصلاح الروح .

فلا يكون فى هذه الدنيا روحا محضا ولا يكون فيها جسدا محضا . ومن أبى عليه دينه أن يكون فى هذه الدنيا جسدا محضا فمن العنت أن يقال انه يعمل ليكون جسدا محضا فى عالم الرضوان : عالم الروح والصفاء .

وقد ضلل بعض المغرضين من دعاة الأديان عقولا كثيرة فى شتى الأقطار حين زعموا أن الخطاب بالمحسوسات فى أمر الجنة والنار مقصور على العقيدة الاسلامية ، وان المؤمنين بالدين لا يؤمنون بالنعيم المحسوس الا اذا كانوا من المؤمنين بالقرآن .

والأنبياء والقديسون فى جميع الأديان الكتابية قد تمثلوا النعيم المحسوس فى رضوان الله ووصفوه على هذه الصفة فى كتب العهد القديم والعهد الجديد وفى كتب التراتيل والدعوات . ففى العهد القديم يصف اشعياء يوم الرضوان فى الاصحاح الخامس والعشرين من سفره فيقول :

« يصنع رب الجنود لجميع الشعوب فى هذا الجبل وليمة سمان ووليمة خمر على دردى سمان ممخة : دردى مصفى ويفنى فى هذا الجبل وجه النقاب الذى على كل الشعوب والغطاء المغطى به على كل الأمم . يبلغ الموت الى الأبد ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه » .

وفى العهد الجديد يقول يوحنا اللاهوتى فى الاصحاح الرابع من رؤياه :

« بعد هذا نظرت واذا باب مفتوح فى السماء والصوت الأول الذى سمعته كبوق يتكلم قائلا : « اصعد الى هنا فأريك مالا بد أن يصير بعد هذا . وللوقت صرت فى الروح ، واذا عرش يعرض على فى السماء وعلى العرش جالس . وكان الجالس فى المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول العرش فى المنظر شبه الزمرد وحول العرش أربعة وعشرون عرشا . ورأيت على العروش أربعا وعشرين شيخا جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكليل من ذهب . ومن العرش تخرج بروق ورعود وأصوات

وأمام العرش سبعة مصابيح متقدة على سبعة أرواح الله . وقدام العرش بحر زجاج شبه البللور ، وفي وسط العرش وحول العرش أربعة حيوانات مملوءة عيونا من قدام ومن وراء ، والحيوان الأول شبه الأسد والحيوان الثاني شبه عجل والحيوان الثالث له وجه انسان والحيوان الرابع شبه نسر طائر »

ويقول فى الاصحاح العشرين :

« متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض . جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب وعددهم مثل رمل البحر ... فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم ... وأبليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت ، وكل من لم يوجد مكتوبا فى سفر الحياة طرح فى بحيرة النار »

ويقول فى الاصحاح الحادى والعشرين :

« ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضيئتان والبحر لا يوجد فيما بعد ، وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة اورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا هوذا مسكن الله مع الناس »

وكانت آمال النعيم المحسوس تساور قلوب القديسين فى صدر المسيحية فضلا عن عامة العباد بين غمار الدهماء . ومن أشهر هؤلاء الأقطاب المعدودين رجل عاش فى سورية فى القرن الرابع للميلاد وترك بعده تراتيل مقروءة يتغنى بها طلاب النعيم وهو القديس أفرايم الذى يقول فى احدى هذه التراتيل :

« ورأيت مساكن الصالحين رأيتهم تقطر منهم العطور ويفوح منهم العبير تزينهم ضفائر الفاكهة والريحان ... وكل من عف عن خمر الدنيا تعطشت اليه خمر الفردوس ، وكل من عف عن الشهوات تلقته الحسان فى صدر طهور »

واتفق أحبار الغرب وأحبار الشرق فى وصف النعيم بهذه الصفة

فقال القديس أرليوس Irenius أسـقف ليون فى القرن الثـانى (سنة ١٧٨ للميلاد) :

(انما السيد المسيح أنبأ يوحنا اللاهوتى أن ستأتى أيام يكون فيها كروم لكل كرمة عشرة آلاف غصن ولكل غصن عشرة آلاف فرع ، ولكل فرع عشرة آلاف عسلوج ، ولكل عسلوج عشرة آلاف عنقود ، ولكل عنقود عشرة آلاف عنبـة وتعصر العنبـة منها فتـدر من الخمر مائتين وخمس وسبعين رطلا) (١) .

ولم يبلغ الاسلام هذا المبلغ من التمثيل بالمحسـوسات ، ولكنه يشفعها بعقيدته التى تمنع المسلم أن يكون جسدا محضا فى دنياه فضلا عن آخرته ، وينهى المسلم أن يقيس نعيم الرضـوان على نعيم الدنيا :

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »

(سورة السجدة)

أو كما جاء فى الحديث الشريف : « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

* * *

ونحن لا نعرض لهذا البحث فى موضوع الأخلاق الاسلامية الا لأن الأديان جميعا تنظر الى النعيم الالهى كأنه المثل الأعلى للحياة الدنيوية، وليس فى المثل الأعلى فى الحياة — فى عقيدة المسلم — ما يجعله على زعم المضللين من أعداء الاسلام جسدا محضا فى أخـلاقه وآدابه ، أو يجور على الجانب الأخلاقى فيه ، ومن أبى عليه دينه أن يكون فى الأرض جسدا محضا فمن السخف أن يقال انه يرتضى لنفسه أن يكون جسدا محضا فى جوار الله الذى بلغ به الاسلام غاية ما يتصوره العقل والضمير من التنزيه .

---

(١) — راجع كتاب الفلسفة القرآنية للمؤلف

وهذا قسطاس لا يخطيء فى تقويم كل خلق حسن يستحبه الدين فى المسلم . فانه مأمور ألا ينسى نصيبه من الحياة الجسدية ، ولكنه مأمور فى الوقت نفسه أن ينظر الى صفات الله الحسنى كما تجلت فى أسمائه التى وردت فى القرآن الكريم . فهى قبلته التى يهتدى بها فى كل مكارم الأخلاق لا يكلف أن يدرك منها شأو الكمال الالهى ، ولكنه يكلف منها بما فى وسعه كأنها قطب السماء الذى يهتدي به ملاح البحر وهو يعلم أنه فى فلكه الرفيع بعيد المنال .

* * *

والأخلاق التى يهتدى اليها المسلم بهدى الأسماء الحسنى كثيرة وافية بخير ما يتحراه الانسان فى مراتب الكمال المطلوبة لكمالها مع عموم نفعها فى حياة الفرد والجماعة . ومنها : العزة ، والقدرة ، والمتانة ، والكرم ، والاحسان ، والرحمة ، والود ، والصبر ، والعفو ، والعدل ، والصدق ، والحكمة ، والرشد ، والحفاظ ، والحلم ، واللطف ، والولاء ، والسلام ، والجمال .

وكلها منشود لأنه كمال لا يقاس الا بمقياس الكمال ، وانه ليوافق مقاييس القوة والتوسط والمصلحة الاجتماعية فى أجمل مطالبها وأصحها على هدى الفكر وهدى الضمير ثم لا تستوعبه مدرسة خاصة من هذه المدارس المتفرقة كما تستوعبه مدرسة الاسلام ، أو مدرسة الكمال بهداية الأسماء الحسنى .

وخير للمجتمع الانسانى أن تقاس الأخلاق فيه بهذا القسطاس ولا تقاس بمنفعة تفسد بفساد المجتمع نفسه ، وتنحرف مع انحراف نظرته الى منافعه ومضاره . فان المجتمع قد يصاب بآفات الذل والعجز والهزال والبخل والسوء والقسوة والبغضاء وسائر الآفات الموبقة من

نقائض الخلائق الالهية ، فيصلحها الترياق من الدين ، أو يصلحها أن تقلع عنها ولا يصلحها أن تتمادى فيها .

ان أدب الاسلام يخرج للمجتمع الانسان الكامل فيخرج له الانسان الاجتماعي الكامل في أقوى صورة وفي أجملها .

يخرج له السوبرمان الذي لا يطغى على أحد ، ويخرج له الجنتلمان الذي لا يسيء الى أحد .

ومن عناية الاسلام بالتفصيل والاستيفاء في كل أمر من الأمور أنه يشفع الأصول بفروعها في مسائل الأخلاق ومسائل الفرائض والعبادات... فمما لا خفاء به أن الرجل الذي يعرف العـزة والصـدق واللطف « جنتلمان » على أجمل ما تكون « الجنتلمانية » في رأى الرجل المهذب الكريم . ولكن الاسلام يستوفي صفاته بتفصيلاتها لأنه يخاطب الناس كافة ويتوجه بالارشاد الى أحوج الناس اليه ، فلا يدع الارشاد الى الآداب الاجتماعية في أدق تفصيلاتها التي تحسب من آداب المجاملات في اللقاء والتحية بين الناس أو في عرف السلوك في المحضر والمغيب .

لا يدخل أحد بيتا حتى يستأذن :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا » (سورة النور)

ولا يحيى بتحية الا أجابها بمثلها أو بأفضل منها :

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا »

(سورة النساء)

ولا يحسن بالمرء أن يقول للناس الا قولا حسنا :

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » (سورة البقرة)

ولا يحسن به أن يسخر ممن يستصغره ويستطيل عليه :

« لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ »

(سورة الحجرات)

ولا يحسن أن يقول عن الناس سوءا فى المحضر أو المغيب :

« وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » (سورة الحجرات)

* * *

ولا خفاء بصفات الكمال فى القرآن الكريم ، ولكن الاسلام فى مجموعه بنية حية متسقة تصدر فى العقائد والأخلاق من ينبوع واحد . فمن عرف عقيدة المسلم عرف أن الخلق الذى يحمده الاسلام هو الخلق الذى يرتضيه انسان يؤمن بأن الله رب العالمين ، وأن النبوة تعليم لا تنجيم ، وأن الانسان مخلوق مكلف على صورة الله ، وأن الشيطان يغوى الضعيف ولا يستولى عليه الا اذا ولاه زمامه بيديه ، وان العالم بما رحب أسرة واحدة من خلق الله ، أكرمها عند الله أتقاها لله .

خَاتِمَةٌ

نختتم بهذه الكلمة فصولا كتبناها عن حقائق الاسلام وأباطيل خصومه فى العصر الحاضر . ونحن نعلم أن هذه القوة الروحية الخالدة فى مفترق طريق وعرة تقف لديها لتثبت وجودها فى مستقبلها بعد أن أثبتت وجودها فى ماضيها .

ولقد وقف الاسلام مرات فى مثل هذا المفترق أمام خصومه منذ قيام الدعوة المحمدية ، وصمد لحملات عنيفة كهذه الحملات التى يشنها عليه خصومه فى العصر الحاضر ، ولكنها على أكثرها كانت من قبيل الحملات المادية ، أو الحملات الحربية ، التى شنها عليه منافسوه من أرباب الدولة والسلطان ، وقل أن وقف الاسلام طويلا أمام قوة يحفل بها لأنها تتصدى له من الوجهة الروحيه . اذ كانت القوى الروحية التى تصدت له فيما مضى تنظر الى ماضيها فتلمس فيه الفارق بينها وبينه ولا تأمن عاقبة الجولة فى هذا المجال ، وهى مجردة من عدة الدولة والسلطان ، وكانت من جانبها مشغولة بخصوماتها ومنازعاتها بين نحلها ومذاهبها ، تتجرد للحملة عليه الا أن تتأهب للغلبة عليه بقوة السلاح ؟

أما حملات العصر الحديث فأهونها فيما نرى حملات الدولة والسلطان ، وهى الحملات التى شنها عليه الاستعمار ثم ظهر منها بعد حين أنها لم تقتل فيه قوة المقاومة ولم تمنعه أن يصمد لها فى ميدان البأس والحيلة . فكان صمود الاسلام لمحنة الاستعمار آية من آيات القوة الروحية التى تسعد المعتصمين بها حين تخذلهم قوة السلاح وقوة السياسة وقوة العلم وقوة المال . ولو لم يكن فى هذه العقيدة الخالدة

سر أعمق جدا من أسرار العقائد الشائعة لما اعتصـــم المسلمون منها بمعتصم نافع أمام هذه القوى المتضافرة عليها مجتمعات .

ولنا اذن أن نقول — على ثقة — ان القضية الروحية بين الاسلام والاستعمار قضية بلغت حلها المأمول أو كادت أن تبلغه ، فهي قضية مفروغ منها في هذا القرن العشرين .

ولنا منذ الساعة أن نقول على ثقة ان حمـــلات الخصـــوم الذين يهاجمون الاسلام صائرة الى هذا المصير . الا أننا ننظر الى قوى معروفة من الجانبين ، ونرى أن فرصة الاسلام في هذه الجولة خليقة أن تبعث في الصدور أملا أكبر من الأمل في مجرد الثبات والصمود ، وبخاصة حين نذكر أن العدة التى يعتد بها خصوم الاسلام في حملاتهم عليه هي عدة سلبية لا يعتمدون فيها على حجتهم وبيناتهم كما يعتمدون فيها على ضعف العقائد عامة في عصر المادية الطاغية على العقول والضمائر . فهم ضعفاء يجردون الحملة على الاسلام لظنهم أن الشبهات المادية زلزلته من داخله وفتحت بين أهله ثغرة ينفذ منها المهاجم وان ضعف وضعفت معه حجته وبيناته . فاذا انكشفت هذه الرغوة عن زبدتها وعرضت قوى الاسلام وقوى خصومه عرضا يناسب هذا العصر الحديث فالذي يتقدم هو الاسلام ، والذى يرتد أو يذعن للحقيقـــة هو الخصم المســـتعد للانصـــاف ..

* * *

يتلقى الاسلام أشد الحملات في العصر الحاضر من منكريه لأنهم يحترفون التبشير بدين آخر ، أو من منكريه لأنهم ينكرون جميع الأديان .

وكلا الخصمين لا يستطيع أن ينال من الاسلام اذا وزن بميزان واحد وأخذ بمعيار واحد فيما يؤيده من دعواه وفيما ينكره من دعوى الاسلام .

لا يستطيع المبشر المحترف أن ينال من الاسلام بما يدعيه عليه من التحريف والتشويه للأديان التى سبقته ، فان عقائد الاسلام فى الاله وفى النبوة وفى الخير والشر وفى حقوق الانسان أرفع وأصلح مما جاءت به الأديان التى سبقته اذا وزنت كلها بميزان واحد يأخذ هنا بما يأخذ به هناك . وليس فى عقائد الاسلام ما يعتبره المنصف نكسة الى الوراء أو يعتبره تطورا فى عقيدة تترقى مع الزمن حسبما يعرض لها من الظروف والملابسات . فان من هذه العقائد — كالعقيدة فى رب العالمين — ما ينقض عقائد الشرك وعقائد العصبية والاستئثار ، ويصدر من بيئة مشحونة بمفاخر العصبيات والسلالات ، وانه لمن تعسف القول أن يقال انها هى البيئة التى يتطور فيها الايمان بآله القبيلة ليصبح الها واحدا يؤاسى بين الشعوب والقبائل ، يحاسبها بأعمالها ولا يحاسبها بآبائها وأنسابها ، أو بما سلف من خطايا الآباء والأسلاف .

ومن ينكر النبوة على صاحب الدعوة لعلة من العلل الماجنة التى يتمحلونها فهو مرغم على انكار نبوات كثيرة يتقبلها ولا يشك فى مصدرها السماوى ومعاذيرها المقبولة عند الله .

والمؤمنون بالعهد القديم يؤمنون بما جاء فيه عن داود عليه السلام ، ويؤمنون برضوان الله عنه واختصاصه بالبشارة الالهية من ذريته ، ويقرأون ما جاء فى الاصحاح الخامس عشر من سفر صموئيل الثانى عن قصة داود مع قائده « أوريا » وزوجته التى بنى بها بعد تعريضه للقتل وهو فى خدمته يهجر داره ويجازف بحياته لمحاربة أعدائه .

يقول راوى القصة كما جاءت فى الاصحاح الخامس عشر من كتاب صموئيل الثانى :

«... قال داود لأوريا : أقم هنا اليوم أيضا وغدا أطلقك . فأقام أوريا فى أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع فى مضطجعه مع عبيد سيده والى بيته لم ينزل . وفى الصباح كتب داود مكتوبا الى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ، وكان فى محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريا فى الموضع الذى علم أن رجال البأس فيه ... فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له أبناء . وأما الأمر الذى فعله داود فقبح فى عينى الرب .. »

فمن كانت هذه القصة فى عقيدته لا تغض من النبوة ولا تدعو الى انكارها فليس له أن ينكر نبوة رسول الاسلام لما يتعلل به من أحاديث زواجه ولو صح منها كل ما يدعيه وهو غير صحيح . وليس له — وهو يزن النبوات بميزان واحد — أن يستنكر النبوة على صاحب رسالة ترتقى بالعقيدة الالهية وبالرسالة النبوية ذلك المرتقى الذى لا يخفى على بصير يفتح عينيه ولا يغمضهما بيديه .

* * *

أما الذين يحملون على الاسلام من غير المتدينين فهم جماعة الماديين الذين ينكرون الاسلام لأنهم ينكرون جميع الأديان ، ويرفضون وجود الله فيرفضون الايمان بصدور شيء من الأشياء من عند الله .

وآفة هؤلاء الماديين ضيق الأفق العقلى أو ضيق حظيرة النفس فى حالتى التصديق والانكار .

فهم ينكرون الرسالة النبوية لأنهم لا يقدرون على تصورها فى غير الصورة التى يرفضونها ، ولعلهم يلذ لهم أن يتصوروها على هـذه الصورة لأنها تتمشى فى طبائعهم مع شهوة الانكار التى تتسلط على عقول المسخاء ، ولا سيما المسخاء من أدعياء العلم والتفكير .

ولا يراد من هؤلاء أن ينبذوا العقل ليدركوا حق الاسلام . ولكن يراد منهم أن يوسعوا أفق العقل فيعلموا من ثم أن العقل لا يمنعهم أن يدركوا حق الاسـلام بل لا يمنعهم أن يقبلوا عقـلا أنه وحى من عنـد الله .

فمن حقائق العقل والعلم أن الشكوك لا تبطل فرضا من الفروض الا اذا كانت قاطعة فى بطلانه ، لا يجـوز فيها الأخذ بأحـد الرأيين المختلفين .. فما هى شكوكهم التى يوردونها على الاسلام فتمنع أن يكون دينا صالحا أو تمنع أن يكون دينا من عند الله .

لا يجوز أن ينكروه لما فيه من التعبيرات الرمزية . لأن التعبيرات الرمزية متمثلة فى كل حاسة من حواس الأحياء ، متمثلة فى شـعوره الوجدانى وشعوره الذى يعول فيه على البصر أو على الخيال .

ولا يجوز لهم أن ينكروه لأن الجهلاء يفهمونه كما يفهم الجهـلاء كل شيء . فكل حقيقة كبرت أو صغرت لابد أن يفهمها الجهلاء فهما يخالف ما يفهمه منها العارفون وذوو البصر والدراية .

ولا يجوز لهم أن ينكروه لأن العصور المتعاقبة تتدرج فى فهمـه والنفاذ الى سره . فهكذا ينبغى أن تتدرج العصور فى النفاذ الى سر الدين الذى تدين به أجيال بعد أجيال ، وهكذا يكون الخطاب فى الأديان لأنها لا تدين النفوس اذا توجه بها الخطاب اليوم ليلغى بعد يوم من الأيام .

فاذا وجد الدين الصالح فلن يكون فى وسع العقل أن يتصوره فى غير هذه الصورة من التعبيرات الرمزية ومن اختلاف العلماء والجهلاء فى فهمه ومن تفاوت الاستعداد له على حسب الاستعداد بين الأجيال والأمم . وانه لعقل بديع ذلك العقل الذى ينكر الشيء ثم لا يستطيع أن يتصوره حقا الا على الصورة التى أنكرها .. !

* * *

ونحن لم نكتب فصول هذا الكتاب لنبشر بالاسلام هؤلاء الماديين المتعطشين الى انكار كل معنى شريف من معانى الحياة البشرية ، ولكننا كتبناه للمتدين المنصف الذى يستطيع أن ينظر الى دينه والى هذا الدين نظرة واحدة ، وكتبناه أولا وآخرا للمسلم الذى يتلقى حملات خصوم الاسلام من المتدينين وغير المتدينين ، ليعلم أنه خليق أن يطمئن الى حقائق دينه فى هذا العصر سواء نظر اليها بعين العقل أو بعين الايمان ، وانه خليق أن يواجه الغد بما يؤمن به من عقائد دينه ومعاملاته وحقوقه وآدابه وأخلاقه فلا يعوقه عائق منها أن يجارى الزمن فى المستقبل الى أبعد مجراه .

واذا وفى المسلم بأمانة الشكر وعرفان الجميل فلا ينسى أنه مدين لهذا الدين الحنيف بوجوده الروحى ووجوده المادى فى حاضره الذى وصل اليه بعد عهود شتى من عهود المحنة والبلاء . ولولا قوة بالغة يعتصم بها المسلم من هذه العروة الوثقى لضاع بوجـوده الروحى ووجوده المادى فى غمار يمحوه ولا يبقى له على معالم بقاء .. ومن حق هذا الدين عليه أن يسلمه الى الأعقاب قوة يعتصم بها العالم فى مستقبله بين زعازع المحن التى ابتليت بها الانسانية فى هذا الزمن العصيب ..

لعله من نصيب هذا الميراث فى غده القريب أن يكون مصادقا لنبوءة الاسلام بحكمته جل وعلا فى خلق عباده شعوبا وقبائل متفرقين ، ولعل هذا الدين القويم الذى دعا أول دعوة الى رب العالمين أن يكون دين الشعوب والأمم متعارفين متسالمين مسلمين . ولا تكونن أمانة الدين يومئذ سياسة حسنة نخدم بها نحن المسلمين حاضرنا ومصيرنا ، بل هو الايمان بارادة الله كما تتجلى لخلقه يؤديها كل من عرفها بمقدار ما عرف منها ، وسيذكرها كل من ينجو بها من أمم العالم فيذكر الرسالة الالهية التى تفتتح باسم الله الرحمن الرحيم وتختتم بحمد الله رب العالمين .

عباس محمود العقاد

فهرس

عباس محمود العقاد

ما يقال عن الإسلام

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

بيروت – تلفون : ٢٣٧٥٤٥ – ص.ب. : ٨٣٥٥

مقدمة الكتاب

كثرت بعد الحرب العالمية الثانية كتابات الغربيين في موضوع الأمم والعقائد التي كان لها شأن في مضطرب الأفكار والنزعات بين المعسكرين المتقاتلين ، ثم كان لها شأن مثل هذا الشأن في ميادين التنافس بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وبخاصة ما كان منها مرتبطا بالدواعي النفسية التي تمليها العقائد الدينية على أنصار الفريقين ٠

واستتبعت كثرة الكتابة في هذا الموضوع كثرة الكتابة في موضوع الاسلام والأمم الاسلامية ، لأن الاسلام دين ونظام اجتماعي ، وله بهاتين الصفتين علاقة بما ينتشر اليوم من المذاهب العامة في شئون السياسة والاجتماع ٠

وكتاب الغرب ــ حين يكتبون عن الاسلام يتفاوتون في قيمة الكتابة ، ولكن تفاوتهم على حسب البواعث والنيات أضعاف تفاوتهم على حسب الدراية والمعرفة ، لأنهم طوائف مختلفة لا تتفق في الوجهة ولا في الخلق ولا في الاستعداد ٠

فمنهم المبشرون الذين ينحرفون عن الصواب اضطرارا واختيارا بباعث من التعصب وباعث من حكم الصناعة أو الحرفة ، لأن التبشير عندهم منفعة يعيشون عليها ويحرصون عليها حرصهم على القوت والجاه ٠

وممن يكتبون عن الاسلام من الغربيين أناس يخدمون السياسة الغالبة على دولهم ويصطنعون لغة الدعاية تارة ولغة الدهان أو « الدبلوماسية » تارة أخرى ٠

ويكتب عن الاسلام في الغرب طلاب المعرفة من المستشرقين الذين نشأوا في العصر الحديث بمعزل عن دوائر التبشير ودوائر السياسة ومنهم من ينشد الرأي خالصا لوجه الحقيقة العلمية ، ولكنه مشوب بالقصور الذي لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب في لغة أخرى وليس هو من أبنائها ولا هو من الأدباء في لغته التي نشأ عليها ، وبعضهم لا رأي له في أدب بلاده لأنه لم يشتغل به ولم يتأهب له بعدته من الذوق والفطنة التي تؤهله للتخصص فيه ، فليست معرفته بالعربية عدة كافية له في تقدير الأدب العربي ، لأنه يعرف لغته ـ لغة الأم كما يقال ـ ولا معول على رأيه في أدبها بين قومه ・

ويكتب عن الاسلام في الغرب أناس يتشيعون له بمقدار ثورتهم على سلطة الدين في بلادهم ، فهم يتطلبون محاسنه ويقابلون بها مساوىء السلطة التي يثورون عليها ، ولا يندر فيهم من ينصف الاسلام ويهتدي الى محاسنه السمحة ، وان لم يدن به ولم يكن على دين غيره ・

ومن حقنا ـ بل واجبنا ـ أن نعرف ما يقال عنا ، وأن نعرف كل قول من تلك الاقوال بقيمته وقيمة من يصدر عنه ، لأننا قد نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر اليها الغرباء عنا ، وعرفنا مبلغ الصدق والفهم فيما يصفوننا به عن هوى وجهالة ، وعن دراية وحسن نية ・

وفي الصفحات التالية مجموعة من المقالات عن الكتب التي ألفها كتاب الغرب من شتى وجهات النظر التي أشرنا اليها أو من أكثرها شيوعا واعتبارا في العصر الحديث ، لخصناها وعقبنا عليها وناقشنا منها ما يحتاج الى المناقشة ، وجمعناها في هذه الصفحات نبتغي بها المزيد من التعريف بالاسلام والبحث عن حقائقه وأباطيل خصومه ، ولعلها تغني ولو بعض الغنى في سداد هذه الطلبة المتجددة عند اخواننا القراء في الأمم الاسلامية ・

عباس محمود العقاد

ماذا يقولون ؟ بل كيف يقولون ؟

نعرض في هذا الكتاب لأشتات من الكتب الحديثة التي يؤلفها الغربيون عن الاسلام والأمم الاسلامية ، ونرى فيها اختلافا بين الصواب والخطأ أو الصدق والكذب أو حسن النية وسوئها ، يصح أن نخرج منه بنتيجة عامة كالميزان لآراء القوم نفهم منه كيف يقولون قبل أن نعرض لما يقال أو لموضوع المقال ، وفيما نقدم من الملاحظات على الكتب التي نعرض لها مادة كافية لتحرير هذا الميزان والانتفاع به في تقويم الآراء وأصحاب الآراء ، كلما وقفنا على مؤلف جديد لهم فيما يتحدثون به عن الدين الاسلامي أو عن الأمم الاسلامية ٠

وأهم ما يهم في هذه الأشتات المتفرقة من المؤلفات هو محك الاخلاص في كتابتها فمن هم المخلصون منهم ؟ ولماذا يخلصون ؟

كل ما اطلعنا عليه من مؤلفاتهم المتلاحقة في العصر الحاضر يدل على أن المخلصين منهم فريقان : طلاب المعرفة ، وطلاب العقيدة ، وقد تجمعهما فئة واحدة يقال عنهم جميعا انهم طلاب الحقيقة في عالم العلم وفي عالم الضمير ٠

ان العلماء المتجردين للبحث العلمي عندهم يتحررون جهدهم من الأهواء النفسية التي تحول بين الباحث وتقرير ما يراه كما رآه ، ومنهم من يقرر مذهبا له فلا يفرق بين المشاهدات التي تؤيد مذهبه والمشاهدات التي تنقضه أو تشكك فيه أو تذره معلقا بين النقض والتأييد ، فينتهي الى ترجيح مذهبه ثم يتبع الترجيح بقوله ان المذهب حتى الآن ثابت لولا ما يرد عليه من هذه المشاهدة أو تلك في جملة المشاهدات ٠٠٠ وليس بهؤلاء من خفاء فيما يكتبون لأنه ينم على مقاصد أصحابه بعد مراجعة يسيرة ، ومنهم من عرفوا بالأمانة العلمية فيما كتبوه عن سائر المطالب العلمية غير الاسلام ٠

أما طلاب العقيدة فهؤلاء هم زمرة من الباحثين داخلهم الشك في عقائدهم التي ولدوا عليها وغلب عليهم الايمان بأن الشرق هو مصدر الاديان وأن الباحثين عن العقائد الروحية مرجعهم اليه في الزمن الحديث كما كانوا يرجعون اليه في الزمن القديم ٠

واذا كان من هؤلاء من وقعت الجفوة(١) بينه وبين رؤساء دينه فالغالب عليه في كتابته عن الاسلام أن تصطبغ أقواله عنه وعن تاريخ الأمم الاسلامية بحماسة بينة تشبه حماسة المؤمن بدينه وان لم يبلغ به الأمر مبلغ التدين بالعقائد الاسلامية أو مبلغ الانتساب الى الاسلام ، ومن هؤلاء الكاتب الاسباني « بلاسكو أبانيز » الذي قال في كتابه « تحت ظلال الكنيسة » ما لا يزيد عليه المسلم شيئا من فضائل التاريخ الاندلسي ، ويشبهه « جوزيف مكاب » باللغة الانجليزية في مقارناته بين التواريخ الأوروبية والتواريخ الاسلامية ، فلا يكاد يقارن بين شيئين تشتمل عليه التواريخ الا كان الرجحان بينهما للكفة الاسلامية ، مع الاطناب من ناحية والتنديد من الناحية الأخرى ٠

وفيما عدا طلاب العلم وطلاب العقيدة يندر الاخلاص في مؤلفات القوم حيثما عرضوا للمسلمين أو عرضوا لما اعتقدوه أو تعودوه ، ولكنهم في قلة الاخلاص أو سوء النية أنواع ودرجات ٠

فهناك المتعصبون للغرب ــ وطنيا أو جنسيا ــ كما يتعصب الريفي الساذج لكل شيء في قريته على كل شيء في قرية سواه ، وأكثر ما يظهر هذا التعصب فيما يكتبونه عن المسلمين العرب لأنهم اذا كتبوا عن المسلمين الهنود أو الفرس استطاعوا أن يقولوا انهم من السلالة الآرية التي ينتمي اليها الأوروبيون ، واستطاعوا أن يزعموا ــ مثلا ــ أن الاسلام قد أخذ التصوف من الفرس وأخذ الحكمة من الهند وتلقى فلسفة الكلام عن اليونان مما نقله النساطرة وسائر المترجمين ، وأن المسلمين العرب كانوا يعولون في خدمة دينهم ــ بل في خدمة لغتهم ــ على المجتهدين من سلالة الآريين ، وقد يلج الغلو بهذه الفئة حتى

(١) الجفوة : الجفاء أي البعد وترك الصلة والخرق في العشرة والمعاملة ٠

تنكر دينها لأنه تبشير رسول « يهودي سامي » كما يقولون عن السيد المسيح وبعضهم ينشيء لنفسه مراسم وشعائر كالمراسم والشعائر يتبعها أصحاب العبادات ، ويتذرعون بما يدعونه من المزايا الجنسية لتسويغ سيادتهم على الغربيين أنفسهم ، لأنهم لم يحرروا عقولهم من العبادات الشرقية أو لأنهم خالطوا الشعوب من غير السلالةالآريةالخالصة فلحقت بهم الهجنة (١) في الانساب وفي الاخلاق ٠٠!

هذه طائفة من ذوي النيات السيئة بين كتاب الغرب يؤلفون عن المسلمين عامة وعن المسلمينالعرب على التخصيص،ومعظمهم ممن يدينون بالمذاهب الفاشية أو النازية في السياسة والاجتماع٠

وطائفة أخرى هي طائفة الماديين الملحدين الذين يدعون الى هدم المجتمعات القائمة ويقولون بأن الأديان كافة عقبة تعترض « الاصلاح الاجتماعي » الذي يلغي « الروحيات » ويستبدل بها « الماديات » في كل مطلب من مطالب الحياة الدنيا ولا حياة غيرها لانسان ٠

ونصيب الاسلام عند هؤلاء الماديين الملحدين أوفر الأنصبة وأولاها بالتقديم في خطة الهدم والتشويه ، لأن المسيحية لا تزاحم مذهبهم الاجتماعي بمذهب شامل لمسائل التشريع والنظم الاجتماعية والحكومية ، ولكن الاسلام يقيم المجتمع على نظامه ويقرر الحقوق والواجبات بقسطاسه ويحيط بشئون الدين والدنيا في حياة الآحاد وحياة الجماعات ، ويتقبل البناء الجديد على قواعد أساسه الخالد دون أن يضطر المسلم الى انكار قاعدة من قواعد العبادات فيه والمعاملات ٠

ولا يقل عن هؤلاء الكفرة في عداوتهم للاسلام جماعة « المؤمنين المحترفين » سماسرة التبشير الذين يتخذون تشويه الاسلام صناعة يستدرون بها الرزق ويتوسلون بها الى جاه الرئاسة وسمعة الصلاح والتقوى بين المتعصبين والجهلاء في البلاد الأوروبية والامريكية ٠ فهؤلاء أصحاب مصلحة في تشويه الدين الاسلامي وتمثيل المسلمين على الصورة التي تذكي عند

(١) الهجنة : الهجين من الناس من كان أبوه عربيا وأمه أمة غير محصنة٠

القوم جذوة التعصب وتملي لهم في الجهالة والغفلة ، فلا يسرهم أن تظهر الحقيقة لهم ولمن يستأجرونهم ويرسلونهم للتبشير ، ولا يندر أن يكون المبشر ملحدا بالدين كله ولكنه يعلم أنه يقطع موأرد رزقه اذا كشف عن الحاده أو قال عن الاسلام قولة حق وانصاف تمحو عداوة الأعداء وتضعف غيرتهم وحماستهم للحملات التبشيرية في بلاد المسلمين ، فهو كاذب متعمد منتفع بالكذب لا يزحزحه عنه علمه بالحقيقة ولا هو يسعى الى علمها برضاه •

وينبغي أن نفرق بين هؤلاء « المؤمنين المحترفين » وبين المؤمنين المصدقين برسالتهم عند النظر الى أقوال المبشرين •

فالمبشر المؤمن بدينه ربما انحرفت المخالفة الدينية بعاطفته فنظر الى الأشياء على غير وجهها وأخطأ الحكم عليها غير متعمد أن يخطيء أو يصر على خطئه وربما لاحت له فضيلة من فضائل الدين الذي ينكره أو من فضائل أهله فلم ينكرها ولم يحاول أن يطمسها ويخفيها ولكنه يفسرها على سنة الأقدمين من المبشرين تفسيرا يوافق رأيه في عقيدته وعقائد المخالفين له من المستحقين لغضب الله في زعمه • وكذلك فسر المبشرون الاقدمون فضائل الديانات التي وجدوا عليها أبناء الامريكتين الوسطى والجنوبية يوم ذهبوا اليها بعد كشف العالم القديم بقليل ، فقد شهدوا بفضائلهم في بعض عقائدهم وشهدوا بصحة تلك الفضائل على مذهبهم ، ولكنهم قالوا انها دسيسة من الشيطان أدخلها على عقول أولئك الامريكيين الأصلاء ليزين لهم ضلالتهم ويزيف عليهم أباطيلهم ، ولا يخطرن لنا أن هذا الزمن قد ولى وانقضى بتأويلاته وتخريجاته التي يأباها العقل ويرفضها المنطق السليم ، ففي عصرنا هذا سمحت سيدة أوروبية لعقلها أن يغض من فضائل رجل كالمهاتما غاندي الهندي فلم تنكر عليه تلك الفضائل ولم تجرؤ على ازدرائها عند أبناء أمتها ، ولكنها قالت انها صفات عارضة في روح غير ناجية ولا عالية ، ومن هنا ــ كما قالت ــ لم تظهر لروح غاندي مسحة من السماحة على وجهه •• فلحقت به الدمامة وحومت على محياه ! ولعل المبشر المثقف في هذا العصر لا يرجع الى

تأويلات الاقدمين ولا يزعم أن فضائل الدين الذي ينكره دسيسة من كيد الشيطان ، ولكنه يقول كما قالت تلك السيدة انها صفات عارضة لا تتغلغل في أعماق الروح ولا تحس سيماها في الوجوه !

على أن الاخلاص في الايمان بدين من الأديان عصمة ولا ريب من التلفيق المتعمد والكذب المقصود • فاذا كتب المبشر المؤمن بدينه عن الاسلام والمسلمين فانما يكتب الحقيقة كما يراها وتتمثل له في هواه ثم ينم عليه جهله وينكشف للقاريء مصدر خطئه وبواعث انحرافه ، ويختلف أمر المبشرين المحترفين فيما يلفقونه على الاديان التي ينكرونها ويتجردون ـ على زعمهم ـ لهداية أصحابها •• فان هؤلاء المبشرين المحترفين مهرة في فنون الدعاية مدربون على تمويه الواقع وتلبيس الحق بالباطل ، فلا يشق على عقولهم ولا على ضمائرهم أن يعرضوا أحوال الأمم على الصورة التي تنفر الناس منها ولا سيما المتعصبين المستعدين للنفرة والراغبين في اختلاقها ، ولا نبالغ في التقدير اذا قلنا ان تسعة أعشار المبشرين المحترفين في العصر الحاضر من هذا القبيل •

طائفة أخرى يشوب كتابتها الغرض كلما تحدثت عن البلاد الاسلامية كما يشوبها الغرض كلما تحدثت عن بلد غريب يتطلع القراء الغربيون الى سماع أخباره ويحبون أن توافق ما تخيلوه من أطواره وأعاجيبه ، ومعظم المتحدثين على هذا الأسلوب يسوقون أحاديثهم الى قراء ألف ليلة ورباعيات الخيام ورحلات الرواد في القرون الوسطى ، فلا يحبون أن يسمعوا خبرا يألفونه ويشبه ما تعودوه ، وهواهم كله الى الأحاديث الشرقية التي تعرض لهم شرقا في الواقع كالشرق الذي قرءوا عنه في أساطير الخيال • وقد رأينا بعض كتاب الغرائب في هذا القرن العشرين يجول بين ربوع البادية العربية فيزعم أنه نزل بضيافة شيخ في الستين له في مضارب الخيام حوله ثلاثون زوجة وله من الابناء والبنات ما ليس يحصيه ، ورأينا غيره يزعم أنه زار في العواصم الاسلامية بيوتا لا تفتح نوافذها وأبوابها بالنهار ولا بالليل وبين جدرانها خليط من الزوجات

والسراري لا يهتدين في الطريق بغير دليل من الخصيان ولكن هؤلاء المغربين (١) المتخيلين يشوبون شيئا فشيئا الى الاعتدال في رواية أخبارهم وأعاجيبهم بعد شيوع الصور المتحركة وانتشار المناظر الشرقية على حقيقتها فيما تعرضه اللوحة البيضاء أو تعرضه الصحف السيارة ولم تبق للمغربين المتخيلين غير زاوية واحدة يملأونها بالأعاجيب والمدهشات عن المسلمين والشرقيين وهي زاوية التاريخ والقصور الاثرية التي يعمرونها بأبطال العصور الغابرة ويلحقون بهم أحيانا أبطال العصر الحاضر فيما يؤلفونه عنهم من قصص البيوت والخدور

وأخطر المغرضين جميعا طائفتان تملكان من وسائل الدعاية ما ليس لطائفة أخرى من طوائف المغرضين ، وهمـا طائفـة الصهيونية وطائفة الاستعمار .

ويهون خطب الصهيونية الساخرة في دعايتها السياسية أو العنصرية فان الغربيين يعرفون أكاذيب هؤلاء الصهيونيين ولا يساعدهم من يساعدهم هناك جهلا بما يفترون على ضحاياهم أجمعين ، وانما يساعدونهم لأن خطر الاسلام عليهم أكبر من خطر الصهيونية وما يماثلها من الاخطار العنصرية ، ولعلهم في الغرب لم يسلموا من دعاية صهيونية تحاربهم وتفتري عليهم في مسائل الدين ومسائل السياسة كلما بدا للصهيونية العالمية مأرب عند هذا البلد أو ذاك ، فاذا أعلن الصهيونيون حملاتهم مصرحين بأسمائهم فلا ثقة بما يروجون ولا ضير على المسلمين منهم ولا غير المسلمين .

لكن الدعاية المقنعة أخطر ما يستطيعه هؤلاء الصهيونيون ، والحملات التي يشنونها في ارجاء العالم بأسماء غيرهم هي في الواقع سلاحهم الذي يعولون عليه ، لأن جمهرة القراء يصغون اليها ولا يتهمون قائليها بل لا يشعرون بداع الى الاتهام في أكثر الاحيان .

وقد عرف الصهيونيون في عصرنا هذا مواطن القوة التي تسخرها الدعاية فاستولوا على الكثير من أدواتها وبرعـوا في

---

(١) المغربين : المبالغين الغلاة .

تسخيرها واخفاء مراميها • فهم يملكون شركات الاعلان فتحسب الصحف الكبيرة قبل الصغيرة حسابهم ولا تتورع عن خدمتهم أو السكوت عنهم على الاقل وكتمان سيئاتهم ومآربهم • اذا كانت الصحف الكبيرة ـ خاصة ـ أحوج الى الاعلانات لكثرة تكاليفها تبعا لكثرة صفحاتها فلا تكاد أثمانها تفي بتكاليف الورق فضلا عن تكاليف التحرير لولا موارد الاعلانات •

ويملك الصهيونيون دور النشر فيحسب المؤلف حسابهم كما يحسب الصحفيون •

وقد يتبرع المؤلف بمرضاتهم ونشر دعايتهم تمهيدا لقبول كتبه ، واذاعتها بالترويج والتقريظ وخلق « الجو » الصالح للاهتمام بها واللغط حولها ، ولا تقصر وسائلهم أحيانا عن ترشيحها لاكبر الجوائز العالمية من قبيل جائزة نوبل بالسويد وجائزة بولتايزر بالولايات المتحدة • لأن نوبل نفسه يهودي ولجان التحكيم في الولايات المتحدة لا تخلو من اليهود أو من يسيطر عليهم اليهود بوسائل الاعلان والترويج •

ويملك الصهيونيون أسهما وافرة في شركات الصور المتحركة وينتسب اليهم عدد كبير من الممثلين والممثلات ونقاد المسرح واللوحة البيضاء •

والى جانب هذه الوسائل الفنية أو المالية وسائلهم وراء الستار ـ وأمام الستار ـ بين الساسة والنواب والمرشحين لمراكز الزعامة والمتنازعين على الاصوات في مواسم الانتخابات ، وليس استخدامهم لوسائل الجمال في هذه المعارك وما اليها بأقل من استخدامهم لوسائل المال •

والمغرضون في خدمة الاستعمار قوة تضارع الدعاية الصهيونية الخفية ان لم تزد عليها في بعض الاحوال ، اذ هي قوة الدولة وقوة المال وسائر القوى المسخرة للسياسة والتبشير مجتمعات •

الا أن الاستعمار في هذا العصر يقترن به الترياق (١) على الرغم منه ، وأوله ترياق النزاع عليه بين المستعمرين •

---

(١) الترياق : دواء السم •

فاذا جاءت الفرية(١)من جانب المستعمر الفرنسي لم يبخل عليه المستعمر الانجليزي بالتفنيد والتجريح ، مزاحمة له واحباطا لمسعاه ، واذا اختلفت برامج السياسة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ففي مجال الخلاف متسع لظهور الغرض المستور ان لم يكن فيه متسع لانصاف الأمة المفترى عليها وتصحيح الاباطيل التي يروجونها عنها ٠

وقيام المعارضين للاستعمار في كل دولة من دوله المشهورة ضمان لتفنيد دعاواه أو للكشف عن خباياه ، فلا تخلو دولة من دول الاستعمار الكبرى من أحزاب تعارض الاستعمار ، اشفاقا من مغارم (٢)الضريبة ومجازر الحرب وغارات الهجوم والدفاع، وزهدا في مغانمه التي يستأثر بها الرعاة ولا نصيب للرعية منها غير الخسارة والشقاء ٠

وعلى قدر سموم الاستعمار يكثر الترياق لكل سم من هذه السموم ٠

فالرغبة في كسب مودة الضعفاء أقوى اليوم من الرغبة في احتلال بلادهم واستغلال مرافقهم ، لأن فوائد الاحتلال تنقص ، ومغارمه تزداد ولأن الحروب اليوم حروب عالميه تمتد الى كل ركن من أركان العالم المعمور فلا تؤمن العاقبة أثناء القتال اذا فوجيء المقاتلون بالمقاومة الحربية أو الاقتصادية في ركن منها ، كائنا ما كان شأنه من الضعف والانزواء ٠

وليس من المنتظر ولا من المعقول أن يتصدى المستعمرون لاعلان الحقائق المشرفة لضحاياهم الأولين وضحاياهم الباقين تحت نيرهم ، وهم غير قليلين ٠ ولكن المستعمرين خلقاء أن يعلموا أن معرفة الحقيقة عن الأمم المطموع فيها أجدى عليهم في معاملاتهم معها من كتمان الحقيقة وتضليل الاذهان عنها اذ كانوا يخدعون أنفسهم ويضللون أبناء بلادهم اذا وضعوا لهم تلك الأمم المطموع فيها على غير حقيقتها ، فيخسرون لا محالة كما يخسر التاجر الذي يجهل أحوال « زبائنه » من الغنى

---

(١) فرية : كذب ٠

(٢) مغارم : خسائر ٠ ضد مغانم ٠

والفقر ، والامانة والغش ، والوفاء والمطال ، وما دامت القوة الغاصبة سلاحا مغلولا في أيدي الغاصبين فلا مناص لهم من معاملة الناس كما هم في الواقع بدلا من التعويل على قهرهم وارغامهم وقلة المبالاة بما يجهلونه من شؤونهم وأخلاقهم . كما كانوا يفعلون يوم كان الحكم كله للعنف والاذلال ·

ان سموم الدعاية الاستعمارية باقية وستبقى الى حين ، ولكنها اليوم سموم يقترن كل سم منها بترياقه ، ولا تفعل عقاربها ما تفعله أمصالها بين ضحاياها ، بل لا يأمن المستعمر نفسه من جرائر تلك السموم ·

والنتيجة التي نستخرج منها ميزانا لما ينشره الغربيون عن الاسلام والمسلمين في عصرنا ـ هي تمييز المخلصين منهم وغير المخلصين ، وحصر البواعث التي تدفع غير المخلصين الى الجهل بالحقيقة واخفائها اذا عرفوها ·

فالمخلصون منهم هم طلاب العلم وطلاب العقيدة ، وغير المخلصين هم المتعصبون للوطنية الغربية والمتعصبون للدعوة المادية والمتعصبون للدين عن ايمان أو عن غش واحتراف ، وطلاب الغرائب ودعاة الصهيونية والاستعمار ·

ويعوزنا نحن الشرقيين المفترى عليهم أن نحسن الوزن بهذا الميزان لنفهم ما يقال كما ينبغي أن يفهم ، ولكنها نتيجة سلبية قصاراها(١) أن ننفي ما يقال، فألزم لنا من هذه النتيجة السلبية أن نقول نحن ما يثبت وما يدفع ما يقال ·

---

(١) قصاراها : القصارى : الجهد والغاية ·

الاسلام والعصر الحديث

تأليف الدكتور السن ليختنستادتر

ISLAM AND THE MODERN AGE

Ey. IIse LICTENSTADTER

مؤلفة هذا الكتاب « الاسلام والعصر الحديث » سيدة ألمانية درست العلوم العربية والاسلامية في جامعة فرانكفورت ثم في جامعة لندن وأقامت زهاء ثلاثين سنة بين بلاد الشرق الأدنى والشرق الاوسط وزارت ايران والباكستان وعنيت عناية خاصة بالمقابلة بين مذاهب السنة ومذاهب الشيعة ودعوات الاجتهاد والتجديد ، كما استطاعت أن تفهمها أو تتلقاها من مصادرها التي عرفتها أثناء اقامتها بالمدن الاسلامية ٠

وخطتها في دراسة موضوعاتها هي الخطة الغالبة على المؤلفين المعاصرين من الغربيين حين يكتبون عن الدين الاسلامي أو عن الأمم الاسلامية من وجهة دينية ٠ فان هؤلاء المؤلفين يتجنبون أسلوب الاستخفاف الذي اشتهر به كتاب القرن التاسع عشر ترفعا منهم عن علاج موضوعات الاسلام على خطة المساواة بينها وبين موضوعات العقائد أو المعارف التي تشيع بين الغربيين ، واعتزازا منهم بسيطرة الحاكم الذي يتحدث عن محكوميه ورعاياه ومن هم عنده في طبقة المحكومين والرعايا ، وتعصبا منهم لعقيدة يؤمنون بحروفها ومعانيها كما يؤمنون ببطلان العقائد التي تخالفها ٠

فالمؤلفون المعاصرون يتجنبون ذلك الأسلوب لأنه أسلوب زمن مضى بأسبابه ودواعيه ، وليس أقلها ولا أهونها ان سيطرة الامس قد ذهبت بذهابه وان العصبية قد تزعزت بعد الرسوخ وترددت بعد المضاء ، وأن العالم الاسلامي قد أثبت له وجودا ــ سياسيا وثقافيا ــ يقدره أصحاب الرأي ويعرفونه فلا يتجاهلونه في كتابتهم عنه ووصفهم لحاضره وماضيه ٠

والدكتورة صاحبة كتاب « الاسلام والعصر الحديث » تنهج هذا النهج وتعرض لشئون العالم الاسلامي والديانة الاسلامية بما ينبغي من الادب والرعاية وتجتهد غاية اجتهادها في تحقيق مسائل البحث وادراكها على الوجه الصحيح ٠ ولكنها كغيرها من

مؤلفي الغرب قد تفهم أكثر هذه الشئون بما تحدثه من الصدى وتثيره من اللغط في دوائر المستشرقين ، وقلما تفهم حركات التجديد بفهمها للحقائق التي تدور عليها أو بفهمها لحقائق الرأي عند المحافظين أو حقائق الرأي عند أصحاب الدعوة الى الجديد ، وكثيرا ما يكون هؤلاء الذين يحسبون من دعاة التجديد مقلدين يتحذلقون بمزاعم المستشرقين فيثيرون بها من اللغط ما ليس له علاقة بالدين ولا بالاصلاح ، وانما هو تقليد كتقليد المتعالمين بما يجهلون ، يصل حديثه الى المشتغلين بالمسائل الاسلامية في الغرب فيحسون صداه ولا يسبرون غوره أو يدركون مداه ·

ويظهر ان معرفة الكاتبة بالبلاد الاسلامية في أواسط آسيا أوسع وأوفى من معرفتها بغيرها من بلاد العالم الاسلامي ، لأنها لم تعول على المصادر العربية كما عولت على مصادر اللغات الأوروبية واستعانت بمن يعرفها أو ينقلها اليها · ومنهم صاحب المقدمة الاستاذ ظفر الله خان الذي يعرفه المصريون ·

على أن الفكرة التي لاحظتها الكاتبة في جملة آرائها تقوم على أساس صحيح يرتضيه المسلم وان لم يذهب مذهب الكاتبة في تفصيل تلك الآراء والاشارة الى آغراضها ومقاصدها ، فهي تقرر ان المسلم العصري يعتقد أن كتابه المنزل يسمح له ، بل يوجب عليه ، أن يعالج مشكلات عصره بما يوافق الدين ولا يضيع المصلحة أو يصد عن المعرفة كما انتهت اليها علوم زمنه ، وأن دعاة الاصلاح لم يعسر عليهم أن يجدوا السند القوي من القرآن لكل ما دعوا اليه من جديد ، وكل ما انتقدوه من تقليد ، وان مزية القرآن — في عقيدة المسلم — أنه متمم للكتب السماوية يوافقها في أصول الايمان ولكنه يختلف عنها في صفته العامة فلا يرتبط برسالة محدودة تمضي مع مضي عهدها ولا بأمة خاصة يلائمها ولا يلائم سواها · وكل ما يراد به الدوام ينبغي أن يوافق كل جيل ويصلح لكل أوان ·

وللكاتبة في توضيح هذه الفكرة أسلوب يقتبس من أساليب التصوف كما يقتبس من أساليب الفلسفة الدينية ، فهي تقول

في فصلها عن أسس الاسلام : « انه من الضروري لادراك عمل القرآن من حيث هو كتاب ديني وكتاب اجتماعي أن ندرك صدق المسلم حين يؤكد ان القرآن يمكن أن يظل أساسا لأداة الحكم المعقدة التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث • فان النبي يرى ان القرآن هو حلقة الاتصال بين الاله في كماله الالهي وبين خليقته التي يتجلى فيها بفيوضه الربانية وآيتها الكبرى الانسان ، وان واجب الانسان أن يعمل بمشيئة الله للتقريب والتنسيق بين العالم الالهي وبين عالم الخلق والشهادة ، وخير ما يدرك به هذا المطلب أن تتولاه جماعة انسانية تتحرى أعمق الأوامر الالهية وألزمها وهي أوامر العدل للجميع والرحمة بالضعيف والرفق والاحسان : وتلك هي الوسائل التي يضعها الله في يد الانسان لتحقيق نجاته ، فهو من ثم مسئول عن أعماله ومسئول كذلك عن مصيره •• » •

وترى الكاتبة – بحق – ان رد الفعل الاول للثقافة العصرية ان المصلحين المجددين من أئمة الاسلام رحبوا بالعلم الحديث وانبروا لاثبات الموافقة بينه وبين حقائق القرآن الكونية وشرائعه الاجتماعية ، وكان دور اثتنبيه في الحركة من عمل السيد جمال الدين ودور التعليم من عمل صاحبه ومريده الاستاذ الامام محمد عبده ومن خلفوه من تلاميذه المقربين •

قالت : « ان المسلمين أرادوا مطلبا أكثر من مجرد النهضة السياسية ، اذ كانت رسالة الاسلام الدينية تتطلب التمكين والتثبيت أمام هجمة الشكوك العصرية التي جاءت في ذيول العلم الحديث • وكانت دعوة الأفغاني الى نهضة الاسلام الروحية ميراثا تسلمه محمد عبده ، وبرهانا في هذه العصور الاخيرة على اشتباك المسائل السياسية والمسائل الدينية في الديانة الاسلامية • وقد كان محمد عبده أقرب أعوان الأفغاني خلال الايام التي قضياها منفيين بباريس ، فأصدرا صحيفتهما المشهورة باسم « العروة الوثقى » لسان حال الافغاني في الدعوة الى الوحدة كما يدل اسمها المقتبس من القرآن ، وأدرك محمد عبده بعد بحثه في أسباب انتشار الشكوك بين شباب المسلمين أن العقيدة الدينية تتطلب اعادة التوجيه كي لا تنفصم العروة الوثقى بين

المسلم وضميره ، ورأى الأستاذ أن العلم لا يناقض الاسلام بل ينفع المسلم لتعزيز ايمانه وتثبيت يقينه ، وأن القرآن اذا فهم على وجهه كان هو والعلم كلاهما عونا لصاحبه على الفهم والايمان ، واجتهد في تفسيره لآيات القرآن أن يوفق بينها وبين كشوف العلم لظواهر الطبيعة وقصد الى اثبات المطابقة بين هذه الكشوف وما تقدم به الوحي القديم لا اختلاف بينهما الا أن الكشوف الحديثة تقرير دراسي مفصل لما تمليه البصيرة الهادية ، فاذا كان العلم قد أثبت حقائقه بالتجارب أو المعادلات الرياضية فالنبي قد تلقاها بالوحي من عند الله العليم بكل شيء وأفضى بها الى الناس في رسالة النبوة الرفيعة وآياتها البليغة » ٠

واستطردت من شرح دعوة الاستاذ الامام الى المقابلة بينها وبين دعاة التجديد من أتباع العقائد الكتابية فقالت : ان شهادة الانصاف لهذا الامام الازهري تقتضينا أن نعلم أن طريقته لم تكن أغرب من طرائق اللاهوتيين المؤمنين بالتوراة والانجيل حين ذهبوا يتتبعون كشوف أشور وبابل ليثبتوا أنها جاءت مؤيدة لانباء العهدين القديم والجديد ، وان أقوالهما عن الظواهر الكونية تقبل التأويل الذي يوفق بين العلم والايمان ٠

ويحلو للكاتبة كما يحلو لكتاب الغرب جميعا أن يقرنوا بين يقظة المسلمين ونهضتهم لاصلاح مجتمعاتهم وبين أثر الحضارة الأوروبية وتقاليدها الاجتماعية ، ولكنها أقرب الى العناية بما يهم المرأة على الخصوص من شئون الزواج والأسرة وأولها تعدد الزوجات ٠

تقول : « انه من الامثلة التي طال بحثها واشتهر أمرها مثل النظام الذي يبيح تعدد الزوجات ٠ فليس في البلاد الاسلامية ــ ما عدا البلاد التركية ــ قانون يحرم هذا النظام بحكم القضاء العام أو القضاء الخاص بالأحوال الشخصية والمحاكمات الشرعية ، فلا يزال تعدد الزوجات عملا مشروعا في ج٠ع٠م والباكستان وايران والعراق وأندونيسية وأن العرف ليتجه ــ بتأثير القدوة الغربية وتأثير متاعب تعدد الزوجات ــ الى النفور منه ، ويزداد هذا النفور مع الزمن

فينظر المسلم المعاصر الى البناء بأكثر من زوجة واحدة كأنه طراز عتيق ، وتختلط هذه النظرة بشيء من الترفع لأنه عمل يكاد أن ينحصر في الطبقة الوضيعة ، وأن المصلحين ليجدون السند الاقوى للاكتفاء بالزوجة الواحدة في آيات الكتاب اذ تدل الكلمات الاخيرة من الآية المشهورة في السورة الرابعة على أن الزواج المفضل هو البناء بزوجة واحدة » .

وقد تكون الكاتبة غير بعيدة عن ايحاء طبيعتها الانثوية حين تفرد للجهاد في الاسلام بحثا خاصا تفسره فيه تفسيرا يزيل بعض الشبهات التي ترد على خواطر الغربيين كلما ذكروا كلمة « الجهاد » وفهموا منها أنه شريعة توجب على المسلم أن يقاتل غير المسلمين ويناصبهم العداء لاكراههم على الدخول في الاسلام .

قالت في شرحها لقواعد الاسلام : « ان النظرية الاسلامية في القرون الوسطى تقسم العالم الى قسمين : دار الاسلام ، ودار الحرب ، ودار الاسلام تشمل البلاد التي انبسط عليها سلطان الاسلام عقيدة وحكما ، ودار الحرب تشمل البلاد التي يصح من الوجهة النظرية فتحها للاسلام ولو بالسيف اذا اقتضى الحال ، ولهذين الاصطلاحين شأن في مباديء السياسة الاسلامية والعلاقات الدولية وينبغي ـ لسوء فهمهما بالمعنى الصحيح الذي ينطويان عليه ـ أن يبحثا ببعض التفاصيل » .

« ان كلمة « الجهاد » مشتقة من جذر في اللغة يعني الجهد أو المشقة ويمكن أن يصدق على الدراسة الفقهية وعلى تطبيق الشريعة وتنفيذ الاحكام ، اذ يسمى الفقيه أو القاضي الى هذه الايام بالمجتهد أي الباحث الذي يتوفر على المعرفة جادا في بحثه ، وقد أمر القرآن بجهاد الكفار ولم يعين الجهود التي تعمل لذلك ، وقد استثنى الاكراه في الدين بنص الآية القرآنية . ولكن الجهاد اكتسب في أيام الفتوح الظافرة بعد وفاة النبي معنى القتال بما يفيد أن الحرب في هذه الحالة مقدسة تشهر في سبيل نصر الله وتعظيمه ، وكاد أن يحسب ركنا من أركان الايمان المفروضة على كل مسلم . ومن الوجهة النظرية تعد دار الحرب خاضعة لحكم الفتح ولكن خلفاء الاسلام وسلاطينه عقدوا المحالفات واتفقوا على عهود السلم والمودة

والمعاملات التجارية مع الأمراء من غير المسلمين على الاقل منذ عهد هارون الرشيد وشرلمان » .

« وقد جسمت العداوة المسيحية خطر الحرب المقدسة في اخضاع البلاد التي لا تدين بالاسلام للسيطرة الاسلامية ، اذ أن القتال لم يكن له كل هذا العمل في انتشار الفتوح حتى في ابان القرن الاول بعد الدعوة ، وانما تم معظم هذه الفتوح بالتسليم ومعاهدات الصلح ، ووردت في هذه المعاهدات فقرات تبيح لأهل الكتاب من أبناء البلاد المفتوحة أن يحتفظوا بعقائدهم وشعائرهم بشروط ليست على الجملة بالمرهقة فليست فكرة النار والحديد بالفكرة الصحيحة التي يؤيدها الواقع ، ومن الميسور كما يقول المؤرخ توينبي أن نسقط الدعوى التي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوا في تجسيم أثر الاكراه في الدعوة الاسلامية اذ لم يكن التخيير ببلاد الروم والفرس بين الاسلام والسيف وانما كان تخييرا بين الاسلام والجزية وهي الخطة التي استحقت الثناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في البلاد الانجليزية على عهد الملكة « اليصابات » .

« بل نحن نجد أن الوثنيين من أهل البلاد المفتوحة لم يعرضوا على السيف على قول الفقهاء المسلمين ، وهم أكثر الداخلين في الاسلام عددا خلال القرون التالية ، وهم أصدق برهان على الخطة العملية التي لم تدر دائما للرأي وفاقا أي بصيغته النظرية » .

وتمضي المؤلفة على هذا النحو في تفسير معنى الجهاد قولا وعملا الى العصر الحاضر اذ يفهم من بعض تطبيقاته على أنه عمل واجب لاسترداد كل أرض مغصوبة أخرج فيها المسلمون من ديارهم عنوة وبغيا ، وهو بهذه المثابة دفاع محتوم .

وانتهت المؤلفة الى الكلام على « الدولة الاسلامية » في العصر الحديث فأشارت الى اعتقاد بعض الغربيين أن الاسلام لا يصلح لاقامة دولة تساس فيها الأمور على قواعد المصلحة الاجتماعية ، وحسن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين ، فقالت : ان تاريخ الحكم الاسلامي يدحض هذه الظنون ، وان مفكري الاسلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعرف من الوجهة الفلسفية وأخرجوا لأممهم مذاهب في السياسة

والولاية تسمو الى الطبقة العليا ، وقد اشتهر منهم اثنان هما ابن خلدون المتوفى (سنة ١٤٠٦ ميلادية) والفارابي الذي سبقه ببضعة قرون • وتقول الكاتبة ان الفارابي رجع بآرائه عن الحكومة والدولة الى أسس اغريقية أو أسس قائمة على الافلاطونية الحديثة ، ولكن الفيلسوفين المسلمين لم ينحرفا عن قواعد الاسلام في وصف الحكومة ، وان كان كل منهما يصف المجتمع الاسلامي كما عهده بين أقوام زمانه •

والفصل الاخير من الكتاب يلملم أطراف البحث ليضع العالم الاسلامي والعالم الغربي وجها لوجه في موقف المقابلة وموقف الحاجة الى الفهم المتبادل والمعاونة الانسانية وتذكر المؤلفة طائفة من الغربيين يرون أن المسلم العصري يحاول أن يجاري العصر ولكنه يغمض عينيه عن المناقضات التي تحول بينه وبين مجاراة عصره مع تسليمه السابق بصواب كل حكم من أحكام دينه وصلاح كل حالة من أحوال ذلك الدين لدواعي الزمن الحاضر ، ودواعي الأزمنة التي تتلوه • ولا ينتظر أن تجري على منواله • وتعود ، فتذكر صعوبة الموقف من وجهة النظر الاسلامية مع سوء الظن بمقاصد الغرب وقلة الثقة بمزايا الحضارة الغربية ، وعندها أن التفاهم لا يأتي من جانب واحد، وأن الصعوبة من هنا تقابلها صعوبة من هناك ، وكلتاهما عصية على التذليل ما لم تكن عند الفريقين رغبة صادقة في التقارب وأمل قوي في امكانه •

وتتم الكتاب بهذه الأسطر القليلة التي عبرت بها المؤلفة عن نتيجة الواقع وأمنية المستقبل في وقت واحد ، فقالت : « ان محاولة التوفيق والملاءمة بين الظروف في هذه الدنيا العصرية المستحكمة آخذة لا تزال في مجراها الى غايتها من جانب الشرق ومن جانب الغرب ، وأن الغرب ينظر وهو يقنع بالمراقبة وقلما يقترح الحلول وان عمل على رفع العوائق من حين الى حين ، وعليه كيفما كانت الحال أن يحاذر الاستخفاف أو التعرض بوحي الطمع والأثرة لجهود الشرق فيما يعالجه من السعي الى غايته لتقرير مكانه بين صفوف الانسانية دون أن يفقد كيانه أو يفرط في وجدانه » •

الاسلام والثقافة الافريقية

* * *

من تصانيف العصر النافعة كتب مخصصة لتسجيل مظاهر الثقافة يوشك أن تنحصر في الارقام والخرائط مع بعض التعليقات التي توضح بالكلام أغراض الرسوم والاحصاءات ، وهي رسوم تمثل النسب المتقابلة في توزيع اللغات والعقائد والفنون والنظم الاجتماعية ، وتقرن أحيانا بالخرائط الجغرافية أو يكتفي فيها بجداول الاحصاء وعلامات النسب البيانية ، وقلما تشتمل هذه التصانيف على آراء خاصة لمؤلفيها أو على الأصح لجامعيها ومبوبيها ، بل هي تترك للقاريء أن يبحث لنفسه ويراجع ما شاء على حسب قصده ، ويبني ما يعن له من الآراء على بحوثه ومراجعاته ·

والقارة الافريقية أوفر القارات الخمس حظا من هذه التصانيف ، وبخاصة في هذه السنة الستين بحساب التقويم الميلادي ، لأنهم أطلقوا عليها اسم « سنة الفصل في القارة القديمة » لاتخاذها في كثير من أقطار القارة حدا فاصلا لتوقيت مواعيد الانتقال من نظام الانتداب الى نظام الحكم الذاتي أو الاستقلال أو الحقوق الدستورية ·

ولا يخفى على القاريء من النظرة العاجلة في هذه الكتب مبلغ الاهتمام بالاسلام ومصيره في القارة القديمة ، وما يتبين للباحث من عوامل الثبات أو عوامل المزاحمة التي تنازعه الغلبة على مقاليد الثقافة الروحية والفكرية ·

وفي هذا المقال نعرض بعض الأمثلة لتلك التسجيلات مقتبسة من مصادر مختلفة أشهرها وأحدثها كتاب « الاستمرار

والتغيير في الثقافات الافريقية (١) من مطبوعات جامعة شيكاجو وشركائها في البلاد الانجليزية » .

وأثر اللغة أول الآثار التي يدركها الاحصاء وتظهر فيها الفوارق بين موضع وموضع ، من البلاد التي تتكلم العربية الى البلاد التي تتكلم بلهجات متعددة من الألسنة الزنجية ، ففي هذه البلاد تسري الكلمات العربية بمخارجها الأصيلة أو المحرفة بين قبائل السود حينما اتصلت بالمسلمين ، ولو لم يدخل أهلها في الديانة الاسلامية .

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة أن أبناء القارة يتكلمون بنحو سبعمائة لهجة ليس بينها غير أربع صالحات للكتابة بحروف أبجدية ، أولها العربية ثم الأمهرية الحبشية ثم لغة (تماشق) البربرية ثم لغة (فاي) في ليبيريا ، وهذه احدى العقبات الكبرى أمام المرسلين المبشرين الذين يفتحون المدارس لتعليم الافريقيين ، فانهم يلقون المصاعب الكثيرة لاقناع الافريقيين بتعلم اللغات الأوروبية ويلقون أكثر من هذه المصاعب في نشر التعليم باللهجات الافريقية ، ولكن هذه العقبات تتراجع أمام اللغة العربية التي يتكلمها في القارة نحو سبعين مليونا ولا يتعسر على من يريدون نشرها ويبذلون الجهد في تعليمها أن يجعلوها لغة الثقافة العامة ، لو أنهم توفروا على تعميم المدارس كما يتوفر المرسلون المبشرون على تعميم مدارس التبشير .

ويفهم من الاحصاءات أيضا أن الاسلام سريع الانتشار ولكن العلم به « سطحي » بين قبائل القارة الأصلاء ، ومن آثاره (الحضارية) حتى في البلاد التي لا تدين به أن كهانها يتشبهون بشيوخ المسلمين في أزيائهم وأن القبائل التي تهتم بمحاربة السحر والساحرات من أهل « النيجر » يشتركون مع المسلمين في استخدام الذرائع التي يحسبونها ناجعة في ابطال السحر والمكائد السحرية وربما اختلط الامر فلا يدري الباحث أي الفريقين يقتدي بالآخر في استخدام الرقى والتعاويذ .

وقد لوحظ أن الشبان من قبائل (الموسي) Mossi أقرب الى

1 Continuity and Change in African Cultures

اقتباس العقائد الاسلامية ، ويعودون الى أهلهم من بلاد (النيجر) مسلمين متحمسين في الدعوة الى عقيدتهم الجديدة ، ثم يقول مؤلفو الكتاب ان هؤلاء الشبان أصغر سنا من أن يسمع بين قومهم ، ولكنهم اذا طال مقامهم بين القبائل الاسلامية وعادوا الى أهلهم بعد مجاوزة الشباب تفتر حماستهم ويقنعون بما يعتقدونه بينهم وبين أنفسهم ولا يكترثون لاقناع الآخرين بما اكتسبوه من شعائر وأخلاق ٠

ويرجع فضل العناية بالأبنية وتزيينها بافريقيا الغربية الى الحضارة الاسلامية التي تأصلت في الشمال وسرت منه الى الغرب والجنوب ٠ « فان تأثير فن العمارة في شمال افريقية ظاهر على أنحاء الصحراء الى المغرب ، حيث تزدان مساكن الوجهاء بالرسوم الهندسية » ٠٠٠ وقد يرجع كثير من الفضل الى الاقتداء بالمسلمين في اتخاذ الملابس حيث لا تستدعيها ضرورات الجو والحاجة ، ويتبع ذلك فضل الاهتمام بصناعات النسيج والحياكة وما اليها ٠

وتدل البقايا والآثار على قدم صناعة المعادن من الذهب والفضة والشبه في أقطار القارة ، ولكن العرب هم الذين توسعوا في كشف المناجم بعد وصولهم الى افريقية الشرقية ، وتمكنوا من استخراج المقادير الوافرة وتصديرها الى العالم الاسلامي كله فترة بعد فترة من القرون الوسطى ٠

ويذكر المؤلفون أثر العرب وأثر الأوروبيين والامريكيين في حياة الفنون الافريقية ، فيلاحظون أن سريان الذوق الفني من قبل العرب لم يهدد كيان الفنون الوطنية بالزوال ولم يطمس معالمها التي تحفظ وجودها وتميزها من الفنون الطارئة عليها ، ولكن القدوة بالأوروبيين والامريكيين أوشكت أن تذهب بالمزايا « المشخصة » للروح الافريقية وكادت أن تمحو معالمها جميعا لولا انتباه المسئولين الى هذا الخطر البالغ من الوجهة « الأثنولوجية » ـ أي وجهة علم الاجناس ـ واسراعهم الى تدارك البقية الباقية بانشاء المعاهد والجماعات التي يتعاون

فيها الاجانب والوطنيون على حفظ قواعد الفنون ، وابرازها في صورتها العصرية ، دون الاخلال بمعانيها التاريخية وسماتها القومية •

والموسيقى احدى الفنون الجميلة التي انتفعت بدخول المسلمين الى القارة في كل جانب من جوانبها ، « وقد عرف آثر الموسيقى العربية ــ كما يقول المؤلفون ــ وتكرر الاعتراف به كرة بعد كرة ، الا أنه لم يلق من الدراسة الوافية ما يحيط بجميع نواحيه ، فلا محل للخلاف في تغلغل هذا الاثر بين أبناء افريقية الصحراوية ، ولا بين أبناء غانة وشواطئها ، ولا بين أبناء السودان الشرقي وجهات الصومال ولكنه أثر غير واضح ولا مفسر الى الجنوب من تلك الأقاليم ، وان يكن ولا شك قويا في الشاطيء الشمالي والأقاليم الوسطى » •

ويكثر المؤلفون من بيان المصطلحات الفنية وتطبيقها على الأنغام والاصوات ، في موسيقى القبائل على تفاوت درجاتها من الحضارة والتهذيب ، ولكنهم يذكرون أن (الايقاع الحار) ، يقل بين القبائل كلما توشجت علاقاتها بالمسلمين ، ويعنون بالايقاع الحار تلك الحركات العنيفة التي يتتابع فيها الدق والقفز ويوشك الرقص الذي يصاحبها أن يكون تخبطا عارما ، كتخبط المصروع والمخبول ، ويضاف الى هذا الأثر المهذب الملطف للذوق والشعور أثر مثله في أصوات الغناء وتعبيرات الالفاظ ، فلا يصعب على السامع تمييز الاغاني التي ينشدها الزنوج المغرقون في الهمجية من أغاني الزنوج الذين دانوا بالاسلام أو اتصلوا بالمسلمين ولو لم يدخلوا في الديانة الاسلامية، فان الايقاع « الحار » يندر بين أبناء القبائل التي فارقت همجيتها واقتربت من مواطن العرب المسلمين •

ويشير الكتاب الى فعل التبشير في تغيير الثقافة فيعزو نجاحه حيث نجح الى تنظيم المدرسة والاشراف على التعليم ، ويقول : « ان جماعات المرسلين ذات شأن في بلاد النيجر وفي غيرها من البلاد الافريقية ، ولا يحسب لها هذا الشأن لأنها جاءت الى أهل البلاد بعقائد جديدة وشعائر مستحدثة وحسب ، بل يقوم شأنها

بصفة خاصة على ولايتها لمعظم أعمال التدريس ، ولا يبدو أن هناك شيئا فريدا فيما صنعه المرسلون ببلاد قبيلة (آلايبو) قياسا الى سائر القبائل النيجيرية وان كانت قد بدأت متأخرة بعد ابتدائها في الجنوب الغربي ، أما في شمال نيجيريا فلم يتسع قط عمل المرسلين لقيام النفوذ الاسلامي هناك ، وانه لواسع الأثر الى الجنوب سعته الى الشرق والغرب الجنوبيين » ٠

وتسلم الاحصاءات أحيانا بالجوانب الاخلاقية والاجتماعية التي ترتبط بها رعاية الانساب والاعراض ، فيفهم منها أنها تغيرت كثيرا أو قليلا على قدر اتصالها بالديانتين الاسلامية والمسيحية ، ولكن هذا التغيير لم ينتزع جذور الخرافات القديمة ولم يبطل ايمان القوم بالسحرة والارواح وأنواع المحظورات التي قدستها التقاليد من أقدم عصور التاريخ المجهول ، وهي بين جوانب القارة الافريقية توغل في القدم الى ما قبل آلاف السنين ولم تنصرم بعد في أرجاء منها تكتنفها ظلمات المجهول الى اليوم ، وربما تسربت هذه الخرافات الى شعائر الاسلام والمسيحية واعتبرها القوم مجالا منفصلا عن مجال العبادة والايمان ، فهم يقتدون فيها بسحرتهم وشيوخهم ولا يبتغون فيها الهداية من الشيخ أو القسيس ٠

ونحن نختتم هذا المقال وبين أيدينا بريد الغرب من الصحف والمجلات التي تفرد بعض أبوابها للمسائل الدينية ، نفتح احداها على باب الدين فنقرأ فيها عنوان « الغزوة لصيد الأرواح » ويسمي الكاتب هذه الغزوة باسمها في اللغة السواحلية وهو اسم « السفرة » من السفر باللغة العربية ٠٠٠ ويطلقونه على حملات الصيد التي تخرج الى الغابات والقفار مزودة بعدتها الكاملة لاصطياد الفيلة والسباع ٠

أما هذه الغزوة لاصطياد الارواح Safari for sonls فقائدها هو الواعظ الانجيلي المشهور بيلي جراهام وغايتها الطواف بالقارة والنزول بست عشرة مدينة من مدنها المشهورة خلال ستة أسابيع يلتقي فيها بالجموع التي تخف الى استقباله أو يدفعها حكامها الى محافله واجتماعاته ، ويصطحب في ركابه

مترجمين من الوطنيين والاجانب يتكلمون لغات القبائل ويستطيعون أن ينقلوا منها ما يستمعونه من لسانه على أثر القائه • وقد بدأ الواعظ غزوته وهو يقول للصحف (ان سنة ١٩٦٠ ربما كانت أهم سنة في تاريخ هذه القارة) ونقلت الصحيفة طرفا من خطابه الاول فكان مثالا جليا لخطة هذا الواعظ القدير في سياسة التبشير ، لأنه بدأه باسم السيد المسيح الذي قال عنه انه ليس بأبيض وأسود ، ولكنه حمل الى القارة الافريقية وهو طفل صغير للنجاة به من مظالم الملك هيرود ، ثم أنحى على الانسان « ذي الريالين » يعني به ظاهرا ذلك الانسان المادي الذي لا يساوي أكثر من ريالات معدودة اذا قدرت قيمته بثمن لحمه وعظمه في أسواق الابدان ، ويعني به من طرف بعيد أن قيمة الاسود بتقويم الروح أغلى من أثمان أصحاب الريالات ، ومن ثمن الانسان ذي الريالين !

وستعقب هذه الغزوة غزوات على مثالها كما يظهر من البرنامج المرسوم لسنة الفصل ــ سنة ١٩٦٠ في تقدير الساسة والمرسلين ، وليس لنا أن نلوم غازيا من هؤلاء الغزاة على اجتهاده في دعوته وتدبيره لنجاح مقصده ، بل ليس لنا أن نلوم أوروبيا أو أمريكيا لأنه يحاول أن يعرف عن افريقية والافريقيين ما يتعلمه منه الافريقيون ، ويكسب به من طريق الآخرة ما فاته من طريق الدنيا الحاضرة ••• ولكننا نرجو أن نلحق بهم في هذا المجال، وأن نحفظ للقارة التي تؤوينا ذمار(١) الوطن المستقل الآمن على فكره وضميره أن يقاد في أذيال الواغلين عليه ، ليصطبغ بغير صبغته في الحياتين ، ويخلص من فتح الديار ، الى فتح الضمائر والافكار •

---

(١) الذمار : كل ما يلزمك حفظه وحمايته كالحرم والاهل وان ضيعته لزمك اللوم فيه

الله في العقيدة الاسلامية

وفي أقوال علماء المقارنة بين الأديـان

● ❋ ●

علم « المقارنة بين الأديان » يسمى علما مع الحيطة المتفاهم عليها بين الباحثين والقراء لأنه من المعارف التـي يقيمهـا المشتغلون به على أسس مختلفة كاختلافهم في العقيدة الدينية وفي النظر اليها ٠

فمن علمائه من يؤمن بعقيدة يصدقها ولا يصدق غيرها ، فهو يبتديء البحث بحكم قاطع على العقائد الاخرى يجـزم بتكذيبها قبـل الموازنة العلميـة بين أدلة التصديـق وأدلـة التكذيب ٠

ومن علمائه من يؤمن بعقيدته ويؤمن بصدق العقائد الاخرى في أوقاتها ومناسباتها ، ويرجع بالخطأ والنقص فيها الى انتهاء زمانها أو الى عوامل التشويه والتبديل التي طرأت عليهـا ، فهذا العالم يواجه البحث مفتوح العينين مستعدا لقبول الحسنة والسيئة ولكنه يرتبط بنتيجة سابقة لا يسمح للمقدمـات أن تذهب به الى نتيجة غيرها ٠

ومن علماء المقارنة بين الاديان من يؤمن بالغيـب ويؤمن بالاله ، ولكنه يحكم على الاديان كأنها أعمال انسانية تقاس بمقاييس النظر الى الرسل والانبياء والى التابعين لهم من الأمم والجماعات أو الآحاد ٠ فهو يحفظ لموضوع البحث حرمتـه وقداسته ويقبل التفصيلات بعد ذلك أو يرفضها على حسب أسانيدها الانسانية وظروفها الواقعة ، فيعالجها تارة بمقاييس الغيب المجهول وتارة أخرى بمقاييس الواقع المشهود التي تتردد بين الانباء والافكار ٠

ومن علماء المقارنة بين الاديان من ينكر الاديان أصلا ولكنه يؤمن بصلاحها لسياسة الأمم وتعزية النفوس ، ومنهم من ينكرها أصلا وينكر فائدتها وصلاحها ، بل يرى أنها خدعة مقصودة وغير مقصودة يخترعها الرؤساء وتمالئهم على اختراعها البديهة الشعبية فلا تستحق بعد فوات الخدعة غير التفنيد والتجريح .

وهؤلاء المنكرون جميعا يبحثون العقيدة غير معتقدين ، فيخفى عليهم جوهر العقيدة في صميمه ولا يتأتى لهم أن يحكموا على شيء يجهلونه أو احساس لا يشعرون به حكما يصدر عن فهم واع وادراك محيط ، فانهم كمن يحكم على الكائن الحي بعد وصوله الى مائدة التشريح مفقود الحياة ، فلا يخلو حكمهم من النقص الذي يتعرض له كل حكم على مجهول غير محسوس به على وجهه الذي يتم به وجوده في عالم العمل والحياة .

ومن أولئك الباحثين من يقارب موضوعه كما يقارب الشاعر موضوع ملحمة تاريخية يؤمن بحدوثها ايمانا لا شك فيه ولكنه يتصوره كما يتصور ملاحم البطولة بين المجاز والخيال والواقع ، فلا يعرضها ليقول للقاريء هل يؤمن بها أو يرفضها ولكنه يعرضها ليشهد القاريء ما فيها من بواعث الروعة والجمال وما تحدثه في الخواطر من دواعي الشعور والتأثير ، وهؤلاء الباحثون يقرأ لهم القاريء فلا يحاسبهم بحساب الدين ولا بحساب العلم ، وانما يحاسبهم بحساب الاسلوب أو بحساب العرض الفني ، ولا يعطيهم من العناية فوق هذا المقدار .

من هؤلاء الاخيرين الاستاذ استاس هايدون Eustace haydon صاحب كتاب « تراجم الارباب » Biography of The Gods وقد كان أستاذا لعلم تاريخ الاديان بجامعة شيكاغو عند تاليف هذا الكتاب ، ويظهر أسلوبه وموضوعه من عنوانه القصصي ، لأنه يتكلم عن حياة الاله المعبود ، كأنها ترجمة تبدأ بظهور الديانة التي تدعو اليه وتتقدم بين النشأة والشباب والبقاء أو الزوال

على حسب مصير الديانة من الشيوع والانتشار أو من الخمول والتبدل والانقراض ٠

وفي هذا الكتاب تتابعت تراجم أرباب الديانات المجوسية والصينية واليابانية ، ثم انتهى الكتاب بالكلام على « الله » بعد الكلام على « يهوا » كما يصفه كتاب العهد القديم ، فكانت فاتحة الكلام على الاله في العقيدة الاسلامية أن الاعتقاد به غير مستعار من ديانات الامم الاخرى ، وأن الدعوة الى الايمان بالله كان يمكن أن تظهر حيث ظهرت ولو لم تدخل الجزيرة العربية عبادة من خارجها ، لأن وحدانية الله في الاسلام لم يسبقها مثيل لها في صفة الوحدانية التي لا هوادة فيها ولا في غيرها من جملة الصفات المستفادة من أسماء الله الحسنى ٠

ولا حاجة الى بيان الخلاف بين المفهوم من صفات الله في عقيدة المؤمن المسلم وبين المفهوم من هذه الصفات في هذا الكتاب ، ولكن المؤمن المسلم لا ينتظر من غير المسلمين ولا من الكاتبين بهذا الاسلوب الذي يسوق الدراسات مساق القصة فكرة عن « الله » هي أقرب الى « الاحترام » من فكرة الله في كتاب تراجم الارباب ٠

ان « الله » الذي يدين به المسلمون لم يخذلهم في حياة البادية ولم يتركهم في حياة الحضارة الممتزجة من بقايا الدول الفارسية والبيزنطية التي انتقل اليها المسلمون بعد انتشار الاسلام في الاقطار الآسيوية والافريقية ، وقد وصل الى أبعد أقطار العالم المعمور في هذه القارات قبل انتهاء المائة الثانية من تاريخ قيام الدعوة المحمدية ٠

وفي خلال هذه الرحلات المتباعدة لقي المسلمون عقيدة الفلسفة اليونانية القديمة ، وسمعوا باله يسميه أرسطو السبب الاول ، وتقول الافلاطونية الحديثة انه يكل تدبير العالم الارضي الى فيض بعد فيض من خلائقه العليا حتى ينتهي الى ما دون فلك القمر فيتصل بعالم الفساد على بعد ويمهل عباده على الارض الى حين ، ريثما تعود عقولهم الهيولانية الى الاتصال ـ بعد الجهاد ـ بالعقل الاول مصدر هذه الفيوضات ٠

ولو أن معبودا آخر فهم المفكرون من عباده أنه لا يعدو أن يكون « سببا أول » أو علة رياضية بعيدة عن هذه الحيـــاة الانسانية لما بقيت لعبادته بقية في عقول قراء العلم والفلسفة، ولأصابه ما أصاب المعبودات المهجورة من (الأنيميا) القاتلة للارباب الباطلة على حد تعبير الكتاب ٠

ولكن الفلسفة اليونانية لم تزعزع عقيدة المسلم المفكر في (الله) بل استطاع الضمير الاسلامي أن يخرج لتلك الفلسفة أندادا لها من المفكرين على طريقة الامام الغزالي : « برأس فيلسوف ، وقلب ناسك » أو على طريقة الامام الاشعري : بتسليم صاحب البحث ، وبحث صاحب التسليم ، فخرج الايمان بالله وصفاته المتعددة سليما ، منزه الوحدانية بعيدا مـــن شبهات الفلاسفة وأتباع الزندقة المثنوية ٠

ويتخلل الكتاب خلط كثير يمتزج بالسخافة أحيانا كلمـــا حاول تصوير الظروف الطبيعية والاجتماعية ، التي يفسر بها ثبات المسلم على الايمان باله أحد (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ولكنه يعود حينا بعد حين الى عناصر قوية تكمن في ذلك الايمان وتهيء له أسباب النجاة مـــن الشكوك والبدع التي لا تسوقها تقلبات الزمن وعوارض الاحتكاك بالحضارات الاجنبية ، وهذه العناصر القوية هي التي أنجدته مرة أخرى بعد محنة الفلسفة اليونانية عندما واجهته العصور المتأخرة بمحنة كبرى لا تذكر محنة الفلسفة اليونانية بالقياس اليها ، ففي هذه العصور المتأخرة استطاع الضمير الاسلامي أن يخرج للمحنة الجديدة أندادا لها من المفكرين المؤمنين خلفاء الغزالي والاشعري وورثة الحكمة والتصوف وأعلام المحافظة والاصلاح، « وأعظمهم الامام المصري الشيخ محمد عبده ٠ فانه حفـــظ العقيدة الموروثة دون أن يمس بها وجدد الايمان باله الاسلام السرمدي بلا أول ولا آخر ، فردا لا مثيل له في قدرته وكماله ، حيا عالما مريدا سميعا متكلما بصيرا ، يخيل الى من ينظر الى هذه الصفات لأول وهلة أنها حكاية معادة من بقايا الماضي ، لولا أن الشيخ محمد عبده ينفض عن الدين ما علق به من جمود القدرية

ويقرر نصيب الانسان من التبعة وواجبه في اصلاح العالم معتمدا على عون الله له في اقامة النظام الاجتماعي الصالح ، والقيم الاخلاقية الملائمة لذلك النظام » .

ومن متاعب علماء المقارنة بين الاديان ممن يعولون أولا وآخرا على طبيعة الارض والسكان في تعليل العقائد أن يعللوا هذه القوة — قوة العقيدة الالهية في الاسلام — بعلة طبيعية يتواضعون عليها ويطبقونها على سائر العقائد ، اذا كان المسلمون قد انتشروا في بقاع كثيرة بين أمم مختلفة في أزمنة متفاوتة فلا تصلح العلل المتفرقة بين هذه البقاع والازمنة لتعليل عقيدة واحدة ، ولا معنى للتفسير اذا اشتركت جميع هذه العلل في أثر واحد ...

ولكنهم — على وضوح الخطأ في الاستناد الى سبب طبيعي واحد لتفسير هذه الظواهر المتعددة — يتلاقون عند وجهة يكررونها على نحو متشابه ، ولا يقع الخلاف فيها كثيرا بين مدارسهم المتناقضة ، ومنها المدارس التي تعطي الاديان حقها من أدب الرعاية والاحترام والمدارس التي تستخف بأسبابها ونتائجها ، ولا تتكلف لها ما ينبغي لموضوعها من التثبت والامعان في المراجعة والتحقيق .

تلك الوجهة الواحدة هي غلبة العوامل « الجسدية » على عقائد الديانة الاسلامية ، وبرهان هذه الفلسفة الحسية عندهم هو الاعتماد على السيف في نشر الدعوة وأوصاف النعيم السماوي في الدار الآخرة .

وقد يكفي لاسقاط هذا الرأي ما ألمعنا اليه من استحالة تفسير العوامل المتناقضة بعلة طبيعية واحدة ، أو يكفي لاسقاطه احصاء المسلمين والمقابلة بين عددهم في البلاد التي فتحت بالسيف ، والبلاد التي لم تحارب المسلمين ولم يحاربوها ، أو احصاء عدد الداخلين في الاسلام على أثر الفتح وعدد الداخلين فيه مختارين بعد ذلك بعصور متطاولة ولكننا نكتب هذا المقال بين معالم شهر رمضان ونقنع منه بصفة واحدة تدل على حكم

الاسلام في مسائل الحس وواجب المسلم نحوها ، ولا تحتاج الى دلالة أخرى لتقرير موقف الاسلام بين الحياة الروحية ، والحياة الجسدية ، وتلك الصفة هي تخصيص شهر كامل من شهور السنة ، تقوم فيه حياة المسلم خلال هذا الشهر على حكم شهوات الحس واخضاعها للارادة في أقوى مطالب الجسد من طعام ومتاع ، وهي فريضة تعلم المسلم واجبه في سائر أيام حياته ، وتلهمه أنه صاحب ضمير يملك زمام نفسه ويأخذ من الحس بما يشاء الانسان العاقل المريد ٠

وكل فريضة من فرائض الاسلام هي في الواقع صورة أخرى من صور هذه الرياضة العامة في جميع أوقات الحياة ٠ فالمسلم لا يقف بين يدي الله خمس مرات في اليوم ليكون (مخلوقا حسيا) مستغرقا في مطالبه الجسدية ، ولا تجب عليه الزكاة لأنه (مخلوق حسي) ينقاد لمطامع النفس وشهوات الجسد ، وليس الحج بواجب عليه لأنه (مخلوق حسي) يستسلم للدعة ويطمئن الى الراحة ويحجم عن مشقة السفر وبذل المال والتضحية بشيء منه وهو مرتحل أو مقيم ، بل هو لا يشهد بوحدانية الله ليشرك معبودا آخر مع الله يتمثل في عبادة الدنيا والاستسلام لغوايتها على وجه من الوجوه ٠

انما العقيدة الالهية في الاسلام عقيدة حسية روحية كما ينبغي أن تكون كل عقيدة يؤمن بها كائن حي عاقل له جسد وروح ٠

والله خالق الحياتين ومانح السعادتين في الدارين ٠ فلا ينبغي أن يكون قوام عبادته مسخ الجسد وازدراء الدنيا ، ولا أن يكون قوام عبادته تسليم الدنيا للشيطان والابتعاد منها كأنها من عمل عدو لله وليست من عمل الله ولا من نعمه التي ارتضاها لعباده بتدبيره وهداه ٠

ونختم هذا المقال كما بدأناه فنعيد في ختامه أن علم (المقارنة بين الاديان) يسمى علما مع الحيطة ٠٠٠ لأنه معارف شخصية يقيمها المشتغلون به على أسس مختلفة ، ولكننا نعيده لنضيف اليه شاهدا من الشواهد « المحسوسة » على وجوب الحيطة في تناول آراء الباحثين في هذا العلم ، فان بها لنقصا يتبين للناظر فيها كلما قابل بينها وبين الحقائق الثابتة عن تاريخ الاسلام ، فلا مناص من تغييرها أو تغيير التاريخ الثابت الذي لا ينكرونه اذا عادوا اليه بالتمحيص النزيه ٠

اذا صدق علم المقارنة بين الاديان على أسس الاسباب الطبيعية التي تفهمها مدرسة التعليل الطبيعي وجب أن يكون اعتقاد المسلم بالله كالاعتقاد (بشيخ عربي) كبير تضاعفت قواه الحسية على النسبة التي تكون بين رئيس قبيلة وبين رئيس الخلائق جميعا ، وصاحب الامر والنهي في السماوات والارضين ٠

ولكن علم المقارنة بين الاديان لا يصدق الحكم في هذه القضية ، لأن « الله » في عقيدة المسلم ينسخ آداب الشيخ العربي القديم وأولها العصبية وايثار الآل والبنين ٠ وأين يجد الباحثون أثرا من آثار الشيخ العربي في معبود سرمدي لم يلد ولم يولد ولا فضل لأحد من العالمين عنده بغير التقوى ، وليس يحب العدوان والمعتدين ولا يأمر بغير البر والاحسان ٠

فان دليل المقارنين بين الاديان ليتخبط في طريق مضلة لا تهديه الى شيخ ولا الى شيء لأنه يولي وجهه الى قبلة غير القبلة وعلى سبيل غير السبيل فاذا أدار وجهه عنها فأينما يول فثم وجه الله ٠

* * *

اديان الدعوة

• •

من التقسيمات المتواترة عند علماء المقارنة بين الملل والعقائد تقسيم الاديان في العالم الى أديان دعوة ، وأديان « مقفلة » أو محصورة في بيئة خاصة ، وأكبر أديان الدعوة عندهم في العصر الحاضر ثلاثة : البوذية والمسيحية والاسلام ، وأولها تنحصر الدعوة اليه في التلمذة ، ومصاحبة المريدين للأئمة والرؤساء في الهياكل والصوامع ودور العبادة ٠

ظهرت في العهد الاخير طبعة جديدة من كتاب « المطالعات في الاديان العالمية » وجملتها أحد عشر دينا هي الهندوكية والشنتية ، واليهودية ، والزردشتية ، أو المجوسية ، والطاوية ، والكنفوشية ، والجانية ، والبوذية ، والمسيحية ، والاسلام ، والسيخية ٠ ويقول الكتاب في التمهيد للديانة الشنتية Shintocsnr وهي ديانة أهل اليابان : « اننا رأينا في ختام الفصل السابق أن الهندوكية هي الديانة القومية العنصرية للهنود ٠ وأنها تخصهم وحدهم وتخص بلادهم وحدها ، وليس لها مؤسس معين معروف ، بل ترجع نشأتها الى ما قبل التاريخ ، فلنعلم أن الشنتية هي من هذا القبيل ديانة أهل اليابان ، فهي مقصورة على اليابانيين لا يعرف لها مؤسس معين منذ نشأتها قبل التاريخ ، وكلتا الديانتين لا عناية لها بالدعوة الى الدخول فيها ، فكل منهما تعبير طبيعي لشعب خاص ، وجزء من ثقافة اجتماعية لا تتقبل الغرباء » ٠

ويعود الكتاب فيقول تمهيدا للكتابة عن الديانة اليهودية : « ان ديانة اليهود أيضا ذات ارتباط بشعب معين كما يؤخذ من تسميتها باليهودية أو العبرية ، وهي اذا تشبه الهندوكية

والشنتية في أنها ديانة مقفلة أي ليست من ديانات الدعــوة ، وانما تختلف بأن الهندوكية والشنتية كلتاهما ديانة شعــب مستقر في وطنه منذ عهد بعيد • وأن اليهود تعرضوا للشتات غير مرة ، فوقعوا في أسر مصر وبابل وفقدوا وطنهم بعــد أن استولى العاهل الروماني (تيتوس) على أورشليم سنة سبعين للميلاد » •

ولما عرض الكتاب للدين الاسلامي قال انه دين دعوة وانه لا يزال ينتشر في القارة الافريقية وبين الشعوب المتأخرة • ولكنه لم يحاول أن يبحث عن حقيقة الفارق بين أديان الدعوة والاديان المقفلة التي لا تعني بادخال الغرباء في ملتها •• الا فارقا واحدا ذكره غير مرة وهو الفارق بين الدين الذي يعبر عن بيئة محدودة والدين الذي يسري الايمان به الى أقطــار لا تحدها المواضع الجغرافية أو الروابط العنصرية •

على أن الفارق الاصيل ظاهر ، بل مفرط في الظهور • حتى ليكفي في تلخيصه بضعة سطور ، غنية عن الافاضة في الشروح والاكثار من الاسانيد •

ان ديانات الدعوة مفهومة في حالة واحدة هي حالة الايمان بالضمير الانساني واستعــداد الانسان في مختلــف البلــدان والاجناس للايمان بالتوحيد ، ولا يتأتى أن ينتشر دين دعوة يعم الناس جميعا قبل أن يفهم الناس أن الدين هدايا يتقبلها كل من له عقل يعي ، وضمير يميز بين الخير والشر ، وبــين العمل الصالح والعمل الطالح بمعزل عن الحدود الجغرافية وحدود العنصر والنسب وأصول الاسلاف •

فالدين عند أصحاب الملل التي تدعو اليه عقيدة انسانية تقوم على التوحيد وليس بصبغة محلية محدودة ، ولا بفريضة سياسية تمليها السلطة الحاكمة ، ويخضع لها الرعايا المحكومون •

هذا الفارق في تطور الانسانية واضح جدا لو شاء علمــاء المقارنة بين الاديان أن يستوضحوه • ولكنهم لا يشاءون ولا يحبون أن يشاءوا مختارين ، لأن النتيجة المحتومة لو نظروا الى

هذا الفارق أن يرفعوا الاسلام الى القمة العليا بين العقائد الدينية ، وأن يمتنع عليهم تعليل انتشاره بموافقته للشعوب المتأخرة كما يقولون كلما عرضوا لمسألة الدعوة والشيوع .

فالاسلام قد جاء للناس بعد أن بلغوا من التطور في فهم الدين بعد التمييز بين هداية الضمير وبين فواصل الامكنة والانساب ، فعرفوا أن « الحق الالهي » محصول روحاني وليس بالمحصول الارضي الذي يرتبط بالتربة كما ترتبط محاصيل الزروع والضروع .

وآية الاعجاز في هذا « التطور » أن يطلع على العالم من بلاد العصبيات والانساب ، وأن تكون له آيات بينات في الايمان بالعقيدة الالهية ، والايمان بالنبوة ، والايمان بضمير الانسان .
فالله في الاسلام هو « رب العالمين » يتساوى عنده الناس ولا يتفاضلون بغير العمل الصالح .

والنبي في الاسلام هو المبشر بالهدى والمنذر بالضلال ،وليس هو بالمنجم الذي يكشف الطوالع والاسرار ، ولا بصاحب الخوارق والأعاجيب التي تشل العقول وتهول الضمائر وتخاطب الناس من حيث يخافون ويعجزون ولا تخاطبهم من حيث يعقلون ويتأملون ويقدرون على التمييز .

والانسان في الاسلام مخلوق عاقل ذو ضمير مسئول يحاسب على عمله ولا تلحق به جريرة قبل مولده ، وبعد انقضاء حياته .

ولا حاجة الى الاطالة في المقابلة بين الاديان ليعلم المطلع عليها من قريب أن هدف العقيدة في الله وفي النبوة وفي الضمير الانساني هي غاية التقدم الذي ارتقى اليه الناس ، بعد الديانات الجغرافية ، والديانات العنصرية ، والديانات التي تنحصر في بيئة ضيقة ، أو واسعة ، ولكنها لا تحيط بجميع بني الانسان .

ولم يتهيأ بنو آدم وحواء لهذه المرتبة من مراتب الايمان الا بعد أطوار بعيدة يعجب لها العقل الانساني كلما نظر اليها

اليوم . كما يعجب لكل ماض درج عليه الأولون وطال بهم عهده . وهو في رأيهم الآن لم يكن ليحتمل البقاء بضع سنين لو حكموا عليه يومئذ كما يحكمون عليه الآن .

فقد خطر لبعض بني آدم قديما أنهم وحدهم أصحاب الحظوة عند الله وان أضعاف أضعافهم من بني آدم الآخرين ملعونون محرومون !

وقد خطر لبعض بني آدم قديما أنهم ضائعون صالحين أو غير صالحين ، وأنهم كتب عليهم الموت لأنهم هالكون ولأنهم يولدون .

وقد كانت الاديان يومئذ لا تحتمل الدعوة ولا معنى للدعوة عند أصحابها لأن الدعوة انما تكون للهداية الممكنة وللضمير الذي يقدر عليها ولا تكون مع « الاحتكار » والاستئثار ، في حدود ترسمها الجبال والبحار ، أو ترسمها سجلات الانساب والآثار .

وها هنا مفترق الطريق التي سلكها الاسلام بالعالم الانساني . وكان من أجل هذا دين دعوة تهدي الى ذلك الطريق .

ويتصل بأمر الدعوة كل مبحث يتناول عدد المسلمين في العالم وتاريخ الدعوة الى الاسلام في الازمنة الماضية وفي الزمن الحاضر ، كما يتصل بأمر الدعوة كل مبحث يتناول صلاح الاسلام للشيوع والاقناع وما ينتظر من زيادة عدد المسلمين في المستقبل بمختلف الوسائل التي تنتشر بها الاديان في سائر الازمان .

ولا يخفى على قارىء يطلع على هذه المباحث أن يلاحظ نفور أصحاب الاحصاءات من زيادة عدد المسلمين واسراعهم الى قبول التقديرات التي تزيد في عدد أبناء الملل من غير المسلمين مع تحفظهم الشديد في قبول التقديرات التي تكثر من عدد الداخلين في الاسلام قديما وحديثا ، ولا يشذون عن هذه القاعدة الا اذا تعمدوا التهويل والتنبيه الى خطر انتشار

الاسلام في المستقبل وضرورة المبادرة الى اتخاذ الحيطة لهـذا الخطر بوسائل التبشير والضغط السياسي أو الاقتصادي حيث يستطاع الاعتماد على هذه الوسائل بغير التجاء الى المجاهرة بالعدوان ٠

وقد قرأنا في مطلع القرن العشرين أن عدة المسلمين في العالم مائة مليون ، وقيل في بعض الاحصاءات المتأخرة ان عدد المسلمين في الصين لا يزيد على عشرة ملايين ، ويقول الكتاب الذي نحن بصدده ان عددهم اليوم نحو ثلثمائة مليون ، ولكنه لا ينزل بعدد البوذيين عن خمسمائة وعشرين مليونا مع صعوبة التفرقة في الاحصاءات العامة بين الطوائف البرهمية وبين البوذية في الصين والتبت واليابان وبين البوذية على تعدد فروعها في الهند الشمالية والهند الجنوبية ٠

وممن لاحظ تلك الاخطاء المتعمدة في احصاء المسلمين الأمير شكيب أرسلان صاحب التعليقات على كتاب حاضر العالم الاسلامي فقال في باب احصاء المسلمين : « ٠٠ أما مسلمو الصين فلا تزال الاقوال متضاربة في عددهم ٠ فمن الجغرافيين من يحزرهم بعشرين مليون ومنهم من يحزرهم بأكثر من ذلك بكثير ، وفي هذه الايام لما وقعت الفتنة بين الصين واليابان من أجل منشورية أبرقت الجمعية الاسلامية في الصين الى أوروبا بتلغراف احتجاج قالوا فيه انهم يتكلمون باسم خمسين مليونا من مسلمي الصين ، ثم ورد تلغراف من طوكيو يرد على مسلمي الصين زاعما أنهم خمسة عشر مليونا لا خمسون مليونا ، وفيه أن في منشورية مليونين من المسلمين ينزعون الى تحرير منشورية ، ومما لا شك فيه أن التلغراف الياباني بخس مسلمي الصين عددهم بما رأى من شدتهم على اليابان » ٠

ثم قال : « ولقد حزرنا عدد المسلمين في العالم في مجلتنا الأمة العربية التي نصدرها أنا وسعادة أخي احسان بك الجابري في جنيف ٠٠ وذلك بنحو من ثلثمائة وثلاثين مليونا ٠ هذا على تقدير أن مسلمي الصين عشرون مليونا فقط ٠ أما اذا ثبت أنهم خمسون مليونا فيكون المسلمون ٣٦٣ مليون نسمة ٠

وتفصيلها هكذا : الجزيرة العربية ١٢ مليونا ، سورية ٣ ملايين وفلسطين وشرقي الاردن مليون ، والعراق ثلاثة ملايين ونصف، وتركيا أربعة عشر مليونا ، وايران عشرة ملايين ، وأفغانستان تسعة ملايين ، والهند الانجليزية ثمانية وسبعون مليونا ، والصين عشرون مليونا ، وسيام نصف مليون ، والروسية الآسيوية خمسة وعشرون مليونا فهذه ٢٧٦ مليونا في آسيا ، والروسية الأوروبية قازان والقريم أربعة ملايين ، ولتوانيا وبولونيا عشرون ألف نسمة ويوغسلافيا مليون ومائتان وخمسون ألفا ، والمجر ثلاثة آلاف ، ورومانيا مائتان وخمسون ألفا ، وبلغارية نصف مليون ، وبلاد اليونان مائة ألف ، وألبانيا تسعمائة ألف ، فهذه سبعة ملايين وثلاثة وعشرون ألفا .

« ومصر مع سودانها ١٨ مليونا وطرابلس سبعمائة ألف ، وتونس مليونان ، والجزائر خمسة ملايين ومراكش ثمانية ملايين ، والصحراء الكبرى ثلاثة ملايين ، والحبشة ثلاثة ملايين ، والغالا والصومال ستة ملايين ، وشرقي افريقيا ــ زنجبار وسواحلها ودار السلام ــ ستة ملايين ، والكونغو والأوغندة مليون ، والاداموا والكمرون مليونان ، وغينيا وفوتاجلون مليون ، والسنغال مليون ، وسلطنة سوكوتو خمسة ملايين ، وبرنو خمسة ملايين ، ووادي خمسة ملايين وكانم مائة ألف فهذه ثلاثة وثمانون مليونا في أفريقية ، والمستعمرات الهولندية أربعة وستون مليونا ، والفليبين مليونان ــ فهذه ستة وستون مليونا في البحر المحيط الباسفيك . فيكون جملة المسلمين ثلاثمائة وثلاثة وعشرين ألفا وثلاثين مليونا . أما ان صح أن المسلمين في الصين خمسون مليونا فيكون الجميع ثلثمائة وثلاثة وستين مليونا هذا بالتقريب » .

ومن المحقق بعد مراجعة هذه التقديرات أن العدد الذي أثبته الامير شكيب أرسلان في تعليقاته ينقص عن العدد الصحيح بكثير لأن المقارنة بين تقديراته عند كتابة تعليقاته وبين الواقع في الوقت الحاضر ممكنة على وجه الرجحان ان لم نقل على

وجه اليقين · فالمسلمون في الباكستان والهند يزيدون على مائة مليون ، والمسلمون في أندونيسية وسائر البلاد التي كانت تابعة لهولندة يقاربون هذا العدد ، وفي وادي النيل ما يزيد على ثلاثين مليونا عدا غيرهم من المتوسطين بين الوادي وشواطيء البحر الاحمر ، وأبناء البلاد العربية في القارة الآسيوية يزيدون اليوم على ذلك التقدير بنحو عشرة ملايين ، فلا مبالغة اذا قدرنا عدد المسلمين اليوم في العالم بأربعمائة وخمسين مليونا وأيقنا على الدوام بأن عددهم يزيد في كل حقبة على كل تقدير أوروبي يذيعه الساسة والباحثون في شئون الدعوات الدينية ، وأن زيادة هذا العدد مستمرة يقابلها أولئك الساسة والباحثون بالحذر ويذكرونها منذرين لأقوامهم بما يستفزهم الى الحيطة ومقاومة هذا الازدياد المستمر حيث تستطاع المقاومة في الخفاء وفي العلانية ان لم يكن لهم بد منها ·

ونرجع الى أديان الدعوة لنقول ان الاحصاءات الحديثة تحصرها في ثلاثة أديان كبرى : وهي البوذية وعدة أتباعها على قولهم خمسمائة وعشرون مليونا ، والمسيحية وعدة أتباعها خمسمائة مليون · والاسلام ويختلفون في عدة أتباعه بين ثلثمائة مليون على التقدير الاقل وأربعمائة مليون أو يزيدون على التقدير الراجح الموافق لاحدث الاحصاءات ·

أما البوذية فلا ننظر اليها بكثير ولا قليل من الحذر ، لأن دعوتها محصورة فيها لتحويل أتباعها من النحل البرهمية الاخرى بوسائل التعليم التي قلما يبلغ متناولها الألوف فضلا عن الملايين ، ولم يحدث في تاريخها القريب أنها حولت اليها أناسا من أبناء الديانات الكبرى بل حدث أحيانا كثيرة أن أتباعها يتحولون عنها الى الاسلام أو المسيحية أو الجانية التي تلغي تعدد الطبقات وتناسب التفكير العصري في أطوار السياسة والاجتماع وفي العلاقات الدولية بين الشعوب والاقوام ·

أما نظرة الحذر فهي ديدن المشتغلين بالتبشير والاستعمار كلما نظروا الى شيوع الدعوة الاسلامية وسهولة انتشارها بالاقناع والقدوة مع اطراد عدد المسلمين في الزيادة بازدياد

النسل من حقبة الى حقبة ، كما يرى من الفارق بين عدد المسلمين في أواخر القرن التاسع عشر وعددهم في منتصف هذا القرن العشرين ٠

واذا خصصنا المبشرين والمستعمرين بالذكر في نظرتهم الى أديان الدعوة والى الدين الاسلامي منها على التخصيص فلا ينبغي أن ننسى أولئك الباحثين في حقائق الدعوات الدينية على التعميم ، فانهم لو أخلصوا البحث للعلم والحقيقة لما فاتهم عند المقابلة بين أديان الدعوة والاديان المقفلة المحدودة أن يقرروا النتيجة العلمية التي يخلصون اليها من مباحثهم جلية واضحة لا تخفي على طالبها ، ولكنهم لا يطلبونها ولا يستريحون اليها ، لأنها تبشرهم أن انتقال الاديان من الملل العنصرية الى ملل الدعوة ظاهرة تدل على الانتقال من العقائد الجغرافية المحلية الى عقائد الضمير الانساني وعقائد التنزيه والتوحيد ، وان الاسلام قد ارتفع بالضمير والتوحيد الى أعلى مرتقاهما بما يهدي اليه في العقيدة الالهية وفي رسالة النبوة وفي الايمان برشد الضمير الانساني الذي يسأل عن عمله ولا يحمل وازرة غير وزره(١)،وليس فهم التطور في أديان الدعوة على هذا الوجه مطلبا يسعى اليه من يريدون أن يعللوا شيوع الاسلام فلا يستريحون الى علة غير ما يزعمونه في موافقته للأمم المختلفة ، ولولا أنها علة تريحهم وتلائمهم لكان أقرب منها الى مشاهدات الحس ــ فضلا عن تفكير العقل ــ ان الاسلام حقيق بالانتشار والاقناع لأنه خاتمة التطور في أديان الدعوة وفي أحوال العالم الانساني بعد أن بلغ الى مرحلة الوحدة الانسانية ومرتبة الهداية المطلقة المتحررة من حدود الاقاليم والانساب ٠

(١) وزره : الوزر بالكسر : الحمل الثقيل والاثم والذنب ٠

الشرق الاوسط في العصر الاسلامي

لمؤلفه سدني فيشر Sydney Fisher

● ✻ ●

كتاب في نحو سبعمائة صفحة ، موضوعه تاريخ بلاد الشرق الاوسط وتاريخ العوامل الفعالة التي يرجع اليها تطور الشعوب والحوادث في هذه البلاد ، وأولها الاسلام ٠

ومؤلف الكتاب هو الدكتور سدني فيشر أستاذ التاريخ بجامعة (أهيو) الامريكية وصاحب الدراسات المتعددة في شئون البلاد الشرقية التي يدين الاكثرون من أبنائها بالديانة الاسلامية ٠

ويدل أسلوبه في عرض الآراء والوقائع على تورع عن العصبية واجتناب للتشهير ٠ فهو يروي ما يفهم من المصادر المتناقضة ويحاول أن يجردها من نزعات الاهواء ودسائس الاحقاد المذهبية والقومية ، واذا وقع في الخطأ المتواتر فانما يقع فيه لأنه في حكم الحقائق المجمع عليها بين المؤرخين ، فلا ينساق الى الخطأ حبا لترديده ومرضاة لشهوة من شهوات الحفيظة(١) في نفسه ، ومعظم أخطائه من قبيل المطاوعة لحركة التواتر المطبق الذي يحتاج الى الجهد الجهيد لمقاومته ، وربما شق عليه هذا الجهد الجهيد فلم يتكلف له ما هو أهله من الصبر والدأب والارتفاع بالتاريخ فوق حجاب الحوائل التي تغطي ما وراءها من الاسانيد البينة ، وانها لبينة جدا لو استطاع الناظر الى تلك الحوائل أن يتخذ له منفذا منها الى الحقيقة ٠

يقول في كلامه على صفة الاله : ان الوحدانية المنزهة هي أجل مطالب الايمان عند النبي عليه السلام ، ويوصف الاله مع

---

(١) الحفيظة : الغضب في ما يجب أن يحتفظ منه ٠

الوحدانية بصفات العلم المحيط والقدرة المحيطة والرحمة والكرم والغفران ٠

ولا يستطرد المؤلف الى شرح الصفات الالهية قبل أن يقول :
ان توكيد صفات البأس والجبروت في كتاب الاسلام انما تقدم في أوائل الدعوة التي واجه بها النبي جماعة الكفار الملحدين من الملأ المكي المتغطرس المستطيل بالجاه والعزة ، ولكن المسلم يعلم من صفات الله أنه واسع الرحمة ، وأنه أقرب الى الانسان من حبل وريده(١)،وأنه هو نور السموات والارض ، وهي الصفة التي بثت عقائد « الصوفية » بين المسلمين وكان لها أبعد الاثر في اجتذاب العقول الى معانيه الخفية ٠

ويقول المؤلف كما يقول غيره من كتاب العصر الغربيين :
ان القرآن « صوت حي » ، يروع فؤاد العربي وتزداد روعته حين يتلى عليه بصوت مسموع ، ولكنه لا يفهم هذه الروعة كما لم يفهمها زملاؤه الذين سبقوه الى الاعتراف ببلاغة القرآن٠ اعتمادا على أثره البليغ في قلوب قرائه وسامعيه ، ثم يقفون عند تقرير هذه البلاغة بشهادة السماع ٠

وبعد بيان مجمل عن بلاغة القرآن وأحكامه وعباداته يضيف المؤلف بيانا آخر في مثل هذا الاجمال عن الفضائل الاسلامية التي احتواها الكتاب فيقول ما فحواه : انه كتاب تربية وتثقيف ، وليس كل ما فيه كلاما عن الفرائض والشعائر، وان الفضائل التي يحث عليها المسلمين من أجمل الفضائل وأرجحها في موازين الاخلاق ، وتتجلى هداية الكتاب في نواهيه كما تتجلى في أوامره فلا يجوز للمسلم أن يشرب الخمر ولا أن يقامر ولا أن يعتدي ولا أن يستسلم للترف والرذيلة ثم يختم كلماته قائلا : « اننا اذا نظرنا الى مجال الاسلام الواسع في شئون العقائد الدينية والواجبات الدينية والفضائل الدينية لم يكن في وسع أحد الا أن يعتبر محمدا ـ عليه السلام ـ نبيا

---

(١) وريده : الوريد : عرق في العنق وهما وريدان ٠

مفلحا جدا ومصلحا موفقا لأنه كما قال بعض الكتاب وجد مكة بلدة مادية تجارية تغلب عليها شهوة الكسب المباح وغير المباح ويمتليء فراغ أهلها بمعاقرة الخمر والمقامرة والفحشاء ، ويعامل فيها الارامل واليتامى وسائر الضعفاء كأنهم من سقط المتاع ، فاذا بمحمد ــ عليه السلام ــ وهو فقير من كل ما يعتز به الملأ قد جاءهم بالهداية الى الله والى سبل الخلاص وغير مقاييس الاخلاق والآداب في أرجاء البلاد العربية » ·

الا أن الخطأ المتواتر يتسلل الى هذا الكتاب ، والى سائر الكتب التي في موضوعه · من مجاراة العرف واحجام العقول عن اختراق الحجب المتكاثفة مع الزمن حتى لا يحسب أحد أنه بحاجة الى اختراقها ، ولعله لا يرتاب في قدرته على اختراقها لو أنه قد خطر له أنها تستر وراءها ما هو حقيق بالنفاذ اليه ·

وشفيع المؤلف في هذا الكسل ، أو هذا الاستسلام العقلي ، أنه ينساق الى تلك الاخطاء المتواترة في كلامه على المسيحية وعلى الاسلام بغير تفرقة بين ديانته التي يؤمن بها والديانة التي يفهمها من مصادره الغربية أو مصادرها الشرقية الميسرة للغربيين ·

يقول بعد الاشارة الى بعض المشابهات بين آيات القرآن وآيات الزبور على حسب فهمه « والواقع أن اليهودية وفرعيها المنبثقين منها ــ المسيحية والاسلام ــ مشتركات في كثير من الامور وان كان معظم التشابه في العبارة دون الجوهر والمعنى »·

هذا الخطأ المتواتر هو الذي يعنينا في هذا المقال من موضوعات ذلك الكتاب ، لأنه واجب التصحيح ، وسهل التصحيح ، مع اطباقه على أذهان المؤرخين الغربيين ذلك الاطباق الذي يوشك أن يشل تلك الاذهان عن الحركة المهيأة لها في غير هذا الموضع ·

وأساس الخطأ كله اعتقادهم أن اليهود هم مصدر العقائد الدينية التي احتوتها التوراة ، وأنهم هم الذين تلقوا وحيها لاول مرة من أنبيائهم غير مسبوقين اليها فيما سلف ··· وقد سلف قبلهم ، وفي عهود أنبيائهم ، كثير من الرسالات والعقائد

مذكورة أو ملحوظة في القرآن الكريم وليس لها ذكر في أسفار التوراة •

والامر لا يحتاج الى عناء لاظهار وجوه الخطأ فيه ، فان مراجعة التوراة أيسر مراجعة ترينا أن اليهود تلقوا أهم العقائد الكونية وأهم التعاليم الشرعية ممن تقدم أنبياءهم في الزمن ، بل من الشعوب التي عاشوا بينها وكان فيها أناس من أتباع الرسل الاقدمين •

فالى أي نبي من أنبياء بني اسرائيل يسند اليهود عقائدهم في سفر التكوين وهو جماع عقائدهم الكونية ؟

ان التوراة الباقية اليوم تبتدىء بسفر التكوين ولا تسنده الى أحد من أنبياء بني اسرائيل ، ولا حاجة بعد ذلك الى القول بأن عقائده سابقة للنبوءات الاسرائيلية وأن اليهود تعلموه من حيث يستطيع كل من شاء أن يتعلمه أو ينقله عن مصادره الأولى، سواء كانت من وحي الانبياء الاسبقين أو من تراث الشعوب الموروث عن الاسلاف •

وتأتي أسفار الشريعة بعد سفر التكوين وليس منها ما هو مسند الى نبي قبل موسى عليه السلام ، ولكننا نقرأ في هذه الاسفار أن الكليم كان يتعلم التبليغ من نبي عربي تسميه التوراة يثرون ، فيقول الاصحاح الرابع من سفر الخروج انه : « رجع الى يثرون وقال له : أنا أذهب وأرجع الى اخوتي في مصر » •

ويقول الاصحاح الثاني عشر ان يثرون كان يصلي ببني اسرائيل في عهد موسى ومنهم أخوه هرون : « وان يثرون أخذ محرقة وذبائح لله وجاء هرون وجميع شيوخ اسرائيل ليأكلوا طعاما مع حمى موسى أمام الله »• • • • فقد كان يثرون ــ اذن ــ يقرب القرابين ، ويقيم الشعائر ويدعو الله بدعائه الذي دان به قبل بعثة الكليم ، ويتبعه موسى وهارون وشيوخ اسرائيل وصفوة الشعب الاسرائيلي أجمعين •

فأعجب العجب بعد ذلك أن يقرأ المؤرخون هذا في كتب

التوراة ثم يلج بهم الاصرار على أصالة اليهودية . واعتبار المسيحية والاسلام فرعين من هذه الشجرة لا ينبتان على غير جذورها ، وهي كما رأينا فرع من أصل قديم بل من عدة أصول .

على أننا نرجع الى العقائد الاسلامية فلا نرى بينها عقيدة واحدة تتفرع على عقائد اليهود ، كما دانوا بها من قبل ويدينون بها الى هذه الايام .

وليس أبعد من الفارق بين العقائد الاسلامية والعقائد اليهودية كما تناقلوها عن التوراة والتلمود في كل أصل من أصول الايمان : عن الله أو عن النبوة أو عن الحساب والعقاب .

ان الله عند بني اسرائيل اله قبيلة واحدة يختصها بحظوته ، ولكن الله في الاسلام هو اله الخلق أجمعين لا يفضل أحدا منهم على أحد بغير التقوى والصلاح .

وان النبوة عند بني اسرائيل صناعة خوارق وكشف عن الخفايا والمفقودات ، ولكن النبوة في الاسلام رسالة هداية وتعليم ، وبلاغ الى العقل والضمير ، يقنع الناس بالبينات والآيات ولا يجعل الاقناع موكولا الى التهويل بالخوارق والمعجزات .

وان الحساب عند بني اسرائيل يأخذ الابناء بذنب الآباء ويلحق الجزاء بالخلف البعيد انتقاما من جنايات الاجداد والاسلاف ، ولكن الحساب في الاسلام لا يأخذ انسانا بجريرة انسان ولا تزر وازرة وزر أخرى (١) .

وليس في الاسلام سلطان للمعبد وكهانه على العباد الذين يصلون اليه في كل مكان تحت السماء ويعلمون أنهم أينما كانوا فثم وجه الله ولكن « الهيكل » في اليهودية هو الذي يتقبل القربان من عباده فلا يحسب لهم قربان بغير وساطة الكهان والاحبار .

---

(١) ولا تزر وازرة وزر أخرى : أي لا تحمل نفس آثمة ذنب نفس أخرى ولكن كل مجزي بعمله .

فكيف تكون هذه العقائد فرعا على تلك الشجرة وهي تخالفها تلك المخالفة في أصول الديانة وحقائق الايمان بالربوبية والنبوة وموازين الحساب والتكليف وحرمات العبادة والتقديس ؟!

ان جاز التشبيه بالأصول والفروع فقد يجوز أن يقال ان الاسلام شجرة أخرى تحمل الثمرات التي حملتها اليهودية بعد تهذيب وتجويد ، وان ثمرات الشجرة الاسلامية لا تحملها تلك الشجرة ، ولا يتأتى أن تحل فيها محل الفروع من الجذور ·

ولكن لا يجوز أن يقال ان اليهودية كانت جذرا أصيلا للعقائد الاسلامية ولو كانت هي المصدر الوحيد للعقائد المشتركة بين الديانتين ، فاذا علمنا أنها قد تفرعت على ما تقدمها ولم تكن جذرا لما تلاها فلا ندري ما هو وجه التأصيل هنا والتفريع بأي معنى من معاني الأصول أو معاني الفروع ·

وهذه هي طبيعة الاخطاء المتواترة في بقائها واطباقها على العقول ، وهي كذلك طبيعتها في سهولة الاهتداء الى موضع الشبهة منها اذا أعيدت الى طبقتها الأولى ، ولا داعية الى الامعان في العودة الى ما هو أبعد من الصفحات الأولى في أسفار التوراة ·

ان المؤرخ العربي ، وهو على اعتقاده الديني ، لا يطالب بايمان المسلم فيما اعتقد من ربوبية أو نبوة أو تكليف ، ولكنه مطالب عند البحث في التطور الطبيعي أن يمسك عليه عقله وأن يترفع به عن قبول الباطل البين في جلائل المسائل ، وهي مسألة العقيدة والايمان ·

وليس من الحلال في شرعة العقل ، كائنا ما كان دين العاقل ، أن يقيم الشجرة الباسقة على منبت الفرع المبتور ·

الشرق الادنى الاسلامي

* * *

أشرفت على تنسيق هذا الكتاب وتوزيع موضوعاته جامعة «تورنتو» بكندا، وأصدرته ملحقا لمجلتها الربعية، أي التي تصدر أربع مرات في السنة، وعمدت في كتابته الى ثمانية من علماء الاسلاميات يحاضرون طلبة الجامعات في مسائل الشرق الاسلامية، ومنهم سير هاملتون جب المستشرق المعروف وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والأستاذ فيضي الذي كان سفيرا للهند بالقاهرة ووكيلا لجامعة جامو وكشمير، والاستاذ مانجو رئيس القسم التركي بدار الاذاعة البريطاني، والاستاذ بكنجهام عميد الدراسات الاسلامية بجامعة ماكجيل، والاستاذ سافور الذي يحاضر طلاب جامعة لندن باللغة الفارسية في الشئون الافريقية والشرقية . والاستاذ ويكنز مؤلف كتاب (ابن سينا العالم والفيلسوف) والاستاذ كاشا بجامعة أدنبره .

ومن بحوث هذه المجموعة بحث تكلم فيه الدكتور فيضي عن جوهر التعاليم الاسلامية كما بسطها الشاعر الفيلسوف محمد اقبال والوزير العالم أبو الكلام آزاد، وخاصة هذا البحث أن رسالة محمد اقبال تقوم على احياء سنن الاسلام «الفعال» واجتناب الصوفية «السلبية» التي شاعت بين المسلمين في عصور التخلف والجمود، وأن حكمة الاسلام جميعا تتلخص في «الفاتحة» كما فسرها أبو الكلام آزاد، لأنها خلاصة الايمان بالربوبية والهداية والادب القويم والتبعة التي يناط بها الثواب والعقاب في يوم الدين .

وبحث آخر من بحوث المجموعة يعرض للدعوة الغربية في الأمة التركية ويشرح الفرق بين المتطرفين في حركة «الاستغراب» وبين القائلين باقتباس الحضارة الغربية مع الترفق والاعتدال،

ويكاد الباحث أن يرد هذا الفرق الى مدلول كلمة « ملة » عند الحزبين فانها تشمل معنى الدين عند المتحفظين في اقتباس الحضارة الغربية ولا تفيد غير معنى الوطن أو الأمة عند أنصار « التغرب » المطلق من القيود والتحفظ والاعتدال ٠

ويلي ذلك بحثان عن الادب التركي الحديث ولا سيما أدب القصة ، وعن الادب الفارسي الحديث ولا سيما أدب الشعر ، ويقترن به بحث آخر عن البلاد الفارسية عامة منذ اعلان الدستور وقيام الحكومة النيابية ٠

وقد خصصت مجلة الجامعة بحثا من هذه البحوث للأدب العربي الحديث ، انتهى كاتبه الى المسائل الدينية التي توفر عليها بعض الادباء المحدثين ، فكان من رأيه أنها تدل على تجدد الثقة بالنفس بين كتاب العرب المسلمين ، وليست لها صبغة الشعائر والعبادات ٠

أما البحث الشامل للوجهة العامة بين أطراف الشرق العربي الاسلامي من جميع نواحيه فهو الموضوع الذي قدمت به المجموعة وعهد به الى السير هاملتون جب فوفاه حقه من الدراسة العلمية مع التزام الحيدة الواجبة في المسائل السياسية ، وتنجلي هذه الحيدة من تعليق الكاتب على آراء الساسة الغربيين وجلة المفكرين الاجتماعيين التي يصورون بها «حالة» الشرق الاسلامي بعد استقلال شعوبه عن سيطرة الدول الغربية، ثم يبنون عليها تقديرهم لمصير هذا الشرق كما يتصورونه أو يتمثلونه ٠

فالسير هاملتون جب يرى أن الساسة الغربيين يعتبرون هذه الحالة حالة فراغ ينتظر الامتلاء Vacuum كأنهم يحسبون أن خروج دولة من أحد الاقطار الشرقية يتبعه دخول دولة أخرى أو يظل ذلك القطر « فارغا » لا يستطيع أبناؤه أن يملأوه بنظام يعوضه من النظام الأوروبي المفقود ٠

ومما يدعو الساسة الغربيين الى هذا التفكير شيوع الاعتقاد بين مراقبي الاحوال في البلاد الشرقية بانقضاء العهد الذي كان الاسلام فيه « قوة فعالة » في تكوين النظم الاجتماعية والسياسية،

باعتباره « قسطاسا » مرعيا في الشعائر المعمول بها والفرائض المتبعة والعادات السارية في شئون المعيشة اليومية •

يقول السير هاملتون : ان هذا التفكير لا يطابق الواقع ، لأن المسلم هو المسلم في رأي نفسه وليس هو المسلم على صبغة يصبغه بها الاجانب عنه حسبما يتصورونه من شعائره وفرائضه وعاداته ، ولا يصح أن نفهم أن المسلمين ابتعدوا عن حظيرة الاسلام وهم أنفسهم يشعرون بأنهم مسلمون يغارون على العقيدة ويريدون البقاء في حظيرة هذه العقيدة •

يقول : وليس بين البلاد الاسلامية بلد أعلن عن رغبته الصريحة في الاستغراب أو « التغرب » باستثناء البلاد التركية ، ولكن البلاد التركية أيضا لا تعلن هذه الرغبة اليوم بتلك الثقة التي أعربت عنها منذ عشرين سنة ، وفيما عدا هذا الاستثناء الضعيف يغلب على أبناء العصر من المسلمين الذين ينقمون على مساويء العصر الحاضر أن يحملوا الغرب أوزار هذه المساويء ولا يعلقوا آمالهم في الاصلاح بمشابهة الغرب والاقتداء بأممه في جملة أحوالها •

وقد تابع الكاتب مراحل التطور منذ مائة وخمسين سنة فقال ان الأمم الاسلامية ــ منذ ثلاثة أجيال ــ مرت بمرحلتين قبل المرحلة الاخيرة ، وهي المرحلة الحاضرة •

فالصدمة الأولى زعزعت دعائم التقاليد الغابرة ، فانقضت المرحلة الأولى بانقضائها وخلفتها مرحلة النظم الغربية المستعارة ، الى أن ظهر فشلها فانقضت هي أيضا بانقضاء عهد الاموال الاجنبية •

واليوم يعود الشرق الاسلامي الى موارده ويقيم مجتمعاته على الأسس التي تنجح المشروعات الشعبية في اقامتها وتدعيمها ، ولا غنى عن خبرة الصناعة والادارة ومعونة المثقفين والمستنيرين لتوطيد المشروعات الشعبية •

فالمجتمع الجديد مجتمع غير المجتمع الذي استقر زمنا في

أيدي حكام القرن الثامن عشر ، وغير المجتمع الذي استقر زمنا بمعونة « رأس المال » من الخارج وحاول القائمون به أن يؤسسوه على قواعد النظم الأوروبية الحديثة • ويتميز هذا المجتمع الجديد بظهور قوة اجتماعية غير قوة السادة حكام القرن الثامن عشر وغير قوة خلفائهم الذين حاولوا أن ينقلوا الى الشرق نظم الغرب وأنماطه الحكومية •

هذه القوة الجديدة لا تنزع الى التخلص من ديانتها كما تفهمها وتشعر بها على الرغم من ظنون الاجانب الذين يقيسون غيرة المسلم بمقياس الشعائر و « الطقوس » المرعية ، فاذا استدعى العصر الحاضر تغييرا في مباديء المجتمع فانما هو التغيير الضروري الذي تفرضه طبيعة العصر ويؤدي اليه اشتراك خبراء الصناعة والاقتصاد ، والتعاون بين هؤلاء الخبراء وبين المستنيرين الكفاة لتوجيه الاعمال والاضطلاع بمطالب الحياة الحديثة ، ويختتم السير هاملتون جب بحثه الموجز بهذه العبارات التي نترجمها بحروفها :

قال : « انني لا أرى أية علامة في الشرق الاوسط على احتمال قريب لقيام دولة شيوعية •• أو قيام دولة ديمقراطية من طراز أية دولة غربية ، ولا بد لكل هيئة من هيئات الحكم في العالم العربي يراد لها الاستقرار المعقول أن تجمع بين ارضاء الشعور العربي والشعور الاسلامي في وقت واحد » •

الاسلام في افريقية الشرقية

ألف هذا الكتيب الدكتور ليندون هاريس علم من أعــلام التبشير في القارة الافريقية ، وقصره على البحث في أحــوال الاسلام والمسلمين بين أهل زنجبار وبمبا وتنجنيقا وما جاورها من بلاد السواحل الافريقية ، وجمع فيه معلومات متفرقــة يتحرى في بعضها الدقة العلمية والمطابقة للمشاهدات الواقعة ، لأنه يريد بها اطلاع العاملين في التبشير على حقيقة الموقــف للاستعداد لها بما يصلح لها من العدة الكافية والوسيلة المجدية، ولا يملك في بعضها الآخر أن يتجرد من آرائه وأهوائه كلما تعرض لشرح العقائد الاسلامية وتفسير الحوادث التاريخيــة ومآثر المسلمين في العالم كله وفي تلك البلاد على التخصيص فهو فيما عرض له من هذه الامور مصطبغ بصبغته التبشيرية على الرغم منه أو باختياره ورضاه ، مطاوعة لغايته وهواه ٠

بدأ معلوماته باقتباس كلمة الحكيم الانجليزي صمويــل جونسون التي يقول فيها : « ان المسيحية والاسلام في عالــم العقيدة هما الديانتان الجديرتان بالعناية ، وكل ما عداهما فهو بربرية » ٠

وعقب على هذه الكلمة فقال : ان وصف البربرية شديد بالنسبة الى الديانات الاخرى التي كشفت حقائقها بعد عصر الدكتور جونسون ولكنه استرسل في وصف الاسلام ليقول : انه الديانةالوحيدةالتي تعد على الدوام «تحديا»أو مناجزة (١) لجهود التبشير والمبشرين ، ثم مضى يسرد المعلومات التي تطابق الواقع أحيانا وتناقضه أحيانا ونجتزيء منها بالمهم من وجهة النظر الاسلامية في السطور التالية ٠

---

(١) مناجزة : ناجز الفارس قرنه : بارزه حتى يقتله أو يقتل ٠

يقول الدكتور ليندون هاريس ــ بعد ذلك التمهيد ــ بصريح العبارة : ان جهود التبشير بين المسلمين في افريقية الشرقية عقيمة لا تؤذن بالنجاح القريب ولا بالنجاح المضمون ، وان نتيجتها كلها الى اليوم عدم Nil ولا يرجى أن تتغير هذه الحالة بغير جهود متواصلة يطول بها المطال ·

ويخرج من هذه النتيجة بتقرير الواقع الممكن من أعمال التبشير ، وهو توجيه الجهود الى أبناء البلاد الافريقيين الوثنيين، فان الجهود في هذه الوجهة لا تذهب سدى ولا يزال الامل في نجاحها مفتح الابواب لمن يحسنون الوصول اليها ، وان كانت هذه الابواب مفتحة للمبشرين وللعاملين على نشر الدعوة الدينية من المسلمين ، ومفتحة كذلك للمسلمين الذين يستميلون الوطنيين الى ديانتهم بغير دعوة منتظمة ·

ويذكر الدكتور ليندون عقبات الدعوتين بين القبائل الوطنية التي تحكم على الغرباء بالسمعة العامة بين سابقة ولاحقة ·

فالمسلمون يشيع عنهم ــ أو يشاع عنهم ــ هم وحدهم المسئولون عن أعمال النخاسة في العصور الماضية ، ولا يذكر المؤلف شيئا عن النخاسة في افريقية الغربية ، وهي تدل بآثارها على الفارق بين النخاسة المنسوبة الى تجار العرب وغيرهم من الآسيويين ، وبين النخاسة(١) الأوروبية الامريكية التي نقلت السود الى العالم الجديد ، وعدتهم الآن هناك لا تقل عن ستة عشر مليونا من الرجال والنساء ، وهم أضعاف الأرقاء السود الذين نقلوا من بلادهم الآسيوية في عدة قرون ·

أما التبشير المسيحي فالدكتور ليندون يقول عن السمة العامة التي تعوقه : ان الوطنيين يقرنون بين الرجل الابيض والمستعمر وبين ديانته وديانة المبشرين ، وان جماعات التبشير تحسن صنعا اذا اتخذت في السياسة مسلكا يعزل فكرة التبشير عن فكرة الاستعمار في عقول أبناء البلاد أصلا ·

ويرى المؤلف من أعمال الدعوتين أن القرآن الكريم ترجم

(١) النخاسة : المتاجرة بالرقيق ·

الى اللغة السواحلية ترجمتين : احداهما بقلم كاتون ديل المبشر (سنة ١٩١٣) لم يقبل عليها أحد من الوثنيين وكاد أن ينفرد المسلمون باقتنائها ، وان كانوا لا يعولون عليها ٠

والترجمة الاخرى نقلها « الاحمديون » الهنود وحشوها بالبحوث الفقهية (اللاهوتية) التي لا يطيقها أبناء البلاد الأصلاء ، ويرتضيها المسلمون أهل السنة من قراء الكتاب باللغة العربية ٠

ويتطرف المؤلف في هذا السياق الى الشيع الاسلامية فيروي كلمة للشاعر محمد اقبال ينعي فيها على المسلمين في بلاده أنهم أصبحوا كالبراهمة في تعدد الشيع والنزعات ٠

ومن المشاهدات التي يرددها المؤلف أن أثر المسلمين في بلاد العرب الجنوبية أظهر من أثر اخوانهم الذين ينتمون الى سائر الاقطار الآسيوية ، ويستدل على ذلك بعدد الافريقيين الذين يقبلون على مساجد هؤلاء وهؤلاء ، وبالصلات الاجتماعية التي تنعقد بين كل من الفريقين وبين الافريقيين السواحليين وغير السواحليين الذين يدينون بالاسلام ، فان أبناء البلاد الأصلاء يأنسون الى الجالية العربية عندهم منذ عهد بعيد ٠

ولا يحاول المؤلف أن يطمس الفارق بين أثر العرب وأثر الأوروبيين الأسبقين الى استعمار افريقية الشرقية ، فانه يقرر أن البرتغاليين قضوا فيها نحو مائتي سنة لم يتركوا بعدها أثرا من آثار الحضارة النافعة ، ولم يعقبوا بعدهم غير ذكرى الخراب الذي حل على أيديهم بالمعاهد والمعابد الاسلامية ، ولم يزالوا حيثما نزلوا يخربون وينهبون حتى استغاث السواحليون بالامام سعيد صاحب عمان ، وهو والد سعيد الاول ــ أول سلطان تولى من هذه الأسرة حكم زنجبار ٠

أما العرب الذين انتقلوا الى السواحل فانهم نقلوا اليها الكتابة والعمارة وأدوات الحضارة وطبعوها بطابعهم في كثير من أحوال المعيشة ٠

ويتساءل المؤلف عن المستقبل فيقول : ماذا عند العرب يعطونه الافريقيين بعد اليوم وماذا عند الأوروبيين ؟

ثم يجيب قائلا : ان الأوروبيين يعطون المدارس والمستشفيات

والمرافق العصرية ويرجحون على العرب بمدارسهم التي تعد الطالب الوطني لأعمال الحيــاة العامــة والخاصــة في العصر الحديث ، ولكن المدارس العربية ينحصر عملها في تحفيظ القرآن وتعليم الهجاء والمطالعة الاولية ولا تصحب هذه المدارس ــ أو المكاتب ــ أعمال أخرى من قبيل أعمال الخدمة الاجتماعية التي ينشئها الغربيون ، الا قليلا من المعونة يقوم بها أهل الخير هنا وهناك من قبيل الصدقة والاحسان ·

يقول : « ان الاقبال على التعليم الحديث وفقــا للبرامج الأوروبية يقبل عليه المسيحيون والمسلمون على السواء ، وقد كان المسيحيون يدخلــون أبناءهم مــدارس المبشرين ويؤثــر المسلمون لاسباب دينية أن يعلموا أبناءهم في المدارس الحكومية، ولكن هذه المدارس مبعثرة متباعدة بين أطراف البلاد الداخلية، وأكثر التعليم على البرنامج الغربي تتولاه مدارس التبشير » ·

ثم يقول : « الا أن مدارس السواحل الاسلامية التي تشرف عليها الحكومة تقارن بأفضل المدارس التي يديرها المبشرون ، ويقبل عليها أبناء الهنود والعرب ، مع اتجاه الرغبة أخيرا الى نشر التعليم العصري وقيام الطائفة الاسماعيلية على الاكثــر ببناء المدارس لنشر هذا التعليم ، وقد تم بناء نحو خمســين مدرسة على البرنامج الحديث منها ثلاث مدارس ثانوية نشأت كلها بعد الحرب العالمية الثانية » ·

ويوازن المؤلف بين الوسائل فيرى ان وسائل الاسلام أقل من وسائل المبشرين ، ولكنه قدم لذلك بتردده في الحكــم علــى المستقبل فقال : « انه ليس في الوسع أن ينبيء أحد بمصــير الامور في بلاد تتوالى فيها المفاجآت على غير انتظار ، فلا يبعد أن يميل رقاص الساعة كرة أخرى الى جانب الاسلام ، لأنــه عامل من العوامل الحاضرة أبدا في هذه البلاد » ·

وعند المؤلف أن المؤثرات المعنوية تتقابل في نفوس المسلمين فتعطيهم من جانب عوضا مما تسلبهم من الجانب الآخر ، ولا يلبث المسلم أن يستكين شعورا منه بالفارق بينه وبين الغربيين في الزمن الحديث حتى تثوب اليه العزة فخرا بماضي الاسلام

العريق ، وأن هذا الفخر ـ كما يقول المؤلف ـ لعامل مهم جدا في هذا الموقع من بلاد العالم ، اذ ليس للافريقي تاريخ يذكره ويفخر به قبل أجيال معدودات ·

ويخلص المؤلف من ذكريات الماضي ونبوءات المستقبل الى خطة يرى أنها كفيلة باتمام جهود المبشرين الأوروبيين التي يعجزون عنها في موقف المقابلة بين التراث الاسلامي العريق والتراث الافريقي الحديث ، فان المبشر الأوروبي قليل الجدوى في هذا المجال ، ولكن جدواه القريبة انما تنتظر من المبشرين أبناء البلاد الأصلاء الذين تحولوا عن عقائدهم الأولى على أيدي بعثات التبشير منذ سنين · فانهم أحرى أن يقابلوا الدعوة الاسلامية بشعورهم الوطني الديني ، فيؤدون هنا عملا لا ينتظر من المبشرين البيض ·

قال : « ان ابن القبيلة الافريقي يلمح نظافة المسلم شخصا وبزة كما يلمح المكانة التي يكسبها بأدب (الحشمة) الاجتماعية وتتعلق مكانة الرجل الافريقي بهذه الحشمة المصطلح عليها ، وهي مكانة ذات شأن حيث يعيش الناس على مرأى بعضهم من بعض في حيزهم المحدود، فلا جرم(١) أن يعتز المسلم بهذه الحشمة فوق اعتزازه بكل شيء ، لأنها مقياس خلقه وحياته ، وبها يستدعي المناظرة ومحاولة التشبه به من أبناء البلاد الأصلاء »·

ثم ختم الرسالة ملحا على التنبيه الى « المناجزة المتحدية » من قبل الاسلام ، مهيبا بأنصار التبشير الغربيين أن يضاعفوا العون الذي لا غنى للتبشير عنه لبلوغ الغاية منه ، ··· « فليس في وسع البعوث التبشيرية أن تعهد للمبشرين من أبناء افريقية الأصلاء دعوة اخوانهم المسلمين ، ولكنها بغير هؤلاء لا يرجى لها نجاح » ·

---

(١) لا جرم : في الاصل بمنزلة (لا بد) ثم تحولت الى معنى القسم فصارت بمنزلة (حقا) ·

خطأ المقارنين لا خطأ المقارنة

تصدر باللغة الانجليزية مجلة كبيرة تسمى « تاريخ اليوم » history to-day تختار أصحاب الشهرة بالمباحث التاريخية للكتابة في المبحث الذي تفرغوا له وتوفروا عليه وتعرض المناسبة للكلام عنه تعليقا على حادث مشهور من حوادث العصر الحاضر ، وقد كانت قضية فلسطين احدى المناسبات التي دعت هذه المجلة الى اقتراح الكتابة في تاريخ الخليفة عمر رضي الله عنه ، فندبت لكتابة هذا التاريخ الاستاذ سوندرز Saunderz المحاضر الاول لدروس التاريخ بجامعة كانتربري بزيلانده الجديدة ، ونشرت له في عددي شهر مارس وشهر أبريل الماضيين مبحثا مطولا في هذا الموضوع بعنوان « الخليفة عمر المستعمر العربي ! » يخرج منه القاريء بنتيجة من أغرب النتائج عن الدعوة المحمدية والدولة الاسلامية ، فحواها أن دخول الاسلام الى فلسطين انما كان مصادفة كمصادفات الضرورات السياسية أو العسكرية ، وأن نبي الاسلام ، صلوات الله عليه ، لم يكن يفكر قط في الدعوة الى دينه خارج الجزيرة العربية ، وأن الخليفة عمر بن الخطاب هو ناشر هذه الدعوة ، وموجه الاسلام الى العالم بوحي من ضرورات السياسة ، بدا لخلفاء النبي بعد فتنة الردة وقلق الخلفاء على المسلمين أن يبقوا في حدود الجزيرة العربية بغير شاغل يصرفهم عن منازعاتها وعن مشكلات الساعة التي تتولد بين قبائلها وشعوبها .

ويقول الاستاذ سوندرز في أول مقاله المطول : « ما من دليل واف يدل على أن محمدا ــ صلوات الله عليه ــ كان يتصور الاسلام دينا عالميا لجميع الناس ، أو يتصور أنه أرسل لهداية شعب من الشعوب غير شعبه العربي ، وليست قصة رسائله الى الامبراطور هرقل وشاه فارس وملك الحبشة وغيرهم من الرؤساء للدخول في دينه بالقصة التي تقوم على أساس » .

ثم يقول : « ولا شك أن محمدا لم يفكر في فتح العالم وانما اعتقد أن واجبه الاول أن يمهد لأبناء أمته أسباب الايمان بدينه ، فاذا صدوه عن دعوته فواجبه اذن أن يقابل القوة بالقوة » .

ويرى الأستاذ الخبير باللغة العربية وتاريخ الاسلام ! « أن كلمة ــ أمير ــ باللغة العربية تعني أولا امارة الجيش ، وأن تحويل لقب عمر من خليفة رسول الله الى أمير المؤمنين كان على ما يظهر فاتحة عصر الفتوح ، اذ يصبح الخليفة قائدا أول للامبراطورية التي أخذت في الاتساع ‥ » ٠

وبعد هذه المقدمات يسترسل المؤرخ في تفصيل هذه الفكرة فيستند في قواعدها الى مصدرين بارزين : هما الامير كايتاني الايطالي والمبشر الفرنسي المتعصب بيرلامنس الذي خلق قصة الثالوث المتسلط على دولة الاسلام الأولى من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة !

ولا حاجة الى الاطالة في بيان جهل المؤرخ بالموضوع الذي تصدى له وحسبته المجلة المتخصصة للتاريخ في العصر الحاضر أهلا للاعتماد عليه دون غيره في هذه المسائل الاسلامية ٠ فان هذا المؤرخ لم يكن مطالبا بقراءة شيء عن الدعوة المحمدية غير ما وصفت به هذه الدعوة في كتاب الاسلام الاول ، فانه يعلم من القرآن في كل وصف الدعوة المحمدية أن محمدا عليه السلام كان رسول رب العالمين الى جميع العالمين : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وأن رب الناس وملك الناس : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ‥ » ٠

ففي كل آية من آيات الدعوة المحمدية غنى للمؤرخ المحقق عن الرجوع الى اسناد كاسناد كايتاني ولامنس ، وعن اصطناع « الدقة العلمية » في استقصاء أخبار الرسائل النبوية الى هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي ، ولو ثبت له بعد ذلك الاستقصاء أنهم لم يوجدوا في زمانهم ولم تبلغهم رسالة من رسول ‥ فمن جهل رسالة القرآن كلها فالعجب أن ينتظر الخبر اليقين من قرطاس(١) مطوي في بيزنطة أو في غيرها يحتمل الشك والانكار ٠ ان ضخامة الخطأ مع سهولة العلم بالصواب خليقة أن تفتح

(١) قرطاس : الصحيفة يكتب عليها من أي شيء كانت ٠

باب الاتهام في سلامة المقصد قبل الاتهام في سلامة التفكير ، واذا كانت القضية قضية فلسطين فما أكثر الشبهات التي تحوم حول كل تاريخ يتصل بتاريخها الحديث ، وما أكثر الدفائن والخبايا التي يستخرجونها من أعماق الزمن المجهول لتزييف الحاضر المعلوم !

يجوز أن يكون المقصد من ذلك « التحقيق العلمي » أن يعلم أبناء العصر أن دخول الاسلام الى فلسطين انما كان بعض الطوارىء العارضة التي لم يقصد اليها نبي الاسلام الا انقيادا لمطمع عاجل من مطامع الاستعمار ٠

يجوز هذا ويعززه أن عدد شهر مارس الذي ظهر فيه المقال الاول عن « الخليفة المستعمر ! » قد تحلت صفحته الأولى بصورة النبي « موسى واضع الشريعة » ودارت أخباره كلها على « تأصيل » علاقة العبريين بفلسطين من عهد ابراهيم الخليل ، ثم على تسويغ هذه العلاقة بهجرة العبريين من مظالم وادي النيل الى أرض الميعاد !

يجوز هذا ، ويدل مع هذا على « عمق أغوار » الدعاية التي تحيط بهذه القضية ، ولا تتورع عن تسخير العلم والتاريخ لتأصيل الدعوى حول جذورها من وراء السياسة والتبشير ٠

وعلينا عند النظر في أقوال هؤلاء المؤرخين للاسلام أن نرقب مقاصدهم ، ومظان الشبهة في آرائهم ودعاواهم ، لأن النيات والاعمال بمنزلة واحدة في قضايا الاسلام العصرية ، حيثما اشتبكت بمساعي الدول والحكومات ٠

ولكن الشبهة الغالبة في مجال البحث الديني انما هي تلك الشبهة التي تملك عقولهم ونياتهم ولا يملكونها أو يملكون القصد والاختيار فيها ، وانما ترد عليهم تلك الشبهة الغالبة من قبل هذه الدراسات الحديثة التي أولعت بعضهم « بالمقارنة بين الاديان » فذهبوا ــ مخلصين ــ في التماس وجوه الشبه بينها حيث يوجد الشبه وحيث تنقطع كل لمحة من ملامح المشابهة من قريب أو بعيد ٠

وأخطر هذه المشابهات والشبهات على عشاق المقارنة ــ أن المراجعة « السطحية » تقارب عندهم بين تواريخ الانبياء الكبار في نشر دعوتهم أثناء حياتهم وبعد انتهائهم من أداء رسالتهم ٠

فقضى موسى عليه السلام قبل أن يدخل أرض الميعاد ، وقام بولس الرسول بالعبء الاكبر في نشر المسيحية بعد ختام رسالة السيد المسيح ، وهكذا ينبغي في تقديرهم أن يكون عمر بن الخطاب هو ناشر الاسلام ومؤسس شريعته بعد النبي وصاحبه الصديق .

والخطأ — كما قلنا في عنوان المقال — انما هو خطأ المقارنين وليس بخطأ المقارنة بين الاديان على اطلاقها ، أو خطأ المقارنة بين نشر المسيحية ونشر الاسلام على الخصوص .

ومرجع الخطأ في تقدير المقارنين أنهم نظروا الى الحركات الظاهرة ولم ينظروا الى أسبابها الأولى في طبيعة كل من هذه الدعوات وفي سيرة كل من أصحاب الديانات الذين اشتركوا في ابلاغها الى الناس ، على نهج لم يتفق بين رسولين ولا بين رسالتين .

فمن الحركات الظاهرة أن الرسول بولس كان في مبدأ سيرته أشد الأعداء على المسيحية ثم آمن بها فكان أكبر الناشرين لها خارج بلادها ، ويشبه هذا أن عمر بن الخطاب كان عدوا للاسلام ثم انتصر به الاسلام في موطنه وانتصر به بعد ذلك في مواطن الفرس والروم .

فالمقابلة — اذن — تامة بين الدعوتين ، وبين الرجلين .

ولكنها — عند الرجوع الى الاسباب الأولى — مقارنة مبتورة تبتديء بعد منتصف الطريق ، وتنسى وجوه الاختلاف وهي — عند البحث عنها — أظهر من جميع هذه المشابهات .

فالسيد المسيح لم يجاوز في نشر دعوته مدى أربع سنوات ، ولم يبلغ هذا المدى في رأي بعض المؤرخين .

والنبي محمد عليه السلام قضى نحو عشرين سنة ولم يبق بقية لأحد من أصحابه يتمم رسالته أو يعلم المسلمين ركنا من أركان الدين لم يحفظوه من آيات القرآن ومن سنة رسوله .

وقد كان النبي عليه السلام يدعو العرب وغير العرب الى الدخول في دينه ، وكان يخاطب بني اسرائيل برسالته ، كما كان يخاطب بها المهاجرين والانصار من أبناء قومه ، وكان رسولا من الأميين الى الأميين والى جميع العالمين كما علم منه أهل الكتاب والمشركون في مكة وفي المدينة ، وفي كل مكان بلغت

اليه الدعوة من الجزيرة العربية وما وراءها ، وليس جواب المقوقس له ولا زواجه عليه السلام من السيدة مارية القبطية بالخبر الذي يتوقف على تحقيقات « لامنس » ومن استمع اليه ٠

أما بولس الرسول فقد خاطب الأميين لأنه يئس من خطاب بني اسرائيل ، وقد روى بولس وغيره عن السيد المسيح أنه بعث « لهداية خراف بيت اسرائيل الضالة » وأن الخبز الذي يحتاج اليه أبناء البيت حرام أن يطرح أمام الكلاب ، وقد ضرب المثل في الاناجيل بالوليمة التي أعرض عنها المدعوون اليها فأمر السيد عبيده بدعوة الغرباء الى البيت حتى يمتلىء ولا يبقى فيه مكان لمن دعاهم فلم يستجيبوا الدعاء ٠

ولم يكن في وسع بولس الرسول أن يدعو اليونان والرومان الى المسيحية ليقول لهم : ان السيد المسيح قد بعث لخلاص بني اسرائيل منهم ، وأن الأمم الاخرى لا يحق لها أن تطمع في الخلاص بهذه الرسالة وهو يدعوهم اليها ، فلم تكن لبولس الرسول من قبلة يلجأ اليها غير هذه القبلة ، ولم تكن خطة الخليفة الثاني ولا الخليفة الاول تجديدا لهذه الخطة أو وجها من وجوه المقارنة بين نشر الدعوة العالمية في الاسلام ، ونشر تلك الدعوة من قبل في المسيحية ، وانما تقع المقارنة هنا للمقابلة بين حالتين متناقضتين ٠ اذا كانت دعوة بولس للأمم بديلا من دعوة بني اسرائيل المعرضين عنها ، وكانت قبلة بيت المقدس في الاسلام أول قبلة أقيمت عليها الصلاة الجامعة ، ثم استقامت هذه القبلة على البيت الذي يستقبله أهل المشرق والمغرب من أمم « العالمين » ٠

واذا انتهينا من هذه المقارنات الى المجال الذي اختاره « مؤرخو العصر » لتحقيقاتهم « العلمية » فقد نعلم - اذن - أن دخول الاسلام الى فلسطين لم يكن فلتة من فلتات المصادفة العشواء ، ولكنه كان نتيجة منتظرة لمقدمات مقررة ، وجوابا من القدر على عناد بني اسرائيل ووفاء لوعد الله خليله ابراهيم ، مع أبناء له غير أبنائه الذين تنكروا لكل نبي من ذريته الصالحة ، من قبل موسى وهارون الى ما بعد عيسى والحواريين ٠

الاسلام في التاريخ الحديث

ألف هذا الكتاب ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة مونتريال ، وقد أقام زمنا في مدينة لاهور بالباكستان وساح في بلاد الشرق الاوسط وبعض البلاد الاسلامية في القارتين الآسيوية والافريقية ، وتغلب عليه أحيانا نزعة يسارية تتراءى من خلال تفسيراته المادية ، ولكنه يجامل الشعور الاسلامي مجاملة الرجل الذي ترتبط أعماله بالمسلمين من حين الى حين ، ويتجنب المسائل الشائكة من وراء المنازعات الطائفية أو السياسية مكتفيا من المعلومات بما يشبه الاحصاء والشواهد « الرسمية » ٠

وقد اشتمل كتابه على فصول مسهبة عن الهند والباكستان وتركيا والبلاد العربية وعرض لبعض الأمم الاسلامية الاخرى عرضا موجزا على قدر اتصاله بها وعلمه بأحوالها ، وأفرد جزءا من دراسته لمصر بالكلام على مجلة الازهر وعن رسالتها الدينية ورسالة « العلماء » على الاجمال ، ومهد للبحث كله ببعض الملاحظات العامة التي لا بد منها في رأيه للحكم الصحيح على وجهة التفكير الاسلامي ونظرة المسلمين الى وقائع الحاضر وآمال المستقبل ، ولم يخطيء في الكثير من هذه الملاحظات وان كان قد أحاطها بشيء من الاغراب يوهم القاريء الأوروبي أن هناك أمرا غير طبيعي في « النفسية » الاسلامية عند المقابلة بينها وبين المؤثرات الدينية في غير المسلمين ٠

يقول انه ما من دين استطاع أن يوحي الى المتدين به شعورا بالعزة كالشعور الذي يخامر المسلم في غير تكلف ولا اصطناع ، وان الفخر بالعربية قد يمازج هذا الشعور أحيانا فيعتبر المسلم العربي آداب المروءة قبل الاسلام قدوة للأخلاق والعادات ، ويشترك العربي في هذا الفخر ولو لم يكن من المسلمين ، فيعنى

بالتاريخ العربي قبل الاسلام وبعد الاسلام عناية النسب الاصيل كما صنع جرجي زيدان وفيليب حتي وغيرهما من مؤرخي العرب المسيحيين ، ولكن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الانسان مسلما باعث من بواعث الحمد تسمعه من جميع المسلمين ·

وبين المسلم المعاصر وسائر المعاصرين من الغربيين فارق عميق في النظر الى العالم والى المستقبل ، فان الامريكي مثلا يواجه المستقبل بتجارب العصر الحاضر ويغلب القيمة العملية الواقعية على قيم العاطفة والخيال في تقديره للاشياء وعلاقاته مع الناس ، ولكن المسلم على خلاف ذلك ينظر الى المستقبل ليقيمه على أساس من الماضي المجدد ، ويسعى الى الغد ولا يفوته أبدا أن يلتفت الى الامس البعيد ، وان لم يكن من الجامدين الكارهين للتقدم ومسايرة الزمن على ما تقتضيه مطالب الحضارة الحديثة ·

ويقرر المؤلف أن جنوح المسلم الى مسايرة الحضارة الحديثة لا يزال مصحوبا بكثير من التحفظ والحذر في علاقته بأصحاب هذه الحضارة ، فانه لا ينسى أن دول الحضارة الأوروبية هي التي أخضعته لسيطرتها منذ أواسط القرن الماضي واقتحمت بلاده عليه في الوقت الذي ثار فيه على حكوماته الوطنية طلبا للاصلاح والاخذ بأسباب تلك الحضارة التي أرادها خالصة من شوائب الاستعمار ، بريئة مما يناقض الدين ·

قال : وان المسلم ليحس أن الأوروبي يفرق في المعاملة بينه وبين أصحاب الديانات الاخرى ولو لم يكونوا من المسيحيين ، وأن هذه التفرقة تظهر من الأوروبي حيث ينبغي أن تختفي جميع الفوارق في معاملة الانسان للانسان · فقد لوحظ أن مستشفيات الصليب الاحمر كانت تهمل الجرحى المسلمين أثناء حملة فلسطين وتميز عليهم جرحى اليهود ، ويحدث هذا في المستشفى الواحد بغير مبالاة ولا محاولة للاعتذار من هذا التمييز ·

ويعتقد المؤلف أن الغربي لا يفهم الاسلام حق فهمه الا اذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهرا وباطنا

ـليس مجرد أفكار أو عقائد يناقشها بفكره أو يتقبلهـا بغير مناقشة ، فليس التفكير بنافع شيئا ان لم يكن مصحوبا بتطور المعيشة وتطور أسلوب الحيـاة الظـاهر والباطن في المجتمـع لاسلامي الحديث •

ويستعير المؤلف اسـم المعتذريـن Apologetits لرواد النهضة الاسلامية الحديثة لأنهم ــ كما يرى ــ يسلكون المسلك الذي جرى عليه الآباء المسيحيون في صدر الدعوة المسيحيـة للرد على الفلاسفة والمفكرين الذين اشتهروا يومئـذ باسـم المعرفيين وأرادوا أن يجعلوا مذهب المعرفة ديانة تقابل الديانة المسيحية وتتغلب عليها في مجال البحث عن الحقيقة الدنيوية والحقيقة الأخروية •

وقد كان المعتذرون قديما يردون على المعرفيين باثبـات العقائد الدينية من الوجهة العلمية أو وجهة المنطق ومباحث ما وراء الطبيعة ، فلما شعر المسلمون بصدمة العلوم الحديثـة كان مسلك الرواد الاوائل من طلائع نهضتهم كمسلك أولئـك المعتذرين ، وكان همهم الاول حقبة طويلة أن يثبتوا سبـق العرب والمسلمين الى كشف الحقائق العلمية واستعداد العقيدة الاسلامية لقبول الحقائق العلمية التي تسفر عنها مباحث العلماء العصريين •

وأضاف الى ذلك قائلا : أنه يرى كما يرى الاستاذ (جب) المستشرق المشهور أن مستقبل الاسلام في هذه الحركة وفي غيرها من حركات الدفاع يستقر حيث استقر ماضيه من قبل بـين أيدي حراسه الأوائل وهم طائفة العلماء •

ثم يستطرد الى الكلام على مجلة الازهر لأنها خط مـن خطوط هذا الدفاع يرسمه المعهد الاسلامي الذي يضم اليـه العدد الاكبر من علماء الاسلام •

قال ان هذه المجلة ظهرت أولا باسم نور الاسلام ، وظهرت منها الاعداد الأولى بهذا الاسم ، ثم سميت من عددها السادس باسم مجلة الازهر (١٣٤٩ هجرية و١٩٣٠ ميلادية) وقـام على تحريرها العالم الازهري الشيخ الخضر حسين ، ثم أسندت رئاسة تحريرها الى المجدد العصري Modernists الاستاذ محمد

فريد وجدي • ولم يزل يشرف على تحريرها الى سنة ١٩٥٤ ، وقد ذكر المؤلف أنه اتخذ المجلة موضوعا لدراسته التي قدمها الى جامعة برنستون سنة ١٩٤٨ باسم (مجلة الازهر ـ عرض ونقد ـ) ولم ينقطع عن مراجعتها بعد ذلك الى حين اصداره لكتابه الاخير باسم الاسلام في التاريخ الحديث •

ويقول الكاتب انه لا ينظر الى الآراء الخاصة التي تنشرها المجلة للعلماء ، ولغير العلماء الا من زاوية واحدة ، وهي الزاوية التي تشير الى اتجاه عام يتقبله المسلمون كافة أو تتقبله جمهرة منهم على التعميم ، ورأيه في الاستاذ الخضر أنه يمثل المدرسة السلفية بمنهج الدفاع عن الاسلام ، وأن الاستاذ فريد وجدي مجدد عصري لا تزال طريقته في التجديد على قواعد المعرفة الحديثة مقبولة عند أنصار التجديد ، وان يكن بعض آرائه منظورا اليه اليوم كأنه تفكير فات أوانه وظهر بعده ما هو أوفق منه لزمنه ، ولا اختلاف بين الاستاذ وجدي ولا بين السلفيين أو المجددين المتأخرين في رأي واحد يتفقون عليه : وهو ان العلم الحديث لا ينقض حقائق الاسلام ، وان القليل منه عند المتعلمين المتعجلين هو الذي يغريهم بالانصراف عن العقيدة الدينية ولكنهم لا ينصرفون عنها ، بل يزدادون ايمانا بها ، مع التوسع في العلم الحديث ، والتوسع في العلم بالدين •

ويقول صاحب الكتاب في مقابلته بين منهج الشيخ الخضر ومنهج الاستاذ وجدي ان أولهما يعتبر الاسلام وحيا تاما قد تنزل على صورته الكاملة منذ عصر الرسالة المحمدية ، فلا اضافة اليه ولا زيادة عليه ولا تحوير فيه ، وانما الايمان بالاسلام هو الذي يحتمل القوة والضعف كما يحتمل زيادة المعرفة أو النقص فيها ، أو يحتمل المراجعة من عصر الى عصر لتفقد الآثار العصرية فيه • وليس الاستاذ الخضر كما يرى المؤلف من أنصار الحنين الى الماضي ، بل هو من أنصار الدعوة التي لا زمان لها لأنها صالحة لكل زمان ، ومهما تتجدد مذاهب المعرفة فالمسلم يسلم أمره الى ارادة الله كلما [illegible] معارفه الى فهم تلك الارادة الالهية بالدرس أو بالالهام • وقد [illegible] في نظر الشيخ الخضر كلا الطرفين من المسلمين في الحاجة الى

التصحيح والاصلاح : وهما ــ على تعبير المؤلف ــ طرف اليسار من المتعلمين الذين جاوزوا حدود الاسلام ، وطرف اليمين من الجامدين وأتباع الطرق الصوفية الذين ضيقوا حدوده عليهم وان لم يجاوزوه ·

أما الاستاذ وجدي فخطته في الاصلاح تتجه قبل كل شيء الى احياء الشعور الروحاني في ضمير الرجل العصري ، لأنه يرى أن الفكرة المادية طغت على العقول فلم تسلم منها العقائد ولا الأخلاق ، وأن مشكلة الانسان العصري مشكلة أخلاقية نفسانية تستدعي من المصلح أن ينهض بأمثلته العليا في معيشته الدينية والدنيوية معا ليعود به الى حظيرة المثل الروحانية ، وهي الخليقة بعد ذلك أن ترده الى شعائر الدين ونصوص الكتاب والسنة النبوية ·

وليس المقام بمتسع هنا لشرح التعليقات التي عقب بها المؤلف على أحوال الاسلام في الباكستان والهند والبلاد التركية والايرانية وسائر الأمم الاسلامية ، ولكن تعليقاته التي أجملناها عن مصر نموذج حسن للتعريف بمقصده من البحث ، وتقديره للحركات الاسلامية بين تلك الأمم ــ وزبدتها أن الحضارة الغربية قد أزعجت أمم الاسلام فنهضوا للدفاع عن عقيدتهم في وجهها ، وشعروا بأنهم يعيشون في عالم غير عالمهم معها ، وأنهم ليقبلون هذه الحضارة أو يرفضونها ولكن القليل منهم هو الذي يؤثر ترك الاسلام للسير مع الحضارة الأوروبية في ركابها ، وانما يتفقون ــ معظمهم ــ على صبغ الحضارة بصبغتهم ونقلها الى عالم جديد لا ينفصلون فيه عن عالمهم القديم ، ولم يظهر بعد كيف يكون هذا العالم المنظور ولا كيف تكون العلاقة بينه وبين العالم الغربي على اختلاف مناحيه ، وكل ما هو واضح ــ اليوم ــ ولا حاجة به الى المزيد من الايضاح أن دعاة الحضارة الأوروبية يفقدون عطف العالم الاسلامي اذا حاولوا أن يعاملوه غدا كما عاملوه أمس معاملة السيد العليم للجاهل التابع ، اذ لا سبيل الى التفاهم على غير أساس المساواة ·

افريقيا الجديدة

* ★ *

ألف هذا الكتاب باسم (أفريقية الجديدة) صحفي أمريكي يكتب عن الرحلات بأسلوب الصحافة فيما تتعرض له من موضوعات الاستطلاع العلمي أو السياسي : وهي موضوعات ــ عند الصحافة العصرية ــ موفورة المادة من الاحصاءات والمراجع التاريخية والسياسية ، يستعان عليها أحيانا بتوفير أدوات الرحلة السريعة بمزاياها ونقائصها التي تجتمع في شيء واحد : وهو السرعة أو العجلة ٠

فالرحالة الصحفي قد تزود لتأليف هذا الكتاب بزاد ضخم من الاحصاءات المجهزة ، والمراجع الموجزة ، وتذاكر السفر الحاضرة على كل مطية من المطايا الميسورة في القارة الافريقية، وهي تنتظم أنواع المطايا من قبل الطوفان الى السنة الاخيرة بعد منتصف القرن العشرين ثم دون محصوله سريعا في اعداد العدة ، وسريعا في استخلاص النتائج منها ٠ فوضع بين يدي القارىء كتابا يغنيه في مثل هذا الغرض للاحاطة السريعة بأحوال القارة الافريقية في لمحات معدودات ، ولكنها تستند وراءها الى مستودع غير قليل من مراجع الوقائع والارقام ٠

ولقد كان شأن الاسلام في مقدمة الشئون الافريقية التي عني بها المؤلف حيث ترتبط بالعلاقات الوطنية (المحلية) أو حيث ترتبط بالعالم الواسع كلما اتصلت بجهة من جهاته ، وكلامه عن الاسلام في القارة الافريقية هو الذي يعنينا من هذا المقال ٠

ان المؤلف يردد الحقيقة المقررة عن عراقة تاريخ الاسلام في القارة وعمق أثره بين قبائلها وشعوبها ، ويزيد على المؤلفين السابقين أحيانا أنه يبحث عن عراقة الاسماء في المواقع التي يخيل الى الكثير أنها « محض وثنية » أو « محض جاهلية أفريقية » ٠٠٠

ومن ذاك أنه يتعقب الروايات المنقولة عن أصل كلمة

(بورنو) أو (بورنيو) فيقول انها على غير الظاهر من نطقها الافريقي قد ترجع الى كلمتين عربيتين وهما (بحر نوح) سقط منهما لفظ الحائين لأن الحاء لا تنطق في كثير من اللهجات الحامية فأصبحت (برنو) وأطلقت على موقعها لاعتقاد شاع بين العرب الاولين هناك عن علاقة بحيرة (شاد) بطوفان نوح ٠

ويرى المؤلف أن الاسلام أعرق وأثبت في القارة من أن تعوقه عن الانطلاق في أرجائها عوائق التبشير أو المقاومة السياسية : « فان المسيحية لم تفلح قط في مقاومة الاسلام بالقارة ، وانما كان العائق الوحيد الذي حال بين دين النبي وبين الانتشار فيها هو عائق ــ التسي تسي ــ أو ذبابة مرض النوم ٠ اذ كان الاسلام ينتشر دائما على أيدي فرسان الصحراء وكانت الخيل عرضة للاصابة بأذى تلك الذبابة وليس لها عمل غالب في أقاليم الغابات » ٠

ومن جملة « التسجيلات » الاحصائية أو العيانية التي راقبها المؤلف يخرج القارىء ببيان موجز عن مشكلات المسلمين في بلاد القارة التي بلغت استقلالها أخيرا أو لا تزال في طريق الجهاد لبلوغ ذلك الاستقلال ٠

ومن هذه المشكلات أن الحماسة للعقيدة الاسلامية يشوبها أحيانا جهل المسلمين البدائيين بفرائض تلك العقيدة ، واحتفاظهم بالكثير من أساطير الوثنية الأولى التي توارثوها عن جاهليتهم القريبة ، ولكنه يسوي بين القبائل الاسلامية والقبائل المسيحية ، التي تحولت عن جاهليتها بدعوة البعوث المسيحية ، فان هؤلاء وهؤلاء معا يأخذون من الدين الجديد بالقشور ولا يتعمقون فيه الى جوهره وروحه وقد يشاهد الافريقي المسيحي في الاقاليم التي تجاوز القبائل الاسلامية وهو يلبس التعاويذ القرآنية و « الأحجبة » الموصوفه في طلب المشايخ والفقهاء ، كما يشاهد الافريقي المسلم وهو يشرب الخمر ليعطي المرح حقه في المواسم الدينية ٠

ومن المشكلات الافريقية التي تعم المسلمين وغير المسلمين أن لهجات الخطاب بين القبائل تختلف في القطر الواحد حتى تعد بالمئات ، وأن التفاهم بينها انما يتأتى بلغة « تعليمية » يتلقونها من طريق الدعوة الدينية ، وهي بين دعوة تسري من

جانب المبشرين أو تسري الآن كما سرت من قبل على أيدي السكان المسلمين ٠

ويذكر المؤلف أن المسلمين ربما تخلفوا عن جيرانهم الوطنيين في بعض الاقاليم لأنهم قاطعوا المدارس العصرية يوم كانت تابعة كلها لبعوث التبشير ، فلم يتخرج منهم في تلك المدارس غير قليل من الموظفين الصالحين لأعمال الدواوين ٠

وقد أغلقت مئات من هذه المدارس في أعالي النيل وأواسط القارة ، ولم يخلفها عدد يضارع هذا العدد من المدارس الاسلامية أو الوطنية المنفصلة عن ادارة التبشير ٠

ولا يكتم المؤلف أنه لقي في بعض تلك البلاد أناسا (محليين) يجهرون بالسخط على حكوماتهم ويتساءلون عن الدول الامريكية والأوروبية : هل لهم أن يتطلعوا الى معونتها السياسية في مقاومتهم لجيرانهم المسلمين ؟!

قال : وانهم ليعربون عن أسفهم علانية كلما قيل لهم ان الدول لا تنوي أن تتعرض لهذه الشئون ٠ ثم يقولون : انه لا أمل اذن في غير معونة السماء !

وكلام المؤلف عن الاقاليم الاسلامية التي يراقبها جيرانها بين شواطيء البحر الاحمر ووادي النيل جدير بالتأمل وطول النظر ، لأنه (غير مفهوم) على حقيقته ، وغير معلوم بتفصيلاته فيما ينقل الينا عن أخبار تلك البلاد ٠

ويروي المؤلف أحاديث الزعماء المسلمين حيث يشيع الاسلام بين الملايين من السكان ، فينقل عنهم أنهم صريحون في المجاهرة بنفورهم من الخضوع لغير أبناء دينهم ، ولكنه يعقب على ذلك في بعض المواضع فيقول : ان هؤلاء الزعماء على تدينهم ومشاركة الملايين لهم في الدين ليس لهم أتباع سياسيون بمقدار عدد المشاركين لهم في الدين ٠

ومن ملاحظات المؤلف على مسلمي الصحراء أنهم (محافظون متشددون) ينظرون بشيء من الريبة الى مسلمي الحواضر ولا ينتظرون أن يتلقوا منهم الهداية الروحية ، لاعتقادهم أنهم مسلمون متفرنجون ، أو مسلمون غير أرثوذكسيين ٠

وقد أشار المؤلف الى احتيال الفرنسيين على تعليم هؤلاء

(الصحراويين) في غير المدارس النظامية التي يعرضون عنها ويسترببون بها ، فانهم أبدعوا في الصحراء نظاما بدويا يناسبها ويستهوي اليه أبناءها ، وهو نظام المدارس المتنقلة كأنها ضرب من قوافل التعليم ٠

وقد أومأ المؤلف الى خطة التفرقة بين العرب والبربر في المغرب الاقصى ، واستطرد منها الى الالمام بآثارها السياسية والاجتماعية في السنوات الاخيرة ٠

ويرى المؤلف أن من أسباب قوة الاسلام بين قبائل (الهوسا) الى الجنوب من بلاد المغرب الاقصى أن الشعائر الاسلامية قد أصبحت عندهم « طريقة حياة » مع الايمان بعقائدها الروحية، وقلما ينجح المبشرون في المزج بين التدين وأساليب المعيشة اليومية ٠

وقد أومأ المؤلف كذلك الى نشاط الطائفة الاسماعيلية في افريقية الشرقية ، وافريقية الغربية ، وقال ان واحدا من دعاتها في (سيراليون) يقدر عدد الوثنيين الذين تحولوا الى الاسلام على يديه بخمسة آلاف ٠

وقد تحدث المؤلف عن اقبال المسلمين الافريقيين على تعلم دروس الدين في الجامع الازهر فقال ان أكثر من مائة وسبعين شابا صوماليا كانوا يتعلمون في مصر سنة ١٩٥٧ ، وان الجامع الازهر والمعاهد الاخرى تجتذب اليها المزيد من أولئك الطلاب عاما بعد عام ٠

ولا نختم تلخيص هذا الكتاب دون أن نشير الى موضعين فيه يستحقان من القارىء المسلم كل عناية بالتوسع فيهما والاعتماد على النفس في استقصاء أخبارهما ، بنجوة من المصادر الاجنبية التي لا تخلو من قلة الاهتمام ان خلت من سوء النية ٠ وهذان الموضعان هما موضع « تسجيلاته وتبليغاته » عن تاريخ الاسلام الحديث في جوار الحبشة ، وموضع « تسجيلاته وتبليغاته » عن مساعي الصهيونية في القارة الافريقية ، فان المؤلف يطوي الاحاديث عن هذا الموضوع طيا لا يتسع للصراحة والبيان الوافي ، وان تكن أيسر الصراحة كافية للعلم بما وراء النيات ، أو العلم بمحاولات الصهيونية المتشعبة للانتفاع باشارة التعصب بين الافريقيين المسلمين وغير المسلمين ٠

الدين والسياسة في باكستان

• •

كانت تصفية الاستعمار شغلانا جديدا للباحثين في علم السياسة أو علم الدولة والحكومة ، وهو العلم الذي يبحث في تكوين الدول وفي العناصر الاجتماعية التي تهيىء مجتمعا من المجتمعات لاقامة الدولة أو الحكومة المستقلة فيه ٠

وقد زال الاستعمار عن بلاد كثيرة كان بعضها خليطا من الشعوب والاجناس والعقائد واللغات والمصالح الاقتصادية والمواقع الجغرافية ، بغير رابطة تجمعها الى وحدة مشتركة غير سيطرة الدولة المستعمرة عليها جميعا بسلطان القوة والسطوة ، فلما ارتفعت عنها هذه السيطرة تفرقت فاشتغلت كل منها بسبب من أسباب الاستقلال ، وتجدد البحث العلمي في عناصر الوحدة التي تصلح لقيام الدولة المستقرة في وطن من الاوطان ٠

هل هي وحدة الجنس والعنصر ؟ نعم ٠ قد تكون هذه الوحدة قوام الدولة ولكنها قد تتم في بلاد ولا تتم في بلاد أخرى توافرت لها معالم الدولة المستقلة ، كالبلاد السويسرية التي ينتمي سكانها الى أمم الجرمان والطليان والفرنسيين ويتكلمون اللغات الثلاث ، ويدينون بمذاهب مختلفة من المسيحية ٠

هل هي وحدة المصلحة المشتركة ؟ نعم أيضا ، ولكن البلاد قد تتولاها حكومة واحدة وهي في قطر من أقطارها زراعية ، وفي القطر الآخر صناعية ، وفيما بينهما أو في جوارهما تجارية تتعارض مصالحها المتفرقة في هذه المرافق ثم تجمعها فوق ذلك مصلحة أعم منها وأدعى الى الوفاق والاتحاد ، كالولايات المتحدة وبعض الجمهوريات الامريكية أو الأوروبية ٠

هل هي الوحدة الجغرافية أو الوحدة التاريخية ؟ نعم أيضا ولكن مع الاستثناء الواضح في كثير من الحالات ، فان «باكستان» تنقسم الى قسمين بينهما مئات الاميال ، والجزر البريطانية

وحدة جغرافية متقاربة ولكنها أشتات من المواضي والتواريخ والسلالات البشرية .

هل هي وحدة الدين ؟

لقد سئل هذا السؤال وهم علماء السياسة بالاجابة عليه بالنفي وكادوا ينسبون مطالبة المسلمين من أهل الهند بالاستقلال الى شذوذ (الرجعية الاسلامية) لولا أن حركة الاستقلال في الهند كانت مقرونة بظهور اسم اسرائيل في معترك السياسة الدولية ، فتعذر على العلماء (المنصفين) أن يتهموا اسرائيل بالرجعية الدينية كما شاءوا أن يتهموا بها طلاب الاستقلال من أبناء باكستان ، وتعذر عليهم من الجهة الاخرى أن يفرقوا بين الوحدتين في المصطلحات العلمية ، فسمحوا بالعامل الديني مع العوامل الاخرى التي تهييء البلاد لوحدة الدولة أو وحدة الحكومة .

ولقد كان مؤسس العلم السياسي ابن خلدون يفطن لهذه العوامل ولا ينسى منها عامل الدين في مقدمته الوافية حيث يقول عند الكلام على قوة الدين وقوة العصبية : « ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها ... وان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم ، وهم مستميتون عليه ، وأهل الدولة التي هم طالبوها وان كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل ... » .

ولكن الباحثين العصريين الذين يذكرون كلام ابن خلدون ولا يهملونه في هذا الصدد يستشهدون به ثم يعرضون عنه لأنه لم يعمل على « تطوير » هذه الفكرة وادماجها في أبواب التقسيم العلمية،وهكذا صنع الاستاذ ليورنارد بايندر: Binder صاحب الكتاب الذي نراجعه في هذا المقال واسمه : « الدين والشئون السياسية في باكستان :

Religion and politics in Pakistan

ان الاستاذ (بايندر) مؤلف الكتاب عضو في قسم الدراسات

السياسية المتخصصة لمسائل الشرق الاوسط والشرق الادنى • وله مباحث يجريها في البلاد المصرية من قبل معهد روكفلر ، ويظهر من تعليقاته على آراء المختلفين من أصحاب البرامج السياسية والدينية في الامم الاسلامية أنه يجتهد في الحيدة بينها غاية اجتهاده ، فلا يتورط في العصبية على النحو الذي ينساق اليه خدام التبشير والاستعمار •

يرجع المؤلف الى موقف المسلمين في الهند من الدولة البريطانية ومن الحضارة الغربية على التعميم ، فيلاحظ الحقيقة التاريخية المتفق عليها ، وهي يقظة المسلمين للدفاع عن كيانهم على أثر الاحتكاك بالسياسة البريطانية ومظاهر الحضارة الحديثة التي كان لها جانباها من الأثر الحسن والأثر السيء في التعليم والعادات الاجتماعية •

فاجتمعت كلمة الدعاة المسلمين على وجوب التبديل والاصلاح ، واختلفوا في المنهج على حسب اختلافهم في تعليل أسباب الضعف التي أصابت العالم الاسلامي بأسره ، ومنه المسلمون الهنديون •

فالذين عللوا ضعف المسلمين باعراضهم عن العلوم الحديثة طلبوا الاصلاح من طريق العمل الحثيث على مجاراة الأوروبيين في حضارتهم وضاعفوا السعي الى هذه الغاية بعد شعورهم بغلبة مواطنيهم عليهم ، لأنهم أقبلوا على التعليم الأوروبي فكثر منهم المرشحون لوظائف الدولة والاعمال العامة •

والذين عللوا ضعف المسلمين باعراضهم عن آداب دينهم وابتعادهم عن منهج السلف في أخلاقهم ومسالكهم طلبوا الاصلاح من طريق حركة (الاحياء) وهي حركة التجديد الاسلامي بالعودة الى سنن المسلمين الأولين ، وقصروا جهودهم في احياء الماضي على تجديد تاريخ السلف الاسلامي دون السلف القريب الذي ارتبط بتاريخ دول المغول •

وقد عصم هذه الحركة أن تكون رجعة الى الوراء ــ أن طلاب الاحياء انما طلبوا الرجوع الى الاصول الأولى بغير استثناء أو

تمييز بين المراجع الا أن يقضي به الاجتهاد في التوفيق بين السنة المختارة والضرورة العصرية ، فوجب على أصحاب هذه الدعوة ـ اذن ـ أن ينبذوا التقليد ويعتمدوا على الاجتهاد في اتباع السنة التي يهديهم اليها التفكير المستقل والنظر في مطالب الزمن ودواعي المصلحة الحاضرة ، وكادت هذه الدعوة المستقلة أن تقارب بين الفريقين المتعارضين ، وهما فريق التعليم الحديث وفريق الاحياء على سنة السلف مع الاجتهاد في الاختيار والاستقلال بالتفكير ، لأن هذا الاستقلال خليق أن يعصم الحركة من جمود التقليد الأعمى وكراهة التجديد اصرارا على القديم بغير تبديل ٠

ولما ووجهت الباكستان بالمشكلة الاقتصادية كان فريق من دعاة الاصلاح يجنح الى نظام يسماه بالديمقراطية الاسلامية وترجمه المؤلف الى الانجليزية بكلمة الديمقراطية الالهية

Theo Democraoy

وكان فريق آخر ، وعلى رأسه لياقت علي خان ، يدعو الى الاشتراكية الاسلامية ، ويقول في تصريحاته السياسية انه لا يعرف (ازما) يدين به غير الازم الذي يلحق باشتراكية الاسلام ، ويعني بالازم هذه الحروف الاجنبية «Zom» التي تلحق بأسماء المذاهب عند الغربيين ، فلا مذهب له في السياسة ولا في الاجتماع غير مذهب الاشتراكية على حسب عقائد الاسلام ، وفسر كلمة الدولة الاسلامية بقوله انها (هي الدولة التي سلمت المنازعات الداخلية حيث يجزي كل انسان بعمله ولا يحتمل بقاء الطفيليين ، وان الواجب الاول على الحكومة الاسلامية أن تبطل كل ضرب من ضروب الاستغلال والتسخير) ٠

قال المؤلف : ولكن دعوة لياقت خان كانت تبدو أحيانا كأنها دعوة الى شيء يخالف الفهم المعتاد للاشتراكية كما يخالف الفهم المعتاد للاسلام ، وخلاصة هذا المذهب أنه يسعى الى توفير القوت والكساء والمأوى والعلاج والتعليم لعامة الفقراء ، ومن الصعب في رأي المؤلف أن نذكر نظاما من النظم الاقتصادية لا يزعم أن هذا المسعى غرض مباشر أو غير مباشر من أغراضه المقصودة ٠

ويمضي المؤلف فيقول ان السند الاسلامي للنظام الاشتراكي يقوم على فريضة الزكاة ، وواجب الصدقات وأحكام المواريث وتحريم الربا وحماية الملكية ، واعتبار الدولة مسئولة عن توفير أسباب المعيشة لجميع رعاياها ، ومن ذلك في صدر الاسلام فريضة الأرزاق التي كان الخليفة عمر بن الخطاب يفرضها لبعض المستحقين .

وعقب المؤلف قائلا : ان ما سماه لياقت خان اشتراكية اسلامية لا يعدو أن يكون مزيجا من نظام رأس المال ثم الضمان الاجتماعي ثم (الله) ... وان هذه الفكرة الغامضة قد استندت الى ركن يؤيدها من (ضرورة الرأسمالية الحكومية) وهي ضرورة محسوسة حيث تتأخر الصناعة في البلاد كما هي الحال في باكستان ، ولم يغفل الداعون الى الاصلاح الاجتماعي على هذه القواعد عما يستتبعه من « الاجراءات الادارية » عند التطبيق ، ولكنهم نظروا اليها نظرتهم الى صعوبة تعالج في الطريق ولا تستدعي تقرير مبدأ سابق كفرض الادخار الجبري أو الاستيلاء أو الغاء المصارف وما اليها .

وأشار المؤلف في ختام الكتاب الى طائفة من فقراء الطبقة الوسطى بين أبناء الباكستان تميل الى اقامة « وطنية باكستانية » منعزلة عن الصبغة الدينية ، وهو اتجاه لا يستطاع الحكم على نتائجه منذ الآن ، ويتوقف التطور الديمقراطي في البلاد ، آخر الامر ، على تقدم الاصلاح الاقتصادي وانتشار التعليم معا على خطوة واحدة ، وبذلك يصبح النظام الاسلامي بذاته مصدرا مستقلا في عوامله السياسية .

افريقية التي لا تقبل التصديق

● ●

بعد خمسة قرون من بدء اهتمام الغربيين بالرحلة الى الشرق ، أصبحت كتابة هذه الرحلات مذاهب متفرقة ٠وأصبح كل مذهب منها ذا طرائق مختلفة ، على حسب كتابها وأغراضهم منها ، أو قدرتهم على كتابتها ٠

وقد التقينا على هذه الصفحات بكثير من هذه المذاهب وكثير من هؤلاء الكتاب وأولهم وأسبقهم أصحاب مذهب الاغراب الذين يجتذبون قراءهم برواية الاعاجيب والخوارق المجهولة ويحسبون أنهم مطالبون باعطاء أولئك القراء صورة يدهشون لها بديلا من كل صورة يألفونها في بلادهم ، ولو عمدوا الى المبالغة والاختلاق ٠

ومن هؤلاء الرحالين أناس مطبوعون على تشويه كل صورة يلقونها في البلاد الشرقية والبلاد الاسلامية على التخصيص ، وقد تبدو لهم مشوهة منكرة وهي لا تشويه ولا نكر فيها ، ولكنهم يكرهون الاعتراف بالحسنات بينهم وبين أنفسهم فيحيلونها الى سيئات توافق ما عندهم من سوء الظن وسوء الدخلة ، وقد يعترفون بالحسنة ولكنهم يقصدون تشويهها لاعتقادهم انه أقرب الى هوى قرائهم وأوفق لخدمة التبشير أو الاستغلال وهم يعملون لحسابه ٠

ولقد رأينا بعض هؤلاء الرحالين يصدقون في النقل والوصف لأنهم يتحرون الدقة الجغرافية والتاريخية ٠ ويعلمون أن هذه الدقة أنفع لهم وأجدى على قرائهم وأوطانهم ، اذ كان تضليل هذه الاوطان عن فهم الواقع على جليته تفويتا لهم عن سبل المنفعة التي يسلكها من يواجهون الحقيقة بغير تضليل ٠

ولا يندر بين الرحالين ممن يصدقون النقل والوصف أن يكون منهم من يصدرون عن عاطفة حسنة تعطفهم نحو البلاد الشرقية ويبعثها فيهم أنهم ناقمون على ولاة الامر في بلادهم ثائرون على سلطان رؤساء الدين فيها ، معتقدون أن اطلاع اخوانهم على حسنات الشرق وسيلة أخرى من وسائل الاطلاع على سيئات المسئولين في بلادهم عن عيوبها وأوزارها ٠

وربما أضيف الى أولئك وهؤلاء في الزمن الاخير جماعة الباحثين العلميين الذين يعلمون أن الطريق الى الشرق مفتوح أمام الكثيرين من طلاب السياحة والاستطلاع ويحذرون على سمعتهم « العلمية » من الخلط والتزيد في الامور التي يتناقلها الناس وتتواتر أنباؤها مع أحاديث البرق والاذاعة ولا يصعب على قاصد التحقيق أن يهتدي الى وجه الصواب فيها .

وكنا نحسب أن مذهب هؤلاء الباحثين العلميين قد تغلب على جماعات الرحالين في الزمن الاخير فضاقت على المغربين مذاهب الاغراب واستغنى قراؤهم عن غرائبهم بالجديد من أخبار البلاد التي تكفل لقارئها الجدة والطرافة وان لم تكفل له الدهشة ومباينة المألوف كل المباينة .

ولكن الظاهر من متابعة الرحلات الاخيرة أن طريقة الاغراب لم تنقطع بعد ، وأنها عند بعض الكتاب ضرورة لا يملكون اختيارهم فيها ، وهي على كل حال من اثنتين في أكثر الأحايين : ضرورة المزاج الشعري الذي يضفي على الواقع تزويق الخيال ولو كان من مشاهد وطنه ومألف بصره وسمعه ، وضرورة العجز عن كتابة ما يشوق القاريء ويطيب له بغير تهويل أو تحريف أو مبالغة في عرض الصحيح من كل مالوف مطروق .

ولا بد أن يكون صاحب الكتاب الذي بين أيدينا واحدا من هؤلاء المغربين توافر له السببان : سبب التزويق الشعري وسبب العجز عن التشويق بغير خبر غريب لا يقبل التصديق . لأنه جعل عنوان كتابه (افريقية لا تقبل التصديق : Incredible Africa) ليروي فيه ما لا يصدقه القاريء ويلقي الذنب على القارة وأبنائها ولا يلقيه على قلمه ولا على القراء .

ولعله لو استطاع أن يجتذب قراءه بأسلوب غير هذا الاسلوب لما ارتضاه للكتابة عن عقائد المسلمين في مراكش وهي أقرب الى معظم الأوروبيين من معظم البلاد الأوروبية ، وسياحهم فيها أكثر من سياحهم في بعض ربوعها .

روي عن أحد الفرنسيين في طنجة أنه قال له ولصحبه : « ان طنجة عصرية بالقياس الى بعض مدن الاقطار الداخلية . ولنضرب مثلا ببلدة فاس ... فانني لم أكد أفرغ من مطالعة

كتاب ظهر خلال القرن الرابع عشر ووصفها كما كانت في تلك الحقبة ، ولم تتغير اليوم عادات أهلها التي وصفها في كتابه ، فلو طبع الكتاب وعليه تاريخ هذه السنة لعده القاريء من تصانيف آخر ساعة » .

« وعلى أثر تناول القهوة بعد الغداء قالت لي فتاة انجليزية: انني سمعت ذلك الرجل يقول عن طنجة انها عصرية متمدنة ... انظر الى هذا ... ورفعت ذيلها لترينا ساقيها وهما مسودتان مزرقتان من أثر الضربات عليهما » .

« ومضت الفتاة تقول : انني كنت ألتقط بعض الصور في القصبة ولم تكن غير صور عادية للبيوت والطرقات وفيها بطبيعة الحال أناس من عابري الطريق ، فأخذ النسوة في الصياح وأقبل الرجال والاطفال الصغار فأوسعوني ضربا ورفسا بالأقدام ... » .

قال المؤلف معقبا على حديث الفتاة : « ... انها الخرافة القديمة ، فانهم يعتقدون أن آلة التصوير تلتقط أرواحهم مع أشباحهم ... وقد كاد أحدهم أن يحطم مصورتي حين جئت الى مراكش لأول مرة لأنه حسب أنني التقطت صورته ، ولم أكن قد فعلت وان كان هو موقنا أن الصورة هناك ، وأصر على ردها اليه،فلم يسعني الا أن أجاريه على وهمه وأخذت أزمزم (١) وأدمدم وأردد بعض الكلمات التي لا معنى لها ، ثم استخرجت روحا متخيلة من الحقيبة وناولته اياها ، فتناولها ومضى في طريقه وهو يلفظ باللغة العربية المتواترة : خنزير يهلك على قبر جدك .. » .

واسترسل الكاتب قائلا : « ان خرافة التقاط المصورة للارواح مع الاشباح شائعة في أرجاء العالم . ولكن الامر في بلاد المسلمين يداخله عامل آخر من عوامل كراهة التصوير ، فليس في الفن الاسلامي المشروع صور للخلائق الآدمية ، وانما يسمح هذا الفن بتمثل الرسوم الهندسية ليس الا ، لأن القرآن يحرم تمثيل الانسان لكون الاله الاعلى نفسه غير منظور ، ولا

---

(١) أزمزم:زمزم الرعد:صات ولم يعل صوته . والنار كان للهيبها صوت.

ينبغي للانسان أن يظهر والله الذي خلقه غير ظاهر . وشرحت ذلك للفتاة فلم تقنع بهذا التفسير وأجابتني قائلة انهـا ترى صور السلطان في كل مكان ، وعلى رأس البواب في هذا الفندق واحدة منها ... فقال الفرنسي الذي حدثنا من قبـل : ان السلطان مستثنى من هذا التحريم ، لأنه نصف اله ، ولا تسري عليه الاحكام التي تسري على سائر المخلوقات ... » .

ان عنوان « القارة التي لا تقبل التصديق » ليس بالتعويذة التي تحمي المؤلف من الشك الكبير فيما رواه ، وهبه شهـد في طنجة ما لم نشهده معه فأين هو كلام القرآن الذي يحرم على الانسان أن يظهر والله غير ظاهر ؟ وأين هو المسلم الذي يطيق أن يسمع بتأليه حاكم أو تشبيهه بالاله وهو يتلو في الكتاب أن نبيه صلوات الله عليه بشر لا يميزه عن غيره من أبناء آدم وحواء الا أنه بشر يوحى اليه ؟ وكيف يستطيع مسلم أو غير مسلم أن يفهم أن تمثيل الانسان مستكثر عليه ولكن هذا التمثيل الظاهر لا يستكثر على الحيوان والجماد ؟

ان افريقية التي لا تقبل التصديق هي افريقية على صفحات هذا الكتاب وليست افريقية كما خلقها الله ظاهرة للأعين قبل أن تظهر مصورة على الخرائط أو على الصفائح الشمسيـة ، وليست القصة التي نقلناها هنا غير مثل واحد من أمثلة شتى رويت عن البلاد الاسلامية وسائر البلاد المعروفة من أقطارها ، وقد يكون شفيعا للكاتب أنه سلك هذا المسلك للتهويل على ولده بما يستغربه من عظمة مراكش بالأمس كما سلكه للتهويل عليه وعلى عامـة القراء بغرائـب العقائـد والعادات فيهـا اليوم ...

فان ابنه كان يسأله عن المراكشيين : هل هم مستوحشون ؟ فيقول له : انهم ان لم يكونوا متمدنين حق التمدن فهم الذين علموا الأوروبيين المدنية قبل حين .

وتصيح به زوجته : لا تبلبل دماغ الغلام يا صاح ، فيدفع هذا البلبال عن دماغها ودماغ وليدها ووليده بصفحة وافيـة يشرح فيها فضل العرب على حضارة الغرب ، بعد زوال الحضارة من ربوع اليونان والرومان .

المسلمون السود في امريكا

The black Muslims In Americ

• •

في هذا الكتاب بيان واف عن حركة جدية في مقدمة الحركات الاسلامية المعاصرة بالقارة الشمالية من بلاد العالم الجديد ، منذ سنة (١٩٣٠م) الى اليوم ·

ومؤلف الكتاب قس من الامريكيين السود يسمى أريك لنكولن ينتمي الى الطائفة المسيحية التي تعرف باسم المنهجيين أو الميثوديين ويدرس الفلسفة الاجتماعية باحدى كليات « أتلانتا » ويكاد يتخصص للدراسات التي تتعلق بمذاهب السود في القارتين الامريكتين ·

وقد دلت طريقته في وصف حركة الدعوة الاسلامية بين السود الامريكيين على عناية بالصدق في تحري الوقائع والبحث عن مصادر الاخبار ، فهو ــ فيما عدا بعض العقائد التي ينسبها الى السود المسلمين ونستبعد أن يدين بها أحد ينتسب الى الاسلام ــ لم يذكر خبرا من الاخبار التاريخية يثير الريبة في نية التحقيق عنده أو يكلف القارىء تصديق ما لا يقبل التصديق من دخائل تلك الحركة ·

ولا غرابة في حرص الدكتور أريك لنكولن على تحقيق أخباره عن حركة كبيرة من حركات أبناء قومه في بلاده ، لأنه لا يستطيع أن يتنكر لشعوره بالقرابة الحميمة بينه وبين من يكتب عنهم وان نشأ على عقيدة غير عقيدتهم ، وربما كان انتسابه الى طائفة مسيحية كالطائفة « الميثودية » سببا آخر من أسباب الصدق في وصف عيوب المجتمع الغربي وتسويغ الشكاية التي يشكوها الناقمون على تلك العيوب ومنهم السود

الامريكيون ، فان الطائفة الميثودية انما نشأت وانتشرت في القرن الماضي لأنها دعوة صارمة الى اصلاح تلك العيوب وتبدل العادات والتقاليد التي من أجلها تبرمت طائفة السود بالحياة الاجتماعية بين البيض في القارة الامريكية ، وقد يكون في بيان تلك العيوب على حقيقتها شيء من الاعتذار عن اخفاق الدكتور أريك لنكولن وزملائه السود في تبشير أبناء قومه بمذهبهم المسيحي ، لأنه يقول ويستشهد على قوله بكلام المؤرخ الكبير « توينبي » ان السود شعروا بخيبة الرجاء حين دانوا بمذهب من المذاهب المسيحية ثم وجدوا أن وحدة الدين لم تغن عنهم شيئا لدفع المهانة عنهم ولا لحمايتهم من ظلم التفرقة بينهم وبين البيض في معاملاتهم وعلاقاتهم الشخصية أو الاجتماعية ٠

ويتراءى من بين السطور اعتذار آخر عن اخفاق المبشرين السود في ضم أبناء قومهم الى زمرتهم ٠ فان مؤلف الكتاب يلاحظ أن رؤساء الكنائس يترفعون عن قبول الشذاذ والوضعاء وذوي الشبهات بين أتباع كنائسهم ، في حين أن الدعوة الاسلامية قد أسفرت عن نجاحها التام في اصلاح هؤلاء المنبوذين بعد امتزاجهم بأبناء البيئة الاسلامية ، وقد يكون توكيد هذا النجاح عذرا للدكتور أريك لنكولن وزملائه من ذلك الاخفاق الذي يمنون به كلما حاولوا أن يصفوا صنيع الدعاة المسلمين الذين يرحبون بمن يستجيبون لدعوتهم وينشئونهم نشأة أخرى كما يقول المؤلف بغير مواربة في شهادته لمؤسسي الدعوة الاسلامية الأولين ولمن خلفهم على هداية أتباعهم المؤمنين ، فلا يخفي المؤلف اعجابه باقتدار أولئك الدعاة على تعويد أتباعهم ، بعد فترة وجيزة ، أن يستقيموا على حياة العفة والورع وان كانوا قبل ذلك من مدمني السكر ومقارفي الشهوات وملتمسي الكسب من أنواع المحرمات والموبقات ٠

ويشهد المؤلف لمؤسس الدعوة (فراج محمد) أو فراج محمد علي بحسن تدبيره لأمر الدعوة وتنظيم برنامجها واتباع الخطة التي تجدي في التوجيه وصيانة الـ[illegible] على سوائها ما ليست تجديه خطة أخرى في مكانها ، ومن آثار هذه الخطة

المنتظمة أن أتباعه بلغوا بعد سنوات نحو مائة ألف (وقد يزيدون) وأنهم أقاموا لهم بين الولايات الشمالية نحو سبعين مسجداً وزاوية للعبادة عدا المدارس والمكاتب وأندية الاجتماع والمحاضرة .. ومن دلائل تدبيره أنه كان يخفي عدد أتباعه ويتجنب الخوض بهم في غمار الانتخابات ويوصي أتباعه بمثل ذلك الى أن يحين الوقت لاستخدام أصواتهم على الوجه المقدور في ترجيح فريق على فريق من الخصوم السياسيين .

ويحيط المؤلف امام الدعوة بجو من الغرابة يلائم جو « الغيب » الذي يأتي من قبله رسل الدعوات ، فقد حضر الى « ديترويت » حوالي سنة (١٩٣٠م) ولم يحفل بحضوره أحد قبل بضعة شهور ، لأنه كان يحترف بيع الملابس والمنسوجات ولم يلفت اليه الانظار الا بعد افتتاحه البيت الاول للوعظ والصلاة ، فلما التفت اليه ولاة الامر ومستطلعو الاخبار بحثوا عن أصله والمكان الذي أقبل منه فلم يهتدوا من أمره قط الى يقين،وبلغ من اضطراب الظنون حول حقيقته ان بعضهم ينميه(١) الى مكة وبعضهم ينميه الى فلسطين ، ويقول أناس انه من الافريقيين التابعين للدولة التركية ، ويقول غيرهم انه من رسل النازيين الى أمريكا لاثارة رعاياها المتمردين عليها ، بل زعم بعضهم أنه من دعاة السياسة اليابانية ، كما زعم آخرون انه من دعاة السياسة الروسية ، ولولا ان تنظيم الحركة كان أقوى وأثبت من أن تستمال الى خدمة الدعايات لحقت فيه شبهات القائلين انه داعية من أولئك الدعاة الدوليين مستتر عن الانظار بستار القومية والدين ، ولكن الرأي المحقق الذي انتهى اليه الباحثون عنه انه « مبشر مسلم » شديد العصبية لدينه ، مع مغالاة تنسب اليه في مزج الدعوة الدينية بالدعوة العنصرية الى تغليب الرجل الاسود على سلطان « الرجل الابيض » خلافاً للعنصرية النازية التي حاول بعضهم أن يحسبه من أذنابها .

---

(١) ينميه : نمى ينمي نميا الشيء : عزاه ونسبه .

ولما احتجب عن مقر الدعوة بمدينة ديترويت وما حولها كان احتجابه أغرب من ظهوره وأدعى الى اثارة الظنون واضطراب الاقاويل فانه أناب عنه آكبر مريديه السيد « محمد ايليا » ثم انزوى عن الانظار ولم يرجع من غيبته تلك الى هذه الساعة ، وقيل عن أسباب احتجابه : انه ينتظر ساعته الموعودة ، وقال كثيرون انه ذهب ضحية لمكائد أعدائه الدينيين أو السياسيين ، ولم يستبعد فريق من أبناء الاقليم أنه اغتيل وان اغتياله كان على يد ناس من أتباعه المنشقين عليه ، لأنه كان يجرد حملته السياسية لعداوة الرجل الابيض ولا يوصي أتباعه بالولاء للدولة القائمة في البلاد ، وانشقت عليه فئة من أتباعه أشفقوا من تعريض الحركة كلها لبطش الدولة باسم القانون فخالفوه وجهروا بولائهم للسلطة الدنيوية مع احتفاظهم برسالتهم الدينية والثقافية ، والى بعض هؤلاء المنشقين يعزى اغتياله على قول أناس من شيعته وأناس من مخالفيه ٠

وكل ما ينسبه مؤلف الكتاب الى هذه الدعوة يدخل في باب الاحتمال المقبول الا ما يرويه عن شيعة قليلة اعتقدت فيه أنه اله تجسد لينقذ خلائقة المظلومين ، وأنه ظهر بالجسد على صورة انسان من السود لأنه أراد أن يطهر الارض من فساد الرجل الابيض ويسلمها لأيدي السود من ضحايا ذلك الفساد ٠

فنحن نستبعد أن يشيع هذا الاعتقاد بين أناس يقرءون القرآن ويعرفون طرفا من سيرة النبي عليه السلام ، ولكننا لا نستبعد الغلو في الحملة على الرجل الابيض وما يتبعه من الغلو في تقدير رسالة الرجل الاسود الذي يضطلع باصلاح فساده وازالة سلطانه ٠ فان مؤسس الدعوة بمدينة « ديترويت » قد عول على النخوة القومية ولم يكن له مناص من التعويل عليها للارتفاع بنفوس أتباعه الى مقام الكرامة التي تأبى الخنوع لاصحاب السلطان وتطمح الى الوقوف منهم موقف المصلحين المعلمين ، فليس قصاراه من الاقناع أن يقنع سا -يه بمشابهة السادة في بلادهم وبين مظاهر سلطانهم واعتزازهم . بل سو

ينأديهم ليصلحوا حيث فسد أولئك السادة ، ويملكوا زمام الولاية حيث كانوا من قبل مملوكين مسخرين •

ووافقت هذه الدعوة « المحلية » دعوة أخرى عالمية من قبل الآسيويين والافريقيين ، لم يكن لها شعار منذ قيامها مع حركات الاستقلال غير الثورة على دعوى الرجل الابيض في حق السيادة على الأمم الصفراء والسمراء أو الأمم غير البيضاء على الاجمال، ولم ينس امام الدعوة أن الاسلام لا يقوم على كراهة جنس من الاجناس ولا على التفرقة بين الشعوب والالوان ، ولكنه كان يقول : انها « كراهية تولدت من الكراهية » وان عداوة السود للبيض فرع من أصل عريق فيما حوله ، وهو عداوة البيض للسود • فاذا تقدم الزمن بدعوة « ديترويت » الى ما وراء هذه البواعث «المحلية» أو الموقوتة لم يكن عسيرا على المؤمنين بها أن يصونوا لها تلك الغيرة التي استمدتها من النخوة القومية ليستقيموا بها على النهج القويم من الغيرة « الاسلامية » أو الغيرة الالهية •

ويرى القارىء أن حديث المؤلف عن الاقليات حديث يغلب عليه الصدق والانصاف ، ومنه حديثه عن المسلمين السود ، وهم أقلية دينية ، بين أقلية قومية ، من السود المتنصرين أو الوثنيين •

ولعل مرد هذا الى أن مؤلف هذا الكتاب ــ القس الامريكي الاسود الدكتور أريك لنكولن ــ من أتباع الكنيسة المنهجية Methodist التي تعتبر ــ هي نفسها ــ قلة صغيرة بين الكنائس الغربية ، تقوم برسالة مجددة كرسالة الثورة على التقاليد وعلى البدع المستحدثة في وقت واحد •

وقد جنح بالمؤلف موضعه هذا بين الاقليات المتداخلة الى الصدق في تصوير أحوالها وشرح أزمانها وبسط أسباب الشكاية من جانبها ، وهو ــ في جملة آرائه وعواطفه ــ أقرب الى تسويغ مواقف الاقليات بازاء الكثرة الغالبة بين الأمم البيضاء ، لأنه يرى أن الاقلية من مبدئها لا توجد الا ... ولا تتساند للدفاع

عن حقوقها والتمرد على مظالمها ما لم تكن هناك حقوق مهدرة ومظالم منكرة واتفاق على الشعور بالخطر والتذمر من الضيم ، تخلقه الحاجة الى التضامن حيث لا غنى عنه ولا مناص منه ، لأنه الوسيلة الوحيدة لحفظ البقاء واجتناب الفناء .

وليس أعلم من هذا المؤلف بأحوال الاقليات على اختلافها ، لأنه ينتمي الى أكثر من (أقلية) واحدة بين السود والبيض ، فضلا عن قلة القساوسة السود بين زملائهم البيض ، وقلة هؤلاء القساوسة جميعا على مذهب الكنيسة (المنهجية) بين رجال الدين من أتباع الكنائس الكبرى .

والقاري يدرك من المقارنات الكثيرة بين أحوال الاقليات أن السود المسلمين في موقف خاص مع الامريكيين السود والبيض على السواء ، وان هذا الموقف قد يعرضهم للحرج بينهم وبين أنفسهم اذا أرادوا (تصحيح الوضع) من الوجهة الاجتماعية التي ترتبط بأحكام القانون و (ظروف) السياسة القومية ، ومن حولها السياسة العالمية .

فاليهود ــ مثلا ــ قلة في الولايات المتحدة ، لأن عدتهم على أكبر تقدير لا تزيد على خمسة ملايين ، ولكنهم لا يشعرون بالحيرة التي تشعر بها الاقليات الوطنية اذا اضطرتهم النفرة بينهم وبين المسيحيين البيض الى اجتناب الاندية والمجامع المشتركة ومواضع المزاحمة الملحوظة في الحياة العامة ، لأنهم أصحاب ثقافة دينية وتربية فكرية تجمعهم معا عند الحاجة اليها ويعتصمون بها في عزلتهم المختارة أو عزلتهم الاضطرارية ، وكثير منهم من يختلط بأبناء الاكثرية اختلاطا تصعب التفرقة فيه ، لأنه اختلاط في المصالح والاعمال .

أما الامريكي الاسود فليست له عصمة ثقافية يأوي اليها اذا اضطرته النفرة منه الى اعتزال المجتمع الابيض ، لأنه عالة في ثقافته العصرية على أولئك الذين يعتزلونه ويدفعونه على الرغم منه الى الاعتزال ، فهو يتعلم منهم ويدين أحيانا بدينهم ، وملاذه من التفكير ومن الآداب الاجتماعية يعود به الى مجتمع

بدائي في غير القارة الامريكية ، وليس له قوام اجتماعي في بلاد هذه القارة ٠

وهنا تنشأ بين الاقليات حالة خاصة لا تشبه حالة الاقلية اليهودية ولا حالة الاقلية الزنجية ، وهي حالة السود المسلمين ٠

ان هؤلاء السود المسلمين يعرفون لهم ملاذا ثقافيا يعتصمون به اذا نفروا من البيئة الاجتماعية البيضاء أو نفرت منهم هذه البيئة ، لأنهم يجدون في المجتمع الاسلامي ثقافة روحية تعوضهم عن ثقافة الاكثرية الغالبة ، ويعتمدون على هذا المجتمع لايواء اللاجئين اليه من أبناء جلدتهم الذين يتقبلهم المجتمع ولا يرفضهم كما ترفضهم الكنائس المسيحية ، وقد تبين ـ مما سلف ـ ان المجتمع الاسلامي لا يضيق باللاجئين به من نفايات المجتمع الامريكي الموصومين بوصمات العار والرذيلة ، لأن هؤلاء اللاجئين لا يلبثون أن يشعروا بالتعاطف الصادق بينهم وبين اخوانهم ممن سبقوهم الى الاسلام ، فلا يطول بهم الامد أن يقلعوا عن عادات السوء التي وصمتهم في حياتهم الأولى ، ويتوب الاكثرون منهم من رذائل المقامرة والمعاقرة ومقارفة الأوزار ٠

فاذا استطاع المسلم الاسود أن يعتصم بمجتمعه الاسلامي فماذا يكون موقفه في هذه الحالة من المجتمع الاكبر : مجتمع الأمة الامريكية ، أو الدولة الامريكية في أوسع نطاق ؟

لقد كان زعيم الدعوة الاسلامية في الولايات المتحدة يستنهض السود بنخوة القومية والعصبية للاستقلال بعقائدهم وعواطفهم عن الاكثرية البيض ٠

فهل تمضي الأقلية الاسلامية على هذه الخطة فتعتزل الأمة التي تعيش بينها اعتزال الاعداء وترفض الولاء « القانوني » للوطن الذي تنتمي اليه ؟

ان هذه الخطة أخرجت كثيرا من زعماء المسلمين السود ومكنت منهم خصومهم الدينيين والسياسيين ، فحاربوهم باسم القانون واستعانوا عليهم بتهمة الخيانة الوطنية ، وأوشكوا أن يتذرعوا بهذه التهمة لحرمانهم من حقوق المساواة في الانتخاب

ووظائف الحكومة ، فنهض من هؤلاء الزعماء المسلمين أنـاس يحمون أبناء دينهم من جرائم الاتهام بخيانة الوطن ويعتبرون الدعوة الى الاسلام دعوة مفتوحة للبيض والسود على السواء ، ولا يرون للدعوة الآن نفعـا كبيرا في قصرهـا على استثـارة (العصبية) الجنسية واعتبارها ثورة على البيض في الدين وفي الوطن وفي آداب الاجتماع ٠

وهؤلاء الزعماء الكفاة يتوسلون بتغيير الوجهة على هـذا النحو الى غاية أخرى أصعب مراما من الأولى ٠ وهي الاعتراف بالاسلام مذهبا من المذاهب الدينية الرسمية في دستور الولايات المتحدة ، وهو مطلب كبير غير مطلب الحرية الدينية ، لمن يشاء من السود أو البيض أن يدين بالاسلام ، فليس في نصـوص القوانين ما يمنع أحدا أن يتحول عن عقيدته المسيحيـة الى العقيدة الاسلامية ، ولكن المشكلة (الواقعية) تبدأ حين يتصل الامر بحكم من أحكام القانون تتعارض فيه الحقوق واجراءات القضاء ، وبخاصة مسائل الزواج والميراث ٠

فماذا يكون الحكم في قضية تلجأ فيها زوجة من زوجتين الى المحكمة للمطالبة بحصتها في الميراث ؟ وماذا يكون الحكم في قضية يتنازع الخصوم فيها على المسائل الشرعية التي لا تنص عليها قوانين الدول الأوروبية أو الامريكية ؟٠

عند الاعتراف بالاسلام مذهبا رسميا من مذاهب الدولـة يجوز أن تكون لهذه القضايا جهات نظر مستقلة يحتكـم اليها المختلفون ، وهذه هي الوجهة التي يتجه اليها زعمـاء الدعوة الاسلامية ، ويعتبرونها حقا من حقوق المواطن الامريكي ينبغي أن يعترف به الدستور والقانون ٠

ولا يخفى ان القانون الامريكي يحرم تعدد الزوجات،ويحرم المذاهب المسيحية التي اعتمدت في اباحة تعدد الزوجات على نصوص العهد القديم ، ومنها مذهب المورمون ٠٠٠ ولكـن المشكلة تزول من ناحيتها القضائية اذا بطل الاحتكام فيها الى محاكم البلاد وتراضى الطرفان على حلها بينهما أو على اختيار

الحكم الذي يفصل فيها ، ولو لم يكن هذا الحكم مفوضا في وظيفته من جانب الدولة بالنظر في هذه الامور ·

وقد عهدنا من مؤلف الكتاب انه لا يكشف عن نية صريحة في مقاومة الدعوة الاسلامية ، ولكنه صريح كل الصراحة في بيان المواقف التي توجب هذه المقاومة أو تيسرها لمن يريدها ·

ويبدو من بين السطور أن تحويل الدعوة الاسلامية من حركة مقصورة على السود الى حركة تفتح ذراعيها للسود والبيض من الامريكيين وغير الامريكيين ، هي موضع الاهتمام الكبير في دوائر التبشير ، لأن المبشر الاسلامي من الامريكيين السود يعاون الدعوة الى الاسلام في بلاده كلما اتجهت هذه الدعوة الى أبناء البلاد جميعا من قبل المسلمين الآسيويين والافريقيين ، وهم اليوم في امريكا طليعة ناجحة قد يتبعها غدا مدد كبير ، وأدعى من ذلك الى اهتمام دوائر التبشير أن المسلم الامريكي الاسود يزاحم البعوث التبشيرية مزاحمة شديدة في القارة الافريقية بعد استقلال شعوبها عن سلطان الدول الغربية ، وينتظر أن يكون ــ في تقدير المبشرين قبل غيرهم ــ أوفر نصيبا من النجاح والقبول من اخوانهم السود في تلك البعوث التبشيرية ، وأشد ما يكون الاهتمام بهذه المسألة في هذه الايام ، فاننا نفتح الصحف التي تعنى بها عندهم فلا نكاد نطلع على صحيفة منها تخلو من أخبار (ترقية) المبشرين السود الى كراسي الاساقفة ، بل المطارنة ، من رجال الكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية المقيمين بالديار الافريقية أو الراحلين اليها من ديار العالم الجديد ، ويزداد عدد هؤلاء الاساقفة والمطارنة كل يوم في البلاد التي يكثر فيها المسلمون ·

*

دور الاسلام في مستقبل القارة الافريقية

للاسلام حصة بارزة — لا تزال — في كل كتاب حديث يصدر من المطابع الأوروبية أو الامريكية عن القارة الافريقية . وقد تنوعت موضوعات هذه الكتب على الزمن وتنوعت معها وجهة البحث في المسائل الاسلامية .

ففي الفترة الأولى منذ ابتداء العناية بهذه القارة قبل نحو السنوات العشر كانت الموضوعات كلها — أو أكثرها — متجهة الى الاحصاء وجمع المعلومات العامة عن السكان وموارد الرزق وينابيع الثروة وتقسيمات المواقع وتسجيل الظواهر الجغرافية والاستعمارية ، وكأنما كان المؤلفون يفكرون في الناحية التي يستفيد منها المسيطرون من الخارج وهم يديرون حكومات البلاد أو يملكون أزمة الحكم ووسائل السيطرة والاستغلال فيها .

فلما تقررت في الاذهان فكرة الاستقلال الوطني أصبحت ارادة الافريقيين بين حاكمين ومحكومين هي الناحية التي تتجه اليها أنظار المؤلفين ، وأصبحت ارادة الاجنبي تبعا للارادة الوطنية في تحصيل المعلومات والتعليق عليها بعد قيام الحكومات المستقلة وتركيز السلطان فيها على العوامل النفسية والاجتماعية التي ترجع الى أبناء البلاد أولا ثم ترجع بعد ذلك لمن يحسن فهمها والانتفاع بها من أصحاب السياسات الاجنبية .

وقد أسفر هذا التنويع في موضوعات التأليف عن وجهتين من وجهات البحث المخصص للمسائل الاسلامية ، وهما :

أولا : دور الاسلام المنتظر في اقامة نظم الحكم بعد استقلال الأمم الافريقية .

ثانيا : معنى انتشار الاسلام قديما وحديثا بين الافريقيين باعتباره حركة من حركات التاريخ ، والاستطراد من ذلك الى استطلاع مصير هذه الحركة بين حركات الحضارة أو الحضارات العصرية .

وفي أكثر من بحث هام يميل المؤلفون الى ترجيح فرص الاسلام على فرص العقائد الاخرى — دينية كانت أو اجتماعية —

في توجيه دفة الحكم واتخاذ السند الموافق للأنظمة الادارية أو الدستورية التي يختارها الافريقيون حيثما توقف الامر على تقاليد المسلمين أو قواعد الاسلام كما يفهمونها هناك ٠

ففي كتاب افريقية الاستوائية ، وهو كتاب ضخم في مجلدين تزيد صفحاتهما على مائة وألف صفحة ــ يقول الاستاذ جورج كمبل Kimble رئيس قسم الجغرافية بجامعة أنديانا ــ « انه من المشكوك فيه أن تكون الانظمة الغربية القائمة على النفاذ والجد ، ملائمة لمطالب الثقافة في بيئة يغلب فيها أن يكون السبق للماكر لا للسريع ، والفوز في المعركة للخفيف في العمل لا للقوي في الخلق ، حيث لا معنى لكلمة الفساد والرشوة لأن كل خدمة تعطى تتبعها فائدة تؤخذ ، ويسود الشك على العموم في جدوى المطابقة بين النظم المحلية والنظم الغربية ، ولا يخلو مكان من فكرة الحيدة بين الكتلتين الغربية والشرقية ، اذ يعتقدون أن الأمة يستحيل أن تحكم نفسها اذا هي كانت متعلقة بأخلاق الأمم الاخرى ولغاتها وعقائدها ، ولا يقتصر النفور هنا على كرامة السير على المنهاج الغربي ، بل يتعداه الى وجوب البحث عن منهاج آخر أوفق للعقل الافريقي والظروف الافريقية ، مع تفضيل الاسلام ــ لتسليمه بمواطن الضعف الانساني واغضائه عن فوارق الالوان ــ على المسيحية بما تدعو اليه من الدقة وما تشتمل عليه من الكهنوتية المعقدة والاعتراف بالفوارق الكثيرة ، فضلا عن الارتباط بين وجودها ووجود الطبقات الحاكمة والعلم بأنها تكون في موضعها صحيحة مألوفة كلما تسربلت بسربالها الفضفاض الذي لا يضيق حتى يشبه كسوة الشغل في المصنع وهي على هذا ــ تصر على التشبث ببعض القيم التي احتواها النظام الاجتماعي القديم بروابطه العائلية وشعائره المتبعة واجراءاته القضائية وسائر فنونه التي لا يعلى عليها ويكاد الرجل الابيض نفسه ألا يرتفع الى أوجها » ٠

يقول المؤلف ذلك في الصفحة الـ (٤٣٦) من المجلد الثاني، ولكنه يقرر في الصفحة الـ (٢٧٦) من المجلد نفسه كلاما ينقض هذا الكلام في فحواه اذ يقول : انه على نقيض الحالة

بالنسبة الى المسيحية يشاهد « أن الاسلام كان له أثر ضعيف في الوطنية الافريقية وهو مع ضعفه الشديد سلبي لا ايجاب فيه ، لأن المثال المميز للحكومة الاسلامية ، كما يقول جورج كاربنتر انما هو مثال الحكم الشخصي المطلق مستندا الى ولاء الجماهير قائما على قواعد الدين ، وعلى الخوف والرهبة ، وسلطان الحكم العسكري ، ولا ملاءمة بين هذا المثال وبين تركيب النظام الاداري المتشابك وتعدد الكفايات الفنية التي تتطلبها الاعمال المنوعة في الأمم العصرية ، اذ ليس في وسع هذا المثال أن يخلق ولاء للوطن يرتفع به فوق منازعات العقيدة والافكار المختلفة ، ولا أن يهيء المجال لنشأة الزعماء المنتظرين وضمان الامان للاكفاء من الموظفين » .

ويرد هذا البحث في كتاب ضخم آخر عن شبه جزيرة « سيراليون » يقع في أكثر من سبعمائة صفحة ويقول مؤلفه كريستوفر فايف Cristophe Fyfe في متفرقاته : « ان تعاليم البعوث التبشيرية المسيحية على خلاف تعاليم الاسلام — تهدم الاستقلال الذاتي في الافريقي وتعطل تصرفه المطبوع ، والحل الذي يقترحه بلايدين Blyden هو اقامة جامعة خاصة بافريقية الغربية تسند فيها وظائف التعليم الى افريقيين من نصفي الكرة ومعهم افريقيون مسلمون من داخل القارة لتنشئة الطلاب على سليقتهم والابتعاد بهم عن محاكاة المثل الغربية » .

أما البحوث التي تعرض لتفسير معنى انتشار الاسلام في القارة الافريقية باعتباره حركة من حركات الأمم في التاريخ العالمي فهذه أمثلة منها :

يرى باتين Batten في سلسلة كتبه ، عن أواسط افريقية أن انتشار الاسلام بين الافريقيين — اذا روجعت أسبابه جميعا — انما هو نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة انسانية ممتازة لم تكن في العالم حضارة تضارعها أو تقوى على مغالبتها ، وأن وصول الاسلام الى القارة الافريقية كان ملازما لوصوله الي القارة الأوروبية نفسها وامتداده الى الاقطار البعيدة من القارة الآسيوية ، وقد كان امتياز حضارته سببا كافيا لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذي يصل اليه العربي المطبوع

على الترحل والسياحة ، يعينه على مطاوعة هذه النزعة أنه اقتبس كل ما يقتبس من اليونان والأمم القديمة من علوم الجغرافية والفلك وزاد عليها حب الكشف الذي سرى الى جميع المسلمين مع سريان الشوق الى زيارة مكة ومعاهد الاسلام الأولى · « وبينما كان الأوروبيون يعولون على السحر كان أطباء العرب يجرون عمليات الجراحة الصعبة ويحسنون الانتفاع بكثير من العقاقير ولا تزال طرق العلاج عندهم مما يستفيد منه الاطباء في علاج بعض الامراض الى هذه الايام » ·

ومثل هذه الحضارة لا سبيل الى حصرها في بقعة محدودة من العالم ، مع اقدام العربي على احتمال الجهد والخطر ورغبته في الرحلة والارتياد · فانتشار الاسلام انما هو في حقيقته انتشار حضارة جديرة بالانتشار وهو حركة من حركات التوسع « الأممي » تبعثها دواعي النشاط التي تمهدها المعرفة ، وتشحذها العقيدة التي تسود الدنيا ، لأنها لا تبالي أن تقتحمها ولا تكترث لفراقها ·

ومن أحدث المؤلفات عن افريقية تاريخ موجز للقارة ألفه كاتبان لهما خبرة حسنة بالشرق من طريق الدراسة ومن طريق السياحة والمعاشرة ، وهما رولاند أوليفر وجون فاج Fage وهما يفصلان بين دور الفتح الاسلامي ودور التغلغل الاسلامي الى مجاهل القارة الافريقية ، فان الاسلام لم يسلك طريقه الى ما وراء الصحراء الا بعد زوال دولته الكبرى في المغرب ، ولكن الشعوب الافريقية الى الشمال لم تكن لتجتاز الصحراء التي لم تجاوزها قبل ذلك لولا دفعة من الحضارة يعززها ايمان العقيدة ··· « وان الفترة بين سنتي (٨٠٠ و ١٣٠٠ ميلادية) هي الفترة التي ازدهرت فيها حضارة للاسلام لم تشتمل حضارة أخرى على مثل ما اشتملت عليه من ثمرات الفكر والفن والعلم والسياسة ، وهي كذلك فترة نمت فيها دول من أهم دول القارة الافريقية ، اذ قامت شعوب البربر بدور تاريخي كبير في العالم الغربي والبلاد الآسيوية القريبة ، وقامت من خلفها الى جنوب الصحراء ممالك من أعظم الدول التي كان للاسلام هناك شأن في اقامتها » ·

وكأنما ابتدأت مرحلة الامتداد الى داخل القارة الافريقية في تقدير المؤلفين ، بعد انتهاء مرحلة الاستقرار في شمال افريقية وجنوب أوروبة ، على أثر انحلال الدول الاسلامية القوية في كلتا القارتين ٠

ويتخطى جاك بولن Bulin مراحل الماضي في كتابه عن « دور العرب في افريقية » ليسأل عن دور الاسلام في المستقبل القريب بين القوى التي يمكن أن تعمل في توجيه القارة ، وهي قوة التبشير وقوة السياسة الدولية وقوة الوطنية غير الاسلامية ٠

ويقول المؤلف ــ وهو صحفي فرنسوي يعرف العربية والانجليزية ــ ان الكنائس تتغاضى عن الاسلام ولا تشتد في مقاومته لأنها لا تنزله منزلة العدو الاول مع ما تحذره من خطر الشيوعية ، ولهذا لم تعقب صحيفة الفاتيكان بشيء على البيان الصريح الذي أعلن فيه شيخ الازهر في مستهل سنة ١٩٦١ وجوب محاربة البعثات التبشيرية لأنها أداة من أخطر أدوات الاستعمار ، ولا يلوح من مسلك الوطنيين الافريقيين غير المسلمين أن الدول الغربية التي كانت تستعمر بلادهم ستلقى منهم عونا في السياسة التي قد تتبعها لمقاومة الاسلام ، فما لم يأت المستقبل بنبأ جديد عن علاقات الوطنيين الافريقيين بهذه القوى المتقابلة فهناك دور هام للعرب أو للاسلام في القارة الافريقية يحسب له حسابه الكبير في توجيه مستقبلها القريب ٠

وهذا جواب معلق على سؤال المؤلف عن المصير ، ولكنه يخرج بجوابه المعلق من تردد الشك والابهام الى بعض الوضوح حين يشير تلك الاشارة الى الدور الاسلامي المحتمل ، لأن الفريق الاكبر من الباحثين يحجمون عن الجواب النافع اذا قابلوا بين العدة التي استعد بها الاسلام أمس للايغال في قلب القارة الافريقية وبين عدته التي قد يستعد بها اليوم للثبات والمزيد من التقدم ، ولا يبدو على أكثرهم أنه ينتظر من القارىء جوابا الى الايجاب اذا سألوا عن القوة الكامنة في المسلمين : هل هي كفؤ لرسالتها الجديدة في القارة الافريقية ؟!

تأثير الاسلام في العبادة اليهودية

– ١ –

هذا اسم كتاب ألفه نفتالي فيدر Naphtali Wieder باللغة العبرية ونشرته مكتبة الشرق والغرب بأكسفورد وجعلت عنوانه بالانجليزية :

Islamic Influences On The Jewish worship

وعنوان الكتاب يغري بهذا السؤال : كيف يكون هذا التأثير واليهودية سابقة للاسلام ؟ .

وقد يتعرض القاريء المسلم أيضا لهذا الاغراء ، لأن تقدم اليهودية في تاريخ الدعوة يخيل الى الكثيرين أن السابق في التاريخ أولى بالتأثير فيما يليه ، أو بسبقه الى الشعائر التي يتشابهان فيها .

وهذا الخاطر « العرضي » هو مصدر تلك « الاشاعة » التي راجت في الغرب وكادت أن تثبت عندهم ثبوت المقررات العلمية، فقال بعضهم : ان الاسلام نسخة مفصحة من اليهودية ، وزاد آخرون فقالوا : بل نسخة مشوهة من اليهودية والمسيحية ! ولم يبرأ من هذه العجلة رجل في طبقة الدكتور « شويتزر » في الثقافة والخلق ، كان من واجبه أن يعصم عقله أمام الاشاعة الرائجة ، وان كل قول لا يستند الى البحث ولا يستند البحث فيه الى الدليل فهو حديث من أحاديث الاشاعات ، ان لم نقل أحاديث الخرافات .

والبحث الذي كان من الواجب أن يستقصيه « الباحث » المقارن بين اليهودية والاسلام انما يقوم على دراسة الموضوع والأمة لا على دراسة الرقم التاريخي وحده والوقوف لديه بعيدا من موضوعه ومن أهله .

ولا يتم هذا البحث الا اذا تناول أصالة اليهود فيما نقلوه

من العقائد والاخبار ، ثم تناول السبق عامة ولم يتناوله في ناحية واحدة من نواحيه ، وتناول جوهر الدين ولم يقنع منه بأسماء العناوين ٠

واليهود ليسوا بالأصلاء فيما تدينوا به من العقائد ونقلوه من الاخبار ، لأنهم لم يعرفوا أكثر هذه العقائد والاخبار قبل عهد عبوديتهم في بابل ، وكل ما كان مفتوح الباب لليهود فيما بين النهرين فقد كان مفتوح الباب أيضا لعرب الجزيرتين : جزيرة الدجلة والفرات وما يليها من أرجاء الجزيرة العربية ٠

والسبق الى النبوة عامة لم يثبت لليهود ، بل ثبت من كتب اليهود أنفسهم أن أنبياءهم الأول تلقوا علم الدين وشعائر العبادة من « ملكي صادق » وبلعام وأيوب ويثرون ٠٠٠ ويثرون — كما جاء في العهد القديم — هو الذي علم موسى عليه السلام علم التبليغ واقامة الشريعة ، وهو الذي أمه وأم قومه لصلاة القربان ٠٠٠ وفي تاريخ العرب من أخبار الانبياء ما ليس في تاريخ اليهود ، ومنهم صالح وهود وذو الكفل عليهم السلام ، وكلمة « النبي » نفسها لم تكن معروفة عند اليهود قبل دخولهم أرض كنعان ، وانما كانوا يسمون النبي بالرائي ورجل الرب على رواية العهد القديم ٠

أما المقارنة في جوهر الدين فالمعول فيها على المقارنة بين الفكرة التي توحيها الديانة في العقائد الجوهرية : وهي عقيدة الاله وعقيدة النبوة وعقيدة التكليف ٠

والمقارنة بين هذه العقائد في الديانتين الاسلامية واليهودية هي بالايجاز مقارنة بين « يهوا » والاله الواحد الصمد رب العالمين ، ومقارنة بين نبي التنجيم والخوارق وبين نبي الهداية والبلاغ المبين ، ومقارنة بين الحساب على سنة المحاباة والاختصاص بالحظوة وبين حساب العمل والنية واستقلال الانسان بما كسب وبما أراد ٠

ولم يعرف النوع الانساني دينا رفع هذه العقائد الى سماء من التنزيه والرشد والصدق فوق تلك السماء العليا التي ارتفع اليها الاسلام ٠

فاذا كلف الباحث عقله أن ينظر الى السبق التاريخي نظرة

الانصاف فليس لليهودية سبق على الاسلام ، وقد يكون السبق على خلاف ذلك للمسلمين على اليهود ، كلما نظرنا الى أهل الدين في الزمن القديم أو في الزمن الحديث ·

ولقد بدأ البحث على هذا الاساس فثبت الثبوت الذي لا شك فيه أن اليهود تعلموا من المسلمين في لغتهم وأدبهم وحكمتهم ، وأن المسلمين لم يأخذوا من اليهود شيئا غير تلك «الاسرائيليات» التي تناقلها الجهلاء وأفلح المصلحون ــ أو كادوا أن يفلحوا ــ أخيرا في تطهير العقول منها والرجوع بها الى الجادة الاسلامية في نظائرها من شعائر الدعوة المحمدية ·

فلم تكن للغة العبرية قواعد نحو أو بلاغة قبل القرن العاشر للميلاد ، وهو القرن الذي تعلم فيه (الرباني سعديا جاءون) ثقافة العرب بمصر ووضع أول كتاب للقواعد العبرية وقواعد الفصاحة فيها ، وتلاه (الرباني آودنيم بن تميم البابلي) فألف كتابه بالعبرية مقرونة بالعربية ، مفسرة بشواهدها وأمثالها ·

ولم يكن في اللغة العبرية فن للعروض فتعلم اليهود هذا الفن من العرب بالأندلس ومصر ونظموا في لغتهم وفي لغتنا على الأوزان العربية ·

وكان فيلسوفهم موسى بن ميمون ــ تلميذ فلاسفة المسلمين في المغرب ــ أول من كتب عندهم في حكمة (التوحيد) واستثنى المسلمين من الأمم التي تنهي التوراة عن التعود بعاداتهم ، لأنهم مؤمنون يعبدون الاله الاحد ولا يشركون به الها آخر ·

وكتاب اليوم يتقدم بالبحث خطوة أخرى فيقابل بين عبادات اليهود قبل اتصالهم بالمسلمين وعباداتهم بعد هذا الاتصال ببضعة أجيال ، فيثبت المؤلف أن القدوة بالمسلمين عادت باليهود الى احياء السنن التي هجروها من عباداتهم الأولى وعلمتهم سننا أخرى لم يعلموها ، ومنها شعائر في صميم العبادة كشعائر الوضوء والغسل ونظام الصلاة الجامعة وغيرها من الصلوات ·

وينقل المؤلف نصوص التلمود التي لم يرد فيها ذكر للوضوء أكثر من غسل اليدين ، ثم ينقل وصايا الأئمة المتأخرين ووصايا الشعراء الذين تبعوهم بنظم القصيد لترغيب الشعب في هذه

النظافة المستحبة ، وأشهرهم (مناحيم دي لونزان) الذي قال في بعض شعره : (تطهر من رجس المتاع ووقائع الليل الجسدية ولا يكن العرب والليبيون والليديون أكثر منك طهارة وهم يغسلون أيديهم وأرجلهم ورءوسهم بالماء وفي الفجر وظهرا وعشية ، وكذلك ليلا حين يشتد البرد ويسقط الثلج) .

ولما ثار الرجعيون من رجال الدين اليهود ثورتهم على هذه البدع المستحدثة سرت الثورة الى الشعب في هذه المرة فقال الرئيس فنحاس بن مشولم شيخ الطائفة بالاسكندرية : (هب الناس من جميع الانحاء قائلين : نحن لا نحتمل أقوالكم التي ينقض بعضها بعضا ، لأنكم تحلون ما تشاءون وتحرمون ما تشاءون ، أليست هناك تقاليد أثرت عن أسلافنا ومن تقدمونا تحرم على الاسرائيلي الصلاة وهو بحال الجنابة حتى يغتسل في الحمام أو يتطهر في البحر وينظف نفسه ؟ فكيف تجيزون الصلاة ودخول الكنيس وتلاوة التوراة دون اغتسال ؟... اذا كان الدين كذلك فنحن ذاهبون لنرفع أمرنا الى القضاء ؟!) .

والقضاء هنا هو القضاء الاسلامي في غير الشئون الملية التي يتولاها رئيس الطائفة ، مما يدل على اعتبار قضاة الشرع المسلمين مرجعا للشعب ورجال الدين في هذه الأمور .

وقد سئل موسى بن ميمون كثيرا في هذا الخلاف فكان يقول انه لا يرى في كتب السلف الاولين ما يوجب غسل الجنابة ، ولكنه يغتسل بحكم العادة حيث عاش ونشأ في بلاد المسلمين .

وتغنينا أقوال الاحبار بأقلامهم وألسنتهم عن بيان أطوار الرقي الاجتماعي والخلقي الذي سرى الى عبادات القوم وعاداتهم بعد الاقتداء بأدب الصلاة الجامعة عند المسلمين في المغرب والمشرق ، فمؤلف الكتاب العبري ينقل عن الرباني الفيلسوف موسى بن ميمون أنه فصل علة الوصية التي دعا فيها الى الغاء صلاة الهمس في المعابد الاسرائيلية فقال :

(ان الذي دعا الى هذا النظام هو انصراف الشعب الى النظر أمامه أثناء الصلاة ، فيتحدث كل منهم الى جاره أو يخرج من الصف والكاهن يتلو تسبيحاته وتبريكاته على غير جدوى ، اذ ليس هناك من يستمع اليه ، واذا رأى الشعب الاحداث من

المتعلمين وغيرهم يتجاذبون أطراف الحديث ، ويبصقون ، ويسلكون أثناء الصلاة سلوك من لا يشتركون فيها ـ يفعل مثلهم ويدخل في روعهم(١) أن الصلاة مقصورة على ما يهمس به الكاهن ولا يسمعونه ...) .

ويقول ابن ميمون في موضع آخر : (وان الامام اذا عاد الى الصلاة بصوت مرتفع نرى كل من فرغ من صلاته يستدير ليثرثر مع رفيقه ويناجيه في خاصة أمره ، ويحول وجهه عن الشرق ويبصق ويتشبه به الاحداث فيفعلون فعله ، ويظنون أن ما قاله الامام لا يعتمد عليه أو عليهم ، ومن ثم يخرج جميع الاحداث وهم لم ينجزوا واجبهم ويبطل الغرض الذي من أجله يرتل الامام صلاته ... وفي الحق لا يصلي الجمهور في همس أبدا بل يصلي الجميع بعد الامام صلاة واحدة في قدسية وخشوع ، وكل من يعرف الصلاة يصلي معه في همس والاحداث يسمعون ويركعون جميعهم مع الامام ، والشعب كله متجه الى الهيكل ينجز كل منهم فريضة ويسير الامر على ما يرام ويمتنع التكرار الطويل ويزول تدنيس اسم الله ، وقد شاع بين الأمم أن اليهود يبصقون ويثرثرون في صلاتهم لأنهم يشاهدون ذلك أينما رأوهم يؤدون الصلاة ، وهذا هو الصحيح على الاكثر ، كما أرى ، لما ذكرت من أسباب) .

قال المؤلف : (ولما كان الميموني قد نظر الى الحالة في الكنيس من خلال مرآة المسلمين وكان يخشى مما تقوله الشعوب فقد رأى نفسه يوصي ويعمل عمله للقضاء على هذه الحالة) . وكانت خير وسيلة للقضاء عليها في تقديره أن يسلك قومه في صلواتهم الجامعة مسلك المسلمين ، بعد الاقتداء بهم في فرائض الوضوء والتطهر ورعاية أدب المسجد من جميع الوجوه .

ومن الكلام على الوضوء والصلاة يستطرد المؤلف الى الكلام على سائر الفرائض وعلى العقائد الروحانية التي لا تدخل في باب الشعائر الحسية .

---

(١) روعهم : الروع بضم الراء : القلب .

فالآداب الصوفية في الأغلب الأعم آداب فردية يستقل فيها كل عابد متصوف بطريقته في السلوك الديني أو الدنيوي كاستقلاله فيها بما يؤثره من نوافل العبادة وتفسيرات النصوص والمعتقدات التي يجوز فيها الاجتهاد بالرأي لأهل الاجتهاد ، فاذا وجدت الجماعات الصوفية فانما توجد من قبيل الاخوة التي تنتمي الى أب روحي واحد ، ويشترك فيها التابعون جميعا في أتباع الشيخ والاقتداء بمسلكه ومنهج تفكيره وتفسيره : وهو على جميع حالاته منهج اختصاص يستقبل به فرد متبوع أو طائفة تابعة ولم يعهد فيه من قبل ، ولا ننتظر أن يعهد فيه من بعد ، أن يكون منهج عموم يشيع بين جميع الناس شيوع الايمان بالعقائد والفرائض التي لا محل فيها للاجتهاد بالرأي والاستقلال بالعبادة .

فاذا أراد المؤرخ أن يبحث عن سريان التصوف من أتباع ديانة الى أتباع ديانة أخرى فانما سبيله في هذا البحث أن يتعرف الصوفية المنتقلة من نحلة الى نحلة في سيرة علم واحد من أعلامها البارزين أو أقوال مفكر واحد من أئمة الفكر بين أبنائها المجتهدين ، وربما كان المفكر الديني الذي ينهج في النسك منهجا لم يسبقه اليه أحد من أبناء ملته أعظم استقلالا بالرأي ممن يبتدع ذلك المنهج لنفسه من غير سابقة ، لأن التغلب على العصبية المذهبية والتحيز القومي أحوج الى الاستقلال من ابتداع رأي لا مقاومة فيه ولا حاجة به الى التغلب على معارضيه أو منكريه .

وقد أراد مؤلف هذا الكتاب ـ عن تأثير الاسلام في اليهودية ـ أن يتتبع أثر التصوف الاسلامي في اليهودية ، فاختار لذلك سيرة متقدمة من سير الأئمة الصوفيين الذين لم يسبقوا الى منهجهم بين أبناء عقيدتهم ، والذين عرفت لهم صلة بالثقافة الاسلامية وأثرت عنهم أقوال منقولة عن العربية ولم تكن لها سابقة في اللغة العبرية ، وقد بدأ المؤلف كتابه ببيان الآداب الاسلامية التي دعا اليها الامام اليهودي الحكيم موسى بن ميمون ، ثم لخص الشعائر التي قررها ابنه ابراهيم من بعده في الوضوء وفي

الصلاة الجامعة وهي السجود والركوع واستقبال القبلة والاصطفاف وبسط اليدين ، وانتقل من الشعائر « البدنية » الى الشعائر الصوفية الروحية فكانت خلاصة بحثه فيها « أن النسك الشرقي نتاج مدرسة ابراهيم الميموني وزميله الحبر ابراهيم الحسيد ، وجذوره مستمدة من البيئة الاسلامية ومتأثرة بالمتصوفة المسلمين » ٠

وتساءل : من هو الحبر ابراهيم الحسيد ؟ فقال ان كتاب (كفاية العابدين) لابراهيم الميموني هو مصدر الاخبار التي نعرفها عن ذلك الناسك الذي يكتنف الغموض سيرته والذي يقول عنه الميموني انه أخوه في سبيل الله ، ومما يلفت النظر في هذا التعريف كثير من العبارات التي نقلت عن المسلمين وهي الأخوة في سبيل الله ، وتسمية الله برب العالمين ، وتسمية المسالك الصوفية بالحالات والمقامات ، والاقتداء بالامام الغزالي في تعريف المتصوفة كما عرفهم في كتابه (المنقذ من الضلال) بأنهم هم الذين يسيرون في طريق الله ، واشارة الميموني الى الحسيد حيث يقول : « سيدنا وحبرنا ابراهيم الحسيد بن أبي الربيع كرم الله وجهه » وأشباه ذلك من الصيغ التي اقتبسها الحكيم اليهودي من أقوال المسلمين ٠

ويتخلل وصف الامام الحق كلام يؤخذ منه أن أناسا من أبناء الطريق الاسرائيليين كانوا يلبسون الصوف ويعكفون على الصوامع ويتسمون بالفقراء ، لأن الكاتب يفرق بين المتصوف الحق وبين المتصوفين الأدعياء فيقول : ان التصوف لا يكون بلبس الصوف ولا بملازمة الصوامع ولا باتخاذ أزياء الفقراء ، ولكنه طهارة وزهد واخبات (١) الى الله ٠

وينتهي المؤلف من تلخيص هذه التعريفات الى قوله : « في الختام يتضح التأثير الصوفي أيضا في تنويه الميموني بالبكاء التعبدي ، فان غزارة الدموع علامة يتميز بها الصوفي العظيم ٠

---

(١) اخبات : أخبت الى ربه اطمأن اليه ٠

وقد سمى الزهاد الاوائل في الاسلام بالبكائين ، وان البكاء كما قال الميموني هو غاية في التهيؤ للصلاة ، وبفضله تلقى صلاة المصلي قبولا حسنا كما قيل لحزقيال : قد سمعت صلاتك ، قد رأيت دموعك » ٠

ولولا الثورة الصاخبة التي أثارتها شيعة الجمود على هذا التجديد « الاجنبي » كما وصفوه لتعذرت الشواهد التاريخية التي يستدل بها على انتفاع اليهود بالقدوة الاسلامية في كل اصلاح من هذا القبيل أدخله حكماؤهم على آداب الدين وشعائر العبادة عند القوم ، ولكان من الممكن أن يقال ان الأمة اليهودية أخذت بهذا الاصلاح على سنة الانبياء الأولين ممن جاءوا — في رواية العهد القديم وفي رواية التلمود — ببعض الوصايا التي أحيتها الديانة الاسلامية ، ولكن هذا الاصلاح لم يمض بسلام بين القوم في حينه ، ولم يلبث أكثرهم ومعهم أناس من قادتهم أن قابلوه بالانكار الشديد مقابلتهم للبدع الدخيلة التي تفسد العقيدة وتبذل السنن وتخالف أمر الاله الذي نهاهم عن التعود بعادات الأمم كما جاء في التوراة ٠

وكان المصلحون منهم يوافقونهم على تحريم التعود بعادات الأمم وانكار البدع التي يدخلها المقلدون للشعوب الأخرى على جوهر الدين ، ولكنهم يقولون ان عادات المسلمين هي عادات الشريعة الموسوية في لبابها وان بني اسرائيل هم الذين خالفوا تلك الشريعة الموسوية وهجروها ولا يعقل أن تنهى التوراة عن اعادة الأمة الاسرائيلية الى سنن أنبيائها لمجرد ظهور هذه السنن في أمم أخرى تتبع من أوامر الاله ما لم تتبعه أمة التوراة ، ويقول المؤلف نقلا عن الحكيم الميموني : « ان حبرنا يرفض البتة ادعاء محاكاة الأمم أو القرائين ، لأنه لا وجه لتحريم العادات الاسرائيلية القديمة التي اختفت من اليهودية أثناء النفي ٠٠٠ واذا شئنا أن نحرم الامور التي دانت بها الأمم الاخرى فاننا سنضطر الى التخلي عن كثير من وصايا التوراة كالصلاة والزكاة اللتين أصبحتا من أركان الاسلام ٠٠٠ واذا ادعى أحدهم ان في هذا ما يوجب المنع رددنا عليه بأن النصارى

أيضا يستقبلون جهة أورشليم في صلاتهم فليس من آجل هذا يحرم علينا استقبال جهة القدس في صلاتنا ••• وهو ـ رأي الحبر الميمون ـ يوجه هذا الرد الى معارضيه من الاحبار المقيمين في أقطار النصارى ، وهو نفسه الحكم فيما يختص بمحاكاة القرائين ، فان اتباع خطاهم لا يجوز ، ولكن في البدع الحديثة لا في الأمور التي لها أصولها وجذورها في شريعة اسرائيل » •

ولم ينفرد الاحبار المقيمون في الاقطار المسيحية بمعارضة هذا الاصلاح بل كان له معارضون متشددون بين كبار أحبار المشرق ومنهم هوديا الناسي من آل الناسي بدمشق وهو الحبر الذي كان الميموني يرد عليه حيث قال : « لست أخشى هذه الأباطيل ، فماذا يمكن أن يقال عني ؟ هل أفرطت في اخافة الجمهور من سلطان أحد غير الله ؟ هل جرت في الحكم ؟ هل قبلت الرشوة ؟ هل ابتغيت الربح ؟ هل أقسمت باطلا ؟ انهم لا يستطيعون أن يقرفوني بشيء من هذه التهم ، اللهم الا أنني مثابر على عبادة رب اسرائيل تبارك اسمه بكل قلبي وروحي ؛ وانني أطيل الركوع والسجود ، وبمثل هذا يتحدثون عني ، ولا أخفيه » •

على أن دعوة الحكيم الميموني لم تلبث أن شاعت بين الطوائف اليهودية بالمشرق والمغرب حتى استجاب لها أناس من أحبار اليهودية في نبتها الاول وهو أرض فلسطين ، ومن حافظ على تقاليده الموروثة فانما كان تأويله لذلك أن يجري على سنة تغيير الروح وابقاء الجسم ، ويقول المؤلف انه « اذا كان نساك فلسطين أنفسهم قد استمروا يستمسكون بصورة اكفاء (١) الوجه التقليدي ، فان أحبار فرنسا الذين أكبروا الحبر ابراهيم الميموني ـ وهم المقيمون في مدينة عكا قد اتبعوا نظامه ، وهو ما نفهمه من بضعة سطور بقيت لنا في احدى صفحات كتاب الجنيزة جاء فيها أن المقيمين اليوم في عكا حفظهم الله وهم الحبر يوسف بن الحبر ستاتيا والحبر يهودا والحبر صمويل ـ هؤلاء

---

(١) اكفاء : أكفأ الاناء أماله وقلبه ليصب ما فيه •

يركعون ويسجدون على وجوههم وليس جانبا بل على ركبهم وجباههم على الارض ... » .

وفيما أوردناه من هذا الكتاب كفاية لما أردناه من تفنيد خرافة القائلين بأن الاسلام شعبة من اليهودية ، أو أن الاسلام مدين لها بشعائره وأحكامه .

فالواقع أن اليهودية بعد الاسلام قد استفادت من آدابه وشعائره ، كما استفادت من ثقافته في علم الاصول وفي نحو اللغة وعروضها وأوزان شعرها .

وأما قبل الاسلام فمصادر اليهودية في المسائل المتفق عليها هي مصادر الاسلام من الديانات التي سبقتهما بين النهرين وعنها أخذ اليهود عقائدهم التي لم يعرفوها قبل منفاهم الى العراق .

فاذا اختلفت اليهودية والاسلام فالفضل للاسلام في الارتقاء بالعقيدة الالهية التي جعلها اليهود مشيخة قبيلة ، وفي عقيدة النبوة التي جعلوها ضربا من التنجيم ، وفي المسئولية الانسانية التي جعلوها ضربا من محاباة العصبية الجهلاء لغير سبب ولا فضيلة .

***

تطور الفكر السياسي الاسلامي

● ❋ ●

كتاب حديث من مطبوعات أواخر سنة ١٩٦٢ طبعته هيئة فان نوستراند Van nostrand لدراسة العلوم السياسية بمطابعها في الولايات المتحدة والبلاد الانجليزية ، وعنوانه العام (الحكومات والسياسة بالشرق الاوسط في القرن العشرين) وموضوعه البحث في تطور نظام الحكم في البلاد الاسلامية التي يطلق عليها اسم الشرق الاوسط مع بعض التوسع ، وأشهرها مصر وتركيا ولبنان والعراق والجزيرة العربية وايران ، ومؤلفه هـ • ب • شرابي أستاذ مساعد لتدريس علم التاريخ بجامعة (جورجتاون) ولا نعلم عنه شيئا غير ما جاء في تعريفه بقلم الناشرين لكتابه ، وخلاصته أنه تعلم بالجامعة الامريكية في بيروت وأتم دراسته بجامعة شيكاغو وتخرج منها سنة ١٩٤٨ ثم نال منها شهادة الدكتوراه في الفلسفة بعد خمس سنوات •

على أن الظاهر من طريقته في الكتابة عن الموضوعات الاسلامية أنه يجري فيها على نهج الاكثرين من المستشرقين ، وطريقتهم الغالبة عليهم أنهم لا يزنون الموضوع الواحد بميزان واحد فيما يتعلق بالاسلام وبالأمم الاسلامية وفيما يتعلق بغير الاسلام وغير المسلمين ، فهم ينظرون — أبدا — نظرة جانبية الى المسائل الاسلامية ، ولا يعممون النظر على قاعدة واحدة الى هذه المسائل والى نظائرها في البلاد الأوروبية والامريكية ، وعندهم — دائما — أن مسائل الاسلام موسومة بالغرابة والمخالفة لما عداها من المسائل العالمية ، فهم يتطلبون الشذوذ الغريب ابتداء من النظرة الأولى ، ولا يحسبون أن التعليل العلمي يتسع لتفسير الاسلاميات وغير الاسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل ، وقد تسربت طريقتهم هذه في التأليف الى عقول قرائهم وتلاميذهم من الشرقيين المسلمين وغير المسلمين ، فكلهم

يبتدىء البحث بالتفرقة بين ما يبحثه من شئون الاسلام وما يبحثه من أمثالها في التاريخ القديم أو التاريخ الحديث من شئون الأمم الشرقية والغربية الاخرى ، وكلهم يخص الاسلام بمنظار (خاص) من أول نظرة ، ولا يحمل ذلك المنظار نفسه حين يتحول بالنظر الى سواه ٠

وأظهر ما يظهر ذلك فيما كتبه المؤلف عن تطور الفكر الاسلامي قديما وحديثا الى أواسط القرن العشرين ، فانه يجعل الاسلام في تقديراته مطالبا بأحد أمرين مستحيلين : أحدهما أن ينص في عقائده من مبدأ الامر على أحكام غير دينية تتبع في نظام الحكومة ، فهو اذن دين وغير دين ، وعقيدة وشيء مخالف للعقيدة ، وذلك أغرب ما يخطر على البال بالنسبة الى الدين خاصة وبالنسبة الى كل نظام من أنظمة الشرائع والدساتير على التعميم ٠

والأمر الآخر أن يتنزل الدين الاسلامي بنصوص قواعده مصحوبة بنصوص تعديلاتها وتطبيقاتها التي تغني المسلمين عن التصرف فيها على حسب المصالح والضرورات ، فيحصل التعديل والتصرف قبل أوان الحاجة اليه ، ويصح من ثم أن يقول المؤلف ومن على رأيه ان التشريع الحكومي في الاسلام غير متحجر وغير مخالف للسنن المعهودة في غيره من التشريعات ٠٠!

ومثل هذا « التصرف » أيضا غير ممكن ، بل غير معقول ، فانما المعقول دون غيره أن توضع القواعد الدينية وتوضع الرخصة في تعديلها على حسب شروطها ومناسباتها ٠٠ أما أن يتنزل الدين بنصوص قواعده ونصوص تعديلاتها معا فذلك ما لم يحصل قط في شرع ديني ولا في شرع موضوع ٠

قال المؤلف في الصفحة الحادية عشرة بعنوان الشريعة : « اذا دققنا في القول لم نجد في الاسلام نظرية مستقلة للحكومة ، اذ كل ما يرتبط بالحكومة والدولة يدخل في نطاق الديانة ، فلا فاصل بين الدينيات والدنيويات ، والمسلم الذي يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من أعضاء الجماعة الاسلامية بحق الانتماء الى الديانة فقط ، لا بحق القرابة أو اللغة أو العنصر

•• ومن الوجهة السياسية تتسم الجماعة الاسلامية ، أو الدولة الاسلامية ، بسمات أربع وهي :

١ ــ أن الله رأسها والقرآن كما تنزل على النبي دستورها الوحيد •

٢ ــ وأن كلمات الله هي الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجري لها شرعا غيره •

٣ ــ أن وظيفة دستور الحكومة وشكلها وأحكامها أبدية ولا يمكن تغييرها كيفما اختلف الزمان والمكان •

٤ ــ أن الغاية من الحكومة هي اقامة الدين وتنفيذ كلمات الله •

قال : « ويتضح من هذا أن الشريعة ــ وهي جملة الاوامر الالهية ــ ليست قانونا بالمعنى المفهوم من القانون في العصر الحديث ولكنها قضايا معصومة ترسم للمسلم أحكام سلوكه في حياته كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا وفي الأسرة والبيت » •

وليس يعنينا في هذا المقام أن نناقش تصوير المؤلف لحقيقة الاسلام ، ولكننا نقلناه بحرفه لنسأل : وهل للدستور أو للقانون على الاساس الصحيح في كل صورة من صوره قاعدة تخالف هذه القاعدة في جملتها ؟•

وهل يصل المؤلف ببحثه يوما الى دستور « وضعي » قويم بدأ العمل به في أمته بجمع تفصيلاته وتعديلاته دفعة واحدة ؟ وهل في دساتير العالم دستور لم يقم على قواعد ثابتة لا تتغير مهما تتغير بعد وضعها نصوص المواد والقوانين المتفرعة عليها ؟•

ان أقدم الأمم الديمقراطية عملا بالحكم النيابي هي الأمة البريطانية ، ودستورها في أساسه قواعد لا تقبل التغيير وان تغيرت المواد التي لم تكتب بتفصيلاتها حتى اليوم • ومن هذه القواعد حرية الفرد ، وحرية الاعتقاد ، وحرمة المنزل ، ومبدأ النيابة ، وتقرير الضريبة ، ومبدأ المسئولية الوزارية ومبدأ السيادة البرلمانية في وضع القوانين ، ومبدأ سريان القوانين في جميع الاوقات واشتراط الموافقة على وقفها أو تعليقها على

حسب الطوارىء والضرورات ، فهل يكون الدستور الصالح كذلك ولا غرابة فيه ، ثم تكون الغرابة كل الغرابة في دستور الاسلام ؟.

وبين أيدينا الساعة خبر عن دستور دولة عصرية يصح أن يقال فيه انه من أخبار آخر ساعة ، لأنه مكتوب على رأس سنة ١٩٦٣ في تقويم يسمى بتقويم « ايطاليه » وهي دولة عرفت الحكم « الثيوقراطي » أو الديني ، وعرفت حكم الملوك والامراء، وعرفت الحكم الدكتاتوري ، وهي تعرف اليوم نظام الحكم الديمقراطي ومن أحزابه حزب يسمى بالحزب المسيحي ، وخلاصة نظامها السياسي كما جاء في الصفحة الأولى من التقويم لسنة ١٩٦٣ « أنه قائم على أسس التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، مع احترام الحرية الديمقراطية واستقرار العملة والمشاركة الكريمة في الدفاع عن العالم الحر وتشجيع الدعوة الى الوحدة الأوروبية والتعايش السلمي بين أمم العالم » .

وليس مع هذه المباديء نص واحد من نصوص الدستور المكتوب أو نصوص قوانين المعاملة والعقوبات ، فماذا في هذا التعريف بأسس الحكم في هذه الدولة ، أو في الدولة البريطانية، يتعذر نقله الى التعريف بدستور الاسلام ؟.

اننا لا نغير حرفا من نظام الحكومة الاسلامية اذا قلنا على هذا المنوال :

ان قواعد الحكم كلها منصوص عليها في آيات القرآن الحكيم.

ان الامام يتولى الحكم بالبيعة .

ان الاسلام يوجب على المسلمين أن تكون فيهم أمة تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر ومنها « أهل الذكر » الذين يسألون عن أحكام الذكر الحكيم .

ان السيادة التشريعية موزعة بين الامام وأهل الذكر واجماع الأمة ، أو ما هو في حكم الاجماع .

ان أحكام الشريعة الاسلامية تنفذ في كل زمن وفي كل مكان ، ولا يعلق تنفيذها أو يؤجل الا وفاقا لسيادة التشريع .

ان الفرد حر مسئول .

ان مصلحة الأمة أساس في تطبيق الشريعة وفي وضع الاحكام التي لم تذكر بتفصيلاتها وعوارضها في آيات الكتاب .

ان المجتمع الاسلامي ينكر احتكار الثروة ويحرم الربح بغير عمل ويقرر من ثروة الأمة كلها حصة للعجزة والمحرومين .

ان الحدود الجنائية لا تعطل أبدا الا لعلة واضحة من علل الضرورات والشبهات .

ان هذه الضرورات والشبهات مرجعها كله الى حق السيادة المطلق ، وهو حق الامام الراعي وأهل الذكر والرأي المتفق عليه بين جمهرة الرعية .

فهل في هذا الوصف قيد شعرة (١) من الانحراف عن حقيقة الدستور الاسلامي ؟

وهل هو على هذا الوصف بدعة في الدساتير التي تصلح للتطبيق وينتظم عليها أمر الجماعات الانسانية ؟

ان المستشرقين وتلاميذهم ، وأصح من ذلك أن «المستغربين» وأتباعهم من الشرقيين هم الذين يبتدئون بالاستغراب — أصلا — في كل بحث من بحوثهم الاسلامية ..

وأن هؤلاء لا يكلفون أنفسهم أن يبتدئوا بالبحث في شئون الاسلام « غير مستغربين » ولا مفرقين بين نظرة ونظرة وميزان وميزان ، ولكنهم لو تكلفوا ذلك في كل ما بحثوه لعلموا أن الغرابة هنا حاصلة ولكنها في طريقتهم وفي اتجاه عقولهم أو نيات ضمائرهم وليس في الاسلام شيء من الغرابة ، الا ما استغربه المستشرقون وتلاميذهم من الشرقيين !

---

(١) قيد شعرة : القيد بالكسر : القدر أو المقدار .

الجهاد في الدين الاسلامي

بعد متابعة الكتب التي تؤلف عن الاسلام في الغرب خلصت لي وسيلة من وسائل الاختبار السريع للنية الحسنة والفهم الحسن عند مؤلفيها ، وهي النظرة العاجلة الى مجمل آرائهم حول مسألة الجهاد في الدين الاسلامي ، فانها هي المسألة التي شاعت على السماع بين غير المسلمين ففهموا منها أن شريعة السيف وشريعة الاسلام شيء واحد ، وقد يكون لهم بعض العذر اذا نظرنا الى أناس من المسلمين كادوا يحسبون أن انتشار الاسلام بالسيف حقيقة تاريخية مفروغ منها ، وقد أشرنا في مقدمة كتابنا عن « عبقرية محمد » الى واحد من هؤلاء كان يتحدث عن بطولة النبي عليه السلام فاذا هو لا يفهم منها الا أنها بطولة سيف وقتال ، وان النظرة العابرة الى البلاد الاسلامية لتكفي لتقرير وقائع التاريخ في هذه المسألة ، وخلاصتها : أن أكثر البلاد عدد مسلمين هي أقل البلاد غزوات اسلامية ، وأن المسلمين لم يحاربوا قط في صدر الدعوة الا مدافعين أو دافعين لمن يصدون الدعوة بالموعظة الحسنة من ذوي السلطان ،وكذلك كانت وقائعهم مع مشركي الجزيرة العربية كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم ٠٠٠ وقبل غزو فارس بزمن طويل كان كسرى يبعث بعوثه في طلب صاحب الدعوة الاسلامية حيا أو ميتا ، لأنه خاطبه داعيا الى الاسلام ٠

ويمتنع حسن النية في الكتابة عن الاسلام بين الغربيين ، وبخاصة بين الذين يثورون منهم على رؤسائهم الدينيين ويجتهدون في تصغيرهم الى جانب غيرهم من أتباع الديانات الاخرى ، فمن هؤلاء من يجتهد في تصغير خصومه ، ولكنهم يحتاجون ــ مع حسن النية ــ الى حسن الفهم والنفاذ الى حقائق التاريخ لتصحيح الاقاويل التي شاعت على السماع عن فريضة

الجهاد في الاسلام ، فأن الذين لم يحسنوا فهم هذه الحقائق يحسبون – مخلصين – ان الاسلام يوجب القتال الدائم على المسلم كما يوجب الصلاة والصيام وسائر الشعائر المفروضة ، ويعدون هذه الفريضة بدعة بين الفرائض الدينية أو بين الفرائض الانسانية التي قررتها دساتير الاخلاق في أمور العقائد على الاجمال ، وحقيقة الامر ان الاساس الاخلاقي الذي قامت عليه فريضة الجهاد – فضلا عن الاساس الديني – يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد قويم ٠

فماذا تقول شريعة الاخلاق في الواجب على الانسان نحو عرضه ؟ ان الاسلام لا يقول شيئا غير الذي يقوله هداة الوطنية والشرف حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهاد في سبيل وطنه وكرامته وعرضه ، ويعيبون عليه ان سالم من يقاتلونه في سبيل حريته وحرية بلاده ، وليس بالدين الصالح للايمان به دين ينزل بحرية الضمير عن مرتبة الحرية في الموطن والمعاش ٠

من نوادر المؤلفين الغربيين الذين جمعوا بين حسن النية وحسن الفهم في مسألة الجهاد توماس كارليل الحكيم الايقوسي الذي يسميه نقاد الغرب بنبي الكتاب ٠٠٠ فهو ينتهي بزعم الزاعمين أن الاسلام قد انتشر بالسيف الى الغاية من السخف والغثاثة ، ولا يرتضي أن يعتبر هذا الزعم من أكاذيب التاريخ، فانه أضعف من أن يحسب من الاكاذيب التي تحتاج الى تصحيح ، وهو أظهر بطلانا من أن يبطل بالمناقشة ، لأن القائل به سواء ومن يقول ان رجلا واحدا حمل سيفه وخرج الى جميع مخالفيه ليبعث فيهم الخوف من سيفه – وحده – ويسوقهم كرها الى اعتقاد ما ينكرون ، فيعتقدونه ويثبتون عليه ثم يحملون السيف معه لتخويف الآخرين !٠

وأول كتاب حديث قرأنا فيه تفسيرا « سلميا » لاخلاق المسلمين التي يستوحونها من دينهم هو هذا الكتاب الذي اخترناه ليكون موضوع مقال اليوم عما يقال في الاسلام ، وعنوانه « دولة الباكستان » لمؤلفه (البروفسور شبروك وليامز) صاحب

الدراسات الواسعة في شئون الشرق الاوسط وشئـون الهنـد والباكستان ، فقد سبقه كثير من كتاب اللغات الأوروبية الاخرى الى تعليل حركات المسلمين في الهند مع الدولة البريطانية ومع طوائف الوطنيين هناك من غير المسلمين، فكانت خلاصة تعليلاتهم لتلك الحركات جميعا أنها وليدة التعصب الديني أو وليـدة الروح العدوانية التي انفردوا بها بين أبناء وطنهم ، ولكـن مؤلف هذا الكتاب : Rushbrook Williams يعلل هذه الحركات للمرة الأولى بين أبناء لغته وعقيدته بأنها وليـدة البحـث : « لا عن وطن يستطيع فيه المسلم أن ينطلق من قيود المستغلين وحسب بل هي وليدة السعي الى اقامة بلاد تسود فيهـا آداب الاسلام ، وتمنع فيها ظلم الاغنياء للفقراء . ويتبع فيها الولاة وصايا العدل الاجتماعي التي يتعلمونها من سماحة الشريعة ».

ويقول عن « تقاليد » الاسلام : « ان هذه التقاليد تشمـل مبادىء المساواة بين الارواح الانسانية أمام الله وتقرر أواصر الأخوة العالمية بين جميع المؤمنين بغير نظر الى العنصر أو اللون ، كما تقرر فريضة الدفاع عن الضعيف وحمايته ممن يجورون عليه ، واغاثة المعوزين والمحرومين وبذل الحياة نفسها في سبيل الصراط المستقيم .. ومعاملتهم ـ من ثم ـ للبلاد الاخـرى لا تجعلهم حريصين على الغلو في اثبات وجودهم والتصلب في املاء تقاليدهم الحرفية أو الوقوف موقف الاحجام والاعتذار ».

ووصف ما يشعر به جمهور المسلمين من أبناء الهنـد أو يفهمونه بداهة من معنى الدولة فقال ان التفصيلات السياسية لم تشغل أذهانهم : « ولكنهم تطلعوا الى سياسة تسود فيها آداب العقيدة الاسلامية وتقوم على العدل الاجتماعي والحكم السمح الرفيق وتستجيب لحاجات الشعب وضروراته ، وتحمي الفقير من قسوة المستغلين وتتكفل باقرار قواعد الحكم كما تعين على

التقدم الاقتصادي ... وان يكن من الحق أن شعور الجماهير من هذه الوجهة غلبت عليه البواعث الدينية من الناحية الاجتماعية أوفر من ناحيتها المذهبية ... » .

وأطال المؤلف الكلام على النظريات السياسية الاسلامية التي تقابل ما يسمى « بالايديولوجي » في اصطلاح المذاهب الاجتماعية أو السياسية فقال ما فحواه : ان تلك النظريات لا تعارض نظاما من الانظمة الدستورية في الأمم الديمقراطية اختلاف هذه الانظمة في أساليب الادارة وتوزيع السلطة على طريقة الجمهوريات الرئاسية أو النيابية ، وأن الحاكم لا يملك أن يستأثر بالسلطة على أي وجه من الوجوه مستندا الى نصوص القرآن .

وقد يعتبر كلام المؤلف عن علاقة الدين بالوطن أبلغ رد على الذين جعلوا الاسلام « مسئولا » عن اعتبار المشاركة في العقيدة سببا من أسباب اقامة الدول ، لأنه لم ينس في بحوثه المختلفة أن دعوى اسرائيل لم تقم على أساس غير أساس المشاركة في العقيدة، وهي — على هذا — موضع العطف والتأييد ممن يعلنون شريعة الديمقراطية ويحسبون رعاية المسلمين لاعتبارات الدين « تعصبا » مقصورا على المسلمين .

● ●

بطولة صلاح الدين

الاستاذ « هاملتون جيب » مستشرق معروف في البلاد العربية ، يكتب في الادب والتاريخ وفي الشئون الاجتماعية المتصلة بهما ويتسم بين زملائه المستشرقين بسمة الاتزان وتقدير التبعة ، واجتناب المساس بالشعور فيما يبحثه من المسائل التي تختلف فيه الآراء وتمتزج بالعقائد الدينية ، وقد عرف في بلاده وفي البلاد العربية باسمه الثاني أو لقبه المشهور « جب » قبل الانعام عليه برتبة الفروسية أو الرتبة التي تؤهل صاحبها للقب من ألقاب النبلاء ، وهو لقب السيد أو « السير » باللغة الانجليزية فأصبح يذكر — بعد اللقب — باسمه الاول مع اسم أبيه على حسب التقاليد المرعية عندهم في تسمية أصحاب الرتب والالقاب ، فهو يذكر الآن باسم هاملتون جيب ، ويكاد الذين يقرءون هذا الاسم في الشرق أن يشكل عليهم الامر فيحسبوه كاتبا آخر غير الكاتب المعروف بينهم منذ سنين ·

وقد كان الانعام بالألقاب على الادباء والفنانين معهودا في البلاد الانجليزية في القرون الماضية ولا سيما القرن الثامن عشر وما يليه ، فأنعم بها على الشعراء والمؤرخين والمثلين والمصورين من جميع الطبقات ، ولكن نسبة الانعام عليهم تزداد في السنوات الاخيرة ، وبخاصة في السنوات التي أعقبت ظهور حزب العمال ، وكان منهم ثلاثة من حملة الاقلام المعروفين في الشرق هم : توينبي المؤرخ ، وسمرست موام القصاص ، وجيب المستشرق ، وكلهم من طبقة غير الطبقة التي تسمى عندهم طبقة الاعيان ، أو النبلاء ·

ولا محل للمقارنة بين موام وجيب في الموضوعات التي يكتبان فيها ، لأن موضوع أحدهما القصة وموضوع الآخر الاستشراق ، ولكن المقارنة بين توينبي وجيب مما يستدعيه النظر في كتابة

كل منهما عن التاريخ الشرقي والاسلامي على الخصوص ، فان توينبي يحسن عرض الحوادث ويقصر غاية التقصير في فهم « الشخصيات » ولا سيما شخصيات البطولة والعظمة ، ومن قصوره عن ذلك أنه ظن أن أبا سفيان وقومه بني أمية غلبوا النبي عليه السلام في ميدان السياسة واستخلصوا الملك من بيت بني هاشم ومن آل النبي أجمعين ... ولم يفهم الموقف برمته منذ قام بالامر الخليفتان : الصديق والفاروق ، ومنذ نهى النبي عليه السلام عن العصبية وعن وراثة الانبياء ، ولا يستطيع أحد يفهم طبائع العظمة أن يضع محمدا عليه السلام في ميزان المقدرة العقلية والنفسية ويضع أمامه أبا سفيان أو أبناءه ثم يحكم لهؤلاء بالرجحان في طبيعة من هذه الطبائع على أي اعتبار ، ولكن تقدير « الشخصيات » والحوادث معا يستوفي حقه في كتابة « جيب » فلا يغفل الفوارق بين دلائل العظمة والبطولة في قادة التاريخ الاسلامي ولا يفوته أن يرجع بهذه الفوارق الى أسبابها « الواقعية » التي تحتوي أحيانا طرفا من الاسباب « النفسانية » كما كشفت عنها دراسات علم النفس الحديث .

والبطولة — كما لا يخفى — تهول عقول الناس فيجمعونها كلها في نوع واحد من الاعجاب والتعظيم ، ومقتضى الاعجاب والتعظيم عند أكثر الناس أن يكون البطل في الذروة من كل خلق انساني معظم محبوب ، فهو مثل في الشجاعة ومثل في الكرم ومثل في الدهاء ومثل في كل ما يمتاز به النخبة الممتازون ... أما الناقد التاريخي فينبغي أن يكون له ميزان أصح وأعدل من هذا الميزان ، فلا يلغي التاريخ اعجابنا بالبطولة والابطال ، ولكنه يجعل هذا الاعجاب حكما بأسباب ولا يتركه حكما « غيابيا » بغير أسباب وبغير مبالاة باحضار « البطل » في مقام الوزن والتقدير ، أو مقام التمييز بين بطل وبطل وبين نوع من العظمة وسائر أنواعها التي ينتسب اليها العظماء ، على اختلاف الميادين والاعمال .

بل ينبغي للتاريخ أن يقسم البطولة الى أنواع وأقدار ، فليس كل بطل مخلوقا على مثال أقرانه من الابطال ، وليس كل

بطل قرنا لكل عظيم موصوف بصفات البطولة ... بل ليس كل عظيم معدودا من الابطال ، لأن العظمة قد تعوزها خاصة البطولة في الصميم : وهي خاصة الايمان بالمثل الاعلى والفداء ومغالبة النفس في هوى من أهوائها الغلابة المطاعة ، وأعمها وأشيعها هوى الشهوات وهوى « الانانية » في حدودها المحصورة التي لا تتعدى صاحبها في مطالبه وأمانيه .

وما أعيد نشره للاستاذ هاملتون جيب بعد الانعام عليه كلام له عن البطل الاسلامي الكبير صلاح الدين الايوبي بطل الحروب الصليبية الذي كثرت المقارنة بينه وبين أبطال هذه الحروب من قادة الأمم الغربية .

فلا شك عند المستشرق الحكيم في بطولة صلاح الدين ولا في عظمة هذه البطولة ولا في استحقاقه للشهرة التي ذاعت عنه وحوله بين أبناء الغرب والشرق على السواء ، ولكنها بطولة تقوم على تمحيص الاعمال والغايات ولا تقوم على الشهرة العامة والصفات المجملة ، أو هي بطولة من نوع مقدور بأسبابه حتى البطولات العسكرية التي هي وحدها مجال متسع لانواع من البطولات المختلفة ، كبطولة القيادة وبطولة التعبئة وبطولة الحركة السريعة وبطولة الهجوم أو بطولة الدفاع .

وصلاح الدين كان بطلا منتصرا في آكثر مواقعه وميادينه ، ولكن بطولته في القدرة والتعبئة أكبر وأبرز من بطولته في فن القيادة وتوجيه الجيوش في ابان المعمعة ، فانه في هذا المجال لم يكن مستجمعا لثقة العسكريين المحترفين من حوله ، ولم تكن مخالفتهم اياه بالأمر النادر في بعض الظروف المحرجة وان تبين فيما بعد أنهم مخطئون وانه كان على صواب .

والتعبئة الروحية كانت في مقدمة فنون التعبئة التي أتقنها بطل الحروب الصليبية ، فان هذه التعبئة الروحية كانت ألزم له من سائر فنون التعبئة العسكرية في جميع القوى وابتعاث الغيرة وكبح عوامل الأثرة بين آتباعه ومنافسيه ، ولكن التعبئة العسكرية لم تكن في بابها أمرا يسيرا يستطيعه كل من تصدى له من المجاهدين الغيورين ، لأن تسيير جيش من أمم الشرق الاوسط بين العرب والاكراد والترك والرعايا الموالين للعباسيين

ومواطنيهم الموالين للفاطميين ، وتكوين هذا الجيش من أجناد تختلف بواعثهم الى الاشتراك في الحرب الصليبية وتختلف أوقاتهم التي يستعدون فيها للمشاركة في كل ميدان وكل هجمة أو مدافعة تأتي على استعداد أو على حين غرة ــ كل أولئك فن من فنون التعبئة العسكرية لا يقدر عليه كل قائد ولا يقدم عليه كل فارس ، ولو كان أعلم بالفروسية من صلاح الدين ٠

وقد جاء في ابن الاثير أن ضابطا من الموصل رأى صلاح الدين وهو يعان على ركوب فرسه فقال ما معناه : انظر الى العواقب يا من يعينه على ركوب فرسه أمير من آل سلجوق ومن سلالة الاتابك زنكي !!

ولكن هذا الفارس الذي كان بين قواده من هو أخبر منه بفنون الفروسية لم يكن في زمانه كله من هو أقدر منه على جمع القوى وتأليف الشعاب واختيار الزمن والموقع الذي يصلح للهجوم أو يصلح للدفاع ٠

ولقد كان صلاح الدين حصيفا ذكيا عليما بطبائع الناس ، ولكنه لا يوصف بالمكر والدهاء ولا يحسب من دهاة الساسة المعدودين في تاريخ الاسلام ، وكان وفاؤه بالوعد مضرب المثل في معسكر الفرنجة ومعسكر الاسلام ، ولكنه لو لم يكن حسن الظن بالناس لما تورط في بعض وعوده التي اضطره الوفاء الى المحافظة عليه ، لأنه كان يأبى الغدر وينتظر من غيره هذا الاباء فيصدق ظنه في حين وتخيب ظنونه في أحيان ، ولكنه كان يملك القدرة على تدارك الخطأ بعد وقوعه ، لفرط ايمانه بحقه وحق القضية التي تصدى لها ووقف جهوده عليها ٠

ومن عادة الناس أن ينظروا الى أكبر أعمال البطل وأدلها على القدرة والكفاية فيحسبوا أنها هي المقصد الذي تحراه من جميع أعماله وهي الغاية الأولى والاخيرة من جميع جهوده وتدبيراته ٠ ولا خلاف على أن العمل الاكبر الذي تصدى له صلاح الدين وأفلح في انجازه هو صد الجيوش الصليبية والتغلب على أمراء الصليبيين وقادتهم في ميادين الحرب والسياسة ، ولكنه من الخطأ أن يقال انه هو العمل الذي توخاه وانصرف اليه بتدبيره وسعيه من بداءة حياته ، فانما كان شاغله

الاكبر قبل كل شاغل عناه أن يدعم الدولة الاسلامية المتصدعة ويقتلع جذور الفساد والشقاق من دواوينها ومعاهد ادارتها ، وقد كان صلاح الدين (الاداري) المدير هو صلاح الدين الحق في رأي نفسه ورأي المتعقبين لمساعيه ودواعي أعماله ، ويزداد حقه في الاكبار والاعجاب كلما لوحظ من مساعيه المتتابعة أن أغراض الطموح ومطامع النفس لم تسيطر عليه ولم تصرفه عن غايته الشاملة من تدعيم الدولة العباسية وتغليب أسباب الالفة بين أجزائها على أسباب التفرقة والانقسام ، وهو على علو همته واعتداده بكفايته لم يطمع في كل ما كان يستطيعه من السلطان ولا في كل ما كان ميسورا له بقوته العسكرية وثروته المالية وعلاقاته بأرباب القوة والثراء في الولايات الاخرى ٠

وآية البطولة في صلاح الدين انه غلب نفسه كثيرا كما غلب أعداءه من الفرنجة والمسلمين ، وانه حكم نفسه كثيرا قبل أن يحكم رعاياه من المطيعين له أو المتمردين عليه ٠

وقد كانت هذه النظرة الواقعية الى كنه العظمة التي اتصف بها هذا البطل العظيم وليدة الاطلاع الواسع على مصادر أعماله ومصادر تاريخ عصره ومصادر الاقوال التي نسبت الى المتصلين به ممن عاملوه في ميادين سياسته وحروبه ومن بين هؤلاء من يخالفونه في الدين ومن هم على دينه وعلى مذهبه السني ولكنهم يتعصبون لأمراء الموصل المحنقين عليه ، أو على مذهب الشيعة ولكنهم يمحضونه الثناء لأن غيرتهم الاسلامية غلبت على كراهيتهم للرجل الذي قضى على دولة الفاطميين ٠

ونرى من مراجعة الطرائق التاريخية التي يتبعها المستشرقون ان طريقة « جيب » في تمييز « أنواع البطولة » بين من كتب عنهم من قادة المسلمين هي المثل المختار لمن ينصف البطولة حيث كانت ويبني انصافه على الاسباب والاعمال ، وعلى وجوه التمييز بين دواعي الاعجاب والتعظيم ، ويعينه على ذلك اطلاع واسع وقدرة على العلم بما يأخذ به وما يدعيه مما يطلع عليه ٠

رسالة السيد المسيح

بعث السيد المسيح في أرض فلسطين من الشرق الادنى ، ولكن أتباع المسيحية في القارة الأوروبية وفي العالم الجديد الذي تشعب منها يزيدون على عشرات أمثال عدد المسيحيين في أرض فلسطين وفي القارة الآسيوية بجملتها ، وهذه الظاهرة من الظواهر البارزة في علم المقارنة بين الاديان ، نبحث فيها فينكشف لنا سر عظيم من أسرار الدعوات والرسالات الروحية ، وينكشف لنا معه سر عظيم من أسرار الحكمة في تقسيم المقادير بين عباد الله ، وتعليم الاقوياء والضعفاء عظة من العظات التي ينتفع بها من وعاها ، وقد ينتفع بها أقوياء هذا الزمن وضعفاؤه ، وهم يتأملون مواقع العبرة في مقادير التاريخ الحديث ٠

كان اقليم الجليل من أرض فلسطين أضعف الاقاليم الخاضعة للدولة الرومانية الكبرى وفيه ــ دون غيره في أملاكها الواسعة ــ نشأت الدعوة الروحية فقضت على سلطان المادة الغاشمة في صورتها الدميمة التي يسميها التاريخ باسم الدولة الرومانية على شفا الهبوط والانحلال ــ يقول تعالى في القرآن الكريم « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ٠

ونعلم من هذه الآية البينة أن الله ــ جلت حكمته ــ يختار الرسول الصالح لدعوته كما يختار الأمة أو الأمم التي تحتاج الى الرسالة وتتلقاها بمقدار حاجتها اليها ٠

ولقد كان فساد الدولة الرومانية أو فساد الحضارة التي ملأت بها أرجاء العالم المعمور قبيل عصر الميلاد هو جملة « الدواعي » التي دعت الى الرسالة الروحية يومئذ ، فشاءت الحكمة الالهية أن تختار لها صاحبها عيسى عليه السلام ٠

ولهذا نرجع الى تاريخ الدعوة المسيحية الأولى فنرى أنها انتشرت في كل قطر من أقطار الدولة الرومانية قبل سائر أقطار العالم المعمور فشاعت في أملاكها شرقا وغربا وكادت أن تلتزم حدودها عند البلاد المجاورة لها زهاء أربعة قرون ، فلم تنتشر في قطر من أقطار الاكاسرة الفارسيين كما انتشرت بين بيزنطة الشرقية ورومة الغربية وما جاورهما من بلاد القارتين الأوروبية والافريقية ، لأن آفات الحضارة التي ملأت العالم المعمور الخاضع لدولة الرومان كانت هي « أساس الفتنة المادية » التي تناسبها رسالة السيد المسيح وتصلح لعلاجها ٠

وقد تفرق دعاة المسيحية بين بلاد الشرق من سورية الى وادي النهرين الى الهند كما جاء في بعض أنباء الدعوة الأولى ، فلم تنتشر في قطر من تلك الاقطار كما انتشرت بين بلاد دولة الرومان ، لأن أقطار المشرق كانت لها آفة غير هذه الآفة ، وكانت تنضج للرسالة التي ستأتي في حينها وتستعد للدعوة الدينية التي تتلقاها على حسب الحاجة اليها ، وقد جاءت في حينها المقدور بعد دعوة السيد المسيح ببضعة قرون ٠

كانت آفة الدولة الرومانية أنها أصيبت في أساسها الذي قامت عليه ، وهو أساس التشريع ٠

وكان تشريعها المشهور قد أصيب في صميمه فلحق به شر ما يلحق الشريعة من عوارض الفساد ٠٠ وشر ما يلحق شريعة الأمة من الفساد أن تجمد على النصوص والحروف وأن تفقد روح الحق والانصاف ٠ وأن تصاب بداء التدليس (١) فيمن يتسلطون باسمها وفيمن تتساقط عليهم من رعاياها المحكومين ، وأن يصبح هؤلاء الرعايا المحكومون بين فريقين متناقضين ، فريق يدين بتلك الشريعة ولكنه يجري فيها على سنة الرياء والخداع ، وفريق آخر يستخف بها ولا يصدق بصلاحها واستقامة أمرها ، فيخلع عنانها ويتحلل من ظواهرها كما يتحلل من بواطنها ، فهو « الخليع » الذي تعطيه لغتنا العربية أصلح

---

(١) التدليس : دلس الرجل : كتم عيب الشيء عن الاخر ٠ ومنه التدليس في السلع ٠

أسمائه بين لغات العالم ، لأنه منخلع من كل رابطة تربط بينه وبين الناس أو تربط بينه وبين الله ، عار من كل لباس يستر فضائح الاخلاق ويحجب نقائص العرف والتقليد .

كانت شريعة جمود ورياء ، فلم يكن لها علاج أصلح من علاج الرسالة التي تقيم العلاقات بين الناس على المحبة لا على حروف القانون ، وتعلمهم أن العبادة وجدان وضمير لا حركات جوارح ولا حروف كلمات ، وتطلب ممن يدين الناس أن يدين نفسه قبل أن يدين الخاطئين والخاطئات ، بل توحي اليهم أن الخطيئة الظاهرة أقرب الى التوبة والغفران من الصلاح الظاهر ومن ورائه الباطل المستور والكذب الدفين .

ولقد كان مصاب العالم اليهودي في عصر الميلاد كمصاب العالم الروماني كله من قبل شريعته التي أقيم عليها أساسه القديم : جمود على النصوص والحروف ، وتدليس في ولاية أمور الدنيا والدين ، ورياء غالب على من بقي منهم مؤمنا بشريعته ، وخلاعة مبتذلة يجهر بها الكافر منهم بتلك الشريعة ولا يبالي أن يعلن خلاعته حيث يرتبط بالدولة أو حيث يرتبط بالدين .

وكان أصلح القوم ـ كما قال السيد المسيح ـ من يشبه الضريح الفاخر بطلائه النظيف لمرأى العين ، وتحت صفائحه الظاهرة رمة بالية يأكلها الدود .

الا أن العالم اليهودي لم يكن صاحب اليد العليا في حضارة بلده أو في حضارة زمانه ، وانما كان تبعا للسلطان الغالب الذي طواه وطوى غيره من أوطان العالم المعمور بين زواياه ، فلو صلح كله لما أغنى شيئا عن أبناء عصره وعن شركائه في عالمه الواسع وآفاته المحيطة بظواهره وخفاياه ، فكان من قضاء العناية الالهية أن يعرض العالم اليهودي عن الدعوة المسيحية غاية الاعراض ، وأن يكون عداؤه لها أشد وأعنف من عداء الغرباء المسلطين عليها ، ولولا ذلك الاعراض البالغ وذلك

---

(١) رمة : الرمة بالكسر : العظام البالية .

العداء العنيف لما تحولت الدعوة بقوتها كلها ، أو بأكبر قواها ، الى ميدانها الواسع ووجهتها « الانسانية » الشاملة ، من وراء اسرائيل ومن وراء فلسطين ٠

ولم تقم دعوة السيد المسيح ـ كما تقدم ـ على الحروف والنصوص ، بل قامت لتحرير الضمائر من ربقة الحروف والنصوص ، فلعلها جرت على اطرادها حين انتقلت برسالتها من لغتها الاصلية الى لغات أخرى لم يتكلم بها صاحب الرسالة ، فلا يوجد اليوم بين أبناء الأمم من يقرأ حروفا و نصوصا سمعت من السيد المسيح ، ولكنهم يقرأون فحواها ويتلقونها « روحا » يجتهد فيها بما يلهمه وحي الرسالة الصادق من معنى ينفض عنه جمود الحروف والنصوص ٠

و بعد قرابة العشرين قرنا من دعوة السيد المسيح تعود العبرة من جديد بين الاقوياء والضعفاء ، و بين سلطان المادة وضحاياه ، و بين الغرب القابض على أزمة الدنيا والشرق الذي أوشك أن يبتلى بمذلة الغربة في عقر دنياه ٠

ان سلطان الغرب يشقى بداء « المادة » التي شقيت بها من قبله دولة الرومان ، وانه لينكر على بني الانسان حقهم في الكرامة الانسانية لأنه يفخر عليهم بكرامة العلم والحضارة وكرامة « التقدم والارتقاء » وانه ليتجرد من روح الانسانية وهو يحتكر مظاهرها ويطرح عنه حقائقها ليزهو بأشكالها ، وانه ليحتاج الى النذير الرادع والى الدواء الناجع ، فتأتيه الرسالة في هذه المرة أيضا كما أتته من أضعف ضحاياه قبل عشرين قرنا على يد الدعوة المسيحية ، فمن بلاد الشرق التي سلبت حقوق الانسان يتعلم الغرب كيف يرعى تلك الحقوق وكيف يدركها جوهرا ولبابا بعد أن قنع منها في عنفوان سلطانه بالاعراض والقشور ٠٠٠ ومن بلاد الشرق يتعلم الغرب صاحب العلوم ان قوته الباغية تخلق من الضعف قوة تصد الاقوياء ، وتقدح من الظلمة شررا يحرق أو ينير ، وتكشف القارة السوداء لأبنائها بعد أن كانت تكشفها لمن يتسلل اليها ويوشك أن يغمض عيونها عن شمس النهار ٠

ان خالق الذرة يضعف اليوم عن السلطان الذي اقتدر عليه آباؤه وأجداده بما دون ذلك من عدة قاطعة وحيلة واسعة ، ولو لم تكن عبرة من عبر الحكمة الالهية لكان سلاح الذرة أولى بتحكيم الغرب في الشرق وسيادة الاقوياء على الضعفاء من أسلحة القرن الغابر والقرن الذي قبله ، وهي في جانب القذيفة الجهنمية أضعف من العصا في جانب السيف ·

وليست العبرة من رسالة الشرق اليوم ديانة كتاب منزل أو بشارة مسيح موعود ، ولكنها ــ على هذا ــ تقرع الاسماع بآية من وحي الله حين يخرج منها العالم الانساني بالدرس الذي هو محتاج اليه ، وحين يذكر الاقوياء أنهم نسوا أن الضعيف المغلوب انسان فذكروا ذلك مكرهين يوم بلغوا بالسلاح غايته من القوة والجبروت ، فهم يستعيدون اليوم نعمة الانسانية على أنفسهم كما رضخوا بهذه النعمة للضعفاء ، وعجزوا عن سلبهم اياها في عصر الذرة والصاروخ !···

مسألة الرق في الاسـلام

مسألة الرق في الاسلام موضوع حملة من أقوى الحمـلات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شيء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للاديان وجماعات المبشريـن الذين يحترفون صناعة الدعوة الى هذا الدين أو ذاك •

ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون الى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، « أولاهما » نشر الدعوة بين الشبان المسلمين الذي يسمعون بدعاية الديموقراطية وحقوق الانسان،ويجهلون دينهم فيصدقون ما يقال لهم عنه في مسألة الرق ولا يعلمون أنه الدين الوحيد الذي شرح للأرقاء شرعة لم يسبقه اليها دين من الاديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الاسـلام في انصافه لجميع الأرقاء •

أما الوجهة الاخرى التي يتفق عليها الماديون والمبشرون فهي غزو القارة الافريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الاسلام في هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الافريقية خوفا مـن اقبال أبناء هذه القارة على الاسلام قياسا على نجاح الاسلام بين الافريقيين في الازمنة القريبة مع قلـة الجهود التي يبذلهـا المسلمون لنشر دينهم هناك وعظم الجهود التي يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول القوية •

فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعواتهـم باغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ويعلمون أن الاسلام كفيل باحباط (١) مساعيهم ان لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ويشتركون معهـم في الوطن ومصالح المعيشة ، فيتوسلون الى تشويه سمعة الاسلام

---

(١) احباط : أحبط الله عمله : أبطله •

والمسلمين باعادة القول في مسألة النخاسة وتلفيق الاكاذيب التي توهم الافريقيين المتحررين أن العرب المسلمين قد احتكروا النخاسة قديما وحديثا ، وهم ــ أي دعاة المادة والتبشير ــ أول من يعلم من تاريخ النخاسة أنها كانت صناعة شركات أوروبية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب والمسلمين ،ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا في مدارس المبشرين ٠

أما الحقيقة التي تقابل هذه الدعاية ، وينبغي أن تقابلها في ميادينها الواسعة ، فهي واضحة قريبة المنال ، كفيلة باقناع من يستمع اليها مسلما كان أو غير مسلم ، ولكنه بريء من دواعي الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفي صناعة التبشير ٠

ان الاديان جميعا ــ قبل الاسلام ــ أباحت الرق وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم في خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ٠

وجاء الاسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق كما فصلنا ذلك في مواضعه وقد ندب المسلمين الى فك الاسار عن الأسرى فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة :

أوجب الاسلام قبول الفداء مع استحسان فك الاسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ومن يحنث في يمينه ومن يظاهر(١)من زوجه،ومن يؤدي الزكاة في مصارفها ومنها فدية الرقاب ٠

ولم يبق الاسلام من قيود الرق الا ما هو باق الى اليوم باتفاق الدول وسيبقى بعد اليوم الى أن يشاء الله ٠

فالقوانين الدولية اليوم تبيح تسخير الأسرى واعتقالهم الى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى أو ببذل التعويض الذي تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذي شرعه

---

(١) يظاهر من زوجه : الظهار : أن يقول الرجل لزوجه : « أنت علي كظهر أمي » ٠

الاسلام وأوجبه على الدولة الاسلامية وهي تتولى صرف الزكاة « في الرقاب » ٠

فاذا كانت الدول ــ غير الاسلامية ــ لم تعرف لها نظاما تتبعه لاطلاق أسراها من الرق فهي المسئولة عن هذا التقصير وليس على الاسلام أو الدولة الاسلامية ملامة فيه ، وقد نعود الى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الاخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم في آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التي تجاورها ٠ ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الاسلامية لتقدم العالم كله في قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون ٠

ولنسأل أدعياء التحرير في العصور الحديثة : ماذا يحدث في هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها في ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقي جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الاسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق أو يوجبوه في مقام التكفير والاحسان ؟

ان صنيع الاسلام الذي أوجبه قبل أربعة عشر قرنا هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم في انصاف أسراها وأسرى أعدائها ، فاما أن يكون لها صنيع أكرم منه فلا ندري كيف يكون ، ولا كيف يتأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه ٠

على ان دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامي في تشريعات الرق بغير استثناء دولة منها في أحدث تشريعاتها الانسانية كما تسميها ٠

فالاسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار الى الانصاف اتقاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح ٠

ان أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة الى تحريـر الأرقاء جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى في بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع وبين أصحاب الصناعات حيث تدار بأيدي الأرقاء ولا تنفق عليها أجور . فان أصحاب الاموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسـة ، واستجابوا لداعي المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعـي الكرامـة الانسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية يوم احتاجـت الدول الى العبيـد لتجنيدهم أو لصنع السلاح في غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى يوم نهضـت القارة الافريقيـة نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود الى معسكر أعدائهـم في سبـاق التنافس علـى التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين الى هذا الفريق أو ذاك الفريق .

فلما وصلت الحضارة الأوروبية الى هذا المدى بعد طـول التعثر والمحال لم تكن قضية الرق عندها قضية سماحة وانصاف ولكنها كانت ــ ولا تزال ــ قضية مساومة واضطرار ، وحيلة من حيل السياسة والادارة،وخطة من خطط التأخير والاستغلال.

والفارق الاكبر في مسألة الرق من جانب الواقع التاريخي هو ذاك الفارق الذي تحصيه الارقام بالحساب بين عدد الأرقاء في البلاد الاسلامية وعددهم في البلاد الغربية حيث يعيشـون اليوم بين الامريكتين ، فان الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا في البلاد الاسلامية ــ بعد ثلاثة عشر قرنا ــ على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس الى سعة البلاد وطول الزمـن واقتراب المكان ، ولكـن عـدد السود في الامريكتين قد يبلـغ العشرين مليونا ، ولما لم يمض على قيام الحكم « الابيض » هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد من هذا الفارق في العدد فارق المعاملة التي لقيهـا الأرقاء في البلاد الاسلامية والمعاملــة التي لقيها اخوانهــم في الامريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال وبين تحريم المساكنة والمصاهرة واستباحة الدم انتقاما من الاسود الذي يرفع هذه الحواجز بينه وبــين سادته « البيض » ٠٠٠!

ان مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الاسلامية والأمم الافريقية التي تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلهــا الى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للاسلام وليست بالدعاية التي يحارب بها الاسلام ٠٠٠ فاذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الاسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمــين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟

« * »

الدعوة الاسلامية حركة دفاع في العصر الحديث

في نحو مائة سنة وصلت الدعوة الاسلامية من مكة الى حدود الهند والصين شرقا والى شواطيء البحر الاطلسي غربا ، ودخل في الاسلام معظم القاطنين بين هذين الطرفين .

وفي أقل من خمسين سنة شاع الاسلام بين أبناء القارة الافريقية الذين اتصلوا بالبلاد الاسلامية ، وجاء الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر للميلاد فوجد الاسلام منتشرا ، ولا يزال ينتشر ، بين هؤلاء الافريقيين ، وحاول المبشرون المؤيدون بقوة الاستعمار وأموال الحكومات والجماعات الدينية أن يدركوه فلم يستطيعوا بعد مائة وخمسين سنة ، أن يقنعوا بدعايتهم القوية الغنية عشر العدد الذي دان بالاسلام بغير دعاية منتظمة ولا اغراء .

قديما كان الجاهلون بالاسلام يتعللون لانتشاره في صدر الدعوة بقوة السيف ، وهي خرافة تبطلها نظرة سريعة الى خريطة الكرة الارضية ، فيعلم الناظر اليها أن القطر الذي فتحه المسلمون بالسيف — وهو الاندلس — ليس فيه مسلم ، وأن ثلاثمائة مليون مسلم يقيمون اليوم بين الصين والهند وأندونيسيا ، حيث لم يبلغ الفتح الاسلامي الى أبعد من الاطراف .

وحديثا يتعلل المبشرون لاخفاقهم ونجاح الاسلام باباحة تعدد الزوجات ، ويقولون ان الافريقي يقبل الاسلام لأنه يبيح له أن يتزوج ويتسرى بما شاء من النساء ، وان التبشير ينهاهم عن ذلك فيعرضون عنه ، وهي خرافة أخرى تبطلها التجربة كما أبطلت خرافة نشر الاسلام بالسيف لأن الاسلام يحرم الخمر وهي أيسر منالا من تعدد الزوجات . ولا يصدهم ذلك عنه ،

وقد تتيسر الخمر لكل افريقي يريدها ولا يتيسر له أن يعدد الزوجات والسراري كما يريد ، وربما جاز أن يقال ان الافريقي يهجر المبشرين بعد استجابته لهم اذا أراد تعديد الزوجات فمنعوه ، ولكنه لا يعلم من أول كلمة يسمعها منهم أنهم يمنعون تعدد الزوجات ولا يستجيبهم كل افريقي وهو أعزب ثم يتركهم اذا شاء الزواج بأكثر من واحدة ــ دفعة واحدة ــ ! ان صح ما ادعوه .

واليوم لا يسمع هذا التعلل بمسألة الزواج المتعدد أو الزواج المقيد ، فان ذكرت من حين الى حين فانما يذكرها المبشرون للاعتذار عن اخفاقهم الى أصحاب التبرعات ولكنهم يعلمون أنها عذر واهن فيبحثون عن عذر غيره يرددونه اليوم ، وقد يرون أنه أوفق للاحوال الحديثة في القارة الافريقية وأقرب الى الصدق والى التصديق ، وذلك هو عذر العصبية القومية بين السود والبيض أو بين الافريقيين عامة والأوروبيين من المستعمرين والمبشرين .

قرأنا في أكثر من كتاب من كتب المبشرين هذه التعلة التي يتعللون بها لاخفاقهم ونجاح الدعوة الاسلامية ، وهي تعلة كانوا يكتمونها من قبل لأن اعلانها يلقي تبعة الفشل على الاستعمار وهو قائم في البلاد لا ينوي أن يتخلى عن شبر من الارض وصل اليه ، فلما اضطر المستعمرون الى الجلاء عن الديار الافريقية أصبح المبشرون في حل من القاء التبعة عليه ، وأصبح الكثيرون منهم ينادون بحرية الشعوب الافريقية وينكرون التفرقة في الحقوق بين الاجناس والالوان .

ولم ينس المبشرون أنهم بيض من جنس المستعمرين ، فاذا حمل الاستعمار تبعته وهو منصرف عن الديار أو على نية الانصراف فماذا يصنع المبشرون بمهمة التبشير ؟ هل يتخلون عنها ويعولون على نية الجلاء في آثار المستعمرين ؟ وهل يبقون ثم يطمعون من أصحاب التبرعات بموالاة المدد والمعونة بعد العلم بهذا الحاجز القائم بين الأوروبيين والافريقيين ، وبعد العلم بأنه حاجز متين يزداد قوة ومنعة في ابان حركات الاستقلال

ونهضات الحرية والعصبية ، ودعوات الأمم المتيقظة من المسلمين الافريقيين وغير الافريقيين ؟.

ان القوم قد حسبوا للامر حسابه على ما نفهم من كتاباتهم المتأخرة عن خطر الاسلام في سواحل افريقية الشرقية وما جاورها من الاقاليم التي ثارت على الأوروبيين أو تتحفز للثورة عليهم .. ومن حساب هذا الامر عندهم أنهم يدبرون تدبيرهم للتعويل على تلاميذهم الافريقيين في تبشير اخوانهم الذين بقوا على ديانتهم ، كما يعولون على هؤلاء التلاميذ في تبشير اخوانهم الذين دانوا بالاسلام من زمن بعيد أو قريب .

فليست حركة التبشير اليوم تنافسا بين المبشرين والاسلام لكسب القبائل الافريقية ولكنها حملة من التبشير على الاسلام لغزوته في عقر داره ، واستعانة على هذه الغزوة بمحترفي التبشير الافريقيين تلاميذ المبشرين الأوروبيين ، ومحالفة بين الاستعمار والوطنية الافريقية من طريق ملفوف ، لمحاربة الاسلام تارة بدعوة الوطنية وتارة بدعوة الدين .

هذه الخطة تتبع في افريقية الشرقية .. وتتبع في البلاد الآسيوية التي تمكن التبشير من اجتذاب فريق منها اليه . فسبيله منذ اليوم أن يجند الافريقيين الآسيويين للحملة على الاسلام في كلتا القارتين ويتوخى هذه الخطة بعينها كل من يجندون الدعاة لتحويل المسلمين عن دينهم واقناعهم بدعوة الاديان الاخرى أو بدعوة المادية والالحاد ، فانهم يستترون ثم يدفعون أمامهم تلاميذهم الافريقيين والآسيويين ، ويعقدونها محالفة خفية بين الاستعمار من بعيد ، وبين القومية الافريقية أو الآسيوية من قريب .

ان هذه « التعبئة » الجديدة توافق ظروف الاحوال كما يقال وتتدارك الازمة التي وقع فيها الاستعمار بعد الصدمات التي لقيها ويلقاها تباعا من شعوب القارتين ، فهو – بهذه التعبئة – يحاول أن ينقل السلاح من يده الى يد الوطني الافريقي والوطني الآسيوي وليس له من عدو يحاربه بهذه اليد أو بتلك غير الاسلام .

ولا يبالي خصوم الاسلام أن ينحائنوا عليه ويتهادنوا فيما

بينهم الى حين ، مع تلك العداوة اللدود التي تفرق بينهم في غير هذا الميدان ، لأنهم يعلمون أن خطر الاسلام باق لا ينقضي بانقضاء هذه الايام وينظرون الى أخطار الاعداء الآخرين فيشعرون بضعفها الى جانب الخطر الاسلامي المقيم ، أو يشعرون بقوتها ولكنهم يعتقدون انها عارض زائل يفرغون منه بفعل الزمن ، أو يرجعون الى محاربته على مهل بعد اضمحلاله وانحلاله أو دخوله في دور الاضمحلال والانحلال ·

ولنعتبر بالخطر الصهيوني ، وموقف المستعمرين والمبشرين منه حيال اسرائيل ، فان عداوة القوم لبني اسرائيل أشد من عداوتهم للمسلمين من قديم الزمن ، ولكنهم يعلمون ان قوة اسرائيل خطر مأمون الجانب ويتغلبون عليه كلما جاوز حده ويتحالفون معه كلما احتاجت اسرائيل اليهم ، واحتاجو اليها ، وستظل الحاجة بينهم متبادلة الى زمن بعيد ·

أما الاسلام فقوته أخطر من ذلك وأبقى على الزمن ويوشك أن تزداد خطرا مع اليقظة والتقدم · وأن يزداد الاستعمار ضعفا مع التخاذل بين حكوماته وشعوبه ، فلا تحالف معه على غرض من الاغراض المتبادلة بين الفريقين ، وقد يكون خطر المادية والالحاد على المبشرين أكبر وأعنف من خطر الدين الاسلامي لأنه دين ايمان بالله والقيم الروحية على آية حال · ولكن خطر المادية والالحاد حركة مولية لا تعيش ولا يمتد بها العمر ــ اذا عاشت ــ كما يمتد بالاسلام ·

ولقد علمنا نحن المسلمين ــ آسفين ــ أننا لم نكترث زمنا من الازمان قط بتنظيم دعوات التبشير لنشر العقيدة الاسلامية، فلنعلم الآن أن المسألة قد جاوزت أن تكون اهمالا لنشر الدين وصارت الى ما هو أسوأ وأدهى : الآن هي مسألة الاهمال في الدفاع والتسليم بالهزيمة في ابان فرصة الدفاع ، وقد تذهب هذه الفرصة ولا تعود ·

قوة العامل العنصري في حركة التبشير والاستعمار

« ٢ »

أشرنا في المقال السابق الى قوة العامل العنصري في تعويق دعوة التبشير وتهديد سلطان الاستعمار بالقارة الافريقية ، وعنينا بهذا العامل أن مسألة اختلاف اللون تعتبر حائلا منيعا بين الافريقيين السود وقبول دعوات المبشرين وحكومات المستعمرين البيض ، لأنهم يقرنون بين مظالم الرجل الابيض وبين كل دعوة دينية يسمعونها من قبله ·

وقد كان هذا الحائل قائما قبل مائة سنة ، ولكن المبشرين والمستعمرين لم يحفلوا به يومئذ كما حفلوا به اليوم بعد سريان حقوق تقرير المصير ، وتيقظ الافريقيين عامة لاكتساب تلك الحقوق · لأنهم كانوا أصحاب السلطان قبل مائة سنة في أنظمة الحكم والتعليم ، وكان في وسع القوة والمال أن ترغما الرعايا على ما تريدان وكان الرعايا أنفسهم على يأس من الخلاص القريب ومقاومة سلطان القوة والمال ·

أما اليوم فالباب مفتوح أمام الرعايا المشتغلين ، وليس هناك ما يمنعهم أن يعرضوا عن دعوات التبشير والاستعمار ، وأن يقبلوا على الطرف الآخر اذا شاءوا ، وهو قائم يتمثل لهم في الدين الاسلامي ثم في المذاهب الاجتماعية التي يحذرها المبشرون والمستعمرون ·

ولم تمض أيام على كتابة المقال السابق في مجلة « منبر الاسلام » حتى وصل البريد الاجنبي ــ الامريكي والأوروبي ــ حافلا بالاخبار الهامة عن فعل هذا العامل العنصري في كل بلد يقيم فيه عدد كبير من السود والبيض ·

قالت « نيوز ويك » : ازدحمت على المدرج الدولي الكبير في شيكاغو ــ ذات يوم من الاسبوع الماضي ــ جموع السود الشبان يلبسون الأكسية السود والقمصان البيض والقلائد

المذهبة ، ومعهم جموع الشابات ـ أخوات الله ـ يلبسن الأكسية البيضاء ويحيون جميعا ذكرى انقضاء ثلاثين سنة على حركة « وجود الاسلام المفقود بأمريكا الشمالية » ، وهي حركة يقودها زعيم مختار يسمى (ايليا محمد) ولعلها أشهر حركة من حركات السود المبغضين للبيض ، وان كان التابعون لها لا يمثلون غير جزء قليل من عدد الزنوج بأمريكا الشمالية ، وهم لا يكتمون مساعيهم السياسية ولكنهم يسترونها وراء ستار شفاف من الدعوة الدينية ٠٠٠ ويتجندون عادة من الطوائف غير المتعلمة ومن المضطهدين المحرومين ٠٠ وقد زعم ايليا محمد أن أتباعه يبلغون مائتين وخمسين ألفا من الرجال والنساء ولكن العدد الأصح ـ فيما يبدو لا يزيد على خمسين ألفا ٠٠٠ وقد اجتهد لابسو الأكسية السود في اقصاء المخبرين البيض ومراسلي التليفزيون لأنها المرة الاولى التي يسمح فيها بدخول البيض الى هذه المجتمعات ، وكان على المنصة علم مكتوب عليه : « لا اله الا الله محمد رسول الله » وأحاطت بمكان الاجتماع أعلام كتب عليها : « لا بد لنا من نصيب في الارض »٠ ٠٠٠ و « لا بد لنا من وظائف وأعمال » ٠

وقد حضر الاجتماع سبعة آلاف رجل وامرأة من خمسة عشر ألفا كان ينتظر حضورهم ، وأفسح الجانب الايمن للنساء فلم يجلس الرجال في غير الجانب الشمال ٠

وكان من برنامج الاجتماع احياء ذكرى السيد فرج محمد الذي يدين له السيد ايليا محمد بالزعامة ، وقد نهض بدعوة اسلامية سوداء سنة ١٩٢٠ ثم اختفى منذ سنة ١٩٣٠ ولم يعرف له مكان ٠٠٠ وكان اسم ايليا الذي سجل بدفتر المواليد « ايليا بول » وكان ابن قس من الطائفة المعمدانية انتقل آخيرا الى مدينة « ديترويت » وتسمى باسمه الاسلامي من ذلك الحين ٠ وتحسبه اذا رأيته ناسكا متهجدا يفرض على أتباعه اجتناب الخمر والتدخين والمخدرات واقامة الصلوات خمس مرات كل يوم ، وهي آداب توافق أحكام الاسلام التاريخية وان خالفتها في التمييز بين الاجناس ، وبين السود والبيض الذين يسمون في لغة ايليا النارية بالثعابين ذوات القدمين ٠

« كان زعماء الاجتماع قد أبلغوا الحاضرين أن الاجتماع كلفهم سبعمائة وخمسين ريالا ، وأن الرجل الابيض يطالبهم بألفين وخمسمائة ريال استولى عليها ساعة الاتفاق على تأجير المدرج • قال زعيم منهم : انهم يتهموننا بنشر تعاليم العداوة والبغضاء ، وهو منهم تدبير كتدابير (الشيطان) • وقد تولى الرجل الابيض الحكم ستة آلاف سنة ونحن هنا في آخر الدنيا ننادي بالنصيب الذي كان للرجل الابيض في ولاية الاحكام ، وعلينا أن نستقل بأنفسنا ولكن ليس من الضروري أن ننعزل عمن حولنا • ثم انتهى الاجتماع بوقوف الحاضرين للصلاة مستقبلين الكعبة » •

هذا ما كتبته المجلة الامريكية •

وقد ورد الخبر في مجلة « الايكونومست » الانجليزية — وهي من أهم مجلات العالم — مكتوبا بعنوان « جهاد الزنوج » وزادت على ما جاء في المجلة الامريكية آن هؤلاء السود يتحدثون بينهم في انشاء جمهورية مستقلة مع بعض ولايات الجنوب ، وتستمد الحركة قوتها من اقامة أعضائها في البلاد المركزية مثل شيكاغو ونيويورك وديترويت وملوكي حيث تقيم الطبقة الزنجية الوسطى التي تنبهت لحقوقها في الزمن الحديث ، وتزيد المجلة الانجليزية تقديرها لعددهم فتبلغ به مائة ألف ثم تقول : « انهم يحرمون الخمر والتدخين ويفرضون التدريب الرياضي على الشبان من الثامنة عشرة الى الثلاثين ، مؤكدين فريضة التعليم ••• ويقول العارفون بهم ان شريعة العداوة والبغضاء التي يبشرون بها لا تختلف عن شريعة « الكوكلكس كلان » التي أخذ اسمها من صوت البندقية عند اطلاقها ، ولا عن جماعة « مجالس البيض » ويخشون أن يكون تعصبهم للرجل الاسود معطلا للحقوق الدستورية التي يراد بها تحسين أحوال الزنوج السياسية والاجتماعية والاقتصادية ••• وسيظهر غدا هل هم خطر على الجنس الاسود أو دعامة من دعامات تقدمه عند تنازع الزعماء على الرئاسة بعد وفاة السيد محمد وهو الآن في الرابعة والستين » •

وقد نشرت أخبار هذه الحركة في صحف أخرى لا يزيد ما احتوته على أخبار هاتين المجلتين ، ولكننا نفهم الكفاية من صيغة هذه الاخبار كما روتها كلتا الصحيفتين ·

وبقي أن نعلم :

(١) أن الدعوة الاسلامية بين السود الامريكيين مفتحة الابواب ، شأنها في ذلك شأن السود الافريقيين ·

(٢) أن الاسلام يستطيع أن يعتمد على العامل العنصري الذي تحتال هيئات التبشير الآن على استخدامه بتدريبها للقساوسة السود على دعوة اخوانهم المسلمين واخوانهم الوثنيين ·

(٣) أن النية متجهة الى انتحال المعاذير « القانونية » للقضاء على هذه الحركة باسم الامن والسلام ، وحجة المسئولين في ذلك أنهم حرموا جماعات البيض التي تستخدم السلاح في محاربة خصومها ، فلا تفرقة اذن ــ عندهم ــ بين معاملة الجنس الاسود والجنس الابيض ·

(٤) نعلم من تناقض المجلتين أن أصحاب هذه الحركة لا يجهلون أحكام دينهم ولا يستبيحون التمييز بين السود والبيض وهو ممنوع في الاسلام · فاذا صح ان لهذه الاشاعة أثرا فمن الواجب على المسلمين في الشرق ان يتداركوا هذه الحركة بما يعصمها من تعلات المسئولين هناك ، وأن يكون تصحيح هذه الاشاعة علانية بين السود والبيض والهنود الحمر وسائر الاجناس ، ولسنا ننتظر من تبشير هؤلاء الدعاة الغيورين أن يستميلوا الى الاسلام من يستمعون اليهم من البيض ، ولكنهم يفلحون ولا رَيب في مقاومة التبشير الذي يحتال له المبشرون باستخدام القساوسة السود أمريكيين كانوا أو افريقيين ·

المبشرون نقاد القرآن

□

ان العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالغباوة والقداسة لعلة واحدة في وقت واحد • فان تقبل العقل ذلك فلا بد من سبب يوقعه في هذا الاضطراب باختياره ، وأكثر ما يكون ذلك السبب مرضا من أمراض الجنون أو هوى دفينا يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها ، أو خداعا مقصودا يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه •

ولسنا نخطيء في جماعة المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الاسلام آفة من هذه الآفات • فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط في التفكير كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية ، أو يملكه التعصب الذميم فيقوده الى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه • ، أو يعمل عمل المحترف الذي يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ، ولا يعنيه الا أن يعرض بضاعته ويهيء لها أسباب النفاق في السوق ، وربما اكتفى من النفاق باقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويج !

عرفنا في القاهرة منذ بضع عشرة سنة علما من أعلام التبشير كانوا يلقبونه « بالرسول المختار الى العالم الاسلامي » ويريدون بذلك أنه تكفل أمام جماعات التبشير بتحويل العالم الاسلامي عن عقيدته ولم يكن يستكثر على همته أن يتصدى لتحويل مكة والمدينة في مقدمة المعاقل الاسلامية ، ولا تحويل القاهرة بما اشتملت عليه من معاهد الاسلام وذكرياته الباقية •

وذلك الرسول المختار الى العالم الاسلامي هو رئيس المبشرين في الشرق الدكتور صمويل زويمر ، وقد بلغ الخامسة والثمانين

وتوفي منذ تسع سنوات (١) ولم يترك بعده واحدا من «المهتدين» بتلك الرسالة يقال فيه بحق انه تحول من الاسلام عن يقين وايمان ، لأن تلميذه الذي اجتباه في القاهرة كان له مرتب يتقاضاه ، ولم يرتفع له صوت بعد اعتزال أستاذه وظائفه المتعددة في صناعة التبشير !

ذكرنا بهذا « العلامة » كلام قرأناه له في كتابه « بلاد العرب مهد الاسلام » وكتاب ظهر أخيرا في موطنه « عن الطب الطبيعي » كأنما وضعوه عمدا ليردوا به على ذلك الكلام الذي نشره زويمر وأعاد نشره خلال ستين سنة ولا يزال مرجعا من مراجع التبشير بين أيدي التلاميذ المتخرجين على يدي ذلك الرسول ٠

قال هذا الرسول الى الاسلام في فصله عن العلوم والفنون العربية : « ان الشهد لم يزل معدودا كالترياق في بلاد العرب استنادا الى القرآن والحديث ، وقد كانت الاشارة الوحيدة الى الطب في وحي محمد هذه الكلمة الغبية التي يقول فيها عن النحل انه « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون ٠٠٠ » وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذي وصفه الله في كتابه !! » ٠

ان الدجل المتعمد ظاهر في قول العلامة « الغبي » ان القرآن حصر الطب كله في دواء واحد هو الشهد ٠٠٠ فان المعنى الذي تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة أن الشهد شفاء ولم تقل انه كل الشفاء ولا أنه شفاء من جميع الامراض ، فان وصف الشهد بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية كما يوصف أي عقار من العقاقير في الصيدليات ٠

ومثل هذا الادعاء « التبشيري » لا يعتسف (٢) اعتسافا على هذه الصورة الا للافتراء المتعمد طمسا للحقيقة مع سوء النية ٠

أما حكم العلامة بالغباوة على وصف « الشهد » بالشفاء

---

(١) نشر هذا المقال في مايو سنة ١٩٦١ ٠

(٢) يعتسف : اعتسف الطريق عدل عنه ، والامر ركبه بلا رؤية ٠

فليس له معنى غير غباوة مطبقة في القائل ان كان مصدقا لما قال ·

لم لا يكون « الشهد » دواء من الادوية وهو خلاصة أعشاب وأزهار ؟

ان علاج الامراض بالاعشاب والازهار قديم جدا في كل أمة ، وهو قوام العلاج الى اليوم في أكثر الادوية التي يصفها الاطباء العصريون لضروب شتى من الامراض وتستحضرها معامل الكيمياء في بلاد الحضارة ·

وهذا قبل شيوع الكلام عن « الفيتامينات » وتقرير العلاج بها للامراض الباطنية وأمراض الاعصاب وعلل الضعف والاعياء على اختلافها ·

فلماذا يمتنع على العقل كل الامتناع أن يصف دواء الشهد بوصف غير الغباوة ؟

لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع « الفيتامينات » والحيويات دواء ينتفع به الضعيف ؛ المريض ؟

ان « الغباوة » هي عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لتصورها على كل احتمال ·

والى هنا قد تكون الغباوة مفهومة اذا هي تشابهت في سوء الفهم ولم تتخصص للشهد دون غيره ، ولكنها « غباوة » تنزل الى ما دون « مستوى الفهم » اذا كان صاحبها يرفض الشهد علاجا ثم يتقبل تطهير الامراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سرورا للاله ويتقبل أمثال ذلك من أوصاف الكتب التي يتلوها على الناس ويقدسها صباح مساء ·

بعد وفاة زويمر ببضع سنوات ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الطب الطبيعي يقول مؤلفه عن الشهد ما كان زويمر يدعيه على القرآن الكريم ، ويعقد المؤلف لخصائص الشهد الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله « صيدلية » وافية تغني عن عشرات من العقاقير ·

وليس المؤلف واحدا من أولئك المتطببين الجهلاء بتعاطي علاج الامراض بوصفات الاقدمين من قبيل تذكرة داود الانطاكي في اللغة العربية ، بل هو الدكتور جارفس الطبيب المتخرج من مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية التي سمعها زملاؤه العظماء المصريون وأشاروا عليه بجمعها للافادة منها ، فجمعها ونقحها وأودع فيها صفوة التجارب التي حققها نحو أربعين سنة الى أن جاوز الثمانين ، وسماها بطب الجمهور Folk Medicine كما تسمى من قديم الزمن بين الغربيين ·

وهو لا يعلل فائدة الشهد في العلاج « بالبركة » ولا بالتأثير النفساني المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التي تعمل عمل الدواء وان لم يحسبها الاطباء من الأدوية العلاجية ، ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدها الاطباء والصيدليون في تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التي تحدث الامراض أو تضاعف أضرارها ، ويقول في تمهيدات فصل مطول كتبه عن الشهد خاصة انه لا يتكلم عن « نظرية » معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التي أثبتت أن « البكتريا » لا تعيش في الشهد لاحتوائه على مادة « البوتاس » وهي تحرم البكتريا تلك الرطوبة التي هي مادة حياتها ·

قال : « ان الدكتور ساكيت أستاذ البكتريا بكلية الزراعة في فورت كولنز ·· وضع أنواعا من جراثيم الامراض في قوارير مملوءة بالعسل الصرف ··· فماتت جراثيم التيفويد بعد ثمان وأربعين ساعة ··· وماتت جراثيم النزلات الصدرية في اليوم الرابع ·· وماتت جراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات ·· وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات ·· » ·

ثم استطرد المؤلف الى بيان المواد الغذائية الموفورة في الشهد فذكر منها الاغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل في تركيبه ، ونقل تقرير الاستاذ شويت Schutte العالم الكيماوي الذي يقول فيه ان الاغذية المعدنية تختلف

باختلاف ألوان الشهد · فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر في الشهد الضارب الى السواد ··· والحديد ضروري لاتصالـه بالمادة الملونة للدم أو الهيمجلوبين ، ويلي ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء في القرآن الكريم وهو يشير الى اختلاف ألوانه وما احتوته عن أسباب الشفاء ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية في الشهد فعدد منها (١) أنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية و (٢) أنها سريعة التمثيل في البنية و (٣) أنها تتحول سريعا الى طاقة بدنية و (٤) أنها مناسبة للمشتغلين بالالعاب الرياضية لتعويض الطاقة و (٥) أنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين و (٦) أنها مهدئة ملطفة و (٧) أنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلا عـن سهولة الحصول عليها ·

ومضى الطبيب في بيان خصائص الشهد النافعة للعـلاج وغذاء الكبار والصغار وتفسير ذلك بالاسباب العلمية فأجملها في خمس وعشرين صفحة ، ولم يذكر في سائر الفصول دواء « طبيا » آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هـذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل والمشتغلين بالطبيب ·

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعي فذكرت كلمة زويمر عن الآية القرآنية ووجدتها مثالا أصلح من كل مثال لابراز « عقلية المبشر » بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة، مع عيوب الفدامة(١) والعي في كثير من الاحيان ، ولاح لي أن نصيب زويمر من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته في ميدان التبشير · الا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه ، بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أوفى منها لو أنه أراد بهـا تثبيت المسلمين على عقائد الاسلام ·

---

(١) الفدامة : قلة الفهم وعدم القدرة على الافصاح ·

الذات المحمدية

من تحصيل الحاصل أن يقال ان التفكير الغربي قد عجز عن ادراك حقيقة الفتح الروحي الذي جاء به الاسلام في ركنين من أركان العقيدة الدينية ، وهما فكرة الاسلام عن الاله ، وفكرته عن النبوة ·

فالحقيقة البينة للمسلم المتأمل أن الدين الاسلامي قد ارتفع بضمير الانسان شأوا بعيدا الى ادراكه للفكرة الالهية والفكرة النبوية أو فكرة الرسالة والوحي من الخالق الى خلائقه العقلاء ·

فبعد الايمان باله القبيلة ، أو اله الشعب المختار ، واله الشعائر الوثنية أو الاله الذي يحاسب الناس بحساب القرابين والكفارات ولا يحاسبهم بالتبعة والتكليف ، جاء الاسلام بأشرف العقائد الالهية فعلم الانسان أن يؤمن برب العالمين ، رب الانسانية جمعاء ·· رب الانسان الذي لا فضل له بغير عمله ، ولا خلاص له بغير ضميره وعقله ·

وبعد الايمان بنبوات تقوم هدايتها على الخوارق والمعجزات، أو على الوساطة في تقديم القرابين ، أو على الحراسة من الاخطار والنقم ، جاء الاسلام بالنبوة التي تخاطب العقل والبصيرة،ولا تعول على التهويل بالخوارقوالاراجيف(١) ، وعلم الناس أن النبي انسان مثلهم يبشر وينذر وليس بالمنجم الذي يكشف لهم عن الخبايا ويروعهم بالأعاجيب ·

ومع هذا التقدم الواسع في مراحل العقيدة الدينية لم نزل نسمع من المفكرين الغربيين من يقول ان الاسلام لم يأت بجديد في عالم الروح ، وانه نسخة محرفة من المسيحية ، أو صورة جديدة متوسعة من صور اليهودية ··· وانه لخطأ ذريع يدل على التهاون المعيب في أول واجب من واجبات البحث العلمي وأول واجب من واجبات النزاهة الدينية ، وذلك هو واجب الابتداء بالمقارنة بين فكرة الاله في كل دين ، ولا حاجة معها الى أكثر من التعريف باسم الاله في ذلك الدين ·

---

(١) الاراجيف : أخبار الفتن والشر ·

نقول : ان تهاون المفكرين الغربيين في هذا الواجب تحصيل حاصل واعادة قول مفهوم من زمن قديم ·

ولكن تهاون هؤلاء المفكرين ملحوظ في أمر آخر لا يزال حسن الظن بتفكيرهم فيه أملا غير بعيد عند كثير منا نحن المسلمين من أبناء العصر الحديث ·

ذلك الامر الآخر هو ادراك مواطن العظمة وآيات القدرة في « الذات المحمدية » أو في « شخصية » النبي عليه السلام ، كما يقال بتعبير هذه الايام ·

فمنهم من يرى غاية العظمة في صاحب الدعوة الاسلامية أنه داعية قدير يتوسل بالفصاحة حينا وبالسيف حينا الى نشر عقيدته بين المنكرين المتألبين عليه ·

ومنهم من يحسب أنه ينصفه غاية الانصاف حين ينفي عنه الاحتيال والخديعة ويشهد له بالصدق والاجتهاد في طلب الاصلاح ·

ومنهم من يشهد له بالقداسة الروحية وينسب النجاح « العملي » بعد ذلك الى أعمال خلفائه الراشدين ، ويخصون بالذكر منهم عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ·

وقد ترى على المفكر منهم دلائل حسن النية ، ولكنه يظن أن الانعام في التفكير والنظر الى ما وراء الظواهر يتقاضاه أن يقيس قيام الدولة الاسلامية الى العوامل المألوفة في أمثال هذه الاحوال ، وأكثرها راجع عند المؤرخين الى تدابير الزعماء وخطط المتربصين لانتهاز الفرص واستغلال « الظروف » كما يقولون ·

وبين هؤلاء مؤرخ كبير لعله أشهر المؤرخين الغربيين من المعاصرين وهو الدكتور أرنولد توينبي صاحب « دراسة التاريخ » في أكثر من عشرة مجلدات ضخام ·

ولعل هذا المؤرخ أسلم المفكرين الغربيين نية عند الكلام على الاسلام ، ولكنه فيما نرى ــ أقدر على الاحاطة بالحوادث والمواقف الاجتماعية العامة منه على الاحاطة بأسرار العظمة في « الشخصيات » النادرة ، ولهذا كان اعتقاده ان قداسة محمد عليه السلام لم تعصمه أن ينساق ــ من حيث لا يدري ــ الى

تحقيق مطامع الزعماء الامويين ، لأنهم كانوا أعرق وأعـرف بتدبير وسائل السياسة والملك من بيت النبي الذي تخصص من قبل عصر الدعوة لشئون العبادة ، ولم يستعد للملك كما استعد لها بيت أبي سفيان بأدوات (الحيطة) والدهاء ·

قال توينبي في رحلته حول العالم في فصل كتبه عن الامويين : « ان المسألة ـ وصلت الى السياسة العملية ـ فكان أمراء التجارة المكيون أكبر من ند لابن بلدتهم العجيب ··· وكانوا قد أخفقوا في صد الاسلام ومنع انتشاره فلم يبق لهم من بديل عن ذلك غير الاحتيال عليه بالانضواء الظاهر اليه » ·

ثم مضى يقول ما فحواه ان زعماء بني أمية جعلوا محمدا عليه السلام يسوق الدولة الى أيديهم وهم يظهرون خدمتـه ويستدرجون قريشا الى تجديد زعامتهم كرة أخرى بعد الخلفاء الأولين ، ولم يذكر المؤرخ متى كان من عمل النبي أن ينشيء بعده دولة وأن يذود عنها بني أمية وغير بني أمية من الخلفاء والاتباع ·

هذه « المناورة » الخيالية فصل من فصول التاريخ المألوف يبحث عن رواة المناظر والمؤامرات كلما بحثوا عن قيام الدول والأسر المالكة ، ويرضيهم كما يرضي قراءهم أن يصوروا أمام الناس بطلين أحدهما طيب مثالي والآخر خبير ذو دهاء « عملي » يستفيد من جهود الدعوة ثم يحولها بحيلته الى الجانب الـذي ينتهي بتحقيق مطامعه وتغليب القدرة « العملية » على الافكار المثالية ، ولو بعد حين ·

ولو أن « شخصية محمد » عليه السلام فهمت حق فهمها لما ورد هذا الخاطر على وهم المؤرخ فضلا عن تقريره وتوسيعه واقامة الدين والدولة في الاسلام على أساسه ·

ان تاريخ النبوات لم يعرض لنا قط مثلا للشخصية التي تدين لها جبابرة « الشخصيات » كما حدث ذلك في تاريخ الاسلام والصحابة ·

فأعظم الانبياء لم يكن حولهم من أصحاب الشخصيات الممتازة باقتدارها وعزيمتها من نستغرب طاعتهم لهم وتسليمهم بعظمتهم زمنا يقصر أو يطول كيفما طال ·

لم يكن حول أحد منهم من أحاط به أمثال الصديق والفاروق وعثمان وعلي وأبي عبيدة وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأندادهم من الرؤساء والدهاة والفرسان ، وكلهم قد صلح ـ بعد التجارب الكثيرة ـ لاقامة دولة ، وسياسة أمة ، وخلق تاريخ ، وقيادة جيوش وشعوب ، ورياضة أقوياء وضعفاء ٠

هذه «الشخصيات» القوية الفعالة لم يكن أحد منهم لينظر الى « النبي » طوال أيام صحبته الا كنظرة التلميذ المعجب بأستاذه الى ذلك الاستاذ الموقر المحبوب ٠

ولقد عاش ابن الخطاب ما عاش ـ وهو أمة في رجل ـ يردد نداء النبي له باسم الأخوة لأنه ـ على عظمته النادرة ـ كان يستكثر أن يقول له محمد « يا أخي » وهو يناديه ٠

ولقد قيل عن المقارنة بين « الشخصية المحمدية » و « الشخصية العمرية » ما قيل ، وزعم من زعم من الغربيين ان الاسلام مدين بانتشاره لعظمة عمر بعد قيام النبي بدعوة الرسالة ، ولكن الفارق الشاسع بين محمد وعمر لم يزل جليا بارزا يفهمه كل من يفهم الفارق بين الانسان العظيم والرجل العظيم ٠

ولقد كانت شخصية معاوية تتضاءل الى جانب « شخصية » عمر وكانت شخصية عمر تتضاءل الى جانب شخصية محمد ، بغير تردد يخامر الظن عند ذكرهم على اللسان ، أو عند المقابلة بين عناصر العظمة عند كل منهم وكل من أقطاب الصحابة العاملين ٠

والنبوة ـ ولا خفاء ـ شرف عظيم تدين له الرؤوس والقلوب ، لكن النبوة وحدها بغير « شخصية » تناسبها لم تكن كفيلة لذات النبي بهذه الهيبة وهذا الحب والاعجاب جيلا كاملا حافلا بالعظائم والتجارب مزدحما بأطوار العنصر والهزيمة ، وعوارض الرجال والقنوط ، فلو لم يكن محمد يملك من صفات القدرة والشجاعة والبلاغة والتدبير والمهابة وحسن الأثر في النفوس والعقول نصيبا أوفى من نصيب أصحابه وأتباعه لما دانت له هذه الاطواد الشوامخ بالتطامن والاطمئنان ، ولما انقضى الزمن على هذه هذه الصحبة دون أن تظهر فوارق

الصفات الشخصية الى جانب فوارق النبوة وفوارق الدعوة ما تقتضيه من الاصغاء بوحي الايمان ، دون وحي العاطفة والبديهة ·

فالصحابة حول موسى عليه السلام لم تبق لهم سيرة تدل على عظمة خارقة يستكثر عليها أن تدين بالطاعة والولاء لمن هم دون موسى أو دون هارون في صفات الرئاسة والتعليم ·

والحواريون حول عيسى عليه السلام لم يكن أحد منهم ليرتفع الى مكان الظن بالمشابهة أو المقاربة بينه وبين هذا الرسول الكبير ·

ولكنك تذكر أبا بكر وعمر وعثمان وعليا وابن الوليد وابن العاص وأبا عبيدة وغيرهم وغيرهم فتذكر فتوح بابل وفارس وبيزنطة ومصر ، وتذكر سياسة الدول وقيادة الأمم وحكمة الرأي وشجاعة الاقدام والأناة ، ثم تعود الى حضرة النبي لتتخيل هؤلاء جميعا تابعين مطيعين يأوون الى جناح النبي كما يأوي البنون الى الأب الامين فلا يسعك الا أن تحس من وراء الزمن جلال هذه « الشخصية » وان تدرك المسافة الشاسعة بين ذلك الرأس الرفيع وبين تلك الرؤوس التي تطامنت لديه ، وكلها — على هذا — مرتفع ممعن في الارتفاع آفاقا على آفاق ·

ان النبوة المحمدية صفة الهية تولي صاحبها من القداسة ما يوحيه الايمان وتوحيه طاعة الاله ·

وبعد ذلك عظمة انسانية راسخة القرار رفيعة الذروة ، تهول الناظر اليها ولو كان في عظمة الصديق ، والفاروق ، وذي النورين ، والامام ، وسيف الاسلام واخوتهم الأفذاذ بين عظماء الأمم وأعلام التاريخ ·

تلك عظمة « الذات المحمدية » : عظمة « الشخصية » التي استحقت من الله أن يجعل فيها رسالته كما جاء في الكتاب المبين · ولن يستطيع مفكرو الغرب أن يخلصوا من مألوفات التاريخ و « مناوراته » التقليدية الا أن يدركوا كيف جاوزت هذه العظمة كل مألوف ، وكيف استطاعت بوحيها الالهي مع وحيها الانساني أن تكسب تلك المكانة العليا بين أصحاب أقطاب ، كل منهم يضيق به أفق الاكبار والاعجاب ·

الاسلام والجماعة المتحدة

هذا اسم كتاب صدر في هذه السنة باللغة الانجليزية لمؤلفه الاستاذ « مونتجومري وات » عميد قسم الدراسات العربية بجامعة «أدنبرة».

وفضيلة هذا الباحث في دراساته الاخيرة أن تخلص من آفة التفسيرات المادية للتاريخ ، وعرف مكان « الظروف » الاقتصادية في تطور الحوادث وتطويرها ، فلم يجاوز بها حدها ولم يجعلها أساسا لكل حركة اجتماعية تحدث في هذا العالم الحافل بأسبابه وأسراره ، فليست الحوادث الكبرى عنده معزولة عن العوامل الاقتصادية ولا عن عوامل المعيشة اليومية ، ولكنها تختلط بها وتؤثر فيها الى أمد محدود ، ويجب على المؤرخ الباحث أن يصل بها الى هذا الأمد ولا يزيد عليه .

ومن « أبسط » أمثلته على ضرورة الالتفات الى العوامل الروحية ، وعوامل العقائد والموروثات الفكرية ، أنه يذكر حركة التجديد التي ارتبطت بانشاء مدارس المبشرين في الشرق الاوسط ، ويذكر أثرها في دعوات الثقافة ومذاهب التحرر ، ويذكر اختلاف النظرة الى هذه المدارس بين المسلمين وغير المسلمين من أبناء الشرقين الاوسط والادنى ، ثم يقرر أن اختلاف هذه النظرة كان له أثر في دعوات الثقافة ومذاهب التحرر بين الطوائف والجماعات وليس لهذا الاثر من سبب غير العقائد والموروثات الفكرية ، مع التشابه في ظروف المعيشة وأطوار الاقتصاد بين جميع السكان المسلمين والمسيحيين .

وعلى هذه القاعدة من تحديد عمل « الظروف » الاقتصادية بحث الاستاذ مونتجومري عوامل نشأة الاسلام وعوامل «الوحدة» التي امتازت بها الدعوة المحمدية وجعلها المؤلف موضوعا لكتابه، وان كان قد وقف بها عند نهاية القرون الوسطى ولم يتقدم بها الى العصر الحديث .

وأهم وجهات النظر في المبحث كله ان المعركة بين محمد عليه السلام وبين كفار قريش لم تكن معركة بين دعوة تجديد

ودعوة محافظة على القديم ، بل كانت معركة بين حركة تجديد وحركة تجديد أخرى ولكن في طريقين مختلفين ، بل متعارضين ·

كانت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة الى معيشة الحاضرة التجارية · وكانت ثروة الارباح من تجارة القوافل تتدفق على زعماء العشائر القوية في مكة وتتحول بهم من أخلاق فرسان البادية الى أخلاق السادة المنعمين في الحاضرة ، بين أناس من عشائرهم وأتباعهم وعبيدهم يخدمونهم مضطرين ولا يشاركونهم في نعيم الثروة ولا في عزة السطوة، فهم ــ كسادتهم ــ غير محافظين ، وغير مطمئنين الى ما هم فيه ، وان كانوا يخافون التغيير المجهول ولا يسلمون زمامهم للمصلحين على غير ثقة بعاقبة هذا التغيير ·

فلم يكن السادة ولا العبيد ــ اذن ــ محافظين على القديم كما زعموا لاقناع أنفسهم بمحاربة الدعوة المحمدية ، وفاء منهم لآبائهم وأجدادهم ورعاية منهم لأربابهم ومعبوداتهم ·· بل كانوا جميعا يتحولون من سنن أولئك الآباء والاجداد في معيشتهم وأخلاقهم ، ويأخذون في معيشة جديدة شعارها الترف والمتعة ، وأملها الاكبر زيادة الثروة والسطوة ، وحقيقتها الواقعة هي حقيقة كل « متعة حسية » يجور صاحبها على نفسه ويجور على المحرومين منها باختياره وبغير اختياره ، وهذه هي الحياة التي وصف القرآن الكريم أصحابها فقال انهم اتخذوا الهوى الها « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » ·

أما التغيير الذي جاءت به الدعوة المحمدية فقد أفلح واستقر لأنه أعطى النفس الانسانية ــ كما أعطى الجماعة كلها ــ حياة أفضل من حياتها وغاية أحق بالسعي اليها من غايتها ·

ليس متاع الحياة الدنيا غاية حياة الانسان لأن متاع الحياة الدنيا غرور وضلال بغير الباقيات الصالحات ·

وليس المجتمع الانساني سوقا للسادة والعبيد ، ولكنه «أمة» تهتدي بامام واحد أو امامة واحدة ، وقبلتها التي تؤمها وتستقيم على الجادة ما دامت مستقيمة عليها هي قبلة الخير والتقوى ، يتساوى فيها العاملون الصالحون ولا يستأثر بها

صاحب الثروة والسطوة أو تستأثر بها من حوله عصبة الأسرة أو العشيرة ، وزعامة البادية أو الحاضرة ٠

ويقول الأستاذ مونتجومري ان فكرة « الأمة » كما جاء بها الاسلام هي الفكرة البديعة التي لم يسبق اليها ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى « الوحدة » في « أمة » واحدة تختفي فيها حواجز الاجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة ، وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الاقطار وتفاوت المصالح ، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها ، بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفي الغرباء عنها ٠

وتساءل المؤلف : أكانت العقيدة الدينية ضرورية لخلق فكرة « الأمة » بهذا المعنى ؟ ألم يكن في وسع الزعامة العظيمة أن توحد بين العرب بسلطان « الشخصية » المطاعة المحبوبة ثم تدع هذه الوحدة تضم اليها من يضمه الدين من غير أبناء الجزيرة ؟

ورأى المؤلف أن فكرة « الأمة » هي التي راضت رجلا مثل عبد الله بن أبي لقبول الرئاسة الدينية ولم يكن ليقبلها لو كانت رئاسة محمد رئاسة دنيوية ، وان فكرة الأمة هي التي جعلت أناسا من الفرس يؤمنون بأنهم أحق من بني أمية بنصرة الخلافة الاسلامية على قواعد المساواة بين جميع المسلمين ، وان فكرة الأمة هي التي جددت للبلاد الاسلامية في كل عصر « قبلة » تلوذ بها وتهتدي بهداها ، وهي التي بثت في صدور المسلمين انهم « أمة » واحدة أمام الغزوات الاجنبية ٠

ويقول المؤلف ان عقيدة الاسلام تزود أبناءه في كل عصر « بالصورة المحركة » التي ينظرون اليها ويترسمونها ، ويسمي هذه الصورة المحركة بالانجليزية dynamic Image أي « الطيف » أو المثال الذي يحفز السائر الى الحركة والتقدم

ويهون عليه مشقة الطريق ، وأقرب من ذلك باللغة العربية أن نسميها : « القبلة الموجهة » أو القبلة المستجابة ، لأنها كلمة موافقة لشعائر الاسلام ·

وسر هذه القوة في العقيدة الاسلامية أنها منحت الفرد مقياسا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمنحة وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة ، وأنها ــ مع هذا الاستقلال الفردي ــ لم تترك الجماعة بغير وجهة تصمد عليها ، فأبدعت لها فكرة « الأمة » وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية وحدود الوراثة ، فأصبح معنى « الأمة » قابلا للتطور مع الحوادث و « الظروف » ·

ونرى نحن ان صاحب كتاب الاسلام والجماعة المتحدة قد أصاب في التنويه بمعنى « الأمة » في العقيدة الاسلامية واعتباره أنه معنى فريد خلقته العقيدة الاسلامية ولم يكن له مرادف بمعناه في لغة من اللغات قبل ولا بعد الاسلام ··

فكلمة « ناشن » nation التي تقابل هذه الكلمة باللغات الأوروبية مأخوذة في أصلها من معنى الولادة ، ومفادها أن الولادة في مكان واحد هي الرابطة التي تكسب أبناء الوطن حقوق هذه الوحدة الاجتماعية ·

وكلمة « بيبول » Peopl تقابل عندهم كلمة الشعب أحيانا باللغة العربية وترجع في أصلها الى السكن والاقامة ·

وكلا المعنيين ــ معنى الولادة ومعنى السكن ــ قاصر عن الدلالة على « القومية » كما يفهمها علماء التعريفات الاجتماعية والسياسية في عصرنا الحاضر · وأصبح منها أن تكون رابطة الأمة هي رابطة الاشتراك في وجهة عامة كما سبقت بها دلالتها في الآيات القرآنية ·

الا أننا لا ننسى في هذا المقام أن نعود الى الناحية اللغوية لنعرف مدلول اللفظ في اللغة ومدلوله في الاصطلاح بعد الدعوة المحمدية ·

فاستقبال الجهة أصيل في كثير من الكلمات التي تفيد معنى الوحدة الاجتماعية باللغة العربية وان قل عددها بالنسبة الى الاقوام الكثيرين ·

فالقبيلة ــ وهي أصغر من الأمة ومن القوم ــ تطلق على الذين يستقبلون جهة واحدة في السكن والمرعى ٠

والفئة ــ وهي أصغر من القبيلة ــ تطلق على الذين يفيئون الى ظل واحد ٠

والقوم ــ وقد يكونون قبيلة كبيرة أو قبائل متعددة على عهد بينها ــ هم كل جماعة « يقومون » معا في أمور الحرب والسلم ، ويغلب أن يكون قيامهم معا بأمور الحرب أعم في بداية الامر من القيام معا بسائر مهام المعيشة ، ولهذا كان المفهوم من القوم « أولا » جماعة الرجال دون النساء ، قبل أن تعم الرجال والنساء أجمعين ٠

فمعنى الوجهة أصيل في اللغة العربية للدلالة على وحدة الجماعة ، ولكن القرآن الكريم قد جاء بكلمة الأمة في معارض كثيرة تفيد معنى السبط من القبيلة ، كما تفيد معنى الجماعة الكبرى التي تحيط بشعوب كثيرة ٠

فمن هذه الدلالة القرآنية لزمت وحدة الوجهة معنى الأمة في مواضعها الكثيرة ، وحق لمؤلف كتاب « الاسلام والجماعة الموحدة » أن يعتبر هذه الفكرة ــ فكرة « القبيلة » الروحية ــ عصمة من التفرق وينبوعا لكل دعوة ترد الى حظيرة الاسلام كل من يخالفون الجماعة باسم « الوحدة » وسعيا الى التوفيق ، فقد تعلقت آمال المسلمين على الزمن بهذه القبلة الموثوقة ، كأنها الأفق المشرق الذي لا يغيب عنه الضياء ، ولا ينقطع دونه الرجاء ٠

الاسـلام والنظم الاجتماعيـة

مما يعده بعضهم من مآخذ الاسلام أنه دين تشريع ومعاملات، ولكنه لم يأت للناس بنظام مفصل للشؤون الاقتصادية أو للحياة السياسية ٠

ويسرع بعض المسلمين الى تفنيد هذه المآخذ كأنها اتهام يتطلب الدفاع ، قبل أن يحققوا التهمة لذاتها ويكشفوا عن موضع المؤاخذة فيها ، وهم أجدر أن يرجعوا الى القائل الناقد ليسألوه : وهل يناسب جوهر الدين أن يفصل للناس نظم الاقتصاد أو نظم السياسة تفصيلا مبرما يتبعون نصوصه كما فرضت عليهم ولا يملكون التصرف فيها بمشيئتهم بعد تقريرها بحكم العقيدة وأصول التشريع ؟

ان أحوال المعيشة الاقتصادية والنظم السياسية تتقلب من زمن الى زمن وتختلف بين أمة وأخرى ، فيصلح لهذا الزمن ما لم يكن صالحا قبل خمسين أو ستين سنة وما ليس بصالح بعد خمسين أو ستين سنة أخرى ٠ فكيف يتقيد الناس فيها على اختلاف الأزمنة فريضة من الفرائض يدين بها الناس مئات السنين ، وتثبت مع الدين ثبوت العقيدة التي لا تتزعزع مع الايام ، ولا تساوي شيئا في موازين الاديان ان لم يكن لها هذا الثبوت وهذا الدوام ؟٠٠

انما يناسب الدين أن يبين للناس قواعده التي يستقر عليها كل نظام صالح يأتي به الزمن ، ولا عليه بعد ذلك أن تختلف هذه النظم بين أمة وأمة في العصر الواحد ، أو تختلف في الأمة الواحدة بين عصرين ، ومن الامثلة التي يحسن أن نذكرها كلما ذكر الدين وذكرت نظم الاقتصاد أن الحياة الاقتصادية قامت في الغرب زمنا على رؤوس الاموال وفوائدها التي يدور عليها عمل المصارف والشركات ، وان بلاد الغرب شهدت بعد ذلك ثورات اجتماعية قامت على تحريم رؤوس الاموال مهما تكن وسائلها الى تقرير الفوائد واستحقاق الارباح ٠ فهل كان على الاسلام أن يبدل عقائده بين هذين المذهبين خلال جيلين متعاقبين ؟

كلا • وليس عليه أن يبدل هذه العقائد اذا تبدل المذهبان معا وجاء بعدهما مذهب ثالث غير الذي يقدس رؤوس الاموال وغير الذي يحرمها وينظر اليها نظرته الى الرزق الحرام •

وانما أقام الاسلام قواعد الاقتصاد التي يقام عليها كل نظام صالح ولا يتصور أنها تناقض نظاما منها كان بالأمس أو يكون بعد زمان طويل أو قصير •

قرر الاسلام أن يمنع الاحتكار وكنز الاموال ، وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل ، وقرر أن يتداول المجتمع الثروة ، ولا تكون دولة(١) بين الاغنياء، وقرر أن تكون للضعفاء والمحرومين حصة سنوية لا تقل عن جزء من أربعين جزءا من ثروة الأمة كلها ، وقد يزاد عليها بأمر الامام واحسان المحسنين •

واذا تقرر هذا في مجتمع انساني فلا حرج عليه أن يتخذ له نظاما من نظم المعيشة الاقتصادية كيفما كان ، ولا خوف على مجتمع قط يمتنع فيه الاحتكار والاستغلال واهمال العاجزين عن الكسب والعمل ومن شاء فليسم هذا النظام بما شاء من الاسماء •

كذلك فرض الاسلام أن يقوم الحكم على أساس الشورى ، وأن يقوم التشريع على أساس الكتاب والسنة واتفاق الامام والرعية ولا ضير بعد ذلك أن يتبعوا هذا النظام أو ذاك من نظم الانتخاب أو يعملوا بهذا الدستور أو ذاك من دساتير الحياة النيابية ، فكل نظام صالح ما دام قائما على الشورى مؤيدا بسند من مشيئة الامام وأولي الرأي وحقوق الجماعة •

فاذا كانت مآخذ الاسلام عند نقاده أنه اتبع حكمته ولم يتبع حكمتهم فلا حاجة بالمسلم الى الدفاع عن دينه ، لأن دينه لم يخطيء سبيل الهداية الدينية ، ونقاده هم المخطئون •

واذا كان للمسلم عمل واجب في مناقشة أولئك الناقدين فعمله الواجب هو بيان (القواعد الاسلامية التي يقوم عليها كل نظام في المعيشة الاقتصادية وفي الحياة السياسية ، وانه لعلى يقين أنها هي القواعد التي يوافقها كل وضع سليم يأتي به الزمن من أوضاع الاقتصاد والسياسة) •

---

(١) دولة : الدولة بالضم : العقبة : في المال • يقال : صارت الغنيمة دولة بينهم اى يتداولونها مرة لهذا ومرة لهذا

اننا نحمد هذا الصنيع لكاتب أوروبي فاضل دان بالاسلام منذ خمس وثلاثين سنة ودأب منذ اسلامه على تصحيح أخطاء الأوروبيين وابطال مآخذهم بالحجة التي تصلح للاقناع وتقضي حق الدفاع كلما وجب الدفاع ، وقد لازمه التوفيق في أكثر ما قرأناه له وآخره كتابه الجديد عن مباديء الدولة والحكومة في الاسلام ، وقد وسع فيه آراءه التي بسطها في هذا الموضوع قبل بضع عشرة سنة ، بعنوان (تشريع الدساتير الاسلامية) وأصدرها يومئذ باللغتين الأردية والانجليزية •

ذلك الكاتب الفاضل هو الاستاذ ـ ليوجولد فايس النمساوي ـ الذي تسمى باسم (محمد أسعد) بعد اسلامه وألف في الموضوعات الاسلامية كتاب (الاسلام على مفترق الطرق) وكتاب (أصول الفقه الاسلامي) وكتاب (الطريق الى مكة) ، ثم ألف هذا الكتاب الاخير وعهد في نشره الى جماعة اسلامية بمدينة كراتشي فنشرت ترجمته الاسلامية على يد جماعة البحوث الشرقية بجامعة كاليفورنيا ، ومن مقدمته نعلم أن المؤلف يفرق بين نظام الحكم الذي يقوم على قواعد الدين ونظام الحكم الذي يقوم على غير هذه القاعدة بفارق أصيل عظيم الخطر في شؤون الأمم : وهو الموازنة بين اعتبار القيم الاخلاقية في التشريع أو اعتبار الظروف العارضة فيما تتناوله الشريعة من الآداب والمعاملات • فاذا توافرت قواعد الاخلاق السليمة فليست التفصيلات الجزئية ولا الاجراءات المتغيرة مما يقرره الدين بالنصوص التي تحجر(١) على الأمم أن تتصرف في شئونها على حسب المواطن والازمنة ، ما دامت تحتفظ بمقومات العقيدة ولا تنقدها •

قال الاستاذ أسعد في فصل كتبه عن مدى التشريع الاسلامي : ان القوانين الاسلامية تقوم ـ مع القرآن والسنة ـ على القياس وفتوى أهل الذكر ومشيئة الاجماع ، وأن القرآن الكريم يقول للمسلمين (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ليسلك كل مسلم طريقه على حسب هذا المنهاج المبين ، فهو أمين على ضميره فيما يختاره من أحكام الدين التي شرعها الكتاب اجمالا ولم يذكر

---

(١) تحجر : حجر عليه الامر : حرمه •

تفصيلات الامثلة عليها ، ولكننا اذا رجعنا الى تفصيلات الحكومة التي يسميها الغربيون (ديمقراطية حرة) وجدنا آنهــا الى الاسلام أقرب منها الى (الديمقراطية) اليونانية التي استعيرت منها هذه الكلمة ٠

قال ما فحواه : ان أول ما ينهى عنه الاسلام أن يقوم الحكم على أساس العصبية ، ومن أحاديث النبي قوله عليه السلام : (ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية) ٠٠ والكتاب يقول : (وأمرهم شورى بينهم) والرسول يقول : (ان الله لا يجمع أمتي على ضلالة) ٠٠ ويقول : (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الامير فقد أطاعني ومن يعص الامير فقد عصاني) ٠ ويقول : (اتبعوا السواد الاعظم) فهذه جملة قواعد الحكم في الاسلام : سلطان لا يقوم على عصبية ، بل على شورى يغلب فيها اجماع السواد الاعظم وتجب فيها الطاعة لمن يتولى الامر كما تجب لله والرسول ٠

واستطرد المؤلف الى تفسير قوله تعالى : (وشاورهــم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله) فقال ان النبي عليه السلام سئل عن معنى « العزم » في هذه الآية فقال انه (مشاورة أهل الرأي ثم أتباعهم) وانه صلوات الله عليه قال مرة لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما (لو اجتمعنا في مشورة ما خالفتكما) ووضح عمل الوزير مع الامير فقال : (اذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق ان نسي ذكره ، وان ذكر آعانــه ، واذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء اذا نسي لم يذكره ، واذا ذكر لم يعنه) ٠

أما الواجب بين الامير والرعية فقد شرحه المؤلف شرحا وافيا فأورد من أحاديث النبي قوله عليه السلام : (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) وقوله (لا طاعة في معصية انما الطاعة في المعروف) وقوله : (من رأى من أميره شيئا فكرهه فليصبر ، فانه ليس أحد يفارق الجماعة الا مات ميتة جاهلية) ٠

وزبدة الاوامر والنواهي جميعا في هذا الواجب بين الراعي

والرعية أنه الامر بالمعروف ، والطاعة في المعروف ، والحذر عند الخلاف من تفريق الجماعة ٠

وعصمة الجميع أن يستمع الراعي والرعية الى النصيحة من القادرين عليها : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) ٠ أو كما قال عليه السلام (والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه ولا يستجيب لكم) ٠

وان على الأمة أن تغير ما تكره من شأنها فانه (ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون الا يوشك أن يعمهم الله بعذاب) وانه على الامير ألا يبتغي الريبة في الرعية لأن (الامير اذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم) والخير كل الخير في الجماعة المفلحة أن تتساند وتتعاون وانما (المؤمنون كرجل واحد ان اشتكى عينه اشتكى كله ، وان اشتكى رأسه اشتكى كله ، ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) ٠

وفصول الكتاب كلها حافلة بالشواهد من الآيات القرآنية والاحاديث النبوية فيما يختاره الاسلام من نظم الحكومة والدولة أراد بها المؤلف أن يقرر عناية الاسلام بهداية الجماعة الى نظامها السياسي كما ينبغي أن يهدي اليها الدين الذي يؤمن به الناس على توالي الازمنة واختلاف البلدان ، فهو يقيم لها القواعد ويدع لها أن تبني عليها ما شاءت من بناء يستقر بدعائمها ولا يخرج من أساسها ٠

وقد كان في هذا الكتاب جواب حسن لمن يأخذون على الاسلام أنه دين تشريع ومعاملة ولكنه لم يأت للناس بنظام مفصل للشئون الاقتصادية أو للحياة السياسية ، فليس فيما زعموه مأخذ على الاسلام الا أن يساء فهم الدين على حقيقته الباقية ، فانه في شؤون الزمن المتلاحق مصباح ينير الطريق لمن يبصرون ، وليس بالقيد الذي يقاد به من يهديه معصوب العينين مكتوف اليدين ٠

هل يتم الاصلاح في الاسلام بموافقة القرآن
أو على خلاف أحكامـه

وصلت الي في البريد نشرة من مجلة البراهين Preuves التي تصدر بباريس ومعها بيان موجز عن دراسة اسلاميـة تتلخص فيما يلي :

يسأل الاستاذ جاك أوسترو Austruy في كتابه عن مواجهة الاسلام للتطور الاقتصادي ، هل يجب على المسلمين وهم بسبيل النهوض أن يحققوا نهضتهم خلافا لتعاليم الاسلام ؟ أو هـم مستطيعون أن يحققوها وفاقا لتلك التعاليم ؟ .

ويرد الاستاذ فرنسيس نور على هذا السؤال فيقول : ان الفكرة الرئيسية في الكتاب تجعل نظام رأس المال ونظام المادية الاقتصادية مدار الاختيار لمن يطلب التقدم الاقتصادي ، ولكن المسلم المصلح غير مضطر الى اتباع أحد النظامين لأنه يستطيع أن يتبع نظاما ثالثا (من صميم تعاليم الاسلام) كما يقـول صاحب الكتاب .

وهو لا يرى أن المسلمين شعب واحد بل شعوب متعـددة لا تعوزها موارد الثروة الا أنه يستحسن أن تقلع الدساتير عن فكرة « أن الاسلام دين الدولة » كما أقلعت عنها الدساتير التي فصلت بين الامور الدينية والامور الدنيويـة ، ولا يوافقـه الاستاذ فرنسيس على هذا الرأي ولكنه لم يبين أسباب معارضته ولا الاسباب التي تعزز الرأي المقبول في نظره .

هذه هي خلاصة المساجلة بين الاستاذين في موقف الاسلام من مواجهة النظم الاقتصادية الحديثة .

وتعليقنا عليه أن المسلم لا يشعر بالحرج الذي يضطره الى

الاختيار بين النظامين المذكورين ، ولم يشعر بهذا الحرج قبل العصر الحاضر يوم وقفت به المواجهة أمام نظم أخرى كنظام الفروسية أو نظام الاقطاع أو نظام الصناعة الكبرى أو نظام الاستعمار ، لأن الاسلام لم يكن خطة اقتصادية تقيد الأمة ببرنامج محدود تخرج على الدين اذا هي خرجت عليه ، ولكنه عقيدة انسانية تقيم للمسلم أصول الحلال والحرام وتدع له الحرية التامة بعد ذلك في اختيار التفاصيل الموقوتة على حسب الازمنة والمصالح والشعوب وعلاقات الأمم والحكومات ٠

ولا يعاب الاسلام بذلك ، لأنه هو الشرط الاول من شروط الدين الذي ينبغي له قبل كل شيء أن يتكفل للمؤمن باستقرار اليقين وبالطمأنينة الروحية في مواجهة الاطوار والتقلبات ، ومنها زعازع التناقض بين النظم الاقتصادية واضطراب المصالح مع تجدد الطبقات وتبدل العلاقات ٠

فالدين الذي يضطر المؤمن الى تغييره مع كل نظام اقتصادي يطرأ على المجتمع أو على العالم كله انما هو زي من الازياء العارضة وليس بالدعامة الروحية التي تكفل للانسان فضيلة الثبات أمام الطوارىء والغير ، وتفتح له باب الرجاء كلما تطرق اليه اليأس بين نظام فاشل ونظام مرهون بالتجربة أو للشكوك في عقباه الى حين ٠

والتضارب بين نظام رأس المال ونظام المادية الاقتصادية خير جواب على من يطالبون الاسلام بمجاراة النظم الحديثة كلما تقلبت بها أطوار الاجتماع ، فقد كان نقاد الاسلام بالأمس يزعمون أن حياة الأمم رهن بنظام المعاملات التي تقوم على الشركات والمصارف واستغلال رؤوس الاموال والارباح ، وأن الاسلام يغل أيدي المسلمين ويعوق حركة التقدم لأنه لا يقيم المعاملات كلها على هذا النظام ، ثم شهد العالم نظاما آخر ينكر رؤوس الاموال أصلا ويبطل الملكية مالا وأرضا وعقارا ،ويطلب من الاسلام أن يصنع صنيعه في مواجهة الازمات العصرية ، ولا يعلم أحد الى أي أمد يطول بها البقاء ، وعلى أي حال من الاحوال تتطور بين اليوم والغد القريب ٠٠ وبين هذا وذاك تظهر النظم

الفاشية والنازية على شتى الاوضاع والاشكال ·

فكيف كان الاسلام يؤدي حق الدين لو أنه تقلب بين هذه النظم الطارئة عليه ؟ وكيف كان يجمع بينها أو يحض المسلمين على اتباعها في مواطنها وعهودها ؟

انه لم يصنع ذلك ، وحسنا صنع ، وانه بذلك يظل دينا للمجتمعات الانسانية بين عصر وعصر ، ولا يضطر المسلم الى الخروج من عقيدته بين حقبة وأخرى ، بل لا يضطره يوما الى ذلك السؤال : هل يجب عليه أن يترك الاصلاح أو يحققه على خلاف أحكام القرآن ؟

وليس معنى ذلك أن الاسلام ينفض يديه من مهمة الاصلاح الاجتماعي في زمن من الازمنة كان أو يكون ، ولكن معناه أنه يقرر للانسانية أصولا لا يتحقق لها صلاح بغيرها ، ثم يفوض للعقل الانساني كل الرأي في اختيار ما يلائمه من تفاصيل الاصلاح ، غير مقيد له بفرع من الفروع المتجددة ما دام أمينا على تلك الاصول ·

كانت نشرة المجلة الفرنسية في طريقها الينا ونحن نكتب لمنبر الاسلام مقالا عن الاسلام والنظم الاجتماعية ، وفيه نقول : (انما أقام الاسلام قواعد الاقتصاد التي يقام عليها كل نظام صالح ·· فقرر أن يمنع الاحتكار وكنز الاموال ، وقرر أن يمنع الاستغلال بغير عمل ، وقرر أن يتداول المجتمع الثروة ولا تكون دولة بين الاغنياء ، وقرر أن تكون للضعفاء والمحرومين حصة سنوية لا تقل عن جزء من أربعين جزءا من ثروة الأمة كلها ، وقد يزيد عليها بأمر الامام واحسان المحسنين ··· ولا خوف على مجتمع قط يمتنع فيه الاحتكار والاستغلال واهمال العاجزين عن الكسب والعمل ···) ·

ونعود ــ بعد الاطلاع على مساجلة الاستاذين أوسترو وفرنسيس ــ فنقول : انهما على حق فيما قرراه من امكان المسلم أن يواجه الاصلاح الاجتماعي بغير اضطرار الى مجاراة نظام رأس المال على علاته أو نظام المادية الاقتصادية على علاتها ،

ونزيد على هذا الرأي الصواب أن الاسلام يتأتى له ذلك دون أن يتقيد بنظام محدود يتبدل غدا كما تبدلت النظم بالأمس أو تتبدل أمام أعيننا اليوم في بلاد المغرب والمشرق ، وحسبه أنه يمنع الاحتكار والاستغلال ، ويحمي الضعفاء والمحرومين ، ليوفر للمجتمع خير ما يحتاج اليه من صلاح واصلاح ويوفر للفرد خير ما يحتاج اليه من عمل ، وأنفع ما يقدر عليه من جهود ٠

ان القرآن صريح في النهي عن كنز الذهب والفضة ، صريح في الامر بتداول المال (كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) ٠

وان القرآن صريح في منع الاستغلال ولا سيما الاستغلال بافساد الحكم والسيطرة على الحكام : (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) ٠

وان القرآن يأمر بالاحسان ، ويفرض الزكاة وهي تخول الذين يستحقونها جزءا من أربعين جزءا من الثروة العامة لا من ثروة الربح وحسب — في العام وبعد العام ٠

ومن شاء فليتخيل نظاما اجتماعيا يبطل فيه الاحتكار ويبطل فيه أكل الاموال (بالباطل) ويأمن فيه المحروم على قوته ومعاشه ، ثم يتخيل موضعا فيه للانتقاد من ناحية الصلاح والاصلاح ٠

ان عقل الانسان ليعجز هنا عن نقد الحياة الاجتماعية في أصولها ، الا أن يكون من عبيد الحروف والعبارات المرصوصة على غير روية ٠

وان (الضمير الديني) ليهدي العقل هنا غاية الهداية التي تطلب من الدين القويم دون أن يربطه بالقيود القاسرة أو يكرهه على الجمود المعطل عن التصرف والتصريف ، وعلى هذا الضمير الديني تقوم رسالة الدين التي تعلو مع الزمن على نظم الاقتصاد وبرامج الساسة وشقاشق(١) الاسماء من دعوة تلهج

---

(١) شقاشق : شقشق الفحل من الجمال هدر ٠ والعصفور صوت ٠ والشقشقة بالكسر شيء يخرجه البعير من فيه اذا هاج ٠

بالديمقراطية أو صيحة تلغط بالمادية ، أو حذلقة تتعلق بأطراف المباديء وأهداب القواعد والنظريات ، وتحسب أن (الانسانية) بنت يوم وساعة ، وأن (الضمير الانساني) زي من أزياء الأمم يلبس مع الصباح ويخلع قبل المساء ٠

أما مسألة الدين والدولة في الاسلام فقياسها على الاديان الاخرى قياس مع الفارق الكبير كما يقول المناطقة ، ولا سيما الاديان التي توجد فيها الكهانة الدينية ، أو توجد فيها طائفة من أصحاب الرئاسة الدينية تتولى الوساطة بين العباد والمعبود ، وتدعي لنفسها ــ من ثم ــ حق الاشراف على المدرسة والمحكمة والهيكل والمدفن ، كما تدعي لنفسها حق (التطويب) لكل سلطة ولكل قانون ، ولا وجود في الاسلام لهذه الكهانــة ولا للوساطة كيفما كانت بين العباد والمعبود ، فليست مسألة الفصل بين الدين والدولة في الاسلام بالمسألة التي تصدم بحق الراعي أو حق الرعية على الوجه الذي عرف في تاريخ هذه المسألة عند الأمم الأوروبية ، وليست هي المشكلة المعروضة للبت فيها بين شعب من الشعوب الاسلامية ٠

● ●

بين البحث والتخمين

قرأت في عدد شهر ربيع الاول في منبر الاسلام مقالا لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكي بعنوان « تفسيرنا للقرآن لا يكون بالتخمين » يقول فيه من مباديء عامة يقررها « أن القرآن عربي وأسلوبه خاضع للقواعد العربية » ثم يقول عن قصة خلق آدم :

(فالله تعالى يخبرنا في سورة (ص) بحديثه مع الملائكة « اني خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ») .

والمبدأ الأول الذي يقرره الاستاذ ـ ويقرره مع فضيلته كل باحث في معاني القران الكريم ـ هو أن قواعد اللغة العربية تقضي « بأن اللفظ لا يصرف عن معناه الظاهر الا لضرورة تقتضي ذلك » .. والا كان صرف اللفظ عن معناه ضربا من التخمين .

وهذا ـ كما تقدم ـ مبدأ يقرره مع الاستاذ كل باحث في معاني القرآن الكريم وفي معاني اللغة في كل كلام مفيد .

وانما يحتاج الامر الى التعريف بالتخمين ما هو ؟ وما الفرق بينه وبين البحث عن المعاني في أخبار الوحي بالأمور الغيبية على التخصيص وهي باتفاق الاقوال معلومة الكلمات مجهولة الكيفيات ، وعلى الاخص فيما ينسب الى الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ من عمل أو كلام .

فالتخمين ـ قطعا ـ في معنى هذه الآية وسائر الآيات أن يزعم قاريء القرآن أن التسوية الالهية كالتسوية التي نعهدها في أعمالنا نحن المخلوقين من الآدميين ، وأن النفخ في خلق آدم من الطين كالنفخ عندنا بالأفواه ، وأن طينة آدم كطينة التمثال الطيني الذي يصوره المثالون مشابها للانسان بالاعضاء والوظائف بغير حراك .

ان الذي يزعم ذلك « يخمن » في فهم اللفظ والمعنى بلا جدال ، لأن أعمال الاله ـ جل وعلا ـ تنزهت عن مشابهة الاعمال الآدمية وعن كل عمل محدود من أعمال المخلوقات .

فليست معاني الكلمات في المعجمات اللغوية هي مدار البحث عن تفسير هذه الآيات ، لأن الامر فيها يرجع الى الكيفيات المجهولة التي نجزم بحقيقة واحدة منها ، وهي أنها (كيفية) منزهة عن مشابهة أعمال المخلوق ·

ما التسوية ؟ وما النفخ ؟ وما الروح ؟ وما مدلول الآية الكريمة بعد التحقق من معاني هذه الكلمات ؟

اذا كانت « الكيفيات » مجهولة هنا فالمعلوم الذي لا خفاء به قطعا أنها ليست تسوية باليدين على مثال تسوية المصورين الآدميين ، وأنها ليست نفخا بالأفواه كما ينفخ الانسان الهواء في الطين أو غير الطين ، وأن الروح ليست بالروح الانسانية ، وليست على أية حال بالكيفية المحدودة بالقواميس والمعاجم ، لأن روح الانسان المخلوق مجهولة يعلمها الله وحده كما نفهم من آي الكتاب ، وندع الكلام فيما هو أعظم من ذلك وأخفى على العقل من معنى الروح منسوبا الى الله ·

كل ما يجوز أن نفهمه من معنى النفخ أنه بث قوة الحياة في الطين ·

وفي كم من الوقت حدث هذا ؟ أفي لمحة واحدة ؟ أفي يوم واحد ؟ أفي الدهر المتطاول ؟

من جزم بشيء من ذلك فانما يخمن ويجزم على التخمين ·

بل لو قيل ان هذا كله تم في وقت كلمح البصر لما جاز لأحد أن يحصره في اللمحة المعهودة لدينا ، لأن اللمحة عند الله يتم فيها أمر الساعة كله : « وما أمر الساعة الا كلمح البصر أو هو أقرب » ·

وهذه اللمحة مقرون بها في القرآن الكريم خلق كل شيء وتقديره : « انا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » ·

واذا قيل ان بث الحياة في طينة آدم تم في يوم واحد فان اليوم الواحد مجهول المقدار في علم الله : « وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » وقد يكون اليوم خمسين ألف سنة كما جاء في قوله تعالى : « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ·

وهذا من حيث الموعد المقدور لبث الحياة في طينة آدم بعد تسويتها .

فما هي التسوية ؟ وكم من الزمن قدره الله تعالى لاظهار هذه التسوية في خلق الطين وفي خلق البنية الآدمية منه ؟

من جزم بوقت محدود لهذه التسوية فذلك هو التخمين بغير دليل ، ومثله في التخمين بغير دليل أن يزعم الزاعم كيفية لهذه التسوية يمتنع ما عداها ويحرم علينا أن نفهمه من مدلول الآيات .

واذا كان هذا هو مدلول النفخ والتسوية والطينة فالحقيقة التي هي أجل من ذلك قدرا وأخفى من ذلك سرا هي حقيقة الروح ومعناها المقصود في قوله تعالى « ونفخت فيه من روحي » .

فان كلمة الروح قد وردت في عدة مواضع في القرآن الكريم .

ومنها قوله تعالى في سورة الشورى : وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا .. » .

ومنها قوله تعالى في سورة الشعراء : « وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين » .

ومنها قوله تعالى في سورة النحل : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق » .

ومنها في سورة النساء : « انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه .. » .

ومنها في سورة مريم : « واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا » .

وفي سورة الأنبياء : « والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا جعلناها وابنها آية للعالمين » .

وكل كيفية يحدث بها نفخ الروح بالمعنى الذي وردت به في هذه الآيات فهي كيفية مفروضة على التخمين ، وكل جزم بانكار ما عداها فهو جزم مفروض على التخمين .. وقد كان نفخ الروح من قبيل ولادة عيسى عليه السلام ، وكان من آياته أن يتمثل بشرا سويا في غير هذا المقام ، وكان الروح وحيا ومصدرا للوحي وسرا محجوبا عن علم بني آدم في جميع هذه الاحوال .

ونعود بعد البيان عن معاني الكلمات لنقرر مرة أخرى ـ كما قرر صاحب الفضيلة الاستاذ السبكي ـ أنها كلمات عربية ، وان الكلمات العربية جميعا خاضعة لقواعد اللغة تنصرف الى معناها ولا يجوز أن تؤخذ بالتخمين ولها معنى صريح في اللغة لا يجوز صرفها عنه الى غيره .

نقرر هذا المبدأ مرة بعد مرة ، ولكننا لا نراه في مرة من المرات يجيز للمفسر أن يقول ان تسوية الطين كانت على هذه الكيفية دون غيرها ، وان النفخ فيه على هذا النحو دون سواه ، وان روح الله يعمل عمله في بث الحياة واخراج الاحياء من الطين على هذا المثال باستثناء كل مثال آخر ، وان التسوية والنفخ وخلق آدم عليه السلام قد تم كله في لحظة واحدة ، وان هذه اللحظة لا تكون ألف سنة ولا خمسين ألف سنة ، ولا ألف ألف سنة ، لأنها لحظة واحدة مما تلحظه العين الانسانية ولا تدل اللغة العربية على معنى معقول لها غير هذا المعنى .

ان هذا المبدأ لا يجيز للمفسر أن يجزم بقول من هذه الاقوال الا أن يكون قوله تخمينا يعوزه السند القاطع ولا يلزم أحدا غيره .

وعلى المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بث روح الحياة في الطين ، وسوى الطين سلالة خرج منها آدم عليه السلام ، ولكن ليس لأحد أن يفرض عليه كيفية للتسوية والنفخ والخلق يلغي كل ما عداها ، وان يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتا محدودا باللمحة أو اليوم أو الدهر ويكون بمقدار واحد ولا يكون بغير ذلك المقدار .

ومما روي عن أبي هريرة : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ،فالمراء(١)في القرآن كفر . فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » .

وأيا كان القول في سند هذا الحديث فالمبدأ السليم الذي قرره صاحب الفضيلة الاستاذ السبكي ينهانا أن نقيد كلمة من كلمات الآية الكريمة بكيفية محدودة ووقت محدود ، وما سوى ذلك فهو التخمين الذي ينهى عنه الاستاذ كما ينهى عنه كل مسلم غيور على القرآن وعلى عقائد الاسلام .

(١) المراء : الجدال .

غزوة التبشير في معقله

● ✻ ●

تكثر المؤلفات في اللغات الأوروبية عن حياة النبي عليه السلام ، وبعضها خاضع لأغراض السياسة أو خاضع لاغراض التبشير ، وبعضها الذي يكتبه أناس متمردون على ساسة الدول وجماعات التبشير يخضعون لآفة أخرى هي آفة الجهل بالحقائق والعجز عن فهم الشرق والشرقيين كما يفهمون أنفسهم في حاضرهم وماضيهم ، ومن المؤلفين المحدثين عن نبي الاسلام من يكتب عنه ليتخذ من هذه الكتابة ذريعة الى نشر مذهب في الحياة الاجتماعية يعارض مذهب الديانة الاسلامية في هذه الشئون ، ولم تخل المكتبة الأوروبية الحديثة بعد هذا كله ، من كتابة عنه ـ صلوات الله عليه ـ تنقل الاخبار عن مصادرها صحيحة محققة ، وتؤدي الامانة للتاريخ اداء العالم الذي يحاسب ضميره وعقله فيما يكتب ، ويترفع عن رواية الكذب أو الخطأ وهو عالم به متعمد لاخفائه .

الا أن هؤلاء جميعا يكتبون مؤلفاتهم للحاضر ولا يعنيهم أمر الماضي في هذا الموضوع بعينه ، وهو موضوع حياة النبي وصفاته « الشخصية » كما نقول في تعبير العصر الحاضر ، فيتركون المخلفات القديمة على حدة ، في مكتبات علماء الدين وورثة اللاهوتيين من أبناء القرون الوسطى ، وتظل تلك المخلفات مشحونة بالأباطيل والأغاليط ، تسمم عقول أولئك اللاهوتيين ومن يتلقى العلم عنهم من ناشئة المبشرين ، ثم يتخرج هؤلاء الناشئة مؤمنين بصدق دعوات التبشير وصواب الحملة على الاسلام كما فهموه وفهموا معه أخبار نبيه الكريم في حياته « الشخصية » وخلقه الموصوف بتلك الاباطيل ، ولو أنهم فهموا أسرار أباطيلهم ، لارتدوا على أنفسهم واستطاع

الاسلام أن يغزوهم في معاقلهم ، فاذا هم يبشرون أنفسهم قبل أن يتفرقوا بين أنحاء العالم مستبسلين في تبشير المسلمين وتنفير غير المسلمين من الاسلام ·

تلك المخلفات ، عن القرون الوسطى ، قد تجمعت في مكتباتها من تصانيف علماء اللاهوت الذين هالهم نفوذ الحكمة الاسلامية والأدب الاسلامي بين طلاب العلوم الدينية عندهم على أثر قيام الحضارة الاندلسية بأوروبة الغربية ، وكان من طلاب الحكمة الاسلامية بينهم أناس وصلوا الى مقام البابوية وأناس ارتفعوا الى مقام الهداية الفكرية بمعزل عن الكنيسة بل على خلاف عقائدها المأثورة ·· فلما هالهم هذا النفوذ الفكري وأزعجهم شيوعه في معاقل الفكر ومعاهد العبادة ، أقبلوا على تأليف الكتب التي اجتهدوا غاية الاجتهاد أن يصبغوها بالصبغة العلمية ليضمنوا رواجها بين طلاب المعرفة واقناعها لمن يطلبون الدليل، ولا يقبلون أن يخدعوا عقولهم بأباطيل الدعاية والتضليل ، وجعلوا همهم كله تشويه الحكمة الاسلامية بتشويه مصدرها الاول وتمثيل صاحب الدعوة الاسلامية في صورة بعيدة عن التقديس والاحترام ، ولا حاجة بهم بعد ذلك الى البحث في دقائق الحكمة وأسرار الفلسفة لتنفير الافكار من النبي ورسالته، لأن تمثيل انسان مقدس في الصورة التي تنزع القداسة عنه أيسر جدا من عناء الدراسة في نقض العقائد وادحاض(١) الافكار ·

وقد نجحت هذه « المكيدة » الساذجة في حينها ، ولا تزال بقاياها بمرصدها في مكانها ، يحفظونها ويعيدونها أملا في تكرار هذا النجاح بين الناشئة المتعلمين من رجال الدين قبل غيرهم ، عسى أن يكون لها أثرها في خلق الحماسة الضرورية لكل مبشر يرجى أن يصدق الدعوة والاقناع ، بعد أن شاعت في هذا العصر شكوكه وشبهاته ، وأوشكت أن تعصف بيقين المبشرين أنفسهم ، وهم يدعون الآخرين الى اليقين ·

ان مهارة أصحاب المكيدة من نوع المهارات الرخيصة ، التي

---

(١) ادحاض : ابطال ·

تعتبر رخيصة لأنها تنجح بقليل من الجهد ولكنها تفشل وتخفق بجهد أقل منه ، ونجاحها في أكثر حالاتها انما يتوقف على « الفضيحة » وعلى سهولة الاصغاء اليها في طبائع الجهلاء والاغرار ، بل في طبائع بعض الفضلاء الذين يسرعون الى النفور من المتهم بالسوء لأنهم يعافون السوء ويعرضون عن « التفتيش » في دخائله والتحدث بأخباره ، أو تضيق عقولهم أحيانا عن الجمع بين الاحتراز من قالة السوء والاحتراز من قبول هذه القالة بغير دليل •

أما فشل الفضيحة بالقليل من الجهد فمرجعه الى طبيعة الاشاعات كلها في صميمها • فان خبرا صادقا من أخبارها قد ينكشف للسامع فيهدم مئات الاخبار الكاذبة التي تستهوي الاسماع الى تصديقها •

احدى هذه الاكاذيب التي احتفل رواة القرون الوسطى بتزويقها وترويجها •• أكذوبتهم عن قصة زينب بنت جحش وزواج النبي عليه السلام منها بعد تطليقها من زوجها •

كتب الراهب فيدنزيو **Fidenzio** فقال بعد تنميق مقدماتها على أسلوب القصص الغرامية :

« كان هناك رجل يسمى سيدوس ــ زيد ــ له زوجة تسمى زينب ــ هكذا ــ وكانت هذه الزوجة أجمل نساء الارض في زمانها ، وسمع محمد بجمالها الرائع فشغف بها حبا ، وأراد أن يراها ، فقصد الى منزلها في غياب زوجها يسأل عنه ، فقالت له الزوجة : ماذا تبغي يا رسول الله ؟ وماذا جاء بك عندنا ؟ ان زوجي قد ذهب الى عمله • ولم تخف المرأة خبر الزيارة عن زوجها الذي سألها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ فقالت : نعم كان هنا •• قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم رآه وأطال النظر اليه • فقال الزوج حينئذ : لا عيش لي معك بعد الآن •• » •

ومضى الراهب (الامين) في سرد القصة على هذا النمط مستشهدا لها بما ورد عن حديث زيد وزوجته في سورة الاحزاب،

فتمت (الأحدوثة) عند سامعيها بشاهد من كتاب الاسلام ، وأضاف اليها هذا المؤلف وغيره ما اختاره أن يضيفوه من كلام السيدة عائشة ومن مناسبات الوحي في هذه السورة ، فخيل اليهم أنها حديث لا حيلة فيه للسامع غير التصديق والتأمين ، وغير العجب بعد ذلك من خلائق نبي المسلمين .

ليس أسهل من شيوع هذه الاكذوبة كما شاعت في القرون الوسطى .

ليس أسهل من اسقاطها واسقاط المروجين لها بخبر واحد لا شك فيه من أخبارها الكثيرة ، وهو ان زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي عليه السلام ، وان النبي عليه السلام هو الذي زوجها من ربيبه وعتيقه زيد وهو لا يطمع الى الزواج من مثلها .

ويكفي أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها ويسقط معها كل ما قيل عن مفاجأة النبي عليه السلام بجمالها وتطليق زوجها بعد نظر النبي اليها لاول مرة .

وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين فيعلمون حقيقة القصة المحرفة ، ويعلمون انها آية الخلق الكريم في نبي المسلمين .

فان زيدا الذي زوجه النبي من بنت عمه لم يكن الا أسيرا عتيقا رباه النبي فأخلص له ولدينه ، وآثر المقام في جواره على الرجوع الى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين أكرم أهله ، وأطاعت الزوجة أمر النبي كما ينبغي لمثلها مع مثله ، ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها اليها ، ويشعر زيد بما تضمره من الحزن والأنفة ، فيهم بتطليقها ، ولكنه يستكبر أن يقابل جميل النبي برفض الزوجة التي اختارها له وميزه بها على صحبه ،فارتفعت بنبي الاسلام مروءته الى حيث ينبغي أن ترتفع مروءة الانبياء ، وأحل زيدا من حرجه ، وعوض زينب من مهانتها ، لتعلم ويعلم

الناس أنها كفؤ له وان كان قد اختارها لفتاه الذي كان يتبناه ، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة(١) بين لداتها وأترابها وهي لا تطمع في الزواج من كفؤ لها بعد تطليقها ، وليس مما يجبر خاطرها الكسير أن يساق اليها الزوج الذي يكافئها وتكافئه مأمورا بزواجها ٠

تلك قصة أرسلوها في غياب القرون الوسطى لينتظر الناس في ظلماتها الى وصمة انسانية يعاف من أجلها خلق الانسان ، ويعاف الدين الذي يدعو اليه من أجله ٠

ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه ، فاذا هي شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للانبياء ، لأنها شهادة بغاية البر والاحسان الى الاسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والاحسان الى المرأة المجروحة في عزتها ، بعد أن غلبها ضعف الانوثة والعرف على شعورها ، برغم ارادتها ٠

وكانت فضيلة الصدق ـ مع فضيلة العفة ـ أكبر الاهداف التي تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالانكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبي صلوات الله عليه ٠

وفي هذه أيضا كانت لهم مهارتهم الرخيصة لأنها سهلة الشيوع سهلة التفنيد ٠

فكل ما توارد من الانباء بين القرآن والكتب الاسرائيلية فهو وحي صادق في كتب بني اسرائيل ، ونقل غير صادق في كتاب الاسلام ، مع التحريف والخطأ أحيانا في الرواية عن الكهان اليهود أو الكهان المسيحيين !٠

وقد كان رواج هذا الزعم سهلا سريعا بين أبناء القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يعتقدون جميعا ان الكتب الاسرائيلية هي مصدر تلك الانباء الاول ، وان الاختلاف فيها انما يكون بطبيعة الحال تحريفا أو خطأ في النبأ الذي جاء بعد تلك الكتب بترتيب التاريخ ٠

لكن الخبر الصغير الذي ينقض ذلك الزعم على أساسه ان الكشوف الحفرية أثبتت اليوم ان الكتب الاسرائيلية لم تكن

---

(١) معضلة : عضل الزوج المرأة وعضلها منعها ظلما ٠

هي المصدر الاول لما ورد من أنباء القرون الأولى في التوراة أو التلمود ، وقد أثبت القرآن الكريم انه روى عن النبوءات السابقة أخبارا لم تذكر ولم ترد الاشارة اليها في كتب العهد. القديم ولا في أقاصيص التلمود وما شابهه من أسانيد اليهود • فاذا كانت مصادر الجزيرة العربية ومصادر بين النهرين أوفى وأقدم من المصدر الاسرائيلي فهذا المصدر الاخير أقرب الى مظنة الخطأ والتحريف من ذلك المرجع الاصيل •

وتزاد على هذه الملاحظة الصغيرة ملاحظة أصغر منها ليتحقق المؤرخ أن عمل العصبية القومية كان أفعل وأظهر من عمل الاسانيد التاريخية في ترويج تلك الاشاعات أو تلك الاكاذيب ••• لأن اسم الكاهن الذي زعموا أنه كان يملي قصص القرآن الكريم على النبي صلوات الله عليه ، كان يختلف دائما باختلاف مرجع الاشاعة المفتراة ، فاذا كان المرجع مسيحيا فالراهب سرجيوس — أو بحيرا — هو الملقن لتلك القصص ! واذا كان المرجع يهوديا فالملقن هو « حاخام » اسرائيلي مجهول ، كما جاء في رواية « بيدرودي ألفونسو » الذي ينتهي في أصله الى بني اسرائيل !•

ان هذا الموضوع يعاودنا كلما وقع نظرنا على عنوان من عناوين الكتب الكثيرة التي تصدر في هذه الايام عن تواريخ القرون الوسطى • وقد عاوده مجددا — مؤكدا — بعد الاطلاع على آخر كتاب مفصل ظهر بالانجليزية عن « الاسلام والغرب » من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٣٥٠ ميلادية لمؤلفه الاستاذ نورمان دنيال من علماء كلية الملكة بجامعة أكسفورد ، ولعلنا لا نخطيء التعبير اذا قلنا : انها جميعها مكتبة تغري بالتأليف في التعليق عليها ، لأن تفنيدها في هذا الزمن أيسر من ترويجها في زمانها ، وليس أولى باجتهاد المسلم في رد العادية(١) عن عقيدته وتاريخه من رد التبشير على عقبيه الى معقله الحصين ، فانه لأحرى أن يشتغل بالخوف على معقله عن الجرأة الخرقاء على معاقل الاسلام •

---

(١) العادية : الظلم والشر •

تفسير القرآن في العصر الحديث

تصل الي في هذه الآونة أسئلة كثيرة من طلاب العلم والمشتغلين بالدراسات الدينية عن فهم القرآن في عصرنا هذا من وجهة النظر الى العلوم الطبيعية والمخترعات الحديثة ، ومن أمثلتها سؤال من الطالب الاديب عمر عبد العزيز السباجي يقول فيه : ان المتكلمين عن تفسير القرآن الكريم انقسموا الى طائفتين : « احداهما تحبذ تفسير القرآن تفسيرا علميا ، والاخرى تدعو الى فهم القرآن الكريم كما كان يفهمه العرب الأميون الذين خاطبهم القرآن الكريم .. فما رأي سيادتكم في التفسير العلمي الذي يذهبون اليه ؟ وما هي الأدلة التي تعززون بها الرأي ؟ » .

ومن أمثلة هذه الاسئلة سؤال لطالب الطب الاديب يس مهدي جودة يذكر فيه هذه الآية الشريفة : « فلما رأوه عارضا(١) مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين » .

ثم يقول : « أليس من الممكن أن تعتبر هذه الآية الشريفة اشارة مبكرة من القرآن الكريم الى القذيفة الذرية ، ودليلا قاطعا على سبق القرآن العلمي الذي أمكن اثباته في مواضع كثيرة ؟ » .

وهذه وأمثالها أسئلة تأتي في أوانها ، ونغتبط بها لأنها تدل على بحث الشباب المتعلم في أمور عقيدته وضميره ، وحرصه على الفهم المستقل أنفة من التقليد أو التسليم بغير دليل . ونرى ان الاسئلة من هذا القبيل ليست بالجديدة في العالم الاسلامي ، لأنها أعيدت على أساليب مختلفة في عصور النهضات العلمية وأدوار الانتقال من حضارة الى حضارة ، أو الاشتباك بين الثقافات المتعارضة في المشرق والمغرب ، وتجددها اليوم

---

(١) عارضا : العارض : السحاب يعترض في السماء اعتراض الجبل .

معقول منتظر بعد تجدد النظر الى السماء والى أسرار المـــادة وحقيقة المخلوقات المادية على هذا النحو الذي لم تسبق لـــه سابقة مثله فيما تقدم من آدوار التاريخ الاسلامي ، وقد شاركت فيه اليوم أبناء الديانات الاخرى من المسيحيين والاسرائيليين والبراهمة والبوذيين ، فيندر أن تطلع على صحيفة من صحفهم تدرس المباحث اللاهوتية الا رأيت فيها محاولات شتى لاعادة تفسير العقائد الكونية عندهم على ضوء العلم العصري كمـــا يقولون ، وأهم هذه المحاولات ما كان منها متصلا بمسألة خلق الانسان الاول ، ومسألة السماوات وسكانها ، ومسألة القيامة والحساب •

والامر الذي لا محل فيه للخلاف ان الانسان العصري مطالب بفهم كتبه المقدسة وفهم ما توجبه على ضميره من الفرائض والشعائر والواجبات ، ولكن هل معنى ذلك ان الكتب المقدسة لا تفهم الا كما فهمها المخاطبون بها لأول مرة ، أو معناه أنها تفهم في كل عصر على حساب النظريات العلمية التي انتهى اليها أبناؤها ؟

لا هذا ولا ذاك ــ فيما نعتقد ــ هو الفهم المطلوب من المكلف المخاطب بالكتاب •

فان المسلم مأمور في القرآن بالتفكير والتأمـــل والتدبـــر والاستقلال بذلك عن الآباء والاجداد وأحبار الزمن القديـــم وأئمة الدين فيه •

وليس الخطاب مقصورا على العرب الأميين ولا هو بمقصور على أبناء القرن العشرين ، ولكنه عام مطلق لكل عصر ولكل مكان •• اذ ليس من المعقول أن يفكر الانسان على نسق واحد في جميع العصور •

اننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم في عصرنا كما كان يفهمه العرب الذين حضروا الدعوة المحمدية لو أنهم ولدوا معنا، وتعلموا ما تعلمناه ، وعرفوا ما عرفناه ، واعتبروا بما نعتبر به من حوادث الحاضر وحوادث التاريخ منذ الدعوة المحمدية الى اليوم •

ولكن التفكير العصري شيء واقرار النظريات العلمية المتجددة شيء آخر ·

فاننا نستفيد من أخبار الرحلات ، ومن آراء المفكرين ، ومن مذاهب العلماء النظريين والتجريبيين ادراكا نافعا لنا في التأمل والنظر دون أن نؤمن بصحة كل خبر وصواب كل رأي وصدق كل نظرية ، ولا يمكن أن تتقدم هذه الفائدة زمانها في موضوعها وان لم يكن موضوعها متعلقا بهذا العلم أو ذاك ·

ومثال ذلك أن الانسان المعاصر لا يخطيء في استدارة الارض بعد كشف الامريكتين ، فانه لا يفسر كلمة البسط بالنسبة للارض كما فسرها الذين وهموا أن الارض لا تكون مبسوطة أمامنا وهي على شكل الكرة ، لأن الانسان المعاصر يرى بعينه أن الارض تبسط أمامه كما ينظر اليها ، ولا يمنع ذلك أن تكون على شكل الكرة في استدارتها ، لأننا هكذا نفهم فكرة البسط بالنظر ، وهكذا نعلم علم الواقع اليقين أن بسطها أمامنا وامتدادها للسائحين فيها لا ينقض الاستدارة التي لا تقبضها بمعنى من معاني القبض ، وهو نقيض البسط في اللغة وفي الادراك المعقول ·

فالكشف العلمي الحديث يفيد الباحث العصري في تصحيح معنى البسط ، ويذكره أن نقيض البسط هو القبض وليس هو الاستدارة الكروية ، ولكنه لا يدعوه الى انكار البسط بهذا المعنى الصحيح ·

وعلى هذا المثال ينبغي أن نستفيد من النظريات العلمية دون أن نقحمها على القرآن الكريم ، أو نعتبر أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن الى زمن ، ومن تفكير الى تفكير ·

ولذا كان من الخطأ أن نقرر أن القرآن الكريم يؤيد النظرية السديمية في نشأة المنظومة الشمسية أو نشأة الكواكب عموما من دخان المجرة المشهورة ، أو دخان المجرات الاخرى التي لا ترى بالعين ولا بالمناظير ·

فقد تعاقبت النظريات منذ أيام العالم الطبيعي « بوفون »

الى اليوم عن نشأة المنظومة الشمسية ، ولم تزل ينقض بعضها بعضا حتى الساعة ٠

هل نشأت المنظومة الشمسية من الاصطدام بمذنب عابر في الفضاء ؟ هل نشأت من التقاء شمسين متعارضتين ؟ هل نشأت من انفجار الشمس نفسها وتطاير آجزائها ثم عودتها الى فلكها بفعل الجاذبية ؟ هل نشأت من تجمع السديم وجموده ؟

كل أولئك آراء يقول بها العلماء ولا يستقر منها رأي واحد الى قرار ٠ ومن شاء فليفهم ان النظرية السديمية هي النظرية الدخانية على وجه من الوجوه ، ولكن ليس له أن يجعل رأيه هذا عقيدة من العقائد القرآنية التي يكفر بالدين من يعارضه فيها ، وليس له أن ينفيها بغير حجة قاطعة من القرآن الكريم ٠

وقد شاء بعض المفكرين أن يفسر السماوات السبع بالسيارات السبع في المنظومة الشمسية تطبيقا لعلم الفلك في تفسير الكتاب ، وهو اجتهاد حسن على اعتباره فهما لصاحبه لا يوجب على نفسه أن يعتقده ولا يوجب اعتقاده على سواه ، ولكنه يجور عن القصد اذا ألزم الناس به الزاما وعرضهم للشك الباطل في الكتاب الالهي اذا أقحم رأيه عليه ، لان علم الفلك لم يلبث أن أثبت أن السيارات عشر غير النجيمات وغير المئات من السيارات الصغار ، ووجودها بهذا العدد الى اليوم حقيقة لا سبيل الى الطعن فيها ، وقد توجد بعدد آخر بعد حين ٠

والذين فسروا الايام الستة بأيامنا هذه كما نعدها في كل أسبوع قد أخطأوا الفهم ووجب أن يدركوا خطأهم قبل أن يتبين للعلم ان تاريخ الكواكب يمتد الى ملايين السنين ٠

نعم ٠ قد وجب أن يدركوا خطأهم هذا وأن يعلموا أن الايام الستة غير أيام الكرة الارضية في دورتها حول نفسها ، وأن السنين أيضا غير سنوات الكرة الارضية في دورتها حول الشمس ٠ لأن الشمس والارض لم تكونا مخلوقتين في اليوم الاول من تلك الايام ، فلا بد أن يكون للخلق حساب غير حساب الفلكيين للايام والسنين ٠

والذين أنكروا مذهب التطور يحق لهم أن ينكروه من عند أنفسهم لأنهم لم يطمئنوا الى براهينه ودعاواه ، ولكنهم لا يجوز

لهم أن ينكروه استنادا الى القرآن الكريم ، لأنهم لا يملكون أن يفسروا خلق السلالة الآدمية من الطين على نحو واحد يمنعون ما عداه ، وكل ما يجوز لهم ، أن يوجبوا الايمان بأن الله سبحانه وتعالى سوى الطين وبث فيه روح الحياة فصنع منه السلالة التي نشأ منها آدم عليه السلام فأما أن يحتموا كيفية التسوية وكيفية النفخ وكيفية خلق السلالة والزمن الذي خلقت فيه ، فهو ادعاء على القرآن الكريم لا يقبل منهم على وجه من وجوه النفي أو وجوه الاثبات ، ويجوز أن يكون مذهب التطور مذهبا ناقصا في تطبيقه على الحياة وعلى الكائنات العضوية وبخاصة في قول أتباعه بتحول الانواع •• ولكن لا يجوز أن نقحم الآيات القرآنية في انكار النشوء والتطور فانه انكار أخطر من انكار القائلين بتكفير الفلكيين لأنهم ذهبوا الى استدارة الارض ودورانها حول الشمس في الفضاء •

وكل ما يجب على المسلم أن يؤمن به ، أن كتابه الالهي يأمر بالبحث والتفكير ولا ينهاه عنه ولا يصده عن النظر والتأمل في مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا المجهول كيفما كان ، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة وهي عرضة بعد قليل للنقض أو التعديل ، بل لا يأمره الكتاب بالتوفيق بين الكيفيات التي يفهمها العلم والكيفيات التي يقدرها العقل لفهم المسائل الكونية في بداءتها الأولى ونهايتها الاخيرة بين طوايا الغيب المجهول •• لأنه ينبغي أن يعلم ــ عقلا وعلما وايمانا ــ بأن اليوم اذا نسب الى الاله أو نسب الى عمر الكون لن يفهم منه أنه يوم من أيام عمر الانسان ، قبل أن يوجد ، وقبل أن توجد الارض التي خلق عليها الانسان •

فنحن مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم ، ومطالبون بأن نفكر وأن نستفيد لأفكارنا من علوم العصر الذي نعيش فيه ، ولكننا لا نطالب في عصر من العصور بأن نعلق ايماننا بتفسير النظريات العلمية ، وهي لا تستقر عصرا واحدا على تفسير غير قابل للنقض أو للتعديل والتحوير •

الصلاة والعلم

• ❋ •

يقول الاديب « مختار عبد القادر الفيل » الطالب بكلية الاداب:
« .. انني أؤمن بالله ايمانا قويا ، وأؤدي فرائض الاسلام ، ولكنني اوجه السؤال اليكم لرغبتي في المزيد من المعرفة عن امور اسلامنا وأسأل : ما هي فائدة الصلاة والدعاء الى الله ، وانني لاعلم ان الصلاة رياضة وثقافة وصلة وثيقة بالله ، وعلاقة وثيقة لتقوية العطف بين الناس وبث روح التعاون بينهم لاجتماعهم في بيت الله، ولكن كيف نفهم الدعاء الى الله طلبا لشيء من الاشياء ؟ فان هذا الطلب اما ان يكون مطابقا لارادة الله الثابتة فلا فائدة فيه ، وأما ان يكون مخالفا للارادة الالهية فلا فائدة فيه كذلك ، ولا يفعل سبحانه وتعالى غير العدل ، فليس ثمة ما يدعو الى مطالبته لاننا في هذه الحالة كمن ينزله منزلة الحكم الذي يقضي بقضاء ، ثم يعدل عنه بعد التزلف والاستعطاف .. وارجو ان أقرأ رد سيادتكم لاعلم قبل كل شيء هل يحرم علينا الدين ان نبحث في هذه الامور ؟ »

وأقول للطالب الاديب انه أحسن فهم الصلاة كما أحسن وصفها حين قال انها رياضة وصلة وثيقة بالله ، وان الامر الذي أشكل عليه في فهم صلوات الدعاء قد أشكل على كثيرين ، وورد عليهم الاشكال فيه على صور كثيرة بين جميع المتدينين في العصر الحديث من المسلمين وغير المسلمين .. فحسب فريق منهم أن القول بجدوى الصلاة يناقض القول بالسنن الالهية والقوانين الطبيعية التي أودعها الله طبائع الاشياء وبنى عليها نظام الكون كله ، وحسب فريق آخرون ـ كما قال الطالب الاديب ـ أن تنزيه الاله سبحانه وتعالى عن تبديل كلماته وتعديل قضائه يوجب على الانسان أن يتورع عن الطلب الذي يسأله فيه العدول عن قضاء قضاه .

ومن كبار علماء الطبيعة عند الغربيين أناس تصدوا للرد على هذا الاعتراض وأجابوا عن أسئلته جوابا يوافق ايمانهم بالله وايمانهم بالعلوم الطبيعية على السواء . وقد فرغ أحدهم

لهذا البحث ــ وهو الطبيب الجراح الكبير ألكسيس كاريل ــ Carrel فكتب فيه رسالة خاصة أجمل فيها صفوة تجاربه العلمية وجعلها جوابا على قول فردريك نيتشه « انه لشيء مخجل أن يبتهل الانسان بالصلاة » ··

فكان من مقرراته في هذه الرسالة أن نفع الصلاة قد ثبت له ــ علميا ــ كما تثبت التجارب الطبيعية ، وأنه لا يفرق في هذا بين صلاة الانسان لنفسه أو صلاته لغيره ما دام صادق النية صادق الطلب في الحالتين ·

وأحد هؤلاء العلماء الكبار ــ أوليفر لودج ــ وهو من أشهر علماء الرياضة والطبيعة يرد على القائلين بمخالفة الصلاة للسنن الكونية فيقول :

« انهم يتوهمون ذلك لأنهم يحكمون على الصلاة حكمهم على ظاهرة طبيعية خارجة من حدود الكون · ولكنها في الواقع ظاهرة كونية يحسب حسابها في أعمال الكون كما يحسب حسابها في سائر الحوادث التي تقع في حياتنا بغير صلاة ·· واذا كانت الصلاة تربية نفسية فلماذا يحسب المعترضون أن هذه التربية ليست سببا لتحقيق بعض الحوادث كما تسببها كل تربية يتم بها استعداد الانسان لغاية من الغايات ؟ » ·

والواقع التاريخي عن الصلاة ــ بمعنى الدعاء الى الله ــ انها ظاهرة روحية تعرف في الديانات العليا ، ولا تعرف في الديانات البدائية على هذا المعنى · فهي نتيجة لترقي الانسان في فهم وحدة الكون ووحدة القوة الالهية التي تقوم بتدبيره ، ولهذا تعرف في أديان الموحدين والمتحضرين ، ولم تكن معروفة على هذا النحو بين الهمج الأولين الذين يعددون الارباب ، ويوزعونها بين عناصر الطبيعة في الارض والسماء ، ويطلبون من كل منها ما يقدر عليه ولا يقدر على غيره ، ويجعلون صلاتهم من قبيل المساومة على تبادل المنفعة ، لاعتقادهم أن اربابهم تحتاج الى دعواتهم وقرابينهم كما يحتاجون هم الى نعمها وعطاياها · وقد بقيت من هذا الأسلوب في الصلاة بقية مشهودة بين الجهلاء الذين يساومون الأولياء على الشموع والذبائح اذا استجابوا لما يدعونهم اليه من اغاثة الملهوف ، ورد المفقود ،

وتحقيق الغرض المأمول ولو لم يكن من الاغراض التي تحسن بالأولياء ·

فالصلاة في الاديان العليا علامة من علامات التقدم الانساني في فهم حقائق الكون وفهم الصفات الالهية ، ولا قوام لدين من الاديان بغير الايمان بالصلاة على معنى الطلب والدعاء ، مع الايمان برياضتها الروحية وصلتها الوثيقة التي تربط عالم الشهادة بعالم الغيب ، وتجعل وجود الاله حقيقة أعلى من حقيقة النواميس أو حقيقة الحوادث الكونية التي تهم الانسان في مطالب معيشته ، كما تهمه في مطالب ضميره ·

فلا الدين ولا العلم يقضيان على الانسان أن ينكر حقيقة النواميس الطبيعية ، ولكن وجود الاله قائم في ضمائرنا على ايماننا بأن النواميس الطبيعية وحدها لا تغني الانسان عن الاتصال بخالقها ، لأن وجود النواميس لا يلغي عمل الاله ، ولا يعني أن الاتصال به والانقطاع عنه سواء ·

والذين يفهمون أن نواميس الطبيعة واقع مفروغ منه يخالفون العلم والفلسفة ، وليس قصاراهم أنهم ينكرون الارادة الالهية من ورائها ·

فمن المقررات العلمية التي اشتهرت حديثا باسم نظرية هيزنبرج (Heisenberg) أن العلم لا يستطيع أن يعرف مقدما كيف يتصرف كهرب واحد من كهارب الاجسام المادية ، وأن الذي نعرفه من ذلك انما هو حكم الجملة يستحيل تطبيقه على الاجزاء المتفرقة ، ومن المشاهد التي يقربون بها هذا الرأي تقدير شركات التأمين لحوادث السيارات في البلد الواحد والسنة الواحدة ، فانهم يحسبون الحساب لاصابة عشرين سيارة من كل ألف سيارة ــ مثلا ــ فيصدق هذا التقدير وتنتظم عليه موارد الشركة ومصاريفها ، ولكن أخبر الخبراء في الشركة لو سئل أن يدل على هذه السيارات العشرين أو على بعضها لما استطاع ·

والعلماء الذين يعتقدون ان النواميس الكونية مسألة قديمة حصلت وفرغ الأمر منها يتمثلون الكون كأنه مكنة صنعت وأرسلت في طريقها وانقطعت عوامل التكوين فيها ، ولكن هذا

الاعتقاد ضرب من التصور لا يوافقهم عليه كثير من العلماء والمفكرين ، ومن هؤلاء المفكرين من يقول ــ كما يقول بيرس Rierce ــ ان المصادفات قد تكون اليوم قوانين في دور التكوين وليست شذوذا عن قوانين مبرمة منذ الأزل ، وان القوانين قد تكون مصادفات تكررت على وتيرة واحدة ولكنها لا يرتبط بعضها ببعض ارتباط الاسباب بالمسببات ..

ومذهب بيرس هذا مطابق لقول الحكيم الاسلامي أبي حامد الغزالي ، ومطابق للاجماع الذي انعقدت عليه آراء العلماء المحدثين ، فانهم يقولون ان التجارب العلمية انما هي تجارب وصفية تسجل الواقع كما يتكرر أمام المجربين ، ولكنها ليست بالتفسيرات التي تعلل الاسباب بعلة محققة غير علة التكرار والاستمرار .

ومن الامثلة القديمة التي تضرب لتقريب هذا الرأي أن الديكة تصيح قبل طلوع الشمس أبدا وليست هي علة طلوعها ، وأن جرس القطار يدق قبل وصوله الى المحطة وليس هو سبب الوصول ، وأن ضوء القذيفة يرى عند انفجارها قبل سماع صوتها ولا علاقة بين سبب الرؤية وسبب السماع .

وأيا كان الرأي في السببية عند علماء العصر الحديث فالقول الفصل الذي لا شك فيه أن قوانين الطبيعة لم تحصر جميع عواملها ، وأن الحصر الذي وصلنا اليه قد يعين على تقدير الحوادث المترتبة عليها بالاجمال ، ولا يعتمد عليه في تقدير حادثة واحدة بغير الظن والتقريب .

فاذا نظرنا الى التقدير العلمي فالباب مفتوح في الكون للعوامل التي لا تحصرها ضوابط القوانين والنواميس .

واذا نظرنا الى التقدير الديني فالله تعالى فعال لما يريد ، والخلق « عملية مستمرة » وليس بالعملية الآلية التي فرغت منها العناية الالهية ، وتركتها هملا بغير تبديل .

وسنة الله لا تبديل لها حقا ، ولكننا لا نعلم من سنة الله الا ما نهتدي اليه بعقولنا وهداية الله . وقد تكون سنة الله في تصيب الانسان موقوفة على تربية نفسية تحتمها الصلاة ، وقد تكون هذه التربية النفسية سببا مشروطا للسنة الالهية

لا يجوز للمؤمن تعطيله ، أو لا يجوز له أن يدعي القضاء فيه باسم الاله ·

والطالب الاديب يرى للمسألة وجهين لا ثالث لهما من وجوه البحث في فائدة الصلاة ·

فاما أن يكون الطلب موافقا للارادة الالهية فهو محقق بغير طلب ، واما أن يكون مخالفا للارادة الالهية فلا معنى لطلبه ، لأن الله يتنزه عن تغيير ارادته كما يغير الحاكم قضاءه بالملق والاستعطاف ·

ولكن مسألة الصلاة لا تنحصر في وجه من هذين الوجهين ، لأننا يجب أن نذكر — أولا وآخرا — ان ارادة الله متمثلة في طبيعة الانسان ، وأن من طبيعة الانسان أن تطلب الغوث عند الحاجة اليه ، وأن طلبه من غير الله عبث مع الايمان بوجود الاله القادر على كل شيء ، فاذا اندفعت طبيعة الانسان الى طلب الغوث من الله فمن أين له اذا قمع هذه الطبيعة أنه لا يخالف ارادة الله ، ومن أين له أن الاستجابة هي كل ما يرجى من الدعاء ؟ من أين له أن الدعاء نفسه ليس هو سبيل الاتصال بالله من جانب الانسان ، لأنه في ذاته عمل من أعمال النفس التي تدل على سجية من سجاياها وان لم يكن لها جواب ·

ونعود الى رأي الرياضي الكبير أوليفر لودج لأن الرياضيين من أقدر الناس على فرض الفروض التي تحل المجهولات ، فنقول : لماذا نحسب الصلاة خارقة للنواميس الكونية وهي ظاهرة كونية كسائر الظواهر التي تحدث كل يوم في هذا الكون ؟

وليكن الطالب الاديب على يقين أن سؤاله عن نفع الصلاة لا يمتنع في الدين الاسلامي بل يجب عليه وجوب التفكير ووجوب سؤال أهل الذكر ، وكلاهما فريضة من فرائض الاسلام ، ولكن لمسألة الصلاة — كما قلنا — وجها آخر لا ضير من السؤال عنه اذ كان السؤال عنه هو جوابه المريح : ألا يجوز للانسان أن يكشف عن ذات نفسه أمام الله الا أن يعلق هذه المكاشفة مقدما بضمان الجواب ؟

الصيام في القرن العشرين

من الاشاعات التي راجت زمنا عن القرن العشرين ، أنه عصر الحس والمادة ، أو أنه عصر المادة المحسوسة ٠

ونقول : انها اشاعات ، لأنها لا تحسب من الرأي الذي يقوم عليه الدليل ، ولا من الخبر الذي تثبته المشاهدة ، ولا من الواقع الذي يستغني بذاته عن الرأي والاخبار ٠

فالواقع في القرن العشرين أن المادة كلها قد انتقلت – في البحث عن حقيقتها – من عالم الحس الى عالم النظر أو عالم الغيب ، وأن المباحث المادية قد رجعت الى مجال من النظريات والغيبيات لا فرق بينه وبين مجال الروحيات في حكم الحس والمشاهدة ، فلم نفهم من تسمية الكهارب والنوى بهذه الاسماء ما هو سر القوة التي تربط بينها ، وما هو مكان المادة التي تستقل بوجودها عن الكهارب الموجبة والكهارب السالبة أو الكهارب التي تتردد من عنصر الى عنصر بين السلب والايجاب ٠٠ وما من فرض من فروض (العلماء المحققين) عن أصل المادة ينتهي الى فهم أوضح من فهمنا لحقائق الروح أو العبادات الروحية ، فقد أصبح العالم (المادي) الذي ينكر الغيب المجهول يحتكر لنفسه ما ينكره على طلاب المعرفة الروحية بغير مسوغ لهذا الانكار يسوغه العلم أو التفكير ٠

وفي القرن العشرين قد ثبت للعبادات الروحية من الفضائل ما لم يثبت لها قبل القرن العشرين بغير فضيلة الطاعة الواجبة لأوامر الدين ، أو بغير الاسباب التي ينفرد الدينيون بتفسيرها واقامة الأدلة على لزومها ، فلا تدخل في نطاق البحوث التي يتصدى لها علماء الماديات أو علماء المحسوسات ٠

والصيام في مقدمة هذه الاوامر الدينية التي أعيد فيها النظر على أيدي أبناء القرن العشرين ، فظهرت لها مزاياها الكثيرة الى جانب مزايا العبادة والايمان بحقوق الغيب ، مع حقوق الشهادة والعيان .

فقد أصبح أبناء القرن العشرين جميعا يزاولون نوعا من أنواع الصيام في وقت من الاوقات لصلاح البنية أو صلاح الخلق أو صلاح الذوق والجمال .

ومعنى الصيام أنه هو الكف عن شهوات الطعام وسائر الشهوات الجسدية وقتا من الاوقات ، وهذا هو الصيام الذي تدعو اليه الحاجة في تحقيق أغراض التربية النفسية والتربية الاجتماعية وسائر ضروب التربية النافعة على حالة من الحالات :

فمن الصيام ما يتقرر اليوم لتربية الاخلاق الفدائية في الجنود ومن يؤدون عملا يستدعي من الشجاعة ورياضة النفس على تقلبات الحياة ما تستدعيه أعمال الجنود الفدائيين .

وقد يستدعي عمل الجندي الفدائي أن يكف عن الطعام بضعة أيام ، أو يستدعي أياما أن يقبل الطعام الذي تعافه نفسه في سائر أيامه ، أو يستدعي أن يرفض الطعام الجيد المشتهى وهو حاضر بين يديه .

ومن الصيام الذي ثبت لزومه في هذا العصر صيام الرياضيين وهم يملكون بارادتهم زمام وظائفهم الجسدية ، ويتجنبون كل طعام يحول بينهم وبين رشاقة الحركة ، أو يحول بينهم وبين الصبر على الحركة العنيفة والحركة التي تتعاقب على انتظام الى مسافة طويلة من المكان أو من الزمن ، ولا يستطيعها من يجهل نظام الصيام ولا يروض نفسه وجسده على نوع من أنواعه طوال الحياة .

ومن الصيام العصري صيام التجميل ، وقد يصبر عليه من لا يصبرون عادة على صيام الرياضة النفسية أو صيام الرياضة البدنية ، وقد يقضي على الصائم من الرجال أو النساء أن

يلتزم الحمية في شرب الماء وغيره من السوائل المروية كما يلتزم الحمية في تناول الغذاء المستطاب ، وان يكن صالحا للتغذية موفور الفائدة للبنية الحية ، ولكنه يؤخذ بمقدار لا يزيد عليه من يحرص على الوسامة واعتدال الاعضاء ·

ومن الصيام الشائع في العصر الحديث صيام الاحتجاج على الظلم والتنبيه الى القضايا والحقوق التي يهملها الناس ولا يعطونها نصيبها الواجب من الفهم والعناية ·

وهذه الانواع من الصيام كلها صالحة لغرض من أغراض التربية العامة أو الخاصة يهتدي اليه أبناء القرن العشرين ويعلمون منه أن الآداب الدينية تسبق (التحقيق العلمي) الى خلق العادات الصالحة واشتراع الآداب الضرورية لمطالب الجسد والروح في الجانب الخاص أو الجانب العام في حياة الانسان ·

ولعل الفضيلة العصرية ــ فضيلة القرن العشرين ــ التي تحسب من الاخبار الصادقة ولا تحسب من الاشاعات المزجاة(1) أنه يعرض مسائل الحياة للبحث والتقرير ، ويجمع الأشتات المتفرقات من معلومات الاقدمين ليجري عليها حكم العقل والعلم في نسق جديد ·

وعلى هذا النسق يتناول الباحثون العصريون أنواع الصيام ويقسمونها الى أقسامها على حسب أغراضها العامة أو الخاصة من قديم العصور الى العصر الحديث ·· وقد أحسنوا تقسيمها حقا حين حصروها في هذه الاقسام الخمسة التي تحيط بها ولا تستثني نوعا منها على ما نعلم ، وهي :

(١) صيام التطهير الذي يكف الصائم عن الالمام بالخبائث والمحظورات من شهوات النفوس أو الاجسام ·

(٢) وصيام العطف : ومنه صيام الحداد في أوقات الحزن أو المحنة ، ليشعر الصائم بأنه يذكر أحبابه الذاهبين أو الغائبين ، ولا يبيح نفسه ما حرموه بفقدان الحياة أو فقدان النعمة والحرية ·

---

(١) المزجاة : مؤنث المزجى وهو الشيء القليل أو الرديء الخسيس ، ومنه بضاعة مزجاة ·

(٣) وصيام التفكير عن الخطايا والذنوب ، تطوعا من الصائم بعقاب نفسه على الذنب الذي يندم على وقوعه ،ويعتزم التوبة منه والتماس العذر فيه ٠

(٤) وصيام الاحتجاج والتنبيه ، وهو صيام المظلومين وأصحاب القضايا العامة التي لا تلقى من الناس نصيبها الواجب من الاهتمام أو الانصاف ٠

(٥) وصيام الرياضة النفسية أو البدنية التي تمكن الصائم من السيطرة ــ بارادته ــ على وظائف جسمه تصحيحا لعزيمته أو طلبا للنشاط واعتدال الاعضاء ٠

وكل هذه الانواع الصومية تستدعي الكف عن الطعام وشهوات الجسد ، تارة بالامتناع عن الطعام كله بعض الوقت ، وتارة بالامتناع عن بعضه في جميع الاوقات ، وتارة بالاقلال من جميع مقاديره والمباعدة بين وجباته ، أو بالقدرة على مخالفة العادات المتبعة في تقديره وتوقيته على جميع الاحوال ٠

وشريطته العامة التي تلاحظ في جميع أنواعه هي تحكيم الارادة في شهوات النفس والجسد ، أو تربية العزيمة على قيادة الانسان لنفسه حيث يريد ٠

والمتواتر من أقوال الباحثين عن عادات الاجناس البشرية أن الصيام بجميع أنواعه قديم في أمم العالمين : القديم والجديد ٠

ففي حضارات أمريكا الوسطى آثار تدل على قدم الصيام بين شعائر العبادة التي دان بها سكانها الأصلاء قبل ميلاد السيد المسيح ، وقد اشتهر الصيام البرهمي والبوذي منذ أقدم العصور التاريخية ، مع تحريم أكل اللحوم كما هو معلوم ، واشتهر مثله صيام البابليين والاشوريين على نحو قريب من الصيام الذي تعلمه منهم اليهود أيام السبي متابعة للشعائر الدينية التي جاء بها الرسل الاسبقون فيما بين النهرين ، وأولهم نوح ــ عليه السلام ــ على القول المشهور ٠

وكان الصيام معروفا عند المجوس الزردشتيين ــ أو طائفة منهم ــ حرموه أخيرا لثورتهم على العبادات البرهمية والعبادات الاشورية بعد اصطدام العقائد الجديدة بالعقائد الموروثة السابقة عليها ٠

ولا يندر الصيام في أمة من الأمم الكبيرة غير الأمم التيوتونية من أبناء الشمال ، فانه قليل في تاريخها القديم وان لم يكن مهملا كل الاهمال ، ولعلهم أقلوا منه لصعوبة الاستغناء عن الطعام زمنا طويلا في البرد الشديد ، أو لصعوبة توقيت المواعيد حيث تطول الفترة بين شروق الشمس وغروبها ، فلا ينتظم التوفيق بينهما وبين وجبات الطعام .

وعند المقابلة بين أنواع الصيام نتبين مزايا الصيام الاسلامي بين جميع هذه الانواع ، فانه واف بالشريطة العامة للصيام المفروض بحكم الدين أو المتبع لرياضة الاخلاق ، وهو على ذلك صالح لمقاصد التطهير والعطف والتوبة ، والتفكير .. ولا جدال في رجحان الصيام بنظامه الاسلامي ، على نظام الصيام الذي يتحرى الصائم فيه اجتناب بعض الالوان من الاطعمة الفاخرة أو الاطعمة الشهية ، فان اجتناب بعض الالوان لا يكفي لترويض وظائف الجسد وتغليب حكم الارادة عليها ، اذ كانت هذه الوظائف تؤدي عملها بكل لون من ألوان الطعام ، وقد يكون فيه ترويض للذوق على اجتناب اللذائذ والشهوات الجسدية ، ولكنه ترويض ينتفع به القادرون على تحصيل الطعام اللذيذ والطعام الثمين ، ولا رياضة فيه — حتى للذوق — عند فقدان القدرة على تحصيل هذه الاطعمة في جميع الاوقات .

لا جرم كان الصيام في الاسلام نظاما لا يفضله نظام بين شتى الانظمة التي تقدمت بها فرائض الصيام .

★ ★ ★

الاسلام منهج شامل

عودني قراء الكتب التي أكتبها في الموضوعات الدينية أو الموضوعات الاجتماعية التي لها علاقة بالعقائد والبحوث فيما وراء الطبيعة أن أتلقى منهم رسائل على نوعين :

نوع له دلالة حسنة على الرغم مما يحتويه من خلجات الشك والحيرة بين وجهات النظر في الدين ، ويغلب على هذا النوع من الرسائل أنه حسن الدلالة ــ كما تقدم ــ لأنه يدور حول السؤال عن كشوف العلم الحديث وأطوار الحياة العصرية : هل توافق الدين أو تناقضه ، وهل عقيدة الاسلام فيها توافق المعقول أو تحتاج من العقل العصري الى تفسير وتأويل ، وموضع الدلالة الحسنة في هذه الاسئلة أنها تنم على احترام الايمان كما تنم على احترام العقل ، واجتناب المغالطة بين المؤمن وبين نفسه فيما يعرض له من الشكوك وأسباب الغموض والتردد بين نقائض التفكير ٠

والنوع الآخر تسوء دلالته في بعض نواحيه ولكنها لا تخلو من الناحية التي لها دلالتها الحسنة أيضا بعض الأحايين ٠

ذلك النوع السيء من الرسائل هو النوع الذي يتهجم أصحابه على الانكار والجزم بالنفي لغير حجة قاطعة ، وهو تهجم سيء الدلالة من جهة العقل لا من جهة الدين وحسب ، لأن العقل الذي يسرع الى البت في مسألة الكون كله بهذه الرعونة حقيق بالرثاء ، واذا بدا أن هذا الضعف تهمة للعقل فهو في الوقت نفسه حجة تؤيد قوة الايمان ، لأن الخطأ الواضح في مهاجمة الايمان حجة ناهضة على حصانته المنيعة أمام هجمات المتعجلين ٠

ومن أمثلة الرسائل ــ على نوعيها ــ هذه الرسالة التي تلقيتها بتوقيع (السيد مصطفى الجرف) وفيها يقول بعد التمهيد :

« كلما دار نقاش مع الزملاء حول الاسلام كمنهج شامل للحياة ، والبحث في امكان الاسترشاد بقواعده التشريعية في تثبيت دعائم الاشتراكية وخلق مجتمع فاضل تشيع فيه العدالة نجد من يتساءل في تحد مثير : قولوا لنا لم لم يفلح الاسلام

كشريعة حاكمة بعد عهد عمر بن الخطاب ؟ ان الاسلام مجاله المسجد لا غير ٠٠ هكذا يقول الواقع والتاريخ » ٠

ونقول ان هذه الرسالة مثل للرسائل على نوعيها ، لأنهـا تدل على احترام صاحبها لايمانه واحترامه لعقله ، كما تدل على الخطأ الواضح في التهجم على الآراء الحاسمة في المسائل الكبرى لأهون الشبهات ، وقد تكون الشبهة ــ في ذاتها ــ غير مفهومة في رأس من يتحدى بها هذا التحدي المثير ٠

أكبر الظن أن هؤلاء المتهجمين يتبعون مذهبا من المذاهب المادية التي تدعي لنفسها احتكار المبادىء الشاملة للاصلاح بغير مثيل ولا بديل ، وأنهم يحكمون بفشل الاسلام لأنهم يتوهمون أن العقيدة الناجحة هي العقيـدة ذات الشعائر التـي يجـري تطبيقها وتنفيذها حرفا حرفا في حياة كل مسلم ، وفي دستور كل جماعة ، وفي أطوار كل مشكلة من مشكلات الحياة ، ولما كان المسلمون اليوم لا يقيمون الصلاة فردا فردا ، ولا يؤدون الزكاة درهما درهما ، ولا ينالون كل حقوقهـم في مجتمعاتهم كبـيرا وصغيرا ، فالاسلام اذن عقيدة غير شاملة ومكانها المسجد كما يقولون ، وليس لها مكان في معترك الحياة !٠

ولا يحتاج السامع لمثل هذا التهجم الى أكثر من تدوير رأس صاحبه الى مذهبه « الشامل » المزعوم ليرى بعينيه على التحقيق أن قواعده الاساسية جميعا غير قائمة في مهدها الاول ، وأن القائم بين مشروعاته كلها هو القائم في كل مكان يتحرى الاصلاح على غير تلك القواعد وعلى نقيض الاصول الاساسية فيـه ، أكثر الاحيان ٠

فالعقيدة الشاملة هي التي تضع للناس مقياس الاعمـال والاخلاق وليست هي العقيدة التي تعمل بأيديهم ما يطلب منهم أن يعملوه أحرارا في الرأي والشعور ، ولو كان شفيع القانون للبقاء أن ينفذه كل خاضع له حرفا حرفا ، وأن يمتنع خلافه أصلا وفرعا ، لما كتب لقانون بقاء ٠

ونزيد التفصيل شيئا فنقول : ان العقيدة الدينيـة سند للروح تعتمد عليه في شدائد الحياة ، وقسطاس للآداب والعادات ترجع اليه في قياس الاخلاق والاعمال ، وأنها بالنسبة للجماعات ــ أو للأمم التي تدين بها ــ قوة فعالة ، ولو من طريق المقاومة ،

يحسب لها حسابها في التاريخ .

والاسلام ـ بهذه الصفة ـ عقيدة فردية اجتماعية ، لا يجاريها دين من الاديان .

نبدأ بقوته العالمية : فنعرفها بالقوة التي تقابلها من جهة خصومها قبل أن نعرفها بما صنعته هي لاقامة بنيانها والدفاع عن كيانها ، فقوة الاسلام العالمية تقابلها في التاريخ دولة الأكاسرة ودولة القياصرة ، كما تقابلها دول الحروب الصليبية ودول الاستعمار ودول التبشير والدعاية المذهبية على اختلاف الدعاوى والغايات .

والاسلام هو الذي منح شعوبه هذه القوة التي ضارعت تلك القوى كافة وصمدت لها وهي في دور العزة والبأس ، كما تصمد لها وهي في دور الضعف والجمود . وقد صمدت قوة الاسلام لخصومها بمبادئها التي تدين بها ولم تصمد لأولئك الخصوم بالمبدأ المستعار ، كما استعار أصحاب (المذاهب المادية) مبدأ الوطنية وهم ينكرونه ليخلقوا به قوة في موضع الوهن ، وايمانا في موضع الخوف والهزيمة .

أما الاشتراكية الاسلامية فهي اشتراكية الانسان الرشيد الذي يملك حرية التصرف كما يملكها العقلاء من الافراد والجماعات ، وليست هي الاشتراكية الآلية التي تصب العقول في قالب من حديد يحطمها ولا تقوى هي على تحطيمه بأيدي الحاكمين أو بأيدي المحكومين .

فالاسلام قد حرم الاحتكار والاستغلال ، وحرم تداول المال في أيدي الطبقة الواحدة « كي لا يكون دولة بين الاغنياء » وأوجب للضعفاء العاجزين جزءا من أربعين جزءا من ثروة الأمة بأجمعها ، واستنكر خزن الذهب والفضة ، وحرم الفائدة على المال بغير عمل له جزاء يستحقه صاحب المال .

ومتى تقرر هذا كله في مجتمع انساني فلا حرج علينا أن نسميه بما نشاء من الاسماء التي تتقلب من عصر الى عصر وتتبدل بين أمة وأمة ، ولا يضيرنا أن نقول انها اشتراكية أو ديمقراطية أو سندكالية أو تعاونية ، أو مرسومة بتخطيطها ، أو مرسومة بغير تخطيط ، وليس علينا أن نصب العقول

والشرائع والحريات في قوالب الحديد أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأن قوانين الاقتصاد المادية ــ فيما يزعم دعاتها ــ تأبى لحياة الانسان طورا من الاطوار ان لم يكن من ورائه طلسم (القيمة الفائضة) أو تعويذة (المادية الحوارية) أو صيحة الصراع بين الطبقات ، أو ما شاكل هذا من الطلاسم والتعاويذ ٠

ولهذه الخاصة التي اختصت بها الاشتراكية الاسلامية استطاع الاسلام أن يسخر في عصرين متواليين من سخافة متهميه بتعطيل المرافق العامة لتحريمه الربا ، وسخافة متهميه بعد ذلك لأنهم ينكرون الربا ومعه رأس المال ، ولو كانت اشتراكية الاسلام رهنا بانتقاد (القفازين) الى النقد لكان منكروه اليوم لأنهم اشتراكيون ماديون هم منكريه بالامس لأنهم رأسماليون محافظون ، يقدسون الربا، ويبنون الحضارة كلها على الاستغلال وتثمير الاموال ٠

أما قسطاس الاسلام الذي تقاس به الاخلاق والآداب فلا يحكم على فلاحه أو فشله بانقطاع الخلاف له من العالم ، لأنه ان كان كذلك كان قسطاسا مستحيل الوجود في قوانين الطبيعة التي تسري على المادة الصماء فضلا عن قوانين الاخلاق التي تسري على نفوس الأحياء ، ويعرض لها ما يعرض لأطوار الحياة من عوارض التقلب والانقلاب ٠

وانما يحكم على فلاحه بحكم المجتمع الاسلامي على المتبعين له أو الخارجين عليه ، فلا يزال أكرم الناس وأشرفهم قدرا في المجتمع الاسلامي من يقال عنه انه مسلم صادق الاسلام في أعماله ومعاملاته ، ولا يزال أهون الناس وأرذلهم قدرا من يقال عنه انه انسان (ليس عنده اسلام) كما يجري ذلك على الألسنة كل يوم في وصف أرذال الخلق في حكم هذا الدين ، وهم على الدوام أرذال الخلق بكل مقياس صالح وكل قسطاس قويم ٠

وهذا هو الواقع ، وذلك هو التاريخ ٠

فمن حق المسلم ــ وهو يعيش في العالم ويذكر التاريخ ــ أن يشعر بمجال الاسلام في المسجد وفي كل مجال ، لأن الاسلام هو الذي علمه ويعلمه أنه (أينما كان) فثم وجه الله ٠

الكتب الدينية في الحضارة الحديثة

من أبناء الشرق الذين لا يزالون على فتنتهم بالحضارة الأوروبية ، أناس يحسبون أنهم مطالبون بالرجوع الى الغرب للعلم بسمت العصر في شئون الفكر والضمير ، فلا يبيحون لأنفسهم أن يطلعوا على موضوع من موضوعات القراءة الجدية ، أو قراءة التسلية وتزجية(١) الوقت ، غير الموضوعات التي يقرأها الأوروبيون المعاصرون ، وقد يخجل أحدهم أن يرى في يده كتاب مما يسمونه بالطراز القديم كما يخجله أن يرى وهو في زي (عتيق) غير أزياء (المتمدنين) العصريين ·

والشائع بين هؤلاء « العصريين » على التقليد والسماع أن قراءة الكتب الدينية في هذا الزمن « تقليد » قديم هجره أبناء المدنية الحاضرة وخلفوه وراءهم لأبناء القرون الوسطى : وهي التي تشتهر الآن باسم قرون الظلام ، أو قرون الجهل والخرافة ، ويظنون أنها من أجل ذلك كانت تقترب من موضوعات الدين ، على قدر ابتعادها من موضوعات العلم الحديث ، أو على قدر ابتعادها في الزمن من تفكير أبناء القرن العشرين ·

وقد عناني هذا الظن الشائع ، فخطر لي منذ زمن بعيد أن أتحققه في مراجعه التي تهيئها لنا الاحصاءات الكثيرة في سجلات عصرنا ، وهو كما نعلم يعتمد في كل تقدير على مراجع الارقام ، وجعلت أحضر ذلك الظن في خلدي كلما اطلعت على بيان جديد عن المطالعات والتواليف عند القوم ، فثبت لي ثبوت اليقين أن القراءة الدينية بين الغربيين المحدثين ، تأتي في المقدمة بين أنواع القراءات العامة بغير استثناء ، وأن الفرق بينهم وبين أسلافهم من أبناء القرون الوسطى يوشك أن يعكس القضية الشائعة عن تدين الأوروبي قبل بضعة قرون ، وانصراف

(١) تزجية : دفع ·

الأوروبي المعاصر عن الديـن ، أو عـن الشئـون الدينية ، بالقياس اليه ٠

وفي مقال صحفي قريب أشرت الى ذلك ، لمناسبة البيانـات السنوية التي تظهر في التقاويم، بالمقارنة بين موضوعات الطباعة والقراءة من عام الى عام ، فقد تبين أن الترجمة الاخيرة من كتاب العهد الجديد بيع منها مليونان ونصف مليون نسخة ، قبـل انقضاء أربعة شهور من ظهورها في البلاد الانجليزية ، وأن الاستعداد لهذه الترجمة كلف الناشرين من الجهود العلميـة والمالية أضعاف أضعاف ما تكلفته ترجمة هذا الكتاب ، في عهد الملك جيمس ، وفي عهود الترجمات التالية ، سواء ظهرت باللغة الانجليزية ، أو بغيرها من اللغات الأوروبية ، ويدخل في تقدير هذا الفارق حساب الفوارق الكثيرة بين العصر القديم والعصر الحاضر ، في انتشار القراءة والكتابـة ، وانتشار الطباعـة ووسائل التوزيع ، وانتشار المعارف ، التي يعول عليها في ترجمة كتب التوراة والانجيل من لغاتها الشرقية أو اليونانية ٠

وتتبين هذه الحقيقة من مراجعة الصحافة كما تتبـين من مراجعة التقاويم السنوية ، فان الصحف التي تخصص بعض أبوابها لنقد الكتب والتواليف على العموم ، تفرد في مواسم العام ، لمناسبة الاعياد الدينية ، أعدادا مستقلة لما يصدر خلال هذه المواسم من كتب الدين ، ومباحث العقيدة ، بأقلام المفكرين، وأقلام رجال الكنائس المختلفة ، وتشترك في اتباع هذه السنة الدورية صحف مشهورة ، ولا يخطر على البال أنها تشتغل بهذه المباحث وتستعين – بين محرريها – بمن يحسن الكتابة فيها ، الى جانب المحررين المتخصصين ، بشئون السياسة العامة ، أو شئون الفن والأدب ٠

فصحيفة التيمس – مثلا – تخصص عددا من أعداد ملحقها الأدبي في شهر مارس الماضي للتعليق على الكتب الدينيـة ، وتفتتحه بمقال ضاف عن أثر العقائد في سياسة العصر الحاضر ، وفي تطور الفكر الاجتماعي بين أمم القارة ، التي يظن أنهـا أشد هذه الأمم امعانا في محاولة الفصل بين الدين والسياسة ، ويقول كاتب هذا المقال ما فحواه : انه ما من أحد يفهم بواطن

النزاع بين الطوائف السياسية والاجتماعية في فرنسا ، ما لم يدخل في حسابه أسماء الدعاة والمفكرين ، الذين تعرض أسماؤهم منقوشة على جدران الكنائس ، تحت عنوان «الشهداء» وضحايا الزمن الاخير •

ومن موضوعات الكتب التي عرضت في هذه الصحيفة : موضوع عن القصة ، في عصر الملكة فكتوريا ، ينظر فيه مؤلف الكتاب الى قصص ذلك العصر ، من حيث هي « منابر للوعظ » و « كراسي للاعتراف » •

وموضوع عن الخير الالهي ، ومشكلة الشر في العالم الانساني •

وموضوع قريب منه عن « الحب الالهي » في عصر الحروب العالمية •

وموضوع في تقديم انجيل يوحنا ، من كتب العهد الجديد •

وموضوع الرحلات ، التي قام بها أحد القساوسة العلماء ، في بلاد الصين ، والهند ، وجاوة وأثيوبية ، وأفريقية الجنوبية •

وموضوع عن أعمال أحد الاطباء « التبشيريين » في أواسط القارة الافريقية •

وموضوع الكتب المقدسة بالصور والرسوم ، ومنها الصور الشمسية والصور التي نقلت عن لوحات الفنانين الاقدمين والمتأخرين •

وموضوع حرية العبادة والدين في البلاد الروسية ، والهرطقات(١) القديمة والحديثة ، واللفائف الاثرية التي كشفت أخيرا بوادي القمران ، والقوى الاجتماعية والروحية ، والعودة الى الينابيع ، وتحرير المبادىء الخلقية على قواعد المسيحية ، ووجهة النظر في الكتب المقدسة الى مسألة « الجنس » ومسألة الزواج ، وتاريخ البابوات مع الدعاة البروتستانتيين • وأشباه هذه المباحث من صميم « الموضوع الديني » كما تعالجه معاهد العبادة ، ولا يلزم أن يكون من مباحث المعلقين على شئون الدين بأسلوب العالم ، أو أسلوب المؤرخ ، الذي يعرض لمسائل العقيدة ، كما يعرض لغيرها من المسائل « الدنيوية » •

---

(١) الهرطقات : الهرطقة : البدعة في الدين •

ولهذه المطالعات جميعا جمهورها الواسع بين طوائف المتدينين ، والمهتمين بالعقيدة الدينية في حياتهم الخاصة ، الى جانب حياتهم الاجتماعية ·

وهذا الاهتمام ، هو الذي يفتح الباب للمقابلة بين العصر الحديث ، وبين عهود القرون الوسطى ، في القارة الأوروبية ·

فليس « الاخلاص الباطني » في الايمان والعبادة ، موضوع ملاحظة تاريخية ، تصلح للمقابلة بين العصور ، لأن ظواهر التدين في الأمم هي في كل حال ظواهر الاهتمام ، التي تتراءى بعلاماتها المشهورة للعيان ، وكل ما عداها من البواطن الخفية ، فانما هو سر للفرد في حياته الخاصة ، لا يسهل الحكم على نصيبه من الاخلاص والصدق ، أو نصيبه من النفاق والمداراة ، ومن الموافقة والمجاراة ·

وزيادة الاهتمام بالدين في العصر الحديث غير محتاجة الى دليل من ناحية القراءة ، والقراء ، أو النسخ المتداولة من الكتب المطبوعة ، فان الفارق هنا بين القرون الوسطى والقرن العشرين ، هو الفارق بين عدد الأميين أمس وعدد الأميين اليوم ، أو هو الفارق بين عدد المخطوطات المنقولة ، وبين ما تصدره المطابع السريعة في هذا العصر بالألوف والملايين ، حيث كانت مطابع الامس لا تقوى على اصدار عدد من الكتاب في مثل هذا الوقت يزيد على المئات ·

لكن هذا الفارق بين عدد الأميين بالأمس واليوم ، يدل على درجة الاهتمام من جانب آخر ، غير جانب المقدار المتداول من الكتب الدينية ، وهو اضطرار « الجمهور » الى ترك الامر كله في فهم كتب الدين الى رجال الكهنوت المنقطعين للاطلاع عليها ، فلن يكون هذا الاهتمام غير نوع من التسليم ، لا فرق فيه بين الاهمال والعناية ، لأنها عناية بالاتكال على الآخرين ·

وربما كان استبداد السلطان الديني بالأمر في القرون الوسطى ، وقدرة المتسلطين على تعذيب المخالفين ، والبطش بالمنازعين لهم في هذا السلطان ، هو الذي خيل الى الناس أن

أبناء القرون الوسطى كانوا في أمور الدين أشد غيرة وأعمق اخلاصا من المعاصرين ··

الا أننا نخطيء اذا فهمنا ذلك من دلائل الاستبداد الذي اجتمعت قوته بين أيدي المتسلطين الدينيين ، فان استبدادا كهذا الاستبداد ـ أو أشد منه ـ كان مجتمعا بين أيدي المتسلطين من الملوك والأمراء ، وأيدي الحكام على الاجمال ، ولا يسوغ لنا أن نفهم منه أنه كان دليلا على اهتمام جمهور الناس بأحوال السياسة ، وقضايا الحكم في تلك العهود ، بل لعل هذا هو الدليل على تهاونهم بتلك الاحوال ، وتلك القضايا ، وتسليمهم فيها الى الحاكمين المستبدين بغير سؤال ·

واذا أردنا أن نحكم على أبناء العصر الحاضر بالاستخفاف بأمر الدين من وفرة المقروءات في فنون الكتابة الخليعة ، أو الحملة على العقائد الدينية ، فالذي يلوح لنا ان أبناء القرون الوسطى أولى من المحدثين بتهمة الاستخفاف ، وأوفر قسطا من القول الخليع ، والتنديد بحياة التدين والمتدينين ·

فان المجون في أقاصيص القرون الوسطى لا نظير له في الادب المعاصر الذي يسمى بالأدب المكشوف ، ولا يجرؤ أحد على نشره في غير الطبعات السرية ·

وقد كانت حملة التحرير باسم الانسانيين Humanists حربا صريحة على حياة التدين ، أو حياة التقشف «الكهنوتية» ، ودعوة جريئة الى نبذ الفرائض ، والموانع المقررة في عرف رجال الدين ، ورجال الاخلاق ، واعطاء الضعف الانساني حقه من مطاوعة اللذة الجسدية ، والقصد في تكاليف الحياة الروحية ، لأنها كمال منشود في الخيال ، ولكنه يفوق طاقة اللحم والدم في جبلة الانسان ·

وربما كان استبداد السلطان الديني بالأمر في مسألة هامة كمسألة القراءة أمر تقتضيه أمانة الانسان لعقله ، ان لم يكن للدين شأن كبير في حسابه ، ولكننا نصحح النظر الى التاريخ الانساني كله اذا فهمنا أن زيادة رقم السنين على صفحة التقويم ، لا تعني حتما انها نقص مطرد في العناية بأمر الدين ·

بعثة المسيح في بني اسرائيل

● ●

في المقال السابق (١) تناولنا بالبحث الموجز موضوع القراءة الدينية بين المعاصرين من أبناء القارة الأوروبية ، وأردنا بهذا البحث تصحيح بعض الآراء الشائعة بين المتعجلين من أدعياء « العصرية » أو الحياة الحديثة في بلادنا الشرقية ، لأنهم توهموا على السماع ان موضوع « الدين » قد أصبح من الموضوعات المهجورة في عرف أبناء القرن العشرين الذي يسمونه بعصر « العلم » ويذهبون بالعلم فيه الى أقصى الطرف المقابل للدين .. ولكنه وهم باطل تنقضه الاحصاءات المتوالية عاما بعد عام ، وتثبت على خلاف ذلك أن العناية بالموضوعات الدينية في « عصر العلم » أشد مما كانت في عصور الظلام ، وهم يحسبون الدين من « خصائصها » الموقوفة عليها بين سائر العصور .

والشواهد على هذه الحقيقة لا تنقطع في بريد واحد من برد المطبوعات الحديثة يصل الى الشرق من البلاد الأوروبية ، فلم نكد نفرغ من كتابة المقال الماضي حتى وافانا سجل هذه المطبوعات بطائفة من الكتب تحت عنوان « الكتب الدينية » أحدها هذا الكتاب الذي نعلق عليه في هذا المقال ، ويلاحظ أنه مكتوب بالفرنسية ومترجم الى الانجليزية في الولايات المتحدة .. وعند أصحابنا المتعجلين « أدعياء الحياة العصرية » أن فرنسا وأمريكا في مقدمة الامثلة بين أمم الغرب على آخر « الموضات » في « المودرنزم » المعرض عن هذا الموضوع العتيق ..!

واسم الكتاب « عيسى الناصري في سنواته المجهولة » .

ومؤلفه المؤرخ الفرنسي روبرت هارون وهو كاتب يهودي كما يدل عليه اسمه .

---

١ ـ نشر في مجلة « منبر الاسلام » ابريل سنة ١٩٦٢ .

وموضوعه أن السيد المسيح ينتسب الى شعب اسرائيل ، وأن الفضل في بعثته كله يرجع الى الدروس الاسرائيلية التي تلقاها منذ صباه ، وأنه قضى السنين الطوال التي لم يرد في الاناجيل الاربعة خبر عنها وهو يتلقى علومه على أحبار بني اسرائيل ، وقد يدل على ذلك ما ورد في الاناجيل عن ذهابه الى الهيكل في نحو الثانية عشرة وقضائه الايام الثلاثة هناك وهو يساجل أحباره مساجلة أدهشتهم وأكبرته في أعينهم ، وحق للمؤرخ أن يعلم منها أنه قد وعي — منذ صباه الباكر — كل ما يعيه الدارسون من أسرار الشريعة وفرائض العبادة وآداب السلوك ، ويجتهد المؤلف غاية اجتهاده في التوفيق بين هذه الآداب وبين معانيها المجازية باللغة الآرامية التي كان يتكلم بها مع أسرته وتلاميذه ؛ فليس المقصود — في رأي المؤلف — يقول السيد المسيح ان العين بالعين والسن بالسن أن تسمل(١) عين المعتدي وأن تخلع سنه ، وانما يقصد به « أن لكل جناية عقوبتها » وأن الجزاء موافق للبغي والاعتداء ٠

ويرى المؤلف أن فكرة الرسالة المسيحية ربما خطرت لعيسى — عليه السلام — أول مرة في صباه من تلك العادة اليهودية التي درج الشعب الاسرائيلي على اتباعها ليلة الاحتفال بعشاء عيد الفصح ، فلا بد أن أهله كانوا يتركون على رأس المائدة كرسيا خاليا عسى أن يجلس عليه الرسول « ايليا » اذا هبط من السماء٠

واختار تلك المائدة لمشاركة الشعب في احتفاله واستئناف حياته على الارض لقيادة القوم في سبيل الخلاص ٠٠ ولا بد أن السيد المسيح قد تساءل بينه وبين نفسه عن « المخلص » المنتظر : لم لا يكون على يديه ذلك الخلاص المقدور في ذلك الزمان ٠

ويقول المؤلف في رواية الناقد الذي ننقل عنه — انه لا يدين بربوبية المسيح ، ولكنه يدين برسالة له ربانية يواجه بها العالم الوثني ولا وجهة لها عند بني اسرائيل ، فان العالم الوثني

(١) تسمل : سمل عينه فقأها ٠

من الاغريق واللاتين هو الذي كان بحاجة الى نظرة الهية ينظر بها الى العالم ، ويعيده بها الى الاله الواحد الذي « اكتشفه » أنبياء اسرائيل على حد قوله ، ولا حاجة بالشعب الاسرائيلي الى رسالة من ذلك القبيل !

ولا يخفى غرض المؤلف من تقرير هذه الدعوى في كتاب واف يصطبغ بصبغة التاريخ والعلم والحكمة الالهية • فان « اليهودية » في هذا العصر تستخدم العلم والدين كما تستخدم الدعوات السياسية والاجتماعية للتذكير بحقوقها المفقودة على زعمها بين أمم العصر الحديث •• وتعينها الأمم الأوروبية قبل غيرها من أمم العالم ، لأنها تتقبل كلامها عن « التوراة » كأنه مقدمة « الاناجيل » ، وتستعين بسطوتها الدولية في تحقيق مطامعها في أرض فلسطين : موطن السيد المسيح •

ولسنا نعرض لآراء المؤلف من ناحية الاغراض السياسية التي يبديها أو يخفيها ، لأن الناحية التاريخية وحدها كافية لاحباط تلك الاغراض وابراز نصيبها الذي تستحقه من تأييد العلم والدين •

ان بعثة السيد المسيح في بني اسرائيل لمخاطبة العالم كله ـ دون بني اسرائيل ـ هي الحقيقة التي كان على المؤلف أن يهرب منها ، لو أنه أحسن النظر الى مصلحته ومصلحة قومه ، وان لم تكن لهم مصلحة فيها غير المصلحة الادبية المنزهة لوجه الحق والتاريخ •

فليس لبعثة السيد المسيح في بني اسرائيل ـ موجها دعوته الى العالم ـ معنى مفهوم واضح غير معناها الذي يدل على انتزاع أمانة الرسالة الالهية من شعب اسرائيل ، وانقضاء عهد النبوات في هؤلاء القوم ، لأنهم نقضوه وخانوا أمانة الرسالة الى بني الانسان ، منذ زمن بعيد •

ومن تقاليد هذا الشعب أنه يفخر بظهور الانبياء الكثيرين بين ظهرانيه ، وينسى أن افتقاره الى الانبياء الكثيرين معناه المفهوم الواضح أنه شعب قليل الخير عظيم الغفلة ، لا يهتدي

بالدعوة الواحدة ولا بالدعوات المتلاحقات ·· ولا يزال في نسيان بعد نسيان ، مفتقرا الى تذكير بعد تذكير ··

وكذلك وصفه أنبياؤه مرة بعد مرة بأنه « شعب غليظ الرقاب » ووصفهم القرآن الكريم كما وصفوا أنفسهم بأنهم غلف القلوب ·

وبعد عشرات الانبياء ، بل مئات الانبياء ، اذا حسبنا منهم من ليس لهم كتاب مرقوم ، يظهر السيد المسيح فيتجه بالدعوة الى العالم ولا يتجه بها الى شعب الانبياء والمرسلين كما يقولون ، فلا يعني ذلك شيئا غيره معناه المفهوم الواضح أن الرسالة العالمية أمر يعجز عنه الشعب الذي ظهر السيد المسيح فيه ، وأنهم أعرضوا عنه فأعرض عنهم بعد جهاد معهم لم يفلحوا فيه ، ولم يجد معه فلاحا غير التحول بدعوته من طريقهم الى كل طريق سواه ·

وهذا الذي حدث في التاريخ برواية الاناجيل ، واليه يشير السيد المسيح حين ضرب لهم المثل بالعرس الذي أعرض عنه المدعوون اليه ، فقال أحدهم « اني اشتريت حقلا وعلي أن أخرج فأنظره ·· وقال غيره اني اشتريت أزواجا من البقر وسأمضي لأجربها » ، فغضب السيد وقال لعبده : « اذهب عجلا الى طرقات المدينة وأزقتها وهات الي من تراه من المساكين · فعاد العبد الى سيده وقال : قد فعلت كما أمرت ولا يزال في الرحبة مكان · قال السيد : فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتليء بيتي ·· فلن يذوق عشائي أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء » ·

والدعاء الذي لم يستجبه « المدعوون » هو الدعاء الى الاله الواحد اله الخلق أجمعين ، لأن شعب اسرائيل لا يعرف هذا الاله ولا يعبده ولا يثبت على ميثاقه ، وانما كان يعبد الها يسميه اله اسرائيل ، ويحسب أنه يختاره ويميزه على عامة خلقه لغير طاعة ولا ايمان ، ولا فضيلة ولا احسان ، ولكنها وثيقة كتبها عليه منذ القدم فهو مسئول عنها ـ كما يسأل المدين عندهم ـ عن القرض ورباه !

فلم يكن أولئك « المدعوون » يذهبون في سبيل الاله الواحد الذي دعا اليه السيد المسيح عامة خلقه من المشرق والمغرب ، ولكنه كان اله « عشيرة » واحدة يسميها عشيرته وشعبه وتسميه هي ربها والاهها دون العالمين ، وحتى هذا « الاله » المحتكر لم يؤمن به شعبه المزعوم الا ليكفر به حينا بعد حين ، وفي ذلك يقول لهم النبي « أرميا » بين النذير والوعيد : « ان آباءكم قد تركوني وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها واياي تركوا ، وشريعتي لم يحفظوها ، وأنتم أسأتم في عملكم أكثر من آبائكم ، وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير » ٠

فالمؤرخ الفرنسي اليهودي ــ هارون ــ لم يكذب التاريخ حين قال ان عيسى ــ عليه السلام ــ نشأ من اسرائيل وبعث في اسرائيل ، ولكنه ينكر التاريخ في صميمه ولا يصيب مرماه من دعواه اذا ساق هذا الخبر مساق الفخر لبني قومه الاقدمين ، أو مساق الزلفى الى أمم العالم بحقوق اسرائيل عليها ٠ اذ ليس من الفخر لاسرائيل أن تلحق فيها بعثة عيسى بعثات المرسلين من قبله الى ذلك الشعب الصغير ، فان افتقار الشعب الصغير الى الدعوات المتلاحقة علامة بينة على الضلالة الدائمة والعوج الدائم والحاجة الدائمة الى التقويم والتذكير ٠

وليس في بعثة السيد المسيح في بني اسرائيل لتوجيه الدعوة الى العالم من سبب صالح للزلفى الى أمم العالم القديم أو الحديث ٠٠ لأن هذه البعثة حجة قائمة على افلاس اسرائيل في أمانة الرسالة الانسانية ، وحكم عليها من الخالق ومن الخلق بأنها لم تكن أهلا في الدين للنهوض بدعوة عالمية ، ولم تكن عبادتها غير ضرب من ضروب العصبية العنصرية على سنة البداوة في أطوار الهمجية الأولى ٠

وبعد ألفي سنة من التقلب بين العلاقات بالأمم تعود اسرائيل الى دعوة صهيون فلا تعرف لها أساسا تقيمها عليه غير تلك العصبية العنصرية ٠

علم النفس والدين الاسلامي

★★★

يسمى علم النفس أحيانا بعلم الانسان العصري ، أو علم القرن العشرين وينسب معه الى هـذا القرن علمـان آخران كبيران : هما علم الكيمياء ، وعلم الاقتصاد السياسي ، وكلها مما يتسم بين العلوم الكثيرة بقرب الصلة بينه وبين هذا القرن العشرين ٠

ولم تنسب هذه العلوم اليه لأنها نشأت فيه ولا لأنها أحدث العلوم التي يتعلمها أبناؤه ، ولكنه يتميز بها حيث لا يتميز بعلم غيرها لأنها اختلطت فيه بمعيشة أهله أفرادا وجماعات ، وكادت تدخل بآثارها في كل بيت ، وكل مجال ، وكل مثابة عامة يثوب اليها الناس ، واحتاج اليها كل مشتغل بعلم من العلوم الاخرى لفهم علمه أو لتطبيقه أو لتدعيم سنده ، فأصبح كل منها خليقا أن يسمى علم العلوم على نحو من الانحاء ٠

فالكيمياء هي علم الصناعات التي تستخرج المنافع من ثمرات الطبيعة ، وتحكي تلك الثمرات أحيانا بمـا يشبههـا ويغني غناءها ، وتجعل من الشجر لباسا يغني غناء النسيج من ديدان القز ، ومن الجماد لباسا يغني غناء قشور الشجر ، وتصنع مثل هذا الصنيع فيما يحتاج اليه من الغـذاء والدواء والمسكـن والمركب ، بل تصنعه في كل جزء من أجزاء المادة : من شوامخ الاطواد الى الذرة التي تعرف بالحساب ولا تتمثل للعيان ٠

وعلم الاقتصاد السياسي في هذا العصر هو فيصل(١) المباديء والقوانين الاجتماعيـة ، التي ترتبط بهـا حقوق الافـراد والطبقات ومعاملات الأمم ، وعلاقات الدول ودساتير الاسواق ، ومطالب الرعية وسلطان الراعي الذي يتولى تصريف مواردها

---

(١) فيصل : السيف القاطع ٠ والقضاء بين الحق والباطل ٠

ومصادرها ، وما من قضية من قضايا الجماعة البشرية في العصر الحاضر تنفصل بحذافيرها(١)عن مباديء هذا العلم وقوانينه في جملتها وتفصيلها ، وان اختلفت الآراء حول تلك المباديء ، وكثر التعديل والتبديل في تلك القوانين ·

أما « علم النفس » فهو علم الانسان في عالمه الداخلي كله ، وهو ألصق بالانسان ، وأحرى بعنايته ، وأهدى الى أسباب سعادته وشقائه — من ذلك العالم الخارجي الاكبر الذي يتداوله ذانك العلمان الآخران : علم الاقتصاد السياسي، وعلم الكيمياء·

تشعبت فروعه وتعمقت جذوره حتى أوشكت أن تسع كل ما وسعته نفس الانسان من معرفة وعاطفة ، ومن حق ووهم ، ومن واقع وخيال ·

وقد كان في نشأته فرعا لعلم الطب أو لعلم الاخلاق ، فأصبحت فروعه اليوم تستوعب من جوانب البحث فنونا لا يلم الطب بها ، ولا تحصرها دراسة الاخلاق : بين علم النفس للفرد، وعلم النفس للنوع بأسره ، وعلم النفس للجماعة أو للطبقة ، وعلم النفس للصناعة ، وعلم النفس للتجارة ، وعلم النفس للعلاج ، أو للتعليم ، أو للاصلاح ، أو للجريمة ، أو للاختبار الذي يتصل بشتى الاعمال ومختلف المطالب الانسانية ، بل مطالب الحيوان في جملة شئونه التي ينتفع بها للمعيشة ، أو ينتفع بها لتحقيق المعرفة وتصحيح تاريخ الانسان ، قبل عصور التاريخ ·

واتصلت فروع هذا العلم بعلوم أخرى كانت لها أبوابها المستقلة قبل أن يعرف علم النفس باسمه الحديث ، ومنها علم الانسان أو (الانتروبولوجي) ، وعلم الاجناس البشرية أو (الاثنولوجي) ، وعلم الاحافير أو (الاركيولوجي) ، وعلم الاخلاق ، وعلم المقارنة بين الاديان ·

---

(١) بحذافيره : جمع حذفور وهو الجانب والجمع الكثير وأخذه بحذافيره أي بأسره ·

ولهذا صح أن يقال فيه انه « علم الانسان العصري » على الاطلاق ، لأنه حول نظره الى داخل نفسه ، وفتح أمامه في هذه الناحية بابا أوسع من أبواب العوالم التي يشهدها بعينيه ، وليس لهذه العوالم وجود بالنسبة الى الانسان ما لم يكن لها وجودها الباطن في علمه أو قرارة نفسه ، والا فهي والمجهول عنده سواء ·

على أن العلمين الآخرين اللذين ينسبان الى القرن العشرين يقتربان يوما بعد يوم الى أعماق النفس الانسانية ، ويطرقانها دراكا تباعا من عدة أبواب ·

فعلم الكيمياء يعرض المادة كلها في الصورة التي تعلم الماديين دروسا من التواضع جهلوها قبل جيل ، لأنها تسري بالرعشة الى تلك الايدي التي كانت تدق على الجسد الصلب لتقول في زهو الثقة والخيلاء : « هذه هي الحقيقة الملموسة المحسوسة ، وكل ما عداها مما وراء الحجب باطل موهوم » ·

فاليد التي كانت تدق هذه الدقة على الخشبة أو الحديدة أو الصخرة تتراجع الى جنب صاحبها ، وترجع بالبصر معها ، لتنظر الى المادة في حقيقتها : فاذا هي حقيقة تلمحها العين كما تلمح حقائق النفس الخفية ، ولا تدركها وراء الشعاع الخاطف الا كما يدرك الفضاء : أجسام من عناصر وعناصر من ذرات ، وذرات من شعاع ، وشعاع من فضاء يرجع الى فضاء ، وحقيقة بعد ذلك من حقائق النفس التي تعود بنا الى بواطنها وبواطن كل شيء في هذا الوجود ، أيسر ما نعرفه منه هو هذا الذي يدق باليدين وتصدمه القدمان ، أو يصدم القدمين ·

واذا كان هذا هو شوط الكيمياء فالى أين ينتهي بنا الشوط مع علم الاقتصاد ، علم الاوراق المعدودة بالأرقام ، أو علم المسكوكات ذوات الرنين واللمعان ؟

كل قيمة في هذا العلم المحسوب المعدود فانما يقومها معيار واحد : هو معيار « الثقة النفسية » ·· وكل قوة تكسبها هذه الثقة أو كل ضعف يعتريها فمرجعها في النهاية اختلاف بين نفوس بشرية في عقيدة أو رأي أو فهم لمعنى الحرية أو معنى النظام ، ومهما يكن من حساب المادة في هذا الاختلاف فهو حساب

أصفار ما لم تسجله النفوس البشرية ـ بعد ذلك ، أو قبل ذلك ـ بأرقام الرضى والقبول ، أو أرقام النفرة أو الاباء ·

فعلم الاجسام ـ وهو الكيمياء ، وعلم المال ـ وهو الاقتصاد، كلاهما في القرن العشرين قريب من علم النفس في تفريعاته الكثيرة ، وهو الى عالم النفس البشرية أقرب منه الى عالم المادة الصماء ، لا جرم يدخل كلاهما في نطاق موضوعاته من باب رحيب أو من أبواب عدة ، فيصبح علم الخلية الحية مقترنا بعلم الذرة في الكيمياء التي سميت بكيمياء الحياة ، وتصبح ادارة المرافق العامة وتدبير الثروات الاقتصادية دراسة نفسية من ألزم الدراسات الضرورية لنفسيات الجماهير ، أو نفسيات الآحاد ··

لكننا تشير اليهما في هذا الحديث بمقدار هذه الصلة التي تؤول بهما من العالم الخارجي الى العالم الاكبر : عالم السريرة الانسانية ، فان لهذه السريرة أعماقا هي في حياة الانسان أبعد أمدا وأهدى رشدا من أعماق الارض أو أعماق الفضاء ·

وعلم النفس كله موكل بالأعماق الخفية ·

علم النفس كله موكل بالبواطن التي تفسر لنا أعمالنا الظاهرة ، كلما احتاجت الى تفسير صحيح فلم نجد تفسيرها الصحيح في الظواهر المحسوسة ·

ولا يشذ عن مذاهب علم النفس الكثيرة مذهب «السلوكيين» الاخير وهم أقرب الباحثين النفسيين الى الظواهر والمحسوسات·

فهؤلاء السلوكيون معروفون بمذهبهم المشهور في تفسير السلوك النفساني بحركات الاعصاب وخوالج الدماغ وعوارض الوظائف الجسدية على التعميم ، ومن أدواتهم لتسجيل هذه العوارض أجهزة كهربية ترسم الهزات الباطنية بالأدمغة أو في أعصاب الجوارح وعضلات الايدي والاقدام ، وربما اكتفى بعضهم في تفسير السلوك الانساني بمجموعة من رسوم هذه التسجيلات تصف لهم حركات الجسم من رأسه الى أطرافه ولا يزيدون عليها ، ولكن هؤلاء السلوكيين يوغلون في أسرار الحياة الباطنة كلما حاولوا الابتعاد منها ، وآخر ما ثبت من تجاربهم في مدرسة « بافلوف » امامهم الكبير أن الوظائف

الجسدية كلها مرتبطة بالارادة ، وأن الارادة مرتبطة بوعي الدماغ ما بطن منها وما ظهر • خلافا لاقوال الاطباء قبل القرن العشرين ، اذ كانوا يقسمون الوظائف الى ارادية « سمبتاوية » وغير ارادية لا تتأثر بتوجيه الدماغ • فجاء « بافلوف » وتلاميذه فأثبتوا أن وعي الدماغ — باطنا وظاهرا — يوجه الاعضاء جميعا ، ويبلغ من أثره أن يؤجل فعل السموم القاتلة الى أن يتنبه فيجري الأثر المألوف الى العروق والاعصاب في مجراه •

ومهما يكن من خفاء الوعي في الدماغ فالسلوكيون الذين يعولون عليه هم أقرب الباحثين في علم النفس الى الظواهر الحسية ، كما تقدم •

وأعمق منهم في هذه المباحث أناس يوغلون في القدم عند البحث عن أصول الاعمال الانسانية فيرجعون بها الى تجارب النوع البشري قبل التاريخ ، ويقتصد بعضهم فيرجع الى موروثات الانسان في الأسرة من قبل ميلاده ، ويرجع بها غيرهم الى تكوينه في طفولته ولا يستغني عن مراجعة تكوين الأسرة من أبويه واخوتهم ، وكلهم — من أجل هذا — يضرب في أكناف ليل غامض بعيد الآماد مترامي الاطراف ، يتهدى في أطوائه بالظن والتخمين مرات كلما تهدى فيه مرة بالتحقيق والتقدير المزعوم بالبراهين •

ومن ثم يقول الكثيرون ان تسمية هذه المباحث « بالعلم » فيها ترخص(١) كثير،وانها أولى أن تسمى بالدراسات أو المباحث أو الفروض ، فان سميت بالعلم تيسيرا للاشارة اليها فلتكن علما اليوم كما كان الفلك علما من قبل ، على اتساعه للكثير من الخرافات والاوهام ، ثم تصدق عليه التسمية جيلا بعد جيل •

وأولى النظريات في مذاهب علم النفس بالتحفظ والأناة : تلك النظريات التي تعرض للعلل النفسية ، أو لما يسمونه بالعقد النفسية ويضعون بها القواعد للتمييز بين الانسان الطبيعي ، والانسان غير الطبيعي ، أو بين السليم والمعتل ، أو بين القويم والمنحرف على السواء •

---

(١) ترخص : تساهل .

فان كثيرا من هذه الحالات التي يظن بهـا المخالفـة لسواء الخلقة انما هي حالات طبيعية يبحث عن أسبابها في تعدد ألوان الطبيعة الانسانية ، ولا يدعو الى وصفها بالانحراف الا الخطأ في اعتبار الطبيعة السوية نموذجا واحدا على حالة واحدة وكل ما خالف هذا النموذج فهو منحرف على السواء ·

هذا خطأ لا شك فيه ، فاننا اذا نظرنا في عالم الأجسـاد المحسوسة ، فضلا عن عالم النفوس الخفية ، لم نستطع أن نجد مثالا واحدا للجسد الصحيح على وتيرة واحدة في الطول والوزن والتركيب والتناسب واللون والصورة ، بحيث تكون الاجسام الصحيحة كلها تكرارا له بغير اختلاف ، ويكون كل ما عداها الى اختلاف أو انحراف ·

سمعت مدرسا من المولعين بالمباحث النفسية يقول عن تلميذ يميل الى اللون البرتقالي من بين الالوان ، ان هذا التلميـذ مصاب بعقدة نفسية ·

فسألته : واذا لم يكن مصابا بعقدة نفسية فأي الألوان كان يختار ؟!

وعاد المدرس الى نفسه يسألها : فلم يجد لونا يختاره فـلا يتجه اليه مثل هذا الظن ، فلا اختيار الاخضر ، ولا الازرق ، ولا الاحمر ، ولا الاصفر ، ولا غيرها من الالوان الخالصة أو الممتزجة يصح أن يكون نموذجا واحدا للذوق السليم لا تجوز المخالفة فيه ·

وكل ما استطاع المدرس المولع بعلم النفس أن يقوله : ان الطفل السليم تتساوى عنده جميع الالوان ·· وهذا أيضا خطأ لا شك فيه ، لأن الالوان لا تختلف لتكون سواء في جميع الاحوال عند جميع الناس ·

وأصح المذاهب النفسية في هذا الباب هو مذهب « يونج » عن النماذج البشرية ، فليس الانسان المثالي نموذجا واحدا ، ولا يمكن أن يكون نموذجا واحدا مع هذا التركيب الذي يقع فيه الاختلاف لا محالة ، لاختلاف العوامل الطبيعية الكثيرة التي لا توافقها ·

ويونغ يقسم النوع البشري الى قسمين كبيرين ، وهما قسم المنطوين أو الانطوائيين الذين يحتجزون في معاملاتهم لغيرهم ، وقسم المتكشفين أو الانبساطيين الذين يتبسطون مع الناس في عواطفهم وعلاقاتهم وأحاديثهم ، ولا يشعرون بالحواجز الكثيرة بينهم وبين الآخرين .

وكل قسم من هذين القسمين له نماذجه المختلفة على حسب الطابع الغالب على صاحبه ، من طوابع التفكير والتأمل ، أو طوابع العمل والحركة ، أو طوابع العاطفة والوجدان ، أو طوابع الحس والشعور .

فليس هناك نموذج بشري واحد يقاس اليه العمل الصحيح .

وليس هناك انسان يكون عمله قياسا يقتدي به جميع الناس ، وتقاس اليه الصحة والمرض في جميع ما يعملون .

وانما العمل نفسه هو مقياس السواء والانحراف عند الموازنة بين أسبابه ونتائجه ، أو بين دواعيه وغاياته .

فالرجل الذي يخاف ركوب البحر سليم اذا كان خوفه على قدر الخطر الذي يهدده منه ، يخافه وهو في الزورق الصغير أشد من خوفه وهو السفينة الكبيرة ، ويخافه وهو هائج مضطرب أشد من خوفه وهو هادىء مستقر ، ويخافه بحسابه الذي لا بد منه فلا يخافه كأنما كل راكب عليه يغرق لا محالة ، ولا يخافه كأنما هو على يقين من نجاة كل راكب عليه .

أما اذا كان خوفه للبحر غير مقترن بتقدير من هذه التقديرات ، أو كان خوفه للبحر حين يذكره ، وان لم ينظر اليه ، أو كان خوفه كخوف ابن الرومي حين قال :

وأيسر اشفاقي من الماء أنني أمر به في الكوز مر المجانب

فتلك هي علامة انحراف ، وذلك هو عوج الطبع الذي لا يستقيم بصاحبه على اعتدال .

ويحب الانسان المال ليقضي به مصالحه ومطالب حياته ، فاذا كان حبه اياه لغير مصلحة ولا مطلب ، بل اذا كان يجوع وعنده المال فلا يأكل ، ويعرى وعنده المال فلا يشتري الكساء ، ويمرض وعنده المال فيضن به على ثمن الدواء ، فذلك أيضا هو الانحراف والعوج عن الطبع القويم !

ولا ينتهي التحفظ عند هذا الحد من الموازنة بين أسباب العمل ونتائجه ، أو بين دواعيه وغاياته ٠

بل ينبغي أن نتأنى لنحقق سبب العمل في نفس العامل ، أو نحقق أنه يرجع الى طبعه ، ولا يرجع الى ضغط العرف الغالب واملاء الجماعة التي يعيش فيها على عقله ومشيئته ٠

صاحب حقل في حراسة حقله ينقض عليه منسر(١) من مناسر اللصوص ليغتصب ثمراته ويقضي على حياته اذا حال بينه وبين مأربه ، فيحمل الرجل سلاحه ويصيب به من يخشى أن يصاب على يديه ٠ لأنه يعلم أنه مقتول مغصوب ان لم يقتل الغاصب الباغي عليه ٠

هذا حادث قتل من حوادث الحراسة المشروعة لا غبار على طبيعة صاحبه ، ولا محل للبحث فيها عن موضع العوج والانحراف من سواء الفطرة وبراءة الطوية ٠

ولكن حوادث الحراسة قد تروي لنا من وقائعها العديدة نبأ غير هذا النبأ ، ومما سمعناه من هذه الانباء ــ وربما سمعتم مثله ــ ان عابر سبيل مال على حقل ناضج الثمرات فاقتلع منه ثمرة ليأكلها ولعله لم يكن لصا يستبيح السرقة ، بل أخذ تلك الثمرة لطعامه في ساعة جوعه وعجزه واطمئنانه الى غفلة الحارس عن صنيعته ، فيدركه الحارس فيأمره بأن يعيد الثمرة الى موضعها من الشجرة التي اقتلعها منها ، ويحس الرجل هذا العنت من صاحب الحقل ، مع ما به من مرارة الجوع والفاقة ، فيتحداه بالرفض ويتلقى منه الوعيد بمثله ، فتقع الواقعة وتنتهي الى مقتل الرجل في عراك لا يدرى من البادىء فيه بالبغي على حياة غريمه ٠

فهذا ــ أيضا ــ حادث من حوادث الحراسة ، جاوز الامر فيه قدره وخرج عن سوائه ، فليس القتل هنا مما يقتضيه رد الثمرة المنزوعة ولا حراسة الثمرات الباقية ، ولكنه نزعة من نزعات الشر التي تدخل في حساب علم النفس وتشغل الباحثين فيه عن أسرار الطبائع وأسباب العدوان والجريمة ٠

ولكننا نخطىء اذا انتهينا بالنظر الى هذه النهاية ولم نجاوزها الى ما وراءها ، فالقتل هنا جريمة لا تناسب بين

(١) ينسر : بالكسر هو بمنزلة المنقار من جوارح الطير ٠

بواعثها وغاياتها ، وعمل نقيسه بمقياس الاعمال الذي ذكرناه آنفا فلا يخفى علينا ما فيه من علامات الخلل والانحراف ·

ولكن من المسئول عنه في هذا الحادث ؟

ان كان شطط الحارس من فعله ومن وحي طبيعته وعقله فهو مختل الطبيعة لا مراء ، وعلته علة نفسية ، أو عقدة نفسية، مما يصدر عن طبيعة الفرد ويحاسب عليه وحده ·

الا أن العيب هنا قد يسري اليه من ضغط الجماعة ولا ينحصر في دخيلة نفسه بمعزل عن سائر نظرائه بين أهله وعشيرته ·

وقد يكون من جماعة توحي اليه أن صاحب الحقل الذي تؤخذ ثمرته على مشهد منه ليس برجل ، وأنه مستباح الحمى ، مبذول العرض ، مستحق للمذلة ممن يبغي عليه في عقر داره ·

وقد يكون هذا الوحي الاجتماعي أقوى وأفعل في نفسه من زواجر الشريعة وضوابط العقل والروية · فلا يكون مقياس العمل الطائش هنا تناسبا بين خسارة الثمرة وحمايتها · بل تكون الخسارة المحذورة هنا خسارة السمعة وضياع الحوزة في تلك الثمرة وما هو أكبر منها ، ويكون العمل مساويا للباعث عليه والغاية منه في هذه الحالة ، ولكن العقدة النفسية فيه هي عقدة الجماعة التي غلبتها بقايا الغريزة على آداب الحضارة وأوامر العرف والشريعة ·

والباحثون في « نفسيات » الجماعة يوغلون في القدم الى ما وراء هذه الأدوار الاجتماعية التي نعهدها في الحضارات المختلفة ·

فالنوع البشري كله قد مرت عليه آلوف السنين قبل عصور الشريعة ، وعصور النظام والحضارة ، وقد سكنت في قرارة الضمير منه مخاوف لا يحصى لها عدد ، ولا يسبر لها غور ، ولا تؤمن لها نكسة : مخاوف من السباع العادية ، ومخاوف من أرواح الظلام وشياطين المكر والغيلة ، ومخاوف من البروق والرعود ومن الاعاصير والسيول ، ومخاوف من الحر والبرد ومن العري والجوع ومن المرض والوجع ومن السحر والخديعة ،

ومخاوف من أبناء نوعه الغرباء عنه ومن أبناء جيرته وأقرب الناس اليه ٠

وتنقضي على ذلك حقبة بعد حقبة ، ودهر بعد دهر ، وألوف السنين بعد ألوف السنين ، ثم تأتي الحضارة بقوانينها وآدابها فتمحو من هذه المخاوف ظاهرها المكشوف ، وتقصر عما دونه في قرارة النفس من فزع مجهول ، وحذر كامن ، ووهم دخيل ، وتتفاوت الحصتان في الجماعات البشرية كما تتفاوتان في قرارة كل نفس من نفوس أبنائها ونعني بهاتين الحصتين : حصة الظاهر الذي يدركه عمل الحضارة ، وحصة الباطن الموغل في القدم من وراء علم الجماعات ومن وراء الحضارات والشرائع والقوانين ٠

وذلك أخطر ما فيه ٠

أخطر ما فيه أنه فزع في الظلام المطبق ، لا يدري له سبب ، ولا يعرف الخائف المذعور أنه مستقر هناك ٠٠ حتى يعود ثانية من الظلام مع كل فزع جديد الى ضوء النهار ٠

فالنوع البشري كله يحمل ماضيه المفزع في أطواء غرائزه المكنونة ، وأعماق ضمائره الخفية ، وتأتي أطوار الحضارة فتغشى تلك الاعماق بطبقة من الصقل والسكينة تسترها ما دامت على هينة من أمرها في عهود الدعة والطمأنينة ، فاذا عنفت بها الاحداث في عهد من عهود القلق والهياج ، وقعت النكسة ووثبت الهمجية من أغوارها فاندفع المتحضرون كما يندفع الهمج المتبربرون ، بل كما تندفع سباع الوحش والطير الى كل نكراء من قبائح الفتك ورذائل السوء ، وصنع ابن القرن العشرين ما كان يصنعه أبناء الكهوف والغيران قبل عشرات الألوف من السنين ، وما حديث المذابح والفضائح في ثورات هذا الجيل وحروبه بالبعيد ٠

ففي هذه الثورات والحروب يجاوز عنف الانسان حدود الباعث عليه والغاية منه ، ويتلظى (١) الضمير الانساني بأجيج (٢) من

(١) يتلظى : تلظت النار : توقدت وتلهبت .
(٢) : اجيج : اجت النار : تلهبت وسمع صوت لهيبها .

المقت والضغينة ، وبراكين من الحزازة(١) والعصبية ،لا تفسرها الاسباب الحاضرة التي تجري على الألسنة ، وانما تفسرهـا الغرائز المكتومة التي لا يرتفع خبرها الى هواجس الذهن فضلا عن كلمات اللسان ٠

وتلك هي « العقدة النفسية » الكبرى في طوايا النـوع البشري من قديمه الى حديثه ٠

وعلامة العقدة النفسية ــ كما تقدم ــ أن تتباعد المسافة بين بواعث العمل وغاياته ، وبين دواعيه ومسوغاته ، وليس أبعد من ذلك في أعمال العنف التي تتمخض عنها العداوة بين الاقربين في الثورات والعداوة بين الغرباء في الحروب ٠

ولهذا ينقص معنا عدد العقد النفسية كثيرا كلما رجعنا الى تلك العقدة النفسية الكبرى التي كمنت في أعمـاق النـوع البشري كله ، فان أكثر العقد في نفوس الافراد انما هي نكسة يسهل ظهورها أو يصعب مع الزمن على حسب الظروف ٠ وانما يسهل ظهور تلك النكسـة كلمـا رقت على الطبائـع قشـور الحضارة فلم تتغلغل الى الاعماق ٠

ان العقدة النفسية الكبرى في أعماق النوع البشري قـد تتلخص في كلمتين وهما : المخاوف المجهولة ٠

وان الشفاء من تلك العقدة يتلخص في كلمتين أخريين وهما : الثقة البصيرة ٠

والثقة البصيرة في كلمة واحدة هي « الايمان » لأنه أمان وائتمان ٠

أو نعيد القول بعبارة أخرى فنقول ان الايمان هو الدين القويم ٠

ولقد يعود الامان من تلك المخاوف المكبوتة الى عامل السلطان في يد القبيلة ، أو يد العشيرة ، أو يد الأولياء على الجماعات والشعوب ٠

ولكن السلطان الانساني قد يلوح لبني الانسان كأنه كبت فوق كبت ، وتخويف فوق تخويف ، وقد يتمرد عليه المتمرد كلما خلا الى هواه وابتعد به المكان من الرقابة ، وانما يأتي الايمان ــ أو يأتي الامان ــ من سلطان فوق سلطان الانسان ،

(١) الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه .

يدين به الخاضع له لأنه مطمئن اليه ، سابق لخوف العقاب والخضوع للسلطان ٠

والذي نحسه ونتبينه من تاريخ هذا النوع البشري أن تربيته التي لا تربية له أصلح منها وأجدى في رياضة تلك الغرائز الضارية انما هي تربية الدين ، وانما تترقى به تلك التربية كلما ترقت في طريق الثقة البصيرة ، وهي هي طريق الايمان ٠

من هذه الوجهة تتصل دراسات علم النفس بالدين كافة في نفس الانسان الفرد ونفس الجماعة العامة ، ولا سيما الدين الذي تهيأت له النفوس بعد التقدم في معارج الحضارة ، فان هذا الدين يتلقى بالنوع الانساني في ابان حاجته اليه واستعداده لتلقيه ، ويلتقي به ليطب لدائه الاكبر ، داء المخاوف المبهمة : يطب له بدواء الثقة واليقين البصير ٠

ونخص الدين الاسلامي في هذا المقام بتوكيد العلاقة بينه وبين الدراسات النفسية وما تهتدي اليه مذاهبها ومدارسها من ضروب الوقاية والرياضة ، لأننا ــ مع الايمان بالاسلام ــ نرى من الوجهة العلمية أن العقيدة هي التي تعصم الانسان من أكبر دواعي المرض النفساني ، وهو باتفاق المذاهب يرجع الى علة واحدة محيطة بجميع العلل ، وهي علة الانقسام الداخلي ، أو علة التصدع التي توزع النفس شيعا بين النقائض والاضداد ، وتفقدها الوسيلة التي ترأب (١) بها صدوعها وتعيد بها الوئام والألفة بين مقاصدها ونزعاتها ٠

فليس أخطر على الانسان الفرد من توزع الفكر والنية بين النقائض المختلفة ، ومن هذا التوزع الأليم ينساق الفكر الى بلباله (٢) المريض ، ويقع في الداء المعروف بداء الفصام ، أو انقسام الشخصية ٠

ويقترن بهذا الخطر ، وقد يكون من أسبابه ، داء الحيرة بين حياة الروح وحياة الجسد ، وبين تغليب حياة الروح بالجور على المتعة الحسية ، وتغليب حياة الجسد بالاسترسال مع الشهوات ، والاقبال على اللذات الحيوانية دون غيرها ٠ ويتحقق الخطر على الطبع السليم عند الوقوف في مفترق الطريق بين

(١) ترأب : رأب الصدع أصلحه ٠

(٢) بلباله : بفتح الباء : شدة الهم والوسواس في الصدر ، وحديث النفس

النزعتين المتدابرتين كأنهما عدوان متقاتلان ، ينتصر أحدهما بمقدار ما يصيب الآخر من الخذلان والهزيمة .

وأجمع من هذين الخطرين خطر انقسام الوجود كله بين عالم يسمى « عالم الملكوت » ، وعالم يسمى « عالم الشيطان » أو « عالم الهاوية » ، فان صراع النفس بين هذين العالمين يقضي على الانسان أن يكون ملكا سماويا ، أو شيطانا مريدا من شياطين الهاوية ، ويجعل الضمير ساحة حرب لا تهدأ بين عدوين لا يتفقان ولا يكفان عن العراك ، واذا اتفقا فانما هي خلسة في انتظار الوثبة بعد حين .

ويلحق بهذه الاخطار العامة خطر الانقسام في النوع الانساني بين سلالة يختارها الله ، وسلالة ينبذها ولا يتقبل منها ما يتقبله من أخواتها في الانسانية . وقد ينقسم النوع الانساني مثل هذا الانقسام بين قسم ملعون بالوراثة وقسم مغفور له بالكفارة من غير عمله .

وكل أولئك باب من أبواب الفتنة ، مصيره الى الفصام في نفس الفرد ، والفصام في نفس الجماعة ، أو الفصام في بديهة النوع كله ، كما تستقر في العصبيات الموزعة بين شعوبه وأجياله ، وتلك هي فتنة الذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، والظالمين الذين قال لنا الكتاب الحكيم انهم في شقاق بعيد .

وفي الاسلام عصمة من كل داء من أدواء هذا الفصام الذي يمزق طوية الفرد ، أو يمزق صورة الوجود كله بين خصومات الفكر وخصومات العقيدة وخصومات المثل العليا في كل قبلة تتجه اليها .

فليس في الاسلام عداء بين الروح والجسد ، وليس للجسد فيه محنة تمتحنه بالصراع بين الطبقات من متعة الروح أو متعة الجسد :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

« يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين » .

وليس في الوجود عالم لله وعالم للشيطان أو عالم للسماء وعالم للهاوية :

« بل لله الأمر جميعا » .

« ولله المشرق والمغرب » .

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا » .

« ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » .

ومن فاتحة الكتاب يعلم المسلم أن الله رب العالمين ، ويعلم من كل ما ورد في كتابه عن هذا النوع الانساني أنه أسرة واحدة لا فضل فيها لأحد على أحد بسلالته أو بنسبه أو بلونه الا بالتقوى :

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ان الله عليم خبير » .

« وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » .

فليس في العقيدة الاسلامية انسان متصدع يتوزع بين نوازع الروح ونوازع الجسد ، وليس فيه ضمير متصدع يتوزع بين الدنيا والآخرة ، وليس فيه عالم متصدع يتوزع بين السماء والهاوية ، ولا خليقة متصدعة تتوزع بين اللعنة الابدية أو المغفرة الابدية .

وفي عقيدته ما يعصم من كل فصام ، وليس في عقيدته منفذ لفصام تتسرب منه أدواء النفوس ، وكل أدواء النفوس فانما يرجع الى الشقاق البعيد في ضمائر مرضى القلوب .

وفي اسم الاسلام دليل على ما في العقيدة الاسلامية من دعائم الثقة واليقين .

فالاسلام تسليم وسلام ، ومن تمكن في قلبه فهو أمان وايمان ، وقد كان الاعراب مثلا للانسان في جاهليته الأولى وهو يخطو خطواته الطوال من مخاوف الجاهلية الى يقين البصيرة ، وفي هذا المعنى يقول الكتاب الكريم : « قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » .

وما أوضح الفرق بين هذه المناهج الثلاثة في تاريخ الانسان . جاهلية ، وتسليم ، وايمان .

وصفوة القول في هذه الصلة بين عالم النفس والدين الاسلامي أن دراسات العلماء تجمع الأدواء النفسية كلها في داء واحد ، هو داء الضمير المدخول ، أو الضمير المنقسم على نفسه، وانها تجمع الطب النفساني كله في دواء واحد ، هو دواء اليقين والايمان ، وذلك دواء عند الدين وليس منه عند العلم غير القليل ، لأن العلم سبيل ما يعرف ولا حاجة به الى ثقة وتسليم ، وانما يؤمن الانسان ليعرف كيف يثق وكيف يبصر موئل الأمان ، ثم يركن اليه ركون العارف الآمن أو ركون الاسلام والتسليم .

في هذا المكان (١) الذي يتسم باسم الاستاذ الامام ، يحضرني قوله وهو خارج من بيت الفيلسوف الانجليزي « هربرت سبنسر » ، وقد سمع منه نعيه على الأوروبيين أن الحق عندهم للقوة في هذا الزمن .

قال الاستاذ الامام رضي الله عنه : « هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيرا مما يفيد في راحة الانسان .. أعجزهم أن يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها عليه حتى يعرفها ويعوذ اليها .. هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كانت من الحديد اللامع المضيء أفلا يتيسر لهم أن يجلوا ذلك الصدأ الذي غشى الفطرة الانسانية ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود اليها لمعانها الروحاني ؟

حار الفيلسوف في أوروبا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ في الرجوع الى الدين : « الدين هو الذي كشف الطبيعة الانسانية وعرفها الى أربابها في كل زمان ، لكنهم يعودون فيجهلونها .. » .

صدقت هذه النفس الزكية بما ألهمت من هداية العلم ومن وحي العقيدة الالهية ، فاذا صدئت نفس الانسان بغواشي الاهواء والشكوك فلا جلاء لها غير ثقة الايمان ، ولا ايمان أسلم لها من ايمان الاسلام » .

---

(١) اعدت هذه المحاضرة لتلقى في قاعة الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده بالازهر الشريف .

العلوم الطبيعية ومسائل العقيدة

في أي شيء من أمور العقل والمعرفة نرجع الى العالم الطبيعي أو الى العلماء المشتغلين بمباحث المعرفة التي اشتهر باسم العلوم الطبيعية ؟

لو سئل هذا السؤال في أوائل القرن الثامن عشر لكان جوابه السريع : في كل شيء !

وقد كان هذا الجواب السريع هو الجواب المعقول في ذلك الزمن ، لأن العالم الطبيعي حل يومئذ محل عالم اللاهوت وعالم المنطق ، وكان اللاهوتيون والمنطقيون يشتغلون بكل بحث ويجيبون عن كل سؤال ، ثم ظهرت أوائل العلم التجريبي فعرف الناس منها شوائب الخرافات التي أحاطت بأوهام اللاهوتيين في القرون الوسطى ، وعرفوا من التجربة كذلك ، أن القضايا المنطقية لا تغني عن تحقيق الفكرة باستقراء الواقع ، فانتقلت وظيفة اللاهوتيين والمنطقيين جميعا الى العلماء التجريبيين ، وأصبح العالم الطبيعي هو المرجع الاول والاخير لكل باحث عن أمر من أمور العقل والمعرفة ، لأنه لا علم بغير تجربة ، ولا تجربة عند أحد غير أصحاب المعامل ، ولا معامل عند أحد غير أصحاب الكيمياء والفيزياء ، وأصحاب المجاهر والمراصد ، من الفلكيين والرياضيين ، الذين يقرنون مباحث الضوء وعناصر المادة بمباحث الكواكب والفضاء .

لا تسأل أحدا غير العالم الطبيعي عن فكرة أو عقيدة أو رأي في الاخلاق والشرائع والقوانين ، فلا علم عند أولئك الذين كانوا يحتكرون علوم الدين والدنيا منذ أيام القرون الوسطى ، ولا حدود للعلم الطبيعي الذي حل بعدهم في محل معرفتهم المطلقة بغير حدود .

ومضى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فظهرت الحدود التي لم تكن ظاهرة ولا مقدورة، ولا تزال تظهر مع اتساع المعرفة في كل سبيل •

وظهرت هذه الحدود من جانبين لا من جانب واحد : جانب العلم الطبيعي ، وجانب العلماء الطبيعيين •

فمن جانب العلم الطبيعي ظهرت الحقيقة « العلمية » التي لا شك فيها : وهي أن العلوم الطبيعية كلها وصفية تقف عند تسجيل الوقائع والتجارب كما تتمثل لها ، وليس من شأنها ولا في قدرتها أن تنفذ الى حقائق الاشياء وراء أعراضها وظواهرها ، وكل ما جاوز هذه الاعراض والظواهر فهو فروض كفروض الفلاسفة النظريين أو فروض المنطقيين الأولين •

أما حدود العلماء الطبيعيين فقد تبين منها بعد حين ما كان ينبغي أن يتبين لأول وهلة :

تبين منها أن عقول العلماء الطبيعيين تتفاوت من غاية الضيق الى غاية السعة ، فليست هذه العقول سواء في فهم الحقائق العلمية الطبيعية نفسها ولا في الحكم عليها واستخلاص النتائج منها ، وليس الرأي الذي يقول به العالم الطبيعي هو الاخير حتما في زمانه وفي حدود علمه ، لأن عالما طبيعيا آخر قد يكون أقدر منه عقلا وأوفر منه علما وأوسع منه تجربة ، فلا يقره على رأيه ولا ينتهي الى نتيجته •

وتبين منها أيضا ما كان ينبغي أن يتبين من بداءة الطريق ، وهو اختلاف المزايا العقلية بين المشتغلين بدراسات المعرفة على عمومها •

فليست كفايات العقول البشرية محصورة في كفاية التجربة الطبيعية ، لأن العالم الطبيعي قد ينتهي الى الغاية من القدرة على صدق الملاحظة ودقة التجربة وأمانة التسجيل والاستقصاء وحسن الاستنتاج من الوقائع والمقدمات التي بين يديه ، وهي الصفات التي يتحقق بها صلاحه للاشتغال بتجارب العلوم الكيميائية والفيزيائية والفلكية وما يتبعها ، ولكنه يبقى بعد

ذلك دون الغاية من ملكة التصور وملكة النظر أو ملكة «الرؤيا» التي تتقدم وراء الواقع الى أمد بعيد ، ولا بد من التقدم وراء الواقع في كل حال لتحقيق الغاية من الواقع الى أقصى حدودها ، فضلا عن الخوض في مجاهل الفرض والخيال ٠

ولقد كان أناس من العلماء الطبيعيين يقررون أن طيران جسم أثقل من الهواء مستحيل ، وظلوا على هذا « القرار » الى أوائل القرن العشرين ، وكانوا يعتمدون في « قرارهم » هذا على العلم الطبيعي كما فهموه ، وهم مخطئون في فهم العلم الطبيعي بلا خلاف ، فضلا عن خطأ التصور وخطأ « الرؤيا » التي لا تحسب من خصائص العلماء الطبيعيين ٠

وقد قصرت عقول أولئك العلماء هذا القصور عن التصور الصحيح في حقيقة من حقائق العلم الطبيعي ، بل حقيقة من حقائق الواقع المشهود كما ثبت بعد ذلك ٠

ولكن كاتبا قصصيا سبق هؤلاء العلماء الى « تصور » الحقيقة العلمية في أمور الطيران وفي أمور الغوص تحت الماء ، فتصور القذيفة الجوية وتصور السفر الى الكواكب وتصور الغواصة تحت أعمق الاعماق ، وكانت له قدرة « التصور العلمي » الصحيح قبل مائة سنة ، يوم كانت ممكنات هذا التصور ضربا من المستحيل في عقول أناس من ثقات العلماء الطبيعيين ٠

ذلك هو القصاص « جول فيرن » الذي ولد سنة ١٨٢٨ ومات سنة ١٩٠٥ قبل أن يشهد عجيبة واحدة من عجائب الحديد الذي يطير في الهواء وعجائب القذيفة التي تطير وراء الهواء الى قمر السماء ٠

وأسبق من « جول فيرن » قصاص ألف ليلة الذي تصور أن طيران الجسم بالدفع الآلي ممكن ولو كان أثقل من الهواء ، فقص لنا قصته المشهورة عن حصان الابنوس ولوالبه ودواليبه ، وكان تصوره « علميا » صحيحا وان لم يكن هذا « التصور » عند جلة العلماء غير ضرب من الخيال ٠

ولقد عاب العلماء الطبيعيون على الفلسفة القديمة ، والحديثة ، تصوراتها التي كانوا يستخفون بها ولا يعدونها من العلم في شيء ، ولكنهم « جربوا » التجربة فعلموا انها لا تغنيهم

عن التصور الفلسفي قبل وبعد الوصول معه الى النهاية ، و « جربوا » أنفسهم فعلموا انهم لا يقلون « شطحا » عن فلاسفة الامس واليوم كلما احتاجوا الى الفروض ولو كانت فروضا عن أمور كالشمس في وضح النهار ·

ولا نذكر الشمس مثلا بل نذكرها واقعا مقصودا حين نتكلم عن فروض العلماء الكثيرة حول نشأة الشمس أو نشأة المنظومة الشمسية ·

فمنهم من يفرض أن المنظومة الشمسية كانت غبارا ملتهبا فتفرقت · فانتثرت أجزاؤها هنا وهناك ، ثم استدار كل جزء منها ليدور في فلكه بفعل الدفع من ناحية والجاذبية من ناحية أخرى ·

ومنهم من يفرض أن المنظومة الشمسية كانت نجما واحدا كبيرا جدا ، فتفلق من اختلاف الحرارة بين جوفه وسطحه ، وتناثرت شظاياه ، ثم عادت الى الانتظام في مدارتها حول مركزها، مدفوعة الى الفضاء تارة ومجذوبة الى المركز تارة أخرى ·

ومنهم من يفرض أن هذه المنظومة نشأت من اصطدام نجمين ولم تنشأ من تفلق نجم واحد كما تقدم ·

ومنهم من يقول بل نشأت من مرور نجم آخر على مقربة من فلك الشمس ، لم يصدمها ولكنه اجتذب منها واجتذبت منه ، فكانت منهما هذه الشظايا التي تألفت منها السيارات ، وخرجت منها المذنبات والنجيمات ·

ومنهم من يقول غير ذلك كثيرا من الاقاويل ، وكل قول منها قابل للنقض بسبب من أسباب العلم الطبيعي الذي تخصص له أصحاب تلك الفروض ، وكلهم بعد هذه الفروض المرفوضة يشعرون بحاجتهم اليها والى أمثالها ويدركون بعد « التجربة » أن العقل الانساني يستمد المعرفة من « التصور » ومن التجارب الحسية ، ومن أحكام الرياضة التي لا يحسبونها تصورا محضا ولا تجربة محضا ولكنها قوام بين هذا وذاك ، ومن هذا وذاك ·

ونعيد السؤال الآن : في أي شيء من أمور العقل والمعرفة نرجع الى العلماء المشتغلين بمباحث العلوم التي عرفت باسم العلوم الطبيعية ؟

فاذا كان الجواب في أوائل القرن الثامن عشر : نرجع اليهم في كل شيء ، فالجواب بعد منتصف القرن العشرين على نقيض ذلك ، أننا لا نرجع اليهم في كل شيء .

أو نتوسع بعض التوسع المعقول ، فنقول اننا نرجع اليهم في كل شيء ولكن بشرط واحد : وهو أنهم يسألون عن شئون العلم الطبيعي كما أثبتوها بالتجربة والبينة المعقولة ، ثم يسألون في كل شيء غير ذلك سؤالنا للباحثين والمفكرين على اختلاف أبواب المعرفة التي يطرقونها ويسلكون منافذها ، فاذا أجابوا في غير مجالهم فحقهم في الاستماع اليهم كحق كل مجيب باسم الفكر والفهم والدراية الانسانية ، وليس حقهم هنا بحق « الوحي » المنزل ، والقول الذي تقوله حذام ولا يقوله أحد غير حذام !

وجوابهم عن مسائل العقائد و « النظريات » الغيبية على التخصيص كجوابهم فيما دون ذلك عن مسائل التجربة المقررة ، فهو جواب صاحب فكر ورأي وليس بجواب « العلم » الذي يحسب كل ما عداه جهلا غير مقبول .

ويحق للعالم الطبيعي أن يقرر لنا عن شئون العقائد ما هو الموافق المقرر ، أو حكم القياس الصحيح .

وعلينا اذن أن نستمع لحكمه الواقعي أو حكمه القياسي ، ولكن مع تعليق الفصل الاخير ..

نعم ، مع تعليق الفصل الاخير الى أجله المقدور ، مخافة أن تعاد الينا قصة الطيران المستحيل بجسم أثقل من الهواء ، ثم لا تنقضي سنوات حتى يمتلىء الفضاء من الارض الى كواكب السماء ، بأجسام كلها أثقل من الهواء .

سذاجة المنكرين

يحب الماديون ، والمنكرون الملحدون على العموم ، أن يصفوا أنفسهم بأنهم أناس بعيدون عن السذاجة ، معصومون من آفة التصديق السريع وقبول الآراء والعقائد بغير برهان ، وأنهم ـ بهذه الصفة ـ على نقيض المؤمنين أو المستعدين للايمان ، الذين يصدقون ما يلقى عليهم من عقائد الدين ، ويفتحون عقولهم سهلة طيعة لما يسمونه بالخرافات أو الغرائب التي لا تقبل التصديق •

فاذا كان الانكار بغير برهان قاطع شبيها بالتصديق بغير هذا البرهان ، فالثابت من التجارب الطويلة في تواريخ الاديان وتواريخ الشكوك الفكرية ، أن السذاجة عند جماعة المنكرين والملحدين أشد وأظهر من السذاجة عند المؤمنين والمستعدين للايمان ، لأنهم يسرعون الى الانكار لغير سبب ، أو لسبب واهن لا يكفي لتكوين الرأي ، ولا يبلغ من القوة والاقناع مبلغ رأي واحد من جملة الآراء التي تدعو الى الايمان والتصديق بالدين • ولا ريب أن انكار الغيب المجهول قضية تحتاج الى مئات البراهين والشواهد حيث لا يحتاج الايمان بما وراء الظواهر الى أكثر من براهين الواقع المشاهد بالتجربة اليومية ، وذلك أن الظواهر تخفي وراءها من أسرار الوجود ما هو أعمق وأبعد أمدا من كل ظاهرة تتكشف للعقول ، ولا تزال قابلة للمزيد من التكشف كلما تقدم الانسان في وسائل الاظهار والتدقيق •

وآخر الكشوف العلمية أو الصناعية هو بذاته آخر الأدلة على سذاجة المنكرين وجمهرة الماديين الملحدين •

فقد خيل اليهم أن العقائد الدينية مهددة في هذا العصر بما يكشفه العلماء من وسائل ارتياد الفضاء ، ووسائل تحضير المادة الحية في معامل الكيمياء •

ولو تمهلوا قليلا لعلموا يقينا أن كشوف العلم العصرية أدعى الى تثبيت تلك العقائد من كل كشف علمي عرفه الناس قبل العصر الحديث •

فماذا في الرحلة الى أقصى آفاق الفضاء من دواعي التشكيك في أمر السماء ؟

ان المؤمنين بالدين من أبناء العصور الماضية لم يعتقدوا قط في أمر السماء عقيدة تمنع القول بارتياد الفضاء الى أبعد غاياته ، بل منهم من يقدر المسافة بين سماء وسماء بألوف الألوف من السنين كما جاء في بعض الاخبار التي يدين بها أشد الناس تصديقا للاوصاف المحسوسة عن عالم الغيب ، وأكثرهم يؤمنون بأن عوالم الغيب تقاس بمقاييس الروح المعنوية ، ولا تحيط بها هذه المقاييس التي تدخل في حساب الرحلات الى الفضاء ·

ولقد فتحت كشوف الفلك الاخيرة أبوابا لتصور الآفاق السماوية لم تكن مفتوحة أمام الحس ولا أمام العلم قبل هذا القرن العشرين · وأقرب هذه الابواب الى ادراكنا باب المجرة الأولى تعلوها مجرة ثانية وثالثة ، ولا مانع من رابعة وخامسة ، أو سادسة وسابعة ، الى مدى الملايين وملايين الملايين من السنوات الضوئية ، وهي في امتدادها وابتعادها واستحالة عبورها وارتيادها شيء يفوق ادراك العقول ·· فماذا في كل هذا ، أو في بعض هذا ، مما يهدد عقائد المتدينين ؟ بل ماذا فيه مما يجيز الشك في عوالم الغيب وفي أسرار السماوات ؟ بل ماذا فيه مما يجيز الشك في عوالم الغيب وفي أسرار السماوات ؟ بل ماذا فيه مما يفتح له المتدين عقله وبصيرته فلا يزيده امعانا في الايمان واستعدادا للعجب من روعة المجهول ؟

أما الكشف عن مادة الحياة في معامل الكيمياء فأمره أعجب وأدل على السذاجة في تفكير جماعة الماديين وجمهرة الملحدين · فان هذه الكشوف قد أثبتت من عالم الروح بمقدار ما نقضت من عالم المادة . فانها تحدثنا عن جزء من مائة مليون جزء من السنتيمتر ، كما تحدثنا عن جزء من ألف جزء من الثانية ، فهل هناك فرق في الادراك العقلي بين تصور القوة الروحية وتصور الفضاء أو الزمن حين ينتهيان الى هذه المقادير ؟

ان المليمتر جزء واحد بين عشرة أجزاء في السنتيمتر ، ونحن نراه غاية في الدقة والصغر ، فكيف نتصور جزءا من عشرة أجزاء في هذا المليمتر الدقيق الصغير ؟ وكيف نتصور بعد ذلك جزءا من مائة ، أو جزءا من ألف ، أو جزءا من مليون ، أو جزءا من مائة مليون ؟

هنا لا بد أن نعتقد أن العالم المادي يتسرب أمامنا الى عالم الروح ، وأن القوى التي تكمن فيها الحياة هي شيء قد بلغ من الخفاء غاية ما يبلغه خفاء أمر الروح ، وأننا أمام ادراك للعقل والبصيرة لا تجدي فيه تقديرات المادة والامتداد ، وهما أساس كل ادراك يلغط به جماعة « الماديين » والمنكرين ٠

في سنة ١٨٢٨ تمكن الكيمي الالماني وهلر wohler من تحضير مادة « البولينا » urea بمعمل الكيمياء ، وهي مادة توجد في بول الانسان والحيوانات العليا ٠

وكانت زهوة الغرور بالعلم التجريبي يومئذ في ابانها على ديدن « النعمة الحديثة » في كل مغنم جديد ، فتعالت الصيحة من جوانب الماديين بين أرجاء الارض وراحوا يتباشرون باقتراب اليوم الذي تخرج فيه المخلوقات الحية من المعامل الكيمية ، ولو كانت أصغر الاحياء ٠

وهنا ظهرت السذاجة الأولى من هؤلاء « الخرافيين » أعداء الخرافة ٠

فقد خلطوا « أولا » بين المادة الحية والمادة التي توجد في جسوم الأحياء ٠ فالماء والكربون وصنوف من الغازات توجد في الجسم الحي ولا يقال عنها انها مادة حية ، وقد كان صنع الماء والكربون وصنوف تلك الغازات ميسورا للكيميين قبل صنع البولينا ولم يقل أحد ان العلم بتركيبها الكيمي هو علم بتركيب مادة الاحياء ، مستقلة أو ممتزجة بالجسوم ٠

وقد خلطوا ثانيا بين تركيب جزء من الجسم الحي وتركيب الحياة في سائر أجزائه ٠٠ فان المهم في الامر كله هو التفاعل بين تلك الاجزاء حالة اجتماعها وتبادل العمل بينها في بنية واحدة ، وليس المهم تركيب جزء واحد منها على حدة ، ولو كانت فيه مادة الحياة ٠

ولقد مضى على صنع « البولينا » في سنة ١٨٢٨ أكثر من مائة وثلاثين سنة ولم يتقدم معمل الكيمياء قيد شعرة في هذه الطريق ٠

وحدث في هذه السنة الاخيرة أن طائفة من العلماء الكيميين تمكنوا من معرفة حامض نووي يعرف باسم حامض « الدال نون ألف » DNA يوجد في الخلية الحية ، ويرتبط بالخصائص

الوراثية التي تنقطع اذا لم تتوافر فيها هذه المادة بالمقدار المطلوب ٠

فعادت الصيحة « المادية » من جديد ، وتناقلت الصحف أخبار هذا الكشف بما شاعت من العناوين الطنانة ، ومنها « ان الحياة تخلق في مصانع الكيمياء » ٠

ولكن علماء اليوم كانوا أعلم بعلمهم من أسلافهم قبل مائة وثلاثين سنة،وكان أحدهم «جرهارد شرام» Gerhard Schramm من أشهر علماء الالمان المشتغلين بهذه المباحث في البلاد الالمانية٠ فراعه هذا التهويل الذي ينم على الجهل والسذاجة ، وبادر الى تصحيح هذا الوهم في بعض الاحاديث الصحفية ، لأن المادة المكشوفة ليست « بالمادة الحية » ولكنها من التراكيب التي تدخل في بنية الاحياء ، وليس المعول على المادة نفسها وانما المعول على أشكالها وتقسيماتها داخل الخلية ، داخل الناسلة Gene التي هي جزء من الصبغية hromo ome التي هي جزء من الخلية التي لا ترى بالعين ولا بالمجاهر العادية ٠

وحسبنا أن نذكر أن مقدار هذه المادة في أقسام الخلية تقاس بوحدة الانجستروم وهي جزء من مائة مليون جزء من السنتيمتر ، ولا يمكن أن ترى بالمجهر العادي ولا بالمجهر الالكتروني ، ولكنها تقدر بالحساب بعد استعمال الاصباغ لتلوين أجزاء الملايين منها ثم تكبيرها مرة بعد مرة بعد مرة ألوف المرات الى أن ترى بالحجم الذي تدركه العين ٠

ومع هذه الدقة التي تفوق تصور العقل للابعاد المادية تفقد هذه المادة كل صفة حيوية لها ما لم تكن لها أشكالها وتقسيماتها وفجواتها التي تكمن فيها خصائصها الحيوية ، ولا يكفي هذا لتزويدها بتلك الخصائص كلها ، بل ينبغي أن توجد الصبغات بعدد مقدور في كل نوع من أنواع الأحياء ، وأن تكون قابلة للانقسام بين خلايا الذكر وخلايا الأنثى بالتركيب الذي يسمح بالتعاون بينها بعد الانقسام والتركيب ، ثم اعادة الانقسام والتركيب في الرحم ، ملايين المرات ٠

فالمادة العامة التي تتألف منها الخلايا التناسلية متشابهة في جميع الحيوانات ، ولكن الفرق بين أشكال الاجزاء في الخلية

وبين تقسيمات تلك الاجزاء وفجواتها هو الذي تتولد منه فروق تنشيء من هذه الناسلة قطا أو زرافة أو تنشيء منها انسانا على أروع مثال لبني آدم وحواء ٠

وللعدد شأنه الاكبر في تنويع الاحياء ، فلا بد من عدد من الصبغيات لا يتغير في كل نوع ، لأن كل صبغية تكمل غيرها عند تركيب الاعضاء ، وقد تبدو الصبغية شبيهة بأخواتها في كل شيء ولكنها بعد الانقسام والتركيب تبدو كأنها مخصصة لعمل واحد يتوقف على بعضه خلق الجلد أو خلق الشعر أو خلق الاعصاب أو خلق الدماغ ٠

والصبغيات في النوع الواحد متشابهة غاية التشابه الذي ندركه بالعيان أو بالحساب والتقدير ، ولكنها مع ذلك مزدحمة بالفوارق التي لا تحصى والتي يترتب عليها أن يلد هذا الانسان ولدا أبيض اللون ، أصفر الشعر ، طويل القامة ، قوي البنية ، موفور الذكاء ، قويم الاخلاق ، وأن يلد انسان غيره ولدا على خلاف تلك الصفات ٠

فأين هو المعمل الكيمي الذي يودع في جزء من مائة مليون جزء من السنتيمتر خصائص تنتقل فيها بعد الانقسام مليون مرة هذه الاعضاء والوظائف الجسدية والنفسية على اختلافها بين الملايين من أبناء النوع الواحد ، وبين ملايين الملايين من أفراد جمع الاحياء ؟

لا سذاجة في عقل المؤمن الذي يعتقد أن الحياة قوة روحية تعلو على مقاييس المادة ، ولكن السذاجة كلها في عقل المادي « الحصيف » الذي يصدق أن المعمل الكيمي يودع تلك الفوارق كلها في امتداد من المادة يعجز العقل عن ادراكه ، مهما يبلغ من قدرته على حسبانه بالأرقام والمعادلات ٠

والمسألة ــ بعد ــ ليست مسألة سذاجة دينية أو حصافة مادية ، ولكنها مسألة استعداد للايمان بمجهول أثبت من المعلوم ، وتزداد الحاجة الى الايمان بذلك المجهول المغيب عن العقول كلما اتسع نطاق العلم ، وتعلم العلماء كيف يتأدبون بأدب العلم الصحيح ٠

اقوال واقاويل

* * *

لعالم النشر في البلاد الأوروبية عادات متفق عليها ، تتكرر في كل فترة من فترات الثقافة العامة على نمط يناسبها ٠

واحدى هذه العادات التي لاحظناها غير مرة في هذا الباب أن مواسمهم « الطباعية » لا تمر في سنة من السنين دون أن تظهر في الموسم بعد الموسم منها كتب عدة عن الاسلام والبلاد الاسلامية ٠

وقد تلحق بهذه العادة عادة أخرى تلاحظ في الكتب التي لم يخصصها المؤلفون بالموضوعات الاسلامية ولم يقصروها عليها ، فقد يصدر الكتاب عن موضوع في موضوعات التواريخ والرحلات ، أو موضوع شائع يتعلق بالحياة البشرية من أدوارها المختلفة ، فلا ينسى مؤلفه أن يتناول شيئا من الدراسات الاسلامية من جانبها الفكري أو جانبه التاريخي أو جانبها السياسي ، أو جوانب الاخلاق والمصالح الاجتماعية ، فلا ينفصل موضوع الاسلام عن موضوع التاريخ الانساني ، ولا سيما التاريخ المتصل بتطور العقائد والنظم الاجتماعية ٠

وبين يدي الآن خمسة كتب وصلت في بريد واحد ، أربعة منها تتناول الكلام عن الاسلام والمسلمين من بعض النواحي العامة أو الشخصية ، والخامس منها قد خلا من الكلام عن الاديان عامة ، فلا ذكر فيه للاسلام ولا للمسيحية ولا لليهودية أو البوذية ، لأنه بحث مقصور على العلاقة بين الكيمياء والحياة الحيوانية ٠

وأقرب هذه الكتب الى موضوعات الدين كتاب ألفه الاستاذ ف٠ك٠ هابولد Happold عن المذاهب الباطنية ، أو المذاهب التي يجوز أن نطلق عليها اسم « الصوفية » ، لما في التصوف

أحيانا من أسرار روحية يعلمها بعض أهلها ، ويشيع بين طلابها ومريديها أنها تخفي على غير الواصلين ·

تكلم هابولد عن كل طريق من طرق الصوفية المشهورة في عقائد الهنود والفرس والمسيحيين الاقدمين والمحدثين والاسرائيليين في نشأتهم بفلسطين على الخصوص ، وأفرد للصوفية الاسلامية فصلا كبيرا معززا بالشواهد من الشعر والنثر في كتب الاقطاب البارزين من شيوخ الطريق بين الشعوب الاسلامية ، فذكر جلال الدين الرومي والجامي وابن الفارض والعطار والحلاج والبسطامي ، وغيرهم ممن لم يشتهروا في الشرق والغرب مثل شهرتهم ، وذكر حجة الاسلام الغزالي ليسند اليه ميزان الاعتدال بين المذاهب الصوفية التي يرضاها أهل السنة وبين المذاهب التي جاوزت حد الاعتدال وبلغت من الشطط في القول بالحلول ووحدة الوجود حدا لا ترضاه الجلة من أئمة الاسلام ·

وأنصف المؤلف اذ قال ان الاسلام أشد الديانات الكبرى حرصا على تنزيه الذات الالهية من عوارض البشريه والتجسيم، سواء ظهرت في القول بامتزاج الانسان بالاله ، أو امتزاج الاله بالانسان ، أو ظهرت فيما يسمونه بالتجلي ، ويعنون به رؤية « الحق » في صورة انسان أو مخلوق من المخلوقات ·

وقسطاس الاعتدال كما شرحه الامام الغزالي في مشكاة الانوار ، ان العابد يفنى في حب الله وينسى أنه فان لأنه ينسى ذاته ولا يذكر وجوده الباطل إلى جانب الموجود السرمدي الحق في الذات الالهية ، فليس هناك وحدة أو حلول أو امتزاج بين ذات الخالق وذات المخلوق ، وانما هناك الحب الذي يبطل « الأنانية » كما تبطل الأثرة في نفس العاشق حبا للمعشوق ، ولكن مع الفارق الشاسع بين العشق الالهي وبين عشق الانسان للانسان ·

والكتاب الثاني عن الكنيسة الارثوذكسية في الشرق بقلم الاستاذ تيموتي وير ware الذي تخصص للبحث في تاريخ الاديرة والرهبنات الشرقية مع تاريخ الشعائر والنحل التي

يدين بها الرهبان المنتمون اليها ، وقد أشار في عرض الكلام على تاريخ بيزنطية الى أحوال الكنائس والقساوسة وسائر أتباعها وأتباعهم في ظل السلاطين العثمانيين ، فشهد للدولة الاسلامية بالسماحة في معاملة الرعايا المسيحيين وقال ان السلاطين لم يقصروا عن أباطرة الروم في رعاية البطارقة الكبار ورؤساء الدين على العموم • الا أنه عاد فقال ان السلطان كان ينظر الى رعاياه من المسيحيين كأنهم طبقة ثانية بعد الطبقة الأولى من رعيته المسلمين ، وقد يكون الخطأ في كلام المؤلف هذا راجعا الى اهمال المقارنة بين السلاطين والاباطرة في معاملة المذاهب المختلفة ، والى نسيان المقارنة بين الاجناس في واجب الاخلاص للدولة التي يتبعونها •

ولو أنه قارن بين السلطان والامبراطور ـ أي سلطان وأي أمبراطور ـ لعلم يقينا أن الامبراطور كان يأبى على المسيحي الذي يخالف مذهبه أن يعيش في ظله آمنا على حياته مساويا لأخيه المسيحي في حقوقه وحرية اعتقاده ، ولم تكن عنده طبقة أولى وطبقة ثانية في رعاياه ، وانما كانت الرعية طبقة واحدة يحق لها الوجود ، وطبقات أخرى لا توجد في ظله الا على خوف وحذر وحرمان من حرية العبادة بغير مصادرة واضطهاد •

وقد يعلم المؤلف من مقارناته لأسباب التفرقة بين رعايا السلطان أنهم يفترقون اضطرارا بحكم الفوارق الجنسية والعنصرية ، وأنهم يعاملون بحسب اخلاصهم للدولة التي تعاملهم ، تفرقة في درجات الولاء ، لا تفرقة في الحرية الدينية التي تكفلها الدولة لأهل الذمة من رعاياها •

والكتاب الثالث عن بونابرت في مصر للكاتب الانجليزي كرشيفو هيرولد الذي يكتب عن التاريخ الفرنسي والشخصيات التاريخية بأسلوب التبليغات الصحفية ، ويجيد الوصف في هذا الأسلوب غير مستخف بأمانة التحري التي يغفل عنها كثير من طلاب التهويل والاستثارة بين المؤرخين الصحفيين أو الروائيين المؤرخين •

وفي الكتاب بيان مفصل لكثير من الحوادث والمشاهد ، وكثير من القضايا الاجتماعية والازمات السياسية والعسكرية ، ولكن عناية المؤلف بنظرة نابليون الى هذه الأموز وخطته في تدبيرها وتصريفها مع دولته ومع المصريين والعثمانيين كانت أهم وأعظم من عنايته ببيان الحوادث لذاتها أو بيان آثارها ونتائجها، وربما كانت عنايته بموقف نابليون من علماء الدين وموقف علماء الدين من البعثة العلمية التي أحضرها معه للدرس والاستطلاع هي الفصل الذي يقال عنه انه بيت القصيد بين سائر الفصول ، وأنه أجمع الفصول لأسباب التعريف بعبقرية نابليون الذي يحسبه المؤرخون بين عظماء القادة العسكريين ، وتظهره مواقفه من قادة المجتمع المصري الروحيين في مظهره الغالب عليه ، وهو مظهر الزعيم الاجتماعي المحنك ، والقائد السياسي ، أو الدبلوماسي ، في أكثر الاحيان .

وكان نابليون يرى بعد اختباره لكبار علماء الازهر أنهم أهل للتوقير والاحترام بحق العلم والمعرفة ، وحق الورع والتقوى ، وحق الخلق الكريم والحكمة الراجحة ، وليس بالقليل منهم من كان أهلا للتوقير والاحترام بحق الثراء وحق النسب العريق . وكان في مسلكه نحوهم وتودده اليهم يؤمن بأنهم ، دون غيرهم ، مناط القدوة الاجتماعية ومرجع الطاعة والاعتبار للهيئة الحاكمة ، وقد حاول أن يستخلص منهم آخر الامر بالمعاونة على المشورة ما يدعو الى اجتناب الثورة والتمرد من جانب المصريين .

ويقول مؤلف الكتاب ان علماء الازهر قد احتفظوا بوقارهم ورصانتهم العقلية أمام عجائب العلم الحديث التي خيل الى علماء البعثة أنها تقع عندهم موقع السحر من أبناء الشعوب البدائية ، ولكنهم قد نظروا اليها ـ فعلا ـ نظرتهم الى حيل السحرة وأصحاب الشعوذات وان كانوا قد فهموا أنها تستند الى علم جديد بالتحقيق من قبيل ما عرفوه أو سمعوا به من حكمة الأولين .

قال المؤلف انه لم تمض حقبة قصيرة على عهد نابليون حتى

كان الافريقيون والآسيويون قد علموا ما وراء تلك الحيل من أسرار الكهرباء والكيمياء ، وتبين ان السذاجة كانت من نصيب علماء الحملة لأنهم قدروا الدهشة في غير موقعها من عقول أولئك الحكماء ٠

ومما يؤخذ من طرائف هذا الكتاب مأخذ التأمل والاعتبار أن نابليون على رغبته في العلم بأحوال مصر وأحوال الجامع الازهر على الخصوص ، قضى أيامه بمصر وهو يعتقد أن الجامع الازهر أثر من آثار صلاح الدين ، ويأخذه الزهو بهذه العلاقات الازهرية التي جمعت بينه وبين البطل الاسلامي الكبير في مقام واحد ٠

وختام ما ننقله من الكتب الاربعة فصل عن الساعات الاخيرة في حياة الأستاذ الامام محمد عبده رحمه الله ، وهو فصل من فصول الكتاب الذي ألفته السيدة ماري رولات بنت السير رولات محافظ البنك الاهلي على عهد الاحتلال ، وقد اختارت لكتابها اسم « بناة مصر الحديثة » وقصدت بهم بناة النهضة منذ عصر الثورة العرابية ، وأولهم في تقديرها الاستاذ الامام رائد الدعوة الثقافية ــ الروحية ــ قبل الجيل المعاصر ٠

ومعظم معلوماتها عن نشأة الاستاذ الامام مستمدة من تراجمه العربية ، ولكنها اعتمدت على مصادرها فيما نقلته عن أخباره الاخيرة ، وكتبت ما أوردته منها بأسلوب ينم على التعظيم والاكبار ٠

قالت : « انه كان يحس آلام المرض قبيل وفاته ، ولكنه كان لا يزال مشبع النفس بكثير من مشروعات الاصلاح ونيات السعي والعمل : صحيفة كبرى ، وجامعة جديدة ، وسياحة الى فارس والهند وروسيا لتفقد أحوال المسلمين فيها ٠ وتدعوه ضرورة الصحة ــ أولا ــ أن يبدأ بالسفر الى أوروبة للعلاج وان لم يشعر يومئذ بمبلغها من الخطر ٠٠ وكان يزور صديقا له برمل الاسكندرية لقضاء أسبوع عنده قبل الابحار الى أوروبة ، ولكنه لم يلبث أن شعر باشتداد وطأة المرض وتبريح الالم والاضطراب،

وأقعده الوهن عن الحركة ، ثم تعذر عليه النطق فلم يسمع منه غير ذكر اسم الله يستمد منه العزم والعزاء ، وطفق يردد في صوت يشبه الهمس الخافت : الله أكبر ·· الله أكبر ·· وأدركته زوجته بما وسعها من العطف والرعاية وهي تصغي اليه فلا تستبين ما يقول ، الا أن تفهم من حركة الشفتين انه يوالي التسبيح بكلمتي التكبير : الله أكبر ·· الله أكبر ·· ولم يكد يستطيع قبل أن تفيض روحه الى بارئها غير التكبير والابتسام وهو ينظر اليها ·· وقد وقف القطار الذي يحمل جثمانه من الاسكندرية الى القاهرة في غير مواضع الوقوف قضاء لواجب الحزن والتشييع ممن كانوا ينتظرونه في الطريق ·· واجتنبت مظاهر التقليد في الصلاة عليه وفاء للراحل الذي قضى حياته في كفاح التقليد والعزوف عن باطل الثناء ، ولكن المشيعيين له من المسلمين وغير المسلمين كانت تغمرهم غاشية الحزن العميق ، وشوهد بين الجمع رجل يغلبه النحيب ، فأقبل عليه صديق يعزيه ويشاطره المصاب ، فنظر اليه وهو يقول :

« انه لا يبكي شجوه وحده ، ولكنه يبكي لأولئك المحرومين الذين كان من عمله أن يطوف عليهم بالصدقات في كل شهر من مرتب الشيخ ·· وقد كان عظيما فقيرا في الحياة ، وقضى نحبه وهو فقير عظيم » ·

ولم يسلم كتاب السيدة رولات من الاخطاء والسهوات ، ولكنها أخطاء وسهوات كأمثالها مما ورد في كتب هذه المجموعة ، قد تحمل على نقص العلم بالواقع أو اختلاف النظر اليه ، قبل أن تحمل على سوء النية ·

فهرست

مجموعة

بحوث إسلامية

حقائق الإسلام
وأباطيل خصومه

ما يقال عن الإسلام
ماذا يقولون؟ بل كيف يقولون